

رسالة أبي العاص بن عبد الوهاب بن عبد المجيد الثقفي*

إلى الثقفي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ .

٣ أما بعد ، فإن جلوسك إلى الأصمعيّ ، وعجبك بسهل بن هارون ، واسترجاحك
 إسماعيل بن غزوان ، وطعنك على موسى بن عمران ، وخططك بآبن مشارك ، واختلافك
 ٦ إلى ابن التوام ، وإكثارك من ذكر المال وإصلاحه والقيام عليه واصطناعه ، وإطناك في
 وصف الترويح والتثمير ؛ وحسن التمهّد والتوفير ، دليل خبيء سوء ، وشاهد على عيب
 ودبر . بعد أن كنت تستنفل ذكرهم ، وتستشنع فعلهم ، وتعجب من مذهبهم
 ٩ وتسرف في ذمهم . وليس يلهج بذكر الجمع إلا من قد غزم على الجمع ، ولا يأنس
 بالبخلاء إلا المستوحش من الأسخياء .

في تحفظك قول سهل بن هارون في « الاستعداد في حال المهلة ، وفي الأخذ بالثقة ،
 ١٢ وأن أقيح التفريط ما جاء مع طول المدة ، وأن الحزم كل الحزم والصواب كل
 الصواب ، أن يستظهر على الحدّثان ، وأن يجعل ما فضل عن قوام الأبدان رذءاً دون
 صرُوف الزمان ، فإننا لا ننسب إلى الحكمة حتى نحوط أصل النعمة ، بأن نجعل دون
 ١٥ فضولها جنة » ، شاهد على عجبك بمذهبه ، وبرهان على ميلك إلى سبيله .

وفي استخسانك رواية الأصمعيّ في أن أكثر أهل النار النساء والفقراء ، وأن أكثر
 أهل الجنة البله والأغنياء ، وأن أرباب الدثور هم الذين ذهبوا بالأجور ، برهان على صحة
 ١٨ حكمتنا عليك ، ودليل على صواب رأينا فيك .

(٩) وتسرف في (فان فلوتين) : وتشرف من ك - (١٤) وأنا (فان فلوتين) - (١٥) وبرهاننا لك .

(١٦ - ١٧) « أكثر أهل الجنة البله » النهاية لابن الأثير ١ : ١١٤ ، المطبعة الخيرية ،

١٣٢٢ هـ - (١٧) « أرباب . . . بالأجور » النهاية لابن الأثير ٢ : ١٣ ، المطبعة الخيرية ، ١٣٢٢ هـ

وفي تفضيلك كلام ابن غزوان حين قال : « تنعمتم بالطعام الطيب وبالثياب الفاخرة وبالشراب الرقيق وبالغناء المطرب ، موتنعمنا بعز الثروة وبصواب النظر في العاقبة ، وبكثرة المال والأمن من سوء الحال ، ومن ذل الرغبة إلى الرجال والعجز عن مصلحة العيال ، فتلكت لذتكم ، وهذه لذتنا . وهذا رأينا في التسلم من الذم ، وذاك رأيكم في التعرض للحمد . وإنما ينتفع بالحمد السليم الفارغ البال ، ويسر بالذات الصحيح الصادق الحسن . فأما الفقير فما أغناه عن الحمد ، وأفقره إلى ما به يجد طعم الحمد . والطعام الذي آثرتموه يعود رجيحاً ، والشراب يصير بؤلاً ، والبناء يعود نقصاً ، والغناء ربح هابة ومُسقط للمروءة ، وسخافة تفسد ، ورنه تسيّر . فلذتكم فيما حوى لكم الفقر ونقص المروءة ، ولذتنا فيما حوى لنا الفنى وبنى المروءة ، فنحن في بناء وأتم في هدم ، ونحن في إبرام وأتم في نقض ، ونحن في التماس العز * الدائم مع فوت بعض اللذة ، وأتم في التعرض للذل الدائم مع فوت كل المروءة » .

وقد فهمنا معنى حكايتك ، وما لهجت به روايتك . والدليل على انتقاض طيباعك وإدبار أمرك ، استجسانك ضد ما كنت تستحسن ، وعشقك لما < كنت > لم تزل تمقت ، فبعداً وسحقاً . ولا يُبعدُ الله إلا من ظلم . والشاعر أبصر بكم حيث يقول :

فإن سمعت بهلك للبخيل فقل بعداً وسحقاً له من هالك مودى
تُرائته جنة للوارثين إذا أودى ، وجثمانه للترب والدود

وقال آخر :

تبلى محاسن وجهه في قبره والمال بين عدوه مقسوم

(٤) رأيم (فان فلوتن) - (٥) التمريض ك- (٦) أعماه ك ، أعياه (فان فلوتن) - (٧) والثناء (فان فلوتن) - (١٠) الغناء (فان فلوتن) - (١١) مروءة (فان فلوتن) - (١٣) < كنت > ليست بالأصل

(٦) « فأما الفقير . . . طعم الحمد » عيون الأخبار ٢ : ٢١٦ - (١٦) « فان . . . مودى » الحيوان ٣ : ٥٠ ط الحلبي .

والحمد لله الذي لم يمتني حتى أرايكَ وكيلا في مالِكَ، وأجيراً لوأرثكَ . وأما أنتَ
 فقد تعجَّلتَ الفقرَ قبلَ أوَانِه ، وصرتَ كالمجلودِ في غيرِ لذَّة . وهل يزيدُ حالُ من أنفقَ
 ٣ جميعَ مالِه ، ورأى المكروهَ في عيَالِه ، وظهَرَ فقرُه وشَمِتَ به عدوُّه ، على أكثرَ من
 انصرافِ المؤنسينَ عندَ ، وعلى بُغضِ عيَالِه ، وعلى خُسونةِ الملبسِ ، وجُشوبةِ * المأكلِ
 وهذا كلُّه مجتمِعٌ في مَنْك البخيلِ ، ومَضُوبٍ على هامةِ الشحيحِ ، ومعجَلٍ للثيمِ ، وملازمِ
 ٦ للمَنوعِ . إلا أن المَنفقَ قد ربحَ المحمَدةَ ، وتمتَّعَ بالنعمةِ ، ولم يعطلْ المقدرةَ ، ووفى كلَّ
 خصلةٍ من هذه حقَّها ، ووفَّرَ عليها نصيبَها ، والمَمسِكِ معدَّبٌ بحَصْرِ نفسِه ، وبالكَدِّ
 لغيرِه ، مع لزومِ الحجَّةِ ، وسقوطِ الهمةِ ، والتعرُّضِ للذمِّ والإهانةِ ، ومع تحكيمِ المِرَّةِ
 ٩ السوداءِ في نفسِه ، وتسليطِها على عِرْضِه ، وتمكينِها من عيشِه وسرورِ قلبِه .

ولقد سَرى إليكَ عِرْق ، ولقد دَخَلَ أعْرَاقُكَ خَوْر ، ولقد عمِلَ فيها قَادِح ، ولقد غَالَهَا
 غُول . وما هذا المذهبُ من أخلاقِ صَمِيمِ تَقِيْفٍ ، ولا من شِيمِ أعرَقتَ فيها قُرَيْش .
 ١٢ ولقد عَرَضَ لكَ إقْرَاف ، ولقد أفسَدَتِكَ < هُجْنَةٌ > * . ولقد قال معاوية : « مَنْ لَمْ يَكُنْ
 مِنْ بَنِي عَبْدِ الْمَطْلَبِ جَوَاداً فَهُوَ حَمِيلٌ ° ، وَمَنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ آلِ الزَّيْبِرِ شُجَاعاً فَهُوَ لَزِيْقِي ، وَمَنْ
 لَمْ يَكُنْ مِنْ بَنِي الْمُغْبِرَةِ تَيَاهَاً فَهُوَ سَنِيْدٌ » . وقال سَلَمُ بْنُ قُتَيْبَةَ : « إِذَا رَأَيْتَ التَّقْفِيَّ يَعْرِضُ
 ١٥ مِنْ غَيْرِ طَعَامٍ ، وَيَكْسِبُ لغيرِ إِنْفَاقٍ ، فَبَهْرَجِهْ ثُمَّ بَهْرَجِهْ ثُمَّ بَهْرَجِهْ » ، وقال ابنُ أَبِي بُرْدَةَ :
 « لَوْلَا شَبَابُ تَقِيْفٍ وَسُفْهَاؤُهُمْ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْبَصْرَةِ مَالٌ » .

إِنَّ اللَّهَ جَوَادٌ لَا يَبْخُلُ ، وَصَدُوقٌ لَا يَكْذِبُ ، وَوَفِيٌّ لَا يَغْدُرُ ، وَحَلِيمٌ لَا يَعْجَلُ ،
 ١٨ وَعَدْلٌ لَا يَظْلِمُ . وَقَدْ أَمَرَ بِالْجُودِ وَنَهَانَا عَنِ الْبَخْلِ ، وَأَمَرَ بِالصَّدَقِ وَنَهَانَا عَنِ الْكُذْبِ ،
 وَأَمَرَنَا بِالْحِلْمِ وَنَهَانَا عَنِ الْعَجَلَةِ ، وَأَمَرَنَا بِالْعَدْلِ وَنَهَانَا عَنِ الظُّلْمِ ، وَأَمَرَنَا بِالْوَفَاءِ وَنَهَانَا
 عَنِ الْقَدْرِ . فَلَمْ يَأْمُرْنَا إِلَّا بِمَا اخْتَارَهُ لِنَفْسِهِ ، وَلَمْ يَزْجُرْنَا إِلَّا عَمَّا لَمْ يَرْضَهُ لِنَفْسِهِ . وَقَدْ قَالُوا

(١) وما ك - (٣) [و] على ك - وخشونة ك - (١٢) < هجنة > (فان فلوين) : ساقطة
 في الأصل - (١٣) بخيل ك ، دخيل (مرسيه) .

بأجمعهم: «إنَّ اللهَ أجودُ الأجودينَ وأمجِدُ الأمجدينَ». كما قالوا: «أرحمَ الرَّاحِمينَ وأحسَنَ الخالقينَ». وقالوا في التَّأديبِ لسائليهم ، والتَّعليمِ لأجوادهم : « لا تجاودوا اللهَ فإنَّ اللهَ جلَّ ذكْرُه أجودُ وأمجِدُ » وذكرَ نفسَه — جلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه — ٣ فقال : « ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ » و« ذِي الطَّوْلِ لا إلهَ إلاَّ هوَ » وقالَ : « ذُو الجَلالِ والإِكْرَامِ »

٦ وذكروا النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقالوا : لم يَضِعْ درهماً على درهم ولا لَبِنَةً على لَبِنَةٍ ، ومَلَكَ جزيرةَ العربِ ، قَبِضَ الصَّدَقَاتِ ، وَجَبَّيتْ له الأموال ما بين عِذارٍ العِراقِ ، إلى شِحرُ عِمانَ ، إلى أَقصى مَخاليفِ اليَمينِ ، ثمَّ تَوَفَّى عليه دَينَ ، ودِرْعُه مَرّهونَةٌ . ولم يُسألْ حاجَةً قطُّ فقالَ : لا . وكان إذا سُمِّلَ أعطى ، وإذا وعدَ أو أطمعَ ، ٩ كان وعدُه كالعِمانِ ، وإطماعُه كالإِنجازِ . ومدَّحتُه الشُّعراءُ بالجودِ ، وذكرته الخُطباءُ بالسَّامِحِ . ولقد يَهَبُ للرجُلِ الواحدِ الضَّاحجةَ من الشَّاءِ ، والعَرَجَ من الإِبِلِ . وكان أكثرُ ما يَهَبُ المَلِكُ من العربِ مائةَ بَيرٍ ، فيقالُ وَهَبَ هُنَيْدَةً . وإِما يُقالُ ذلكُ إذا أريدَ بالقولِ غايةُ المدحِ . ولقد وَهَبَ لرجلٍ ألفَ بَيرٍ ، فلما رآها تزدحِمُ في الوادِي قالَ : « أشهدُ أنكَ نبيٌّ ، وما هذا مما تجودُ به الأنفُسُ » .

١٥ وَفَخَرَّتْ هاشمٌ على سائِرِ قُرَيشٍ فقالوا : نحنُ أطمعُ للطعامِ ، وأضربُ للهامِ . وذكَّرها بعضُ العلماءِ فقالوا : أجوادُ مُجَادٍ ذُووُ السِّنَةِ حِدادِ . وأجمعتُ الأُممُ كلُّها ، بِخِيالِها وسخِيئِها ومزوجِها ، على ذمِّ البُخلِ وحمْدِ الجودِ ، كما أجمَعوا على ذمِّ الكَذِبِ وحمْدِ الصدقِ . وقالوا : أفضلُ الجُودِ الجودُ بالمِجْهُودِ . وحتى قالوا في جُهدِ المَقْلِّ ، وفيمن أخرجَ الجُهدَ وأعطى الكَلَّ ، وحتى جَعَلوا من جادِ بنفِسهِ فَضيلةً على من جادَ بِمالِه ، فقالَ الفَرزْدَقُ :
على ساعةٍ لو كانَ في القَوْمِ حاتمٌ — على جوده — ضنَّتْ به نفسُ حاتمِ

(٧) عذار (مرسيه) : عذران ك- (١٣) الوادي : الفردى ك ، القوادى (فان فلوتين) - (١٦) أجماد (فان فلوتين) - (١٨) الصديق ك .

(٤) «ذى الطول لا إله إلا هو» سورة غافر : ٣ - (٤-٥) «ذو الجلال والاکرام» الرحمن : ٢٧ - (٢٠) «على ساعة . . . حاتم» ديوان الفرزدق ص ٨٤٢ ط الصاوى .

- ولم يكن الفرزدقُ ليضربَ المثلَ في هذا الموضعِ بكعبِ بنِ مامةٍ ، وقد جَادَ
بحوبِ بانه عندَ المصافنة . فمارأينا عريباً سَفَّهُ حاتمَ بجودِهِ° بجميعِ ماله ، ولا رأينا
أحدًا منهم سَفَّهُ حاتمَ كعبِ على جوده بنفسه . بل جعلوا ذلك من كعبِ لإيادِ ٣
مفخرًا ، وجعلوا ذلك من حاتمِ لطيفٍ* مأثرة ، ثمَّ لعدنانِ على قحطانِ . ثم للعربِ على
العجمِ ، ثم لسكانِ جزيرة العربِ ، ولأهلِ تلكِ التربةِ° على سائرِ الجزائرِ والترابِ .
- ٦ فمن أراد أن يُخالفَ ما وَصَفَ اللهُ جلَّ ذِكْرُه به نفسه ، وما منحَ من ذلكِ نبيِّه صَلَّى
اللهُ عليه وسلَّم ، وما فَطِرَ على تَفْضِيلِهِ العربِ قاطبةً والأُمَمَ كافةً ، لم يكنْ عندنا فيه إلا
إكفاره واستسقاطه .
- ٩ ولم نَرَ* الأُمَّةَ أبغضتْ جواداً قطُّ ولا حقرته ، بل أحبته وأعظمته . بل أحبَّت عقيبه ،
وأعظمت — من أجله — رهطه . ولا وجدناهم أبغضوا جواداً لمجاوزته حدَّ الجودِ إلى
السرفِ ولا حقرته ، بل وجدناهم يتعلمون مناقبه ، ويدارسون محاسنه ، وحتى أضافوا
إليه من نوادرِ الجميلِ ما لم يفعلْهُ ، ونخلوه من غرائبِ الكرمِ ما لم يكنْ يبلُغُه . ولذلك ١٢
زَعَموا أن الثناءَ في الدنيا يُضاعفُ كما تُضاعفُ الحسناتُ في الآخرة . نعم وحتى أضافوا إليه
كلَّ مَدِيحِ شارِدٍ ، وكلَّ معروفٍ مجهولِ الصاحبِ . ثم وجدنا هؤلاء بأعيانهم* للبخيلِ
على ضدِّ هذه الصفةِ ، وعلى خِلافِ هذا المذهبِ . وجدناهم يبغضونه مرة ، ويحقرونه مرة ،
ويبغضون — بفضلِ بغضه — ولده ، ويحقرون — بفضلِ احتقارهم له — رهطه ،
ويضيفون إليه من نوادرِ اللؤمِ ما لم يبلُغُه ، ومن غرائبِ البُخلِ ما لم يفعلْهُ ، وحتى ضاعفوا
عليه من سوءِ الثناءِ ، بقدرِ ما ضاعفوا للجوادِ من حُسنِ الثناءِ . ١٨
- وعلى أنَّا لا نجدُ الجوائحِ إلى أموالِ الأسخياءِ أسرعَ منها إلى أموالِ البُخلاءِ ، ولا رأينا
عددَ من افتقرَ من البُخلاءِ أقلَّ .
- ٢١ والبخيلُ عندَ الناسِ ليسَ هو الذي يبخلُ على نفسه فقط ، فقد يستحقُّ عندهم اسمَ

(٢) لجوده (فان فلوتين) - (٤) طى ك - [ثم] (فان فلوتين) - (٥) البرية ك -

(٨) كفاره ك - (٩) يزل ك - (١٤) بانامتهم (فان فلوتين) - (١٦) ويحقر ك .

البخل^١ ، ويستوجبُ الذمَّ ، من لا يدعُ لنفسِهِ هَوَى إلا ركبِهِ ، ولا حاجة إلا قضاها ، ولا شهوة إلا ركبها وبلغ فيها غايتها . وإنما يقعُ عليه اسمُ البخيل إذا كان زاهدًا في كلِّ ما أوجبَ الشكرَ ونوّه بالذِّكرَ وأذخر الأجر .

٣

وقد يعلّقُ البخيلُ على نفسه من المَوْنِ ، ويُلزِمها من الكَلْفِ ، ويتَّخذ من الجوارى والخَدَمِ ، ومن الدوابِّ والحشَمِ ، ومن الآنية العَجبية ، ومن البزة الفاخرة والشارة الحسنة ، ما يربى^٢ على نَفَقَةِ السخى المُرِي ، ويضعِفُ على جُودِ الجواد الكريم^٣ . فيذهبُ ماله وهو مذموم ، ويتغيَّر حاله وهو مَلوم . وربما غلبَ عليه حُبُّ القيان ، واستهتر بالخِصيان . وربما أفرطَ في حُبِّ الصيِّدِ ، واستولى عليه حُبُّ المراكبِ . وربما كان إتلافه في العُرسِ والخُرسِ والوليمة ، وإسرافه في الإعذار وفي العقيقة والوكيرة . وربما ذهبت^٤ أمواله في الوضائع والودائع . وربما كان شديدَ البخلِ ، شديدَ الحُبِّ للذِّكرِ ، ويكونُ بخله أوسخ^٥ ، ولو مه أفتح^٦ ، فينفقُ أمواله ، ويتلفُ خزائنه ، ولم يخرج كفافًا ، ولم ينجُ سليمًا .

١٢

كانك لم ترَ بخيلاً مخدوعًا ، وبخيلاً مَفْتونًا ، وبخيلاً مِضياعًا ، وبخيلاً نَفاجًا . أو بخيلاً ذهب ماله في البناء ، أو بخيلاً ذهب ماله في الكيمياء ، أو بخيلاً أنفق ماله في طمع كاذب ، وعلى أمل خائب ، وفي طلب الولايات ، والدخول في القبالات ، وكانت فتنته بما يؤمِّل من الإمرة فوقَ فتنته بما قد حواه من الذهب والفضة . قد رأينا بِنَفِقُ على مائدته وفاكِهِته ألفَ دِرهم في كلِّ يوم ، وعنده في كلِّ يوم عُرس ، ولأن يطعَن طاعن في الإسلام أهونُ عليه من أن يطعَن في الرغيف الثاني ، ولا شقَّ عصا الدين أشدَّ عليه من شقِّ رغيف . لا يعدُّ الثلثة في عرضه ثلثة ، ويعدُّها في ثريدته من أعظم الثلم .

١٨

وإنما صارت الآفاتُ إلى أموال البُخلاء أسرع ، والجوائحُ عليهم أكلب ، لأنهم

(١) البخيل (فان فلوتن) - ولا (فان فلوتن) . (٢) غايته (فان فلوتن) - (٦) ما يرى (فان فلوتن) - الكهم (فان فلوتن) - (١١) أوشح ك - أنتح ك - (١٣) ضعنونا ك ، مضمونا (فان فلوتن) ، مضمونا (مرسيه) - (١٤) وبخيلا (فان فلوتن) .

أقلُّ توَكُّلاً وأسوأ بالله ظنًّا . والجوادُ إما أن يكون متوكِّلاً ، وإما أن يكون أحسنَ بالله ظنًّا . وهو على كلِّ حالٍ بالمتوكِّل أشبه ، وإلى ما أشبهه أنزع ، وكيفما دار أمرُه وَرَجَعَتِ الحالُ به ، فليس ممَّن يتكَلَّم على حَزْمه ، ويلجأ إلى كَيْسِه ، ويرجع إلى جَوْدَة احتياطِه وشِدَّة احتراسِه . واعتلال البَخيل بالحدِثان ، وسوء الظنِّ بتقلُّب الزمان ، إنما هو كناية عن سوء الظنِّ بخالق الحدِثان ، وبالذي يُحدِث الأزمان وأهلَ الزمان .

٦ وهل تجرى الأحداثُ إلا على تقدير المُحدِث لها ، وهل تخلفُ الأزمنةُ إلا على تصريفِ مَنْ دَبَّرها ؟ أولسنا وإن جَهلنا أسبابها ، فقد أيقنا بأنها تجري إلى غاياتها ؟

٩ والدليلُ على أنه ليسَ بهم خوفُ الفقر ، وأن الجمعَ والمنعَ إما أن يكونَ عادةً منهم أو طبيعةً فيهم ، أنك قد تجدُ المَلِكَ بخيلاً ومملكتهُ أوسعُ ، وخرجهُ أدرّ ، وعدوُّه أسكن ، وتجدُ أحزَمَ منه جَواداً ، وإن كانت مملكتهُ أضيق ، وخرجهُ أقل ، وعدوُّه أشدَّ حركةً .

١٢ وقد علمنا أن الزنجَ أقصرَ الناسِ فِكْرةً ورويةً ، وأذهلهم عن معرفة العاقبة . فلو كان سَخاؤهم إنما هو لكلال حدِّهم ونقصِ عقولهم وقلة معرفتهم ، لكان ينبغي لفارس أن تكونَ أبجَلُ من الروم ، وتكون الرومُ أبجَلُ من الصقالية . وكان ينبغي للرجال ، في الجملة ، أن يكونوا أبجَلُ من النساء في الجملة ، وكان ينبغي للصبيان أن يكونوا أسخى من النساء ، وكان ينبغي أن يكون أقلُّ البُخلاء عقلاً أَعقلَ من أسدِّ الأجواد عقلاً . وكان ينبغي للكلب — وهو المضروب به المثلُ في اللؤم — أن يكون أعرف بالأُمور من الديك المضروب به المثل في الجود وقالوا : هو أسخى من لافِظَةٍ ، وأُمٌّ من كلب على جيفة ، وأُمٌّ من كلب على عرق . وقالوا : أجمع كلبك يتبعك ، ونعم كلب في بُوس أهله ،

(٣) [و] رجعت كـ - (٧) أتقنا (فان فلوتن) - (٩) ومملكته كـ - (١٢) مدة وروية كـ - (١٦) يكونوا كـ - (١٨) لاقطة (فان فلوتن) .

(١٢-١٦) « وقد علمنا ... عقلاً » كرر هذا المعنى في رسالة فضل السودان (مجموعة رسائل الجاحظ) ص ٦٤ ط الساسي - (١٨) « وأُمٌّ ... جيفة » الحيوان ١ : ٢٢٧ ط الحلبي - (١٩) « وأُمٌّ ... عرق » الحيوان ١ : ٢٣٨ ، عيون الأخبار ٢ : ٨١ .

وَأَسْمِينُ كَلْبِكَ يَا كَاكُ ، وَأَحْرَصُ مِنْ كَلْبٍ عَلَى عِقَى صَبِيٍّ ، وَأَجْوَعُ مِنْ كَلْبَةٍ حَوْمِلٍ ، وَلَهُوْ أَبْدَأُ مِنْ كَلْبٍ ، وَحَشَّ فُلَانٌ مِنْ خُرِّ الكَلْبِ ، وَاحْسَنَ كَمَا يُقَالُ لِلْكَلْبِ ، وَكَالْكَلْبِ فِي الْأَرِيِّ : لَا هُوَ يَتَعَلَّفُ وَلَا هُوَ يَتْرَكَ الدَّابَّةَ تَتَلَفُ ، وَقَالَ الشَّاعِرُ :

٣

سَرَّتْ مَا سَرَّتْ مِنْ لَيْلِهَا نَمَّ عَرَّسَتْ عَلَى رَجُلٍ بِالْعَرَجِ الْأَمَّ مِنْ كَلْبٍ
 وَقَالَ اللَّهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : « فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمَلُ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَتْرُكُهُ
 يَلْهَثُ » . وَكَانَ يَنْبَغِي فِي هَذَا الْقِيَاسِ أَنْ يَكُونَ الْمَرَاوِزَةُ أَعْقَلَ الْبَرِيَّةِ ، وَأَهْلُ خُرَّاسَانَ
 أَدْرَى الْبَرِيَّةِ .

وَنَحْنُ لَا نَجِدُ الْجَوَادُ يَفْرُءُ مِنْ اسْمِ السَّرْفِ إِلَى الْجُودِ ، كَمَا نَجِدُ الْبَخِيلَ يَفْرُءُ مِنْ اسْمِ
 الْمَهْوَرِّ ، وَالْمَسْتَحْيَ يَفْرُءُ مِنْ اسْمِ الْحَجَلِ . وَلَوْ قِيلَ لَخَطِيبٍ ثَابِتِ الْجَنَانِ : وَقَاحٌ ،
 لَجَزِعَ . فَلَوْ لَمْ يَكُنْ مِنْ فَضِيلَةِ الْجُودِ إِلَّا أَنْ جَمِيعَ الْمُتَجَاوِزِينَ لِحُدُودِ أَصْنَافِ الْخَيْرِ يَكْرَهُونَ
 اسْمَ تِلْكَ الْقَضَلَةِ إِلَّا الْجَوَادُ ، لَقَدْ كَانَ فِي ذَلِكَ مَا يَبِينُ قَدْرَهُ ، وَيُظْهِرُ فَضْلَهُ .

١٢ الْمَالُ فَاتِنٌ ، وَالنَّفْسُ رَاغِبَةٌ ، وَالْأَمْوَالُ مَمْنُوعَةٌ ، وَهِيَ عَلَى مَا مُنِعَتْ حَرِيصَةٌ ، وَالنَّفُوسُ
 فِي الْمُكَاتِّرَةِ عِلَّةٌ مَعْرُوفَةٌ ، وَلِأَنَّهَا مِنْ لَفْظَةِ لَهْ وَلَارُوِيَّةٍ ، مُوَكَّلَةٌ بِتَعْظِيمِ ذِي الثَّرْوَةِ ،
 وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْهُ مَثَالُهُ . وَقَدْ قَالَ الْأَوَّلُ :

١٥ وَزَادَهَا كَلْفًا بِالْحَبِّ أَنْ مُنِعَتْ أَحَبُّ شَيْءٍ إِلَى الْإِنْسَانِ مَا مُنِعَا
 وَفِي بَعْضِ كُتُبِ الْفَرَسِ : « كَلَّ عَزِيزٌ تَحْتَ الْقُدْرَةِ فَهُوَ ذَلِيلٌ » ، وَقَالَتْ مُعَاذَةُ
 الْعَدَوِيَّةُ : « كَلَّ مَقْدُورٌ عَلَيْهِ فَمَقْلُوبٌ أَوْ مَحْقُورٌ » .

(١) وَسَمِنَ (فَانِ فُلُوتَيْنِ) - عَقَى طَبِي كَ ، عَقْبِي طَبِي (فَانِ فُلُوتَيْنِ) - (٨) الْجُودُ كَ - (٩) الْمَهْوَرُّ
 (مَرْسِيَّة) : الْمَهْزَمُ كَ - (١١) قَدْرَتُهُ (فَانِ فُلُوتَيْنِ) - (١٣) (و) لِأَنَّ (فَانِ فُلُوتَيْنِ) -

(١٦٠ : ١٩٠ - ١٦١) : « أَجْعُ ... صَبِيٍّ » عَيُونُ الْأَخْبَارِ ٢ : ٨١ ، الْفَاخِرُ ص ٥٧ ، الْحَيَوَانَ ١ : ٢٢٦
 (٤) « سَرَّتْ ... كَلْبٌ » الْحَيَوَانَ ١ : ٢٥٧ ، ط الْحَلْبِيِّ - (٥ - ٦) « فَظَلَهُ ... يَلْهَثُ »
 سُورَةُ الْأَعْرَافِ : ١٧٦ - (١٥) « وَزَادَهَا ... مَانِعًا » الْحَيَوَانَ ١ : ١٦٨ ، عَيُونُ الْأَخْبَارِ
 ٢ : ٣ - (١٦ - ١٧) « وَفِي ... مَحْقُورٌ » عَيُونُ الْأَخْبَارِ ٢ : ٢ - ٣ .

ولو كانوا لأولادهم يجمعون ولهم يكذون ، ومن أجلهم يجرّسون ، لجهلوا لهم كثيراً مما يطلبون ، وتركوها محاسبتهم في كثير مما يشتهون . وهذا بعض ما بغض بعض المورثين إلى الوارثين ، وزهد الأخلاف في طول عمر الأسلاف . ولو كانوا لأولادهم يمهّدون ، ولهم يجمعون ، لما جمع الخِصيان الأموال ، ولما كنز الرهبان الكنوز ، ولا استراح العاقر من ذلّ الرغبة ، ولسلم العقيم من كدّ الحرص* . وكيف ونحن نجدّه بعد أن يموت ابنه الذي كان يعتلّ به ، والذي من أجله كان يجمع ، على حاله في الطلب والحرص ، وعلى مثل ما كان عليه من الجمع والمنع .

والعامة لم تقصر في الطلب ، والْحِكْرَة والبِخْلَاء لم يحدّوا* شيئاً من جهدهم ، ولا أعفوا بعد قدرتهم ، ولا قصرُوا في شيء من الحرص والْحَصْر ، لأنهم في دار قلعة ، وبعرض نقلة . حتى لو كانوا بالخلود موقنين ، لأغفلوا تلك الفضول . فالبخيل مجتهد ، والعامي غير مقصر . فمن لم يستعين على ما وصفنا ، بطبيعة قويّة وبشهوة شديدة وبنظر شاف ، كان إما عامياً وإما شقيّاً ، فيقيمُ اعتلالهم بأولادهم واحتجاجهم بخوف التلوث من أزمتهم .

قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم لو أفد كذب عنده كذبة ، وكان جواداً : « لولا خصلة ومك الله عليها لشردتُ بك من وأفد قوم » . وقيل للنبي صلى الله عليه وسلم : « هل لك في بيض النساء وأدم الإبل ؟ » قال : « ومن هم ؟ » قيل : « بنو مدلج » قال : « يمتنى من ذاك قراهم الضيف وصلتهم الرحيم » . وقال لهم أيضاً : « إذا نحرُوا ثجّوا* ، وإذا لبّوا عجّوا » . وقال للأنصار : « من سيّدكم ؟ » قالوا : « جدُّ بن قيس* » ، على أنّه يزّن فينا ببخل » فقال : « وأي داء أدوى من البخل ! » > فجعله داء < * ،

(٥) الحرص ك - (٦) [و] على ك - (٨) مجذوا (فان فلوتن) - (١٨) نجوا ك ، نحوا (فان فلوتن) - (١٩) > فجعله داء < : ليست بالأصل .

(١٤-١٥) « قال ... قوم » النهاية لابن الأثير ٤ : ٢٧٤ المطبعة الخيرية ، القاهرة - (١٨-١٩) « وقال للأنصار ... البخل » العقد الفريد ١ : ٢٦٣ ط لجنة التأليف ، البغلاء للخطيب ، ورقة ٦ ، ٧ ، مخطوطة المتحف البريطاني

- ثم جعله من أدوى الداء . وقال للأنصار : « أما والله ما علمتكم إلا لتكثرن عند الفرع ،
وتقلن عند الطمع » . وقال : كفى بالمرء حرصاً ركوبه البحر » . وقال : « لو أن
لابنِ آدَمَ واديين من مال لا يتغى ثالثاً ، ولا يُشبع ابن آدم إلا التراب ، ويتوبُ الله
على من تاب » . وقال : « السخاء من الحياء ، والحياء من الإيمان » . وقال : « إن الله ٣
جواد يحبُّ الجود » . وقال : « أنفق يا بلال ، ولا تخش من ذى العرش إقلالاً » .
وقال : « لاتوكى فيوكأ عليك » . وقال : « لاتخص فيحصى عليك » . وقالوا : ٦
« لا ينفك من زاد < ما > تبقى » . ولم يسم الذهب والفضة بالحجرين إلا وهو يريد
أن يضع من أقدارهما ، ومن فتنه الناس بهما . وقال لقيس بن عاصم : « إنما لك من مالك
ما أكلت فأفنت ، وما لبست فأبليت ، أو أعطيت فأمضيت ، وما سوي ذلك ٩
فللوارث »

وقال النمر بن تولب* :

- ١٢ وحشت على جمع ومنع ، ونفسها
وكأئن رأينا من كريم مرزأ
شهدت وفاتوني وكنت حبيتي
فقيراً إلى أن يشهدوا وتغيبى
١٥ أعاذل إن يصبح صدأ بقره
ترى أن ما أبقيت لم أك ربه
لها في صروف الدهر حق كدوب
أخي ثقة طلق اليدين وهوب
بعبداً نأنى صاحبي وقربى
وأن الذى أمضيت كان نصيبى

(١) الفراغ ك- (٧) < ما > : ليست بالأصل .

(٢-١) « وقال للأنصار . . . الطمع » البيان والتبيين ٢ : ١٦ ط مصطفى محمد ، الكامل للمبرد

١ : ٣ المطبعة الأزهرية - (٢-٤) « وقال لوان . . . تاب » البيان والتبيين ٢ : ١٨ -

(٥) « وقال أنفق . . . اقلالاً » العقد الفريد ١ : ٢٦٣ - (٨-١٠) « إنما لك . . .

فللوارث » البيان والتبيين ٢ : ١٨ ، عيون الأخبار ٣ : ١٧٩ ، الأغاني ٤ : ١٦٣ ط دار

الكتب المصرية .

وذى إبل يسمى ° ويحسبها له أخى نصب فى سقيها° ودؤوب
غدت وغدا ربُّ سواه يسوقها وُبدل أحجاراً وجمال° قليب

وقال أيضاً: ٣

قامتُ تباكى° أن سبأت لفتية زقا° وخابية بعود مقطّع
وقريتُ فى مقرى قلائصَ أربعا° وقريتُ بعد قرى قلائصَ أربع
أتبكي من كلِّ شىء هين سفه بُكاه العين ما لم تدمع
فإذا أتانى إخوتى فدعهم يتعللوا فى العيش أو يلهوا معى
لا تطرُدْهم عن فراشى ، إنه لا بدَّ يوماً أن سيخلو مضجعى
هلا سألتِ بعادياءٍ وبيته وانخليلٍ وآلخمرِ التى لم تمنع

وقال الحارثُ بنِ حلزة:

بينما الفتى يسمى ويُسَمَى له تاح له من أمرِه خالَج
يترك ما رقع من عيشه يعيثُ فيه همَج هامِج
لا تكسع الشول بأغبارها إنك لا تدرى من الناتج

وقال الهدلى°:

إن الكرامَ مناهبو ك المجددِ كلهم فناهب
أخلف وأتلف ، كلِّ شىء ذرعته الريحُ ذاهب

(١) يسمى (الكامل) : تسمى ك - شقها ك ، رعيها (الكامل) - (٢) وجمال (الكامل) :
وداك ك - (٤) تباكر (فان فلوثن) - [زقا] ك - (٥) أربع ك - (١٢) يعيش ك .

(١٦٣ : ١٥ - ١٦٤ : ٢) «أعاذل ... قليب» الكامل للبرد ١ : ٢٦٥ - (٤ - ٩) «قامت ...
تمنع» خزنة الأدب للبغدادى ط بولاق ١٣٩٢هـ ، اللالى لأبى عبيد البكرى ص ٤٦٨ ط لجنة التأليف ، ١٩٣٦ م -
(١٠ - ١٣) «وقال الحارث ... الناتج» البيان والتبيين ٣ : ١٤٩ - ١٥٠ ط الفتح ١٣٣٢ هـ ،
الكامل للبرد ١ : ٢٦٨ ، المفضليات - (١٥ - ١٦) «إن الكرام ... ذاهب» البيان والتبيين
٣ : ١٢٦ ، ١٠٩ ، ٢٦٢ ط مصطفى محمد .

وقالت امرأة :

أنت وهبت الفتية السلاهب وإبلا يحارُ فيها الخالب
وغنماً مثل الجرادِ الهارب* متاعَ أيام وكلُّ ذاهب

وقال تميم بن مقبل^٣ :

فأخلف وأتلف ، إنما المالُ عارَه وكله مع الذَّهر الذي هو آكله

وقال أبو ذر^٦ : « لك في مالك شريكان : الوارثُ والحِذنان » . وقال

الحطَّيئة :

من يفعل الخيرَ لا يعدم جوازِيه لا يذهب العُرف بين الله والناس

وجاء في الأثر : إن أهلَ المعروف في الدنيا أهلُ المعروف في الآخرة . وفي المثل : ٩

« اصنع الخير ولو إلى كلب » . وقال في الحثُّ على القليل ، فضلاً على الكثير ، قال الله

جلَّ ذِكْرُه : « فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا

يَرَهُ » ، وقالت عائشة في حبة عنب : « إنَّ فيها لمثاقيل ذرَّة » ، ولذلك قالوا في المثل : ١٢

« مَنْ حَقَرَ حَرَمٍ » . وقال سلم بن قتيبة : « يستحي أحدُهم من تقرب القليل من

الطعام ، ويأتي أعظم منه » ، وقال : « جهد المرء أكثر من عَفْوِه » . وقدَّم رسول الله

صلى الله عليه وسلم جهدَ المقلِّ على عَفْوِ المكثِر ، وإن كان مبلغُ جهده قليلاً ، ومبلغُ

عَفْوِ المكثِر كثيراً . وقالوا : « لا يمتنعك من معروف صِغَرِه » . وقال النبي صلى الله عليه

(٣) لعلها : السارب ، كما في الحيوان والبيان والتبيين - (٩) [في] الأثر ك .

(٢-٣) « أنت ... ذاهب » البيان والتبيين ٣ : ١٢٦ ، الحيوان ٣ : ٧٥-٧٦ ط الحلبي -

(٦) « وقال ... والحذنان » عيون الأخبار ٣ : ١٨٠ - (٨) « من يفعل ... الناس » الأغاني

٢ : ١٧٣ ط دار الكتب المصرية ، عيون الأخبار ٣٠ : ١٧٩ - (١١-١٢) « فن ... يره »

سورة الزلزلة ٧ ، ٨ - (١٢) « وقالت عائشة ... ذر » صحيح البخاري بشرح الكرماني - (١٣) « من

حقر حرم » عيون الأخبار ٣ : ١٧٨ ، أمثال الميداني ٢ : ٢٦٨ - (١٣-١٤) « وقال سلم ... منه »

عيون الأخبار ٣ : ١٧٨ - (١٤-١٥) « وقدم ... المكثِر » انظر المعقد الفريد ١ : ٢٧٣ ط لجنة التأليف .

- وسلم: « اتقوا النارَ ولو بشِقِّ تَمْرَةٍ » وقال: « لا تردُّوا السائلَ ولو يظلف محرق »
 وقال: « لا تردُّوه ولو بفِرسِ شاةٍ » ، وقال: « لا تحقروا اللقمة ، فإنها تعودُ كالجبلِ
 العظيم ، لقول الله جل ذكره : يَحَقِّقُ اللهُ الرَّبَّاءَ وَيُرِي الصَّدَقَاتِ » ، وقال: ٣
 « لا تردُّوه ولو بِصلة حبلٍ » . وقالت العربُ : « أتاكم أخوكم يستتمُّكم ، فآتمو له » ،
 وقالوا : « مانع الإتمام الأم » .
- وقالوا : « البخيل إن سأل ألحف ، وإن سُئِلَ سوَّف » ، وقالوا : « إن سُئِلَ جحد . ٦
 وإن أعطى حقد » ، وقالوا : « ردُّ قبل أن يسمع ، ويفضَّب قبل أن يفهم » ، وقالوا :
 « البخيلُ إذا سُئِلَ ارتز ، وإذا سئل الجوادُ اهتز » . وقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :
 « ينادي كلُّ يومٍ منادٍيانِ مِنَ السماء ، يقول أحدهما : اللهمَّ عَجِّلْ لِمَنْفِقِ خَلْفًا ، ويقول ٩
 الآخرُ : اللهمَّ عَجِّلْ لِمَسِيكَ تَلْفًا » . وقالوا : « شرُّ الثلاثة المليم ، يمنع درّه ودرّ غيره » .
 وقال الله جلَّ ذكرُهُ : « الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْتُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ » . وقالوا في المثلِ ، ١٢
 إذا أَلْجَأَهُ الدَّهْرُ إِلَى بَخِيلٍ : « شرُّ ما أَلْجَأَكَ إِلَى مُحَّةِ عِرْقُوبٍ » وقال النبي صَلَّى اللهُ
 عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « قل المدل ، وأعط الفضل » ، وقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « أنهاكم عن
 عُقُوقِ الْأُمَمَاتِ وَوَأْدِ الْبَنَاتِ وَمَنْعِ وَهَاتِ » ، وقال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ : « وَيَطْعَمُونَ الطَّعَامَ ١٥
 عَلَى حُبِّهِ مَسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا » ، وقال : « لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ »
 وقال : « وَيُؤْتِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ، وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ

(١٢) ان الجأك (فان فلوتن) - ما (فان فلوتن) - (١٣) الفعل ك - وقال < النبي >
 (فان فلوتن) .

- (١) « اتقوا . . . تمرة » النهاية لابن الأثير ٢ : ٢٥٠ ط الحيرية بمصر ١٣٢٢ هـ -
 (٣) « يحق . . . الصدقات » سورة البقرة : ٢٧٦ - (٩-١٠) « ينادي . . . تلفا » الترغيب
 والترهيب للمنذرى ١ : ٢٧٦ ط دار إحياء الكتب العربية ١٣٤٦ هـ - (١١) « الذين . . . بالبخل »
 سورة النساء : ٣٧ - (١٣-١٤) « أنهاكم . . . وهات » صحيح البخارى بشرح الكرماني ٢١ : ١٥١
 المطبعة المصرية - (١٤-١٥) « ويطعمون . . . وأسيرا » سورة الدهر : ٨ - (١٥) « لن . . .
 تحبون » سورة آل عمران : ٩٢ - (١٦-١٦٧) « ويؤثرون . . . المفلحون » سورة الحشر : ٩ .

فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» . وقالوا^١ في الصَّبْرِ على النائبة ، وفي عَاقِبَةِ الصَّبْرِ : « عندَ الصَّباحِ يَحْمَدُ القَوْمُ الشَّرِيَّ » ، وقالوا : « الغَمَرَاتُ تُنَمِّ بِنَجَلِينَا » وقال الخُرَيْمِيُّ :

٣ ودونَ الندى في كلِّ قلبٍ ننيَّةٌ لها^٢ مصعدَ حَزْنٍ ومنحدَرٍ سهلٍ
وودَّ الفتي في كلِّ نَبيلٍ ينيله إذا ما انقضى لو أن نائله جَزَلُ

وقالوا : « خيرَ الناسِ خَيْرُ الناسِ للناسِ ، وشرُّ الناسِ شرُّ الناسِ للناسِ » ، وقالوا^٣ :

٦ « خيرَ مالِكٍ ما نَفَعَكَ » ، وقالوا : « عَجِباً لَفَرَطِ الكِبَرَةِ مع شَبَابِ الرَغْبَةِ » ، وقال الرَاجِزُ :
كلَّنا يَأْمَلُ مَدًّا في الأَجَلِ والمنايا هي آفاتُ الأَمَلِ^٤

وقال عُبَيْدُ اللَّهِ بنُ عِكرَاشٍ^٥ : « زَمَنَ خَثُونٌ ووَارِثُ شِفُونٍ وكاسِبُ حَزُونٍ ، فلا

٩ تَأْمَنُ الخَثُونُ وكن وارثُ الشِفُونِ » ، وقال : « يَهْرَمُ ابنُ آدمَ وَيَشِبُّ مَعَهُ خَصَلَتَانِ : الحِرْصُ والأَمَلُ » . وكانوا يَعيِبُونَ من يَأْكُلُ وحده ، وقالوا : « ما أكل ابنُ عمرَ وحده قطَّ » ، وقالوا : « ما أكل الحَسَنُ وحده قطَّ » . وسمع مجاشيعُ الرَبِيعِيُّ قولَهُم : « الشَّحِيحُ أَعْدَرُ من الظالمِ » فقال : « أَخزى اللهُ أَمْرَيْنِ خَيْرُهُمَا الشَّحُّ » . وقال بَكْرُ بنُ عَبْدِ اللَّهِ

١٢ المَرْزُوقِيُّ : « لو كان هذا المَسْجِدُ مَقْعَمًا بالرجالِ ، ثُمَّ قِيلَ لِي من خَيْرِهِم ؟ لَقُلْتُ : خَيْرُهُم

(١) وقال ك - (٢) ينجلين (فان فلوتين) - (٣) بها (فان فلوتين) - (٥) وقال ك - (٧) الأجل

(فان فلوتين) - (٩) وارث (عيون الأخبار) : ارث ك ، وكل ارث (مرسيه) - (١٣) المرى ك

(٢) « الغمرات ثم ينجلينا » الفاخر للمفضل بن سلمة ص ٢٥٦ - (٣-٤) « ودون ... جزل » البيان والتبيين ٢ : ٢٧٩ أط مصطفى محمد ١٩٣٢ م ، وقد ورد البيت الأول في نهاية الأرب (٣ : ٨٧ ط دار الكتب المصرية) منسوباً إلى الجرهمي ، وهو تصحيف عن الخريمي - (٨-٩) « وقال ... الشفون » عيون الأخبار ٣ : ١٨٠ - (١١-١٢) « وسمع ... الشح » البيان والتبيين ١ : ٣٠٨ ، ٣ : ١٧٣ ط مصطفى محمد ، ١٩٣٢ م ، الفاخر للمفضل ص ١٨٦ - (١٢-١٦٨ : ١) « وقال بكر ... لم » انظر حلية الأولياء لأبي نعيم ٢ : ٢٢٤ ، ط السعادة ، ١٩٣٢ م .

لهم ، وقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « أَلَا أَنْبِئُكُمْ بِشِرَارِكُمْ ؟ » قالوا : « بلى يا رسول الله » قال : « من نَزَلَ وَحْدَهُ ، وَمَنَعَ رِفْدَهُ ، وَجَلَدَ عَبْدَهُ . » وقالت امرأةٌ عِنْدَ جِنَازَةِ رَجُلٍ : « أَمَا وَاللَّهِ مَا كَانَ مَالُكَ لِبَطْنِكَ . وَلَا أَمْرُكَ لِعَرْسِكَ . »

٣

رد ابن التوأم

فلما بلغت الرسالة ابن التوأم** كره أن يجيب أبا العاص ، لما في ذلك من المنافسة والمباينة . وخاف أن يترقى الأمر إلى أكثر من ذلك .

٣

فكتب هذه وبعث بها إلى الثَّقَفِي :

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد فقد بلغني ما كان من ذكر أبي العاص لنا ، وتنويهه بأسمائنا ، وتشنيعه علينا . وليس يمنعنا من جوابه إلا لأنه إن أجابنا لم يكن جوابنا إياه على قوله الثاني أحق بالترك من جوابنا على قوله الأول ، فإن نحن جعلنا لابتدائه جواباً ، وجعلنا لجوابه الثاني جواباً ، خرجنا إلى التهاثر^٦ وصرنا إلى التخاير^٧ . ومن خرج إلى ذلك فقد رضى^٨ باللجاج خطأً وبالسُّخْف نصيياً .

وليس يحترس من أسباب اللجاج إلا من عرف أسباب التلون . ومن وقاه الله سوء التكفي وسُخْفه ، وعصمه من سوء التَّصْمِيم ونكده ، فقد اعتدلت طبائعه وتساوت خواطره . ومن قامت أخلاطه على الاعتدال ، وتكافأت خواطره في الوزن ، لم يعرف من الأعمال > إلا < الاقتصاد ، ولم يجد أفعاله أبداً إلا بين التقصير والإفراط . لأن الموزون لا يولد إلا موزوناً . كما أن المختلف لا يولد إلا مختلفاً . فالمتتابع^٩ لا يشيئه زَجْرٌ ، وليست له غاية دون التاف ، والمتكفي ليس له مأتى ولا جهة ، ولا له رقية ولا فيه حيلة . وكل متلون في الأرض فمحل العقد ، مسر لكل ريح .

فدع عنك خلطة الإمعة فإنه حارص^{١٠} لاخير فيه ، واجتنب ركوب الجموح^{١١} فإن غايته قبل الذواق . > ولا خير في المتلون < ذى البدوات ولا في الحرون^{١٢} ذى التصميم

(٧) انه (فان فلوتين) - (٨) وجعلنا لجوابه (فان فلوتين) : وجعل لثوابه ك- (٩) التهايرك - الحمار ك ، التجايرك (فان فلوتين) - (١٢) > ليس < قامت (فان فلوتين) - (١٤) > إلا < : ليست بالأصل - (١٥) المتتابع ك - (١٨) حارص ك - (١٩) > ولا خير في المتلون < : ليست بالأصل - لعلها الجموح أو اللجوج .

والمتلون شرًّا من المصمّم ، إذ كنتَ لا تعرفُ له حالا يقصد إليها ، ولا جهة يعمل عليها .
 ولذلك صار العاقل يندع العاقل ولا يندع الأحمق ، لأن أبواب تدبير العاقل وحيله
 معروفة ، وطرق خواطره مسلوكة ، ومذاهبه محصورة معدودة ، وليس لتدبير الأحمق
 وحيله جهة واحدة ، ومن أخطأها كذب ، والخبر الصادق عن الشيء الواحد واحد ،
 والخبر الكاذب عن الشيء الواحد لا يحصى له عدد ، ولا يوقف منه على حدّ . والمصمّم
 قتله بالإجهاز ، والمتلون قتله بالتعذيب .

فإن قلنا فليس إليه قصد ، وإن احتججنا فلننا عليه نردّ . ولكنّا إليك نقصد
 بالقول ، وإليك نريدُ بالمشورة . وقد قالوا : « احفظ سرك ، فإن سرك من دمك » .
 وسواء ذهبُ نفسك وذهبُ ما به يكون قوامُ نفسك . قال المنجّاب العنبري : « ليس
 بكبير ما أصلحه المال » ، وقد الشيء الذي به تصلح الأمور أعظم من الأمور ، ولهذا
 قالوا في الإبل : « لو لم يكن فيها إلا أنها رقومه الدم » ، فالشيء الذي هو ثمن الإبل وغير
 الإبل أحق بالصون . وقد قضا بأن حفظَ المال أشدّ من جمعه . ولذلك قال الشاعر :

وحفظك مالا قد عنيتَ بجمعه أشدّ من الجمع الذي أنتَ طالبه

ولذلك قال مُشترى الأرض لبائِعها ، حين قال له البائع : « دفعتهُ إليك بطيئةً
 الإجابة ، عظيمة المؤونة » قال : « دفعتهُ إليك بطيئةً الاجتماع ، سريعة التفرّق » .

والدّرهم هو القُطب الذي تدور عليه رَحا الدنيا . واعلم أنّ التخلّص من نزوانِ الدّرهم
 وتقلّته > والتحرز < من سكر الفنى وتقلبه شديد . فلو كان إذا تقلت كان حارسه
 صحيح العقل سليم الجوارح ، لردّه في عقاله ولشده بوثاقه . ولكنّا وجدنا ضعفه عن

(١٦) نزوات (فان فلوتن) - (١٧) وتقلبه ك، فتقلبه (فان فلوتن) - > والتحرز < : ليست
 بالأصل - وتقلبه ك .

(٨) «سرك من دمك» عيون الأخبار ١ : ٣٨ ، محاضرات الراغب ١ : ٥٩ ط الشرفية -
 (١٣) «حفظ ... جمعه» عيون الأخبار ١ : ٢٤٤ - (١٣) «وحفظك ... طالبه» الحيوان
 ٣ : ٤٧ ط الحلبي ، محاضرات الراغب ١ : ٢٣٧ - (١٤ - ١٥) «ولذلك ... التفرق» البيان
 والتبيين ٣ : ١٠٥ ط مصطفى محمد ، ١٩٣٢ م ، عيون الأخبار ١ : ٢٥٠ .

ضَبَطَهُ ، بِقَدْرِ قَلْفِهِ فِي يَدِهِ . وَلَا تَفْتَرَّ بِقَوْلِهِمْ : مَا لَ صَامِتٍ ، فَإِنَّهُ أَنْطَقُ مِنْ كُلِّ خَطِيبٍ ، وَأَنْتُمْ مِنْ كُلِّ نَامٍ . فَلَا تَكْتَرِثُ* بِقَوْلِهِمْ : هَذِينَ الْحَجْرِينَ ، وَتَتَوَهَّمُ* جُودَهُمَا وَسُكُونَهُمَا وَقَلَّةَ ظَنُّنَهُمَا وَطُولَ إِقَامَتِهِمَا ، فَإِنْ عَمِلَهُمَا وَهَمَا سَاكِنَانِ ، وَنَقَضَهُمَا لِلطَّبَائِعِ وَهَمَا ٣
ثَابِتَانِ* أَكْثَرَ مِنْ صَنِيعِ السَّمِّ النَّاقِعِ وَالسَّبْعِ الْعَادِي . فَإِنْ كُنْتَ لَا تَكْتَفِي بِصَنْعِهِ حَتَّى تَفْقَدَهُ* ، وَلَا تَحْتَمِلُ فِيهِ حَتَّى تَحْتَمِلَ لَهُ ، فَالْقَبْرُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْفَقْرِ ، وَالسَّجْنُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الذَّلِّ .

٦

وَقَوْلِي هَذَا < مَرٌّ > يَعْقِبُ حَلَاوَةَ الْأَبْدِ* ، وَقَوْلُ أَبِي الْعَاصِ* حَلْوٌ يَعْقِبُ مَرَارَةَ الْأَبْدِ . فَخَذَ لِنَفْسِكَ بِالثِقَةِ ، وَلَا تَرْضَ أَنْ يَكُونَ الْجِرْبَاهُ الرَّابِئُ الْعُودِ أَحْزَمَ مِنْكَ ، فَإِنَّ الشَّاعِرَ يَقُولُ :

٩

أَنْبَى أُتِيحَ لَهَا حِرْبَاهُ تَنْضُبِيَّةٍ لَا يَرْسِلُ السَّاقَ إِلَّا مَسِكَ سَاقَا

وَاحْذَرِ أَنْ تَخْرُجَ مِنْ مَالِكَ دِرْهَمًا حَتَّى تَرَى مَكَانَهُ خَيْرًا مِنْهُ . وَلَا تَنْظُرْ إِلَى كَثْرَتِهِ ،

١٢

فَإِنَّ رَمْلَ عَالِجٍ لَوْ أَخَذَ مِنْهُ وَلَمْ يَرِدْ عَلَيْهِ ، لَذَهَبَ عَنْ آخِرِهِ .

إِنَّ الْقَوْمَ قَدْ أَكْثَرُوا فِي ذِكْرِ الْجُودِ وَتَفْضِيلِهِ ، وَفِي ذِكْرِ الْكِرَامِ وَتَشْرِيفِهِ ، وَسَمَوْا السَّرْفَ جُودًا وَجَمَلُوهُ كِرَمًا . وَكَيْفَ يَكُونُ كَذَلِكَ وَهُوَ نِتَاجُ مَا بَيْنَ الضَّمْفِ* وَالنَّفْجِ؟

١٥

وَكَيفَ وَالْعَطَاءُ لَا يَكُونُ سَرَفًا إِلَّا بَعْدَ مَجَاوَزَةِ الْحَقِّ ، وَلَيْسَ وَرَاءَ الْحَقِّ إِلَى الْبَاطِلِ كِرَمٌ؟ وَإِذَا كَانَ الْبَاطِلُ كِرَمًا كَانَ الْحَقُّ لُؤْمًا . وَالسَّرْفُ — حَفْظُكَ اللَّهُ — مَعْصِيَةٌ ، وَإِذَا كَانَتْ مَعْصِيَةُ اللَّهِ كِرَمًا كَانَتْ طَاعَتُهُ لُؤْمًا . وَلِئِنْ جَمَعَهُمَا اسْمٌ وَاحِدٌ وَسَمِلَهُمَا حَكْمٌ

(٢) تَكَثَّرَتْ (فَان فَلُوتِنْ) : تَكَرَّرَ ك - فَتَتَوَهَّمُ (فَان فَلُوتِنْ) - (٤) بَانِيَانُ ك - (٥) تَمَدَّ ك - (٧) < مَرٌّ > (فَان فَلُوتِنْ) : لَيْسَتْ بِالْأَصْلِ - < الْأَبْدُ > فَخَذَ لِنَفْسِكَ بِالثِقَةِ ك - وَقَوْلُ أَبِي الْعَاصِي : الْقَاضِي ، وَبِالْهَامِشِ (فَقَوْلُ أَبِي) ك ، فَتَوَلَّى الْمَاضِي (فَان فَلُوتِنْ) - (١٤) الشَّرْفُ ك : الضَّمْفُ (فَان فَلُوتِنْ) : الصَّفُ ك .

(٥) «فَالْقَبْرِ . . . الْفَقْرِ» انظر عيون الأخبار ١ : ٢٤٥ - (١٠) «أَنْ . . . سَاقَا» الحيوان ٦ : ١٢٢ ط التقدّم ، عيون الأخبار ٣ : ١٩٢ ، لسان العرب ، ونسبه إلى أبي ذؤاد الأيادي

واحد — ومضادة الحق للباطل ، كمضادة الصدق للكذب ، والوفاء للغدر ، والجور للعدل ، والعلم للجهل — ليجمعن هذه الخصال اسم واحد ، وليشملتها حكم واحد .
 ٣ وقد وجدنا الله عاب السرف وعاب الحمية وعاب العصبية* ، ووجدناه قد خص السرف بما لم يخص به الحمية . لأنه ليس حب المرء لهبطه من العصبية ، ولا أنفته من الضيم من حمية الجاهلية . وإنما العصبية ما جاوز الحق ، والحمية الميبة ما تعدى القصد . فوجدنا اسم الأنفة قد يقع محموداً ومذموماً ، و < ما > * وجدنا اسم العصبية ولا اسم السرف يقع أبداً إلا مذموماً . وإنما يسرُّ باسم السرف جاهلٌ لا علم له ، أو رجل إنما يسرُّ به لأن أحداً لا يسميه مسرفاً حتى يكون عنده قد جاوز حد الجود ، وحكم له بالحق ، ثم أردفه بالباطل . فإن سرُّ من غير هذا الوجه ، فقد شارك المادح في الخطأ ، وشاكله في وضع الشيء في غير موضعه .

وقد أكثروا في ذكر الكرم . وما الكرم إلا كبعض الخصال المحمودة التي لم يعد منها بعض الذم ، وليس شيء يخلو من بعض النقص والوهن . وقد زعم الأولون أن الكرم بسبب الغنى* ، وأن الغنى يسبب البله ، وأنه ليس وراء الأبله إلا المعتوه . وقد حكوا عن كسرى أنه قال : « احذروا صولة الكريم إذا جاع ، والشم إذا شبع » ،
 ١٢ وسواء جاع فظلم وأحفظ* وعسف ، أم جاع فكذب* وضرع وأسف . وسواء جاع فظلم غيره ، أم جاع فظلم نفسه ، والظلم لؤم . وإن كان الظلم ليس بلؤم فالإنصاف* ليس بكرم* . وإن كان الجود على من لا يستحق الجود كرمًا ، فالجود لمن وجب له ذلك* ليس بكرم* . فالجود إذا كان لله فكان شكرًا له ، والشكر كرم . فكيف*
 ١٨

(٣) المعصية كـ - (وكذلك في الموضعين التاليين) - (٦) < ما > : ليست بالأصل ، لا (فان فلون) - (١٣) يسب الغباء وإن الغباء (مرسيه) - البله كـ - (١٥) وحفظ كـ - وكذب كـ - (١٦) والانصاف كـ - (١٨) ليس بكرم (فان فلون) : اكرم كـ - وان كـ ، فكيف (فان فلون) -

(١١-١٣) « وقد ... البله » انظر عيون الأخبار ١ : ٢٤٦ - (١٤) « وقد حكوا ... شيع » عيون الأخبار ١ : ٢٣٨ ، الدرة البتية (رسائل البلغاء) ص ٦٧ ، العقد الفريد ٢ : ٣٥٥ ط لجنة التأليف ، نهج البلاغة ٢ : ١٥٥ ط الرحمانية بمصر ، ١٣٢١ هـ ، تذكرة ابن حملون ، ص ٤٦ .

يكون الجودُ إذا كان معصية كرمًا ، وكيف * يتكرّم من يتوصّل بأبياديك إلى معصيتك ،
و ينعمك إلى سُخطك ؟ فليس الكرمُ إلا الطاعة ، * وليس اللّوم إلا المعصية ، وليس
بجود ما جاوز الحق * ، وليس بكرم ما خالف الشُّكر . وإن كان مجاوزُ الحق كريماً ، ٣
ليكوننَّ المقصّر دونه كريماً .

فإن قضيتَ بقولِ العامة ، فالعامة ليست بقُدوة . وكيف يكون قُدوةً من لا ينظر
ولا يحصّل ولا يفكر ولا يمثّل ؟ وإن قضيتَ بأقوالِ الشعراء ، وما كان عليه أهل
الجاهليّة الجهلاء ، فاقبّحوه مما لا يُشكُّ في حُسنه أكثرُ من أن نقفَ عليه ، أو نتشاغلَ
باستقصائه . على أنه ليس بجود إلا ما أوجب الشُّكر ، كما أنه ليس ببخل إلا ما أوجب
اللّوم . وإن * تكون العطيّة نعمةً على المعطى حتى يراد * بهانفس ذلك المعطى . ولن يجب ٩
عليه الشُّكرُ إلا مع شريطة القصد . وكلُّ من كان جوده يرجعُ إليه ، ولولا رجوعه
إليه لما جادَ عليك ، ولو تهيأ له ذلك المعنى في سِواك لما قصدَ إليك ، فإنما جعلك مَعبراً
لِدرك حاجته ، ومرّكباً لبلوغ محبته . ولولا بعضُ القول لوجبَّ لك عليه حق * يجبُ ١٢
به الشُّكر . فليسَ يجبُ لمن كان كذلك شُّكر ، وإن انتفعتَ بذلك منه ، إذ كان
لنفسه عمِل . لأنّه لو تهيأ له ذلك النفعُ في غيرك لما تخطّأه إليك .

وإنما يُوصَف بالجود في الحقيقة ، ويُشكر على النفع في حُجّة العقل ، الذي إن جاد ١٥
عليك فلنك جاد ، ونفعلك أراد ، من غير أن يرجعَ إليه جوده بشيء من المنافع ، على
جهة من الجهات ، وهو الله وحده لا شريك له . فإن شكّرنا للناس على بعض ما قد جرى
لنا على أيديهم فإنما هو لأمرين : أحدهما التعمُّد ، وقد تعبّد * الله بتعظيم الوالدين وإن
كانا شيطانين ، وتعظيم من هو أسن * منا وإن كنّا أفضلَ منهم . والآخر لأنّ النفس

(٣-٢) [ليس اللّوم . . . الحق] (فان فلوتن) - (٩) وان ك - رارد ك - (١٢) أوجب
(فان فلوتن) - حقا ك - (١٨) نعبد (فان فلوتن) - (١٩) شر ك

مالم تحصل الأمور وتميز المعاني ، فالسابق إليها حب^٥ من جرى لها^٥ على يده خير^٥ ، وإن كان لم يُرِدْها ولم يقصد إليها .

٣ ووجدنا عطية الرجل لصاحبه لا تخلو أن تكون لله ، أو لغير الله . فإن كانت لله ،

فغوايه على الله . وكيف يحبُّ على^٥ في حُجَّة العقل شكره ، وهو لو صادف ابن سبيلٍ غيبي لما حملى ولا أعطاني . وإما أن يكون إعطاؤه إيتاي للذكر ، فإذا كان الأمرُ

٦ كذلك ، فإنما جعلني سُلماً إلى تجارته وسبباً إلى بُغيته . أو يكون إعطاؤه إيتاي من

طريق الرِّحمة والرفقة ، ولما يجد في فؤاده من العصر^٥ والألم ، فإن كان لذلك أعطى ، فإنما داوى نفسه من دائه ، وكان كالذي رَفَّه من خِناقه . وإن كان إنما أعطاني على طلب

٩ المُجازاة وحب المكافأة فأمرُ هذا معروف . وإن كان إنما أعطاني من خوف يدي

أو لساني ، أو اجترار^٥ معونتي ونصرتي^٥ ، فسيبله سبيل^٥ جميع ما وصَّنا وفصَّلنا .

فلاسم الجود مَوْضِعان : أحدهما حقيقة ، والآخر مجاز . فالحقيقة ما كان من الله ،

١٢ والمجاز المشتقُّ له من هذا الاسم . وما كان لله كان ممدوحاً ، وكان لله طاعة . وإذا لم

تكن العطية من الله ولا لله ، فليس يجوز هذا فيما سمَّوه جوداً ، فما ظنك بما سمَّوه سرفاً ؟

افهم ما أنا مُوردُه عليك وواصفه لك : إن التبرج والتكسب والاستئكال بالتدبيرة

١٥ والطعم الخبيثة فاشية غالبية ومستفيضة ظاهرة . على أن كثيراً ممن يُضاف اليوم إلى

النزاهة والتكريم وإلى الصيانة والتوقى ، ليأخذ من ذلك بنصيب وافر وبمدِّ واف .

فما ظنك بدهماء الناس وجُمهورهم ؟ بل ما ظنك بالشعراء والخطباء الذين إنما تعلموا المنطق

١٨ لصناعة التكسب ؟ وهؤلاء قومٌ بوُدَّهم أن أرباب الأموال قد جاوزوا حدَّ السلامة إلى

الفلة ، حتى لا يكون للأموال حارس ولا دُونها مانع . فاحذرهم ، ولا تنظر إلى بزة

أحدهم فإن المسكين أقع منه ، ولا تنظر إلى مركبه^٥ فإن السائل أعف منه . واعلم أنه

٢١ في مسك مسكين وإن كان في ثياب جِياد ، وروحُه رُوح نذل وإن كان في جريم

(١) بالسابق ك ، بالسائق (مرسيه) - احبت (فان فلوتن) - له ك - (٧) العصة

(فان فلوتن) - (١٠) اجترار (عيون الأخبار) : صرف ك - ومضرق (فان فلوتن) - (٢٠) موكبه ك .

مَلِك . وكلّهم وإن اختلفت وجوه مسألهم واختلفت أقدارُ مطالبهم ، فهو مسكين .
 إلا أن واحداً يطلبُ العلقَ ، وآخرُ يطلبُ الخرقَ ، وآخرُ يطلبُ الدوانيقَ ، وآخرُ يطلبُ
 الألوفَ . فجهةُ هذا هي جهةُ هذا ، وطعمةُ هذا هي طعمةُ هذا . وإنما يختلفون في أقدارِ
 ما يطلبون ، على قدرِ الخلقِ والسببِ . فاحذَرُ رُقاهم وما نصبوا لك من الشركِ ،
 واحرُسْ نِعمتك وما دسّوا لها من الدواهي . واعملْ على أن سحرهم يسترقِ الذهن
 ويختطفِ البصرَ . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن من البيان سحراً » ، وسمِعَ
 عمر بنُ عبد العزيز رجلاً يتكلمُ في حاجة فقال : « هذا والله السحرُ الحلال » ، وقد قال
 رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا خِلاية » . واحذَرِ احتمالَ مديحهم ، فإنَّ محتمل المديح
 في وجهه كادحٌ نفسه .

٩
 إن مالك لا يتسع مُريدُه ولا يبلغ رضا طالبيه . ولو أَرْضَيْتَهُمْ بِإِسْخَاطِ مِثْلِهِمْ ، لكان
 ذلك خُسْراناً مُبيناً . فكيفَ وَمَنْ يَسْخَطُ أضعافُ من يَرْضَى ، وهِجَاءُ السَاطِطِ أَضْرُّ
 من قَدَمِ مَدِيحِ الرَاضِي ؟ وعلى أَنَّهُمْ إِذَا اعْتَوَرَوْكَ بِمِشَاقِصِهِمْ وَتَدَاوَلَوْكَ بِسِهَامِهِمْ ، لم تَرْتَمَنَّ
 أَرْضِيَّتِهِ فِي إِسْخَاطِهِمْ * أحداً يَنَاضِلُ عَنْكَ ولا يُهَاجِي شاعراً دونَكَ ، بل يَخْلِيكَ غَرَضاً
 لِسِهَامِهِمْ وَدَرِيئَةَ لِنِبَاهِهِمْ ، ثم يقول : وما كانَ عَلَيْهِ أو أَرْضَاهُمْ ؟ فكيفَ يُرْضِيهِمْ ،
 وَرِضَى الْجَمِيعِ شَيْءٌ لا يُنَالُ ؟ وقد قال الأوّل : وكيفَ يَتَّفِقُ لَكَ رِضَى الْمُخْتَلِفِينَ ؟
 وقالوا : منعُ الْجَمِيعِ أَرْضَى لِلْجَمِيعِ .

١٥
 إني أحذركُ مَصَارِعَ * المَخْدُوعِينَ ، وأرفُعُكَ عَن مَضَاجِعِ الْمُغْبُونِينَ . إِنَّكَ < لست > *
 كمن لم يزلْ يقياسي تَعذَّرَ الأُمُورَ ، ويتجرع مراراً العَيْشَ ، ويتحمَّلُ ثِقَلَ الكَدِّ ،

(٦) سحراك : لسحرا (فان فلوزن) - (١٣) في إسخاطهم ك : بإسقاطهم (فان فلوزن)

(١٧) مصاريع ك - < لست > (مرسيه) : ليست بالأصل - (١٨) مرارة (فان فلوزن) .

(٦) « ان ... صحرا » البيان والتبيين ١ : ٦٦ ط مصطفى محمد ، ١٩٣٢ م ، عيون الأخبار

١٨ : ٢ - (٨) « لا خِلاية » النهاية لابن الأثير ١ : ٣٤٥ - (١٦) « منع ... للجميع »

عيون الأخبار ٢ : ٤ .

وَيَشْرَبُ بِكَأْسِ الذَّلَّةِ ، حَتَّى كَادَ يَمْرُنَ عَلَى ذَلِكَ جِلْدُهُ وَيَسْكُنُ عَلَيْهِ قَلْبُهُ . وَقَفَرُ مِثْلِكَ مُضَاعَفُ الْأَلَمِ ، وَجَزَعٌ مَنْ لَمْ يَعْرِفِ الْأَلَمَ أَشَدَّ . وَمَنْ لَمْ يَزَلْ فَقِيرًا فَهُوَ لَا يَعْرِفُ الشَّامِتِينَ ، وَلَا يَدْخُلُهُ الْمَكْرُوهُ مِنْ سُرُورِ الْحَاسِدِينَ ، وَلَا يَلَامُ عَلَى فَقْرِهِ ، وَلَا يَصِيرُ مَوْعِظَةً لغيرِهِ ، وَحَدِيثًا يَبْقَى ذِكْرُهُ ، وَيَلْمَنُهُ بَعْدَ الْمَمَاتِ وَوَلَدِهِ . ٣

دَعَى* مِنْ حِكَايَاتِ الْمَسْتَأْكِلِينَ وَرُقَى الْخَادِعِينَ ، فَمَا زَالَ النَّاسُ يَحْفَظُونَ أَمْوَالَهُمْ مِنْ مَوَاقِعِ السَّرْفِ ، وَيَجْنِبُونَهَا* وَجُوهَ التَّبَذِيرِ . وَدَعَى مِمَّا لَا نَرَاهُ إِلَّا فِي الْأَشْعَارِ الْمَشْكُوفَةِ وَالْأَخْبَارِ الْمَوْلُودَةِ وَالْكَتُبِ الْمَوْضُوعَةِ ، فَقَدْ قَالَ بَعْضُ أَهْلِ زَمَانِنَا : « ذَهَبَتْ الْمَكَارِمُ إِلَّا مِنَ الْكُتُبِ » . فَخُذْ فِيمَا تَعَلَّمَ ، وَدَعْ نَفْسَكَ مِمَّا لَا تَعَلَّمَ . ٦

هَلْ رَأَيْتَ أَحَدًا قَطَّ أَنْفَقَ مَالَهُ عَلَى قَوْمٍ كَانَ غِنَاهُمْ سَبَبَ فَقْرِهِ أَنَّهُ سَلَّمَ عَلَيْهِمْ حِينَ افْتَقَرُوا عَلَيْهِ* فَضَلًّا عَلَى غَيْرِ ذَلِكَ ؟ أَوَلَسْتَ قَدْ رَأَيْتَهُمْ بَيْنَ مُحَقِّقٍ وَمُحْتَجِبٍ عَنْهُ ، وَبَيْنَ مَنْ يَقُولُ : فَهَلَّا أَنْزَلَ حَاجَتَهُ بِفُلَانِ الَّذِي كَانَ يَفْضُلُهُ وَيَقْدِّمُهُ وَيُؤْتِرُهُ وَيُخْصُّهُ ؟ ثُمَّ لَمَلَّ بَعْضُهُمْ أَنْ يَتَجَنَّبَ عَلَيْهِ ذَنْوبًا لِيَجْعَلَهَا عُذْرًا فِي مَنَعِهِ وَسَبَبًا إِلَى حِرْمَانِهِ . ٩ ١٢

قَالَ اللَّهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : « يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ » . فَأَنَا الْقَائِمُ عَلَيْكَ بِالْمَوْعِظَةِ وَالزَّجْرِ وَالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ ، وَأَنْتَ سَالِمُ الْعَقْلِ وَالْعَرِضِ ، وَافِرُ الْمَالِ حَسَنُ الْحَالِ . فَاتَّقِ أَنْ أَقُومَ غَدًا عَلَى رَأْسِكَ بِالتَّقْرِيعِ وَالتَّعْمِيرِ وَبِالتَّوْبِيخِ وَالتَّنَائِبِ ، وَأَنْتَ عَلِيلُ الْقَلْبِ مُخْتَلٌ الْعَرِضُ ، عَدِيمٌ مِنَ الْمَالِ سَيِّئُ الْحَالِ . ١٥

(٥) وعنى ك ، ودعى (فان فلوتن) - (٦) ويجنبونها > من < (فان فلوتن)

(١٠) [فردوا عليه] (فان فلوتن)

(٧ - ٨) « ذهب... الكتب » الحيوان ١ : ٥٢ ط الحلبي - (١٣ - ١٤) « يوم... »

المون « سورة القلم : ٤٣ - ٤٤ »

ليسَ جَهْدُ البلاءِ مدَّةَ الأعناقِ وانتظارَ وَقْعِ السيوفِ ، لأنَّ الوقتَ قصيرٌ والحسُّ مغمورٌ .
ولكنَّ جَهْدُ البلاءِ أن تظهَرَ انخلةً وتطولَ المدةَ وتمجِزَ الحيلةَ ، ثم لا تعدَمَ صديقاً مؤنباً
وابنَ عمِّ شامِتاً ، وجاراً حاسداً ° ، وولياً قد تحوَّلَ عدواً ، وزوجةً مختلعةً ، وجاريةً ٣
مستبعيةً ، وعبداً يحقرُكَ وولداً ينهركَ . فانظرَ أين موقعَ فوْتِ النناءِ من مَوقِعِ ما عددنا
عليك من هذا البلاءِ .

- ٦ على أنِّ الثناءِ طعمٌ ولعلك ألا تطعمه ، والحمدُ أرزاقٌ ولعلك أن تحرمه ،
وما يضيغُ من إحسانِ الناسِ أكثرُ . وعلى أن الحفظَ قد ذهبَ بموتِ أهله ألا ترى أنَّ
الشعرَ لما كَسَدَ أفحمَ أهله ؟ ولما دخلَ النقصُ على كلِّ شيءٍ أخذَ الشعرُ منه بنصيبه ؟
٩ ولما تحوَّلتِ الدولةُ في العجمِ ، والعجمُ لا تحوطُ الأنسابَ ، ولا تتحفَّظُ المقاماتِ . لأنَّ
من كان في الريفِ والكفايةِ ، وكان مغموراً بسُكرِ الغنى ، كثرَ نسيانه وقلَّتْ خَواطِرُه ،
ومن احتاجَ تحرَّكتْ همته وكثرَ تنقيره . وعيبُ الغنى أنه يُورثُ البلدةَ ° ، وفضيلةُ
الفقرِ أنه يبعثُ الفكرَ . وإن أنتَ صحبتَ الغنى بإهمالِ النفسِ أسكرَكَ الغنى ، وسُكر
الغنى شِئنةُ ° المُستأكلينِ وتَضْريةُ ° الخداعينِ وإن كنتَ لا ترضى بحظِّ النائمِ
وبعيشِ البهائمِ ، وأحببتَ أن تجمعَ مع تمامِ نفسِ المثرى ، ومع عزِّ الغنى وسرورِ القدرة ،
١٥ فطنةً المخفِّ وخَواطِرَ المقلِّ ، ومعرفةً الهاربِ واستِدلالَ الطالبِ ، اقتصدتَ في الإنفاقِ ،
وكنْتَ معدداً للجِدثانِ ، ومحتسباً من كلِّ خداعِ .

- ليست ° تبلغُ حيلُ نصوصِ النهارِ ، وحيلُ سراقِ الليلِ ، وحيلُ طرَّاقِ البُلدانِ ،
١٨ وحيلُ أصحابِ الكيمياءِ ، وحيلُ التجَّارِ في الأسواقِ والصنَّاعِ في جميعِ الصناعاتِ ،
وحيلُ أصحابِ الحروبِ ، حيلُ ° المُستأكلينِ والمتكسِّبينِ . ولو جمعتَ الجُفْرَ ° والسِّحْرَ

(٣) حاسراً (فان فلوتن) - (٤) ما عندنا (فان فلوتن) - (١١) البلادة (فان فلوتن) -
(١٣) شِئنة : سة ك - وهمة (فان فلوتن) ، وهمة ك - (١٧) لست (فان فلوتن) - (١٩) وحيل
ك - الجُفْر : الحمر ، ك . الجُفْر (فان فلوتن) .

(٤-١) « ليس . . . ينهرك » معجم الأدباء لياقوت ٦ : ٥٨ ط هندية .

(١١-١٢) « وعيب . . . الفكر » عيون الأخبار ١ : ٢٤٦ .

والتأثم والسَّمَّ ، لكانت حيلهم في الناس أشدَّ تغلفاً ، وأعرضَ وأسرَى في عمقِ البدن ،
 وأدخل إلى سويداء القلب وإلى أمِّ الدِّماغِ وإلى صميم الكبدِ ولهى أدقَّ مَسكًا
 ٣ وأبعدُ غايةً، من العرق السارى والشبه النازع ، ولو اتخذت الحيطان الرفيعة الثخينة والأقفالَ
 المحكمة الوثيقة ، ولو اتخذت المارقَ والجواسقَ والأبوابَ الشِّداد ، والحرسَ المتناوبين
 بأغلظ المؤنِّ وأشدَّ الكُلفِ ، وتركتَ التقدِّمَ فيما هو أحضرُّ ضرراً وأدومُ شراً ولا غرمَ
 ٦ عليك في الحراسة فيه ، ولا مشقَّةَ عليك في التحفظ منه .

إنك إن فتحتَ لهم على نفسكِ مثلَ سَمِّ الخياط ، جعلوا فيه طريفاً نهجاً ولقماً رَحباً
 فأحكيمِ بابك ، ثم أدمِ إصفاقه ، بل أدمِ إغلاقه ، فهو أولى بك . بل إن قدرت على مُصمَّت
 ٩ لا حيلةَ فيه فذلك أشبهُ بجزمك . ولو جعلتَ البابَ مبهماً والقفلَ مُصمَّماً لتسوِّروا عليك
 من فوقك، ولو رفعتَ سَمِّك إلى العيوق لنبقوا عليك من تحتك . قال أبو الدرداء: « نعم
 صومعة المؤمن بيته » . قال ابن سيرين^٥ : « العزلة عبادة » .

١٢ وحلاوة حديثهم تدعو إلى الاستكثار منهم ، وتدعو^٥ إلى إحضار غرائبِ شهواتهم .
 فمن ذلك قولُ بعضهم لبعض أصحابه : « أكل رِخلة ، وشربٌ مشعلاً ، ثم تجشأً
 واحدة لو أن عليها رَحاً لطحنت » . ومن ذلك قولُ الآخر ، حينَ دَخَلَ على قوم وهم
 ١٥ يَشربون ، وعندهم قِيان ، فقالوا : « اقترحِ أىَّ صوتِ شئتَ ؟ » ، قال : « اقترحِ نشيشَ
 مقلٍ » . ومن ذلك قولُ المديني : « من تصبَّح بسبعِ موزات ، وبقَدَحٍ من لبنِ الأوارك^٥
 تجشأً بخورِ الكعبة » . ومن ذلك قولهم لبعض هؤلاء ، وقد أمهم خبيص : « أيما أطيب ،

(٤) المارق ، كذا في ك ، ولعلها : الخازن - (٧) لقاك - (١٢) [و] تدعوك
 (١٣) واشربك . - (١٦) الأوارك ك .

(١٠ - ١١) « وقال أبو الدرداء . . . بيته » نثر الدر ٢ : ١٧٠ مخطوط - (١٤ - ١٦) « ومن ذلك . . .
 مقلٍ » انظر العقد الفريد ٤ : ٢٤٢ ط الأزهرية ، ١٩١٣ م - (١٦ - ١٧) « من تصبح . . .
 الكعبة » عيون الأخبار ٣ : ٢٠٨ .

- هذا أو الفالودج أو اللوزينج* ؟» ، قال : « لا أقضى على غائب » . ومن ذلك قولُ
 أبي الحارث جَمِين لِبَعْضِ الملوِك : « جعلتُ فداك أئى شىء فى تلك السَّلة ؟ » ، قال :
 « بظر أمك » ، قال : « فأعصنى به » . ومن ذلك كلامُ الجارود بن أبى سبرة لبلال بن
 ٣ أبى بردة ، حين قال له : « صِف عبدَ الأعلى وطعامه » قال : « يأتيه الخبّاز فيمئُل بين يديه
 فيقول : ما عندك ؟ فيقول : عندى جدى كذا ، وعناق كذا ، وبطة كذا ، حتى يأتى
 على جميع ما عنده » . قال : « وما يدعوهُ إلى هذا؟ » قال : « ليقْتَصِرَ كلُّ امرئٍ فى الأكل ،
 ٦ حتى إذا أتى بالذى يشتهى بلغ منه حاجته » . قال : « ثمّ ماذا ؟ » . قال : « ثمّ يؤتى بالمائدة
 فيتسعون ويتصايق ويحدّون ويعدّون ، حتى إذا فتروا خوى تخوية الظلم ، وأكل كلُّ
 الجائع المقرور » . وقال آخر : « أشتهى ثريدة د كناء من الفلفل ، ورقطاء من الحمص ،
 ٩ ذات حفاين من اللحم ، لها جناحان من العراق ، أضربُ فيها ضَرْبَ اليتيم عند وصى
 السوء » . وسئل بعضهم عن حُظوظ البُلدان فى الطعام ، وما قسِم لكلِّ قوم منه ، فقال :
 « ذهبت الرُوم بالحشو والحسو* ، وذهبت فارس بالبارد والحلو » . وقال عمر : « لفارس
 الشفارق والحموض » ؛ وقال دؤسر المدينى : « لنا الهرايس والقلابا ، ولأهل البَدُو اللَّبأ
 والسِّلاء والجراد والكَمأة والخبزة فى الرائب والتمرُّ بالزبد » . وقد قال الشاعر :
 ١٥ ألا ليت خبِزاً قد تسرَّبل رائباً وخيلاً من البرنى فِرسانها الزُّبد
 ولهم البريقة* والخلاصة والحئيس والوطيئة* . وقال أعرابى : « أتينا بئرَ كأفواه

(١) [أو اللوزينج] (فان فلوتن) - (٨) فيتصايقون حتى نحوى تخوية الظلم فيجدون ويهزل
 حتى إذا فتروا أكل ك ، وقارن النص فى البيان والتاج إلخ - (١٢) بالحشم والحشو ك ، بالحشم (فان فلوتن)
 (١٦) البرمة ك - الوطه ك .

(١٧٨ : ١٧ : ١٧٩ - ١) « ومن ذلك . . . غائب » الحيوان ٥ : ١٩٢ - ١٩٣ ط الخلبى ،
 عيون الأخبار ٣ : ٢٢٩ - (٣ - ٩) « ومن ذلك . . . المقرور » البيان والتبيين ١ : ١٨٦ ط الفتوح
 الأدبية ، التاج ص ٢٠ ط دار الكتب المصرية ، العقد ٢ : ٤٥٧ ط لجنة التأليف ، ٤ : ٢٩٤ ط الأزهرية -
 (٩ - ١١) « وقال آخر . . . السوء » عيون الأخبار ٣ : ١٩٨ ، العقد الفريد ٣ : ٤٨٤ ط لجنة التأليف ،
 ٤ : ٢٩٤ ط الأزهرية - (١١ - ١٢) « وسئل . . . والحلو » عيون الأخبار ٣ : ٢٠٤ .
 (١٥) « ألا ليت . . . بالزبد » عيون الأخبار ٣ : ٢٠٢ ، العقد الفريد ٦ : ٢١٣ ط لجنة التأليف .

النِفران ، فخبزنا منه خُبزةَ زيت في النار : فجعلَ الجمرُ يتحدَّر عنها تحدُّر الحشو
 > عن < البطنان ، ثم ثردَها فجعل الثريدُ يُجولُ في الإهالة جَوْلان الضبعان في الضفيرة .
 ٣ ثم أتناها بتمر كأعناقِ* الورلان ، يوحد فيه الضرس . * وعيب السويق > بحضرة أعرابي
 فقال : < لاتعبه > ، فإنه من عدد المسافر ، وطعام العجّالان ، وغذاء المبكّر* ، وبلغه
 المريض ، ويسرو* فؤاد الحزين ، ويردّ من نفس المحدود* ، وجيد في التسمين ومنعوت*
 ٦ في الطّب . قفاره يجلو البلغم ، ومسمونه يُصقّي الدم . إن شئت كان ثريداً ، وإن شئت
 كان خبيصاً ، وإن شئت كان طعاماً ، وإن شئت كان شراباً* . وقيل لبعض هؤلاء
 العامظة والمستأكلين والشناغيف والمفقعين* ، ورثي سميناً : « ما أسمعك ؟ » ، قال :
 ٩ « أكل الحارّ ، وشربى القارّ ، والاتكاه على شمالي . وأكل من غير مالى » . وقد
 قال الشاعر :

وإن امتلاء البطن في حَسَب الغنى قليلُ الغناء وهو في الجيم صالح

١٢ وقيل لآخر : « ما أسمعك ؟ » ، قال : « قلة السكر ، وطول الدّعة ، والنوم على الكِطّة » .
 وقال الحجاج للفضبان بن القبعثري : « ما أسمعك ؟ » قال : « القيّد والترعة ، ومن كان في
 ضيافة الأمير سين » . وقيل لآخر : « إنك لحسن السحنة » ! قال : « آكل لباب البرّ ،
 ١٥ وصغار المعز ، وأدّهن بحمام البنفسج ، وألبس الكتان » .

(١) رميت (هريه) ، قارن في هذا قول الشاعر (عيون الأخبار ٤ : ٨٨) :

انخ فاختبز خبزاً إذا اعترك الهوى بزيت لكى يكفيك فقد الحباب

(٢) - > عن < (فان فلوتن) : ليست بالأصل - (٣) كأعيان (فان فلوتن) - (٤-٣) وعيب السويق
 فانه ك ، ونعت السويق بانه (فان فلوتن) ، قارن نص عيون الأخبار - (٤) المتكره ك - (٥) يشد ك ،
 قارن نص الأمال والمخصص - وحيد في السمين ك - (٨) والشناغيف : والشفايق ك ، والشفايق ك (فان
 فلوتن) . وانظر أدى شير ١٠٢ - والمفقعين ك .

(٣) « ثم أتناها . . . الضرس » عيون الأخبار ٣ : ٢٠١ - (٣ - ٧) « وعيب . . . شراباً »
 عيون الأخبار ٣ : ٢٠٦ ، الأمال ٢ : ١٩٥ ط دار الكتب ، المخصص ٥ : ٩ ، محاضرات الراغب
 ١ : ٢٩١ - (٧ - ٩) « وقيل . . . مالى » عيون الأخبار ٣ : ٢٢٤ - (١١) « وإن . . . صالح »
 محاضرات الراغب ١ : ٣٠٢ - (١٢ - ١٥) « وقيل . . . الكتان » عيون الأخبار ٣ : ٢٢٤ - ٢٢٥ .

والله لو كان من يسأل يعطى لما قام كَرَمُ العطيّة بلؤم المسألة . ومدار الصّواب على طيب المكسبة ، والاقتصاد في النفقة : وقد قال بعض العرب : « اللهم إني أعوذُ بك من بعض الرزق » حين رأى نافية من ماله ، من صدق أمه .

٣

وأى سائل كان ألحفَ مسألة من الحُطينة ولا الأم؟ ومن الأم من جرير بن الخطفي وأبخل؟ ومن أمنع من كثير ، وأشج من ابن هرمة**؟ ومن كان يشق غبار ابن أبي حفصة**؟ ومن كان يصطلى بنار أبي العتاهية؟ ومن كان كأبي نواس في بخله ، أو كأبي يعقوب الخريمي في دقة نظره وكثرة كسبه ؟ ومن كان أكثر نحرًا الجزرة لم تخلق من ابن هرمة ، وأطعن برُمح لم ينبت ، وأطعم طعام لم يُزرع ، من الخريمي؟ فأين أنت عن ابن يسير* وأين تذهب عن ابن* أبي كريمة؟ ولم تقصر في ذكر الرقاشي ومن* لم يذكر شره* ؟

والأعرابي شرٌّ من الحاضر . سائل جبار ، وثابة ملاق . إن مدح كذب ، وإن هجا كذب ، وإن آيس* كذب ، وإن طمع كذب . لا يقربه* إلا نطف أو أحق ، ولا يعطيه إلا من يحبه ، ولا يحبه إلا من هو في طباعه .

١٢

ما أبطأكم عن البذل في الحق ، وأسرعكم إلى البذل في الباطل . فإن كنتم الشعراء تفضّلون ، وإلى قولهم ترجعون ، فقد قال الشاعر :

١٥

قليلُ المالِ تصلحُه فيبقى ولا يبقى الكثيرُ على الفساد

وقد قال السّماخ بن ضرار** :

١٨

لمالُ المرءِ يصلحُه فيغني مفاقرَه أعفُ من القنوع

(٤) والأم (فان فلوتن) - [من] ك - (٩) ابن بشير ك - [بن] ك - (١٠) [من] (فان فلوتن) - شره (فان فلوتن) : سر ك - (١٢) سب (فان فلوتن) - لا يقربه (مرسيه) : لا يسرقه ك - لا يعرفه (فان فلوتن) .

(١٦) « قليل . . . الفساد » الحيوان ٣ : ٤٧ ط الحلبي . الأغاني ٢١ : ٢١٠ ، نهاية الأرب للنويري

٣ : ٦٤ - (١٨) « لمال . . . القنوع » مجمع الأمثال للميداني ١ : ٢٥٤ ط ١٣٥٢ .

وقال أحيحة بن الجلاح* :

استغن أومت ولا يغررك ذونشب
إني أكب على الزوزاء أعمرها
وقال أيضاً :

استغن عن كل ذي قربي وذى رحيم
والبس عدوك في رفق وفي دعة
ولا تفرنك أضغان مرملة
وقال سهل بن هارون :

إذا امرؤ ضاق غنى لم يضح خلقي
فلا يراني إذا لم يرع آصرتي
لا أطلب المال كي أغنى بفضلته
وقال أبو العتاهية :

أنت ما استغنيت عن صا
فإذا احتجت إليه
حك الدهر أخوه
ساعة مجك فوه

وقال أحيحة بن الجلاح :

فلو أني أشاء نعمتُ بالآ
ولاغبني على الأنماط لُعس
ولكني خلقت إذا لمال
وباكرني صبح أو نشيل
على أنيابهن الزنجيل
فأبخلُ بعد ذلك أو أنيل

(٥) من ك .

(٣ - ٤) « استغن ... المال » عيون الأخبار ١ : ٢٤٠ - (١١٠٩) « إذا ... باليأس »
« لا أطلب ... الناس » زهر الآداب للحصري ٢ : ٢٥٩ ط مصطفى محمد - (١٣ - ١٤) « أنت ... فوه »
الأغاني ٤ : ١١ ، نهاية الأرب ٣ : ٨٠ ط دار الكتب المصرية .

وقال آخر :

أبا مُصلِحٍ أصلِح ولا تكُ مفسِداً فإن صلّاح المال خَيْرٌ من الفقر
ألم تر أن المرء يزداذُ عزّة على قومه أن يعلموا أنه مُثرى
وقال عروة بن الورد :

ذَرِينِي للغنى أَسْمَى فَإِنِي رأيتُ الناسَ شرُّهم الفقير
وأبعدهم وأهونهم عليهم وإن أَسَى له حَسَبٌ وخير
ويقصيه النديُّ وتزدرية حليلته وينهره الصغيرُ
وتلقى ذا الغنى وله جلال يكاد فؤاد صاحبه يطير
قليلُ ذنبه والذنب جمٌ ولكن الغنى ربُّ غفور
وقال سعيدُ بن زيد بن عمرو بن نفيل^{٥٥} :

تلك عِرسان تنطقان على عمّ دلى اليومَ قولَ زور وهتر
سالتاني الطلاقَ أن رأتا ما لى قليلا . قد جِئتاني بِنُكر
فلعلّ أن يكثر المالُ عندي ويُعرّى من المغارم ظهري
ويرى أعبدُ لنا وأواق ومناصيفُ من خَوادم عشر
وتجرّاء الأذيالَ فى نعمة زو ل تقولان ضع عصاك لدهر
ويَنكأن من يكن له نَسبٌ يـ بَبُ ومن يفتقر يعشُ عيشَ ضرّ
ويجنّب سِرَّ النجى ولك نَ أخا المالَ مُحضَر كلِّ سِرّ

(٢) أبا مصلح (فان فلوتن) - (٦) نسب (فان فلوتن) - (٧) ويقصيه ك : ويقصى فى (فان فلوتن) - (١٥) وتجرك - (١٧) شرك - المال (البيان والتبيين) : الفقر ك .

(٢-٣) «أبا مصلح . . . مثرى» عيون الأخبار ١ : ٢٤١ . (٥-٩) «ذريني . . . غفور» عيون الأخبار ١ : ٢٤١ - ٢٤٢ . شعراء النصرانية ص ٨٨٨ - (١١-١٧) - «تلك . . . سر» البيان والتبيين ١ : ١٩٩ ط مصطفى محمد ١٩٣٢ م ، الأغاني ١٦ : ٦٢ ط بولاق .

وقال الآخر :

وللمال مني جانب لا أضيعه وللهو مني والبطالة جانب

٣ وقال الأحنس بن شهاب* :

وقد عشتُ دهرًا والنواة صحابتي أولئك إخواني الذين أصحابُ
فأدبتُ عنى ما استعرتُ من الصبي وللمال مني اليوم راع وكاسبُ

٦ وقال ابنُ الذئبة* الثقفي* :

أطعتُ النفسَ في الشَهواتِ حتَّى أعادتنى عَسيفًا عندَ عبد
إذا ما جئُها قد بمتُ عذقًا* تعانقِ أو تقبِّلِ أو تفتدي
فمن وجدَ الغنى فليصطنعه ذخيرته ويجهد كلَّ جهد

وقال :

من يجمعَ المالَ ولا يشبُّ بهٌ ويتركُ العامَ العامَ جدبه
يهن على الناس هوان كلبه

١٢

وقد قيل في المثل : « الكدُّ قبل المدِّ » . وقال لقيط : « * الغزوأدرّ للقاح وأحدُّ*
للسلاح » . وقال ابنُ المعاني :

(٢) كتب فوقها في الأصل بخط مغاير : وثه - (٦) أذينه لك - (٧) عندك : عبد (فان فلوتن) -
(٨) عتقاك - (١١) يشبهك - (١٣) الكل (فان فلوتن) - التهم ودار للفاح واحد للسلاح (فان فلوتن) -
(١٤) أبو ك قارن النص في ابن الفقيه (أحمد بن العافى) -

(٤ - ٥) « وقد . . . وكاسب » المفضليات ٤١٣ ، ٤١٤ ط أكسفورد ، ديوان الحماسة ١ :
٣٠٥ - ٣٠٦ - (٧ - ٨) « أطعت . . . تفتدي » الأصمعيات ، ص ١٢٧ ، ط وأدر المعارف منسوبة
إلى أحيحة بن الجلاح ؛ عيون الأخبار ١ : ٢٤٣ - (١١ - ١٢) « من . . . كلبه » الحيوان ١ : ٢٥٤ ط
الحلي ، عيون الأخبار ١ : ٢٤٣ .

إِنَّ التَّوَانِي أَنْكَحَ الْعَجْزَ بِنْتَهُ وَسَاقَ إِلَيْهَا حِينَ زَوَّجَهَا مَهْرًا
فِرَاشًا وَطِيئًا ، ثُمَّ قَالَ لَهَا اتَّكِي فَقَصَّرُ كَمَا لَا بَدَأُ أَنْ تَلِدَا الْفَقْرَا

- ٣ وقال عثمانُ بنُ أبي العاصِ : « ساعةٌ لَدُنِيَاك ، وساعةٌ لآخِرَتِكَ » . وقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : « أَنهَا كَمْ عَنِ قِيلِ وَقَالَ ، وَكَثْرَةُ السُّؤَالِ ، وَإِضَاعَةُ الْمَالِ » ، وقال : « خَيْرُ الصَّدَقَةِ مَا أَبْقَتْ غَنِيً ، وَالْيَدُ الْعَلِيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى ، وَابْدَأُ بِمَنْ تَعُولُ » ،
٦ وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « الثَّلَثُ وَالثَّلَثُ كَثِيرٌ . إِنَّكَ إِنْ تَدَعَ وَلَدَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَتَكْفَفُوا النَّاسَ » ، وقال ابنُ عَبَّاسٍ : « وَدِدْتُ أَنْ النَّاسَ غَضَّوْا مِنَ الثَّلَثِ شَيْئًا ، لِقَوْلِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ : الثَّلَثُ وَالثَّلَثُ كَثِيرٌ » ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُضَيِّعَ مِنْ يَقْوَتِ » . وَأَنْتُمْ تَرَوْنَ أَنَّ الْمَجْدَ وَالْكَرَّمَ أَنْ أَفْقَرَ نَفْسِي بِإِغْنَاءِ
٩ غَيْرِي ، وَأَنْ أَحُوِّطَ عِيَالُ غَيْرِي بِإِضَاعَةِ عِيَالِي . وَقَالَ فِي ذَلِكَ ابْنُ هَرَمَةَ :
كَتَارِكَةَ يَبْضُهَا بِالْعَرَاءِ وَمَلْبَسَةَ بِيضَ أُخْرَى جَنَاحَا

١٢ وقال آخر :

كَمُفْسِدِ أَدْنَاهُ وَمُصْلِحِ غَيْرِهِ وَلَمْ يَأْتَمِرْ فِي ذَاكَ أَمْرَ صَلَاحِ

وقال الآخر :

١٥ كَمُرْضِعَةٍ أَوْلَادٍ أُخْرَى ، وَضِيَعَتِ بِنَيْهَا ، وَلَمْ تَرَقِعْ بِذَلِكَ مَرَقَعَا

(٢) لَا تَلِدُكَ ، عِنْدِي لِأَنَّ تَلِدَا (فَانْ فُلُوتِن) . قَارَنَ النَّصَّ فِي عَيُونِ الْأَخْبَارِ - (٥) مَا اعْتَدْنَاكَ مَا أَبِي غَنِي (فَانْ فُلُوتِن) - (١٣) [و] لَمْ ك

(١٨٤ : ١٣ - ١٨٥ : ٢) « وَقَدْ قِيلَ . . . أَلْفَقْرَا » عَيُونُ الْأَخْبَارِ ١ : ٢٤٤ ، وَالْبَيْتَانِ فِي كِتَابِ الْبُلْدَانِ لِابْنِ الْفَقِيهِ ص ٤٨ - (٤) « أَنهَا كَمْ . . . الْمَالِ » . صَحِيحُ مُسْلِمٍ (كِتَابُ الْأَقْضِيَةِ) ٥ : ١٣١ - (٥) « خَيْرُ الصَّدَقَةِ . . . تَعُولُ » صَحِيحُ الْبُخَارِيِّ بِشَرْحِ الْكِرْمَانِيِّ ٢٠ : ٤ (٦-٧) « الثَّلَثُ . . . النَّاسِ » صَحِيحُ الْبُخَارِيِّ بِشَرْحِ الْكِرْمَانِيِّ ٢٠ : ٣ - ٤ ، صَحِيحُ مُسْلِمٍ ٥ : ٧١ - (٨-٩) « كَفَى . . . يَقْوَتِ » النِّهَايَةُ لِابْنِ الْأَثِيرِ ٣ : ٣١٧ - (١١) « كِتَارِكَةَ . . . جَنَاحَا » حِمَاةُ الْبَحْرِيِّ ص ١٧٠ ، الْإِغْنَاءُ ٩ : ٤٤ ، نِهَايَةُ الْأَرْبِ ٣ : ٧٩ - (١٥) « كُرْضِعَةَ . . . مَرَقَعَا » حِمَاةُ الْبَحْرِيِّ ص ١٧٠ ط الرِّحْمَانِيَّةُ ١٩٢٩ م .

وقال الله تبارك وتعالى : « وَلَا تُبْذِرْ تَبْذِيرًا ، إِنَّ الْمُبْذِرِينَ كَانُوا إِنْخِرَانِ الشَّيَاطِينِ » ، وقال : « وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوُ » ، فأذِنَ فِي الْعَفْوِ ، ولم يأذِنَ فِي الْجَهْدِ ، وَأَذِنَ فِي الْفُضُولِ ولم يأذِنَ فِي الْأَصُولِ . وأراد كعبُ بنُ مالكٍ * أن يتصدقَ بماله ، فقال له النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « أَمْسِكْ عَلَيْكَ مَالِكَ » ، فالتبذيرُ عليه وسلم يمنعه من إخراجِ ماله في الصدقة ، وأنتم تأمرونه بإخراجه في السرف والتبذير .
 ٦ وخرج غيلان بن سلمة * من جميع ماله فأكرهه عمرُ على الرجوع فيه ، وقال : « لَوْ مِتَّ لَرَجِمْتُ قَبْرَكَ ، كَمَا يُرْجَمُ قَبْرُ أَبِي رِغَالٍ » . وقال الله جلَّ وعز : « لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ ، وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ » . وقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « يَكْفِيكَ مَا بَلَغَكَ الْمَحَلَّ » . وقال : « مَا قُلَّ وَكَفَى خَيْرٌ مِمَّا كَثُرَ وَالْهَى » . وقال الله تبارك وتعالى : « وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا » .
 وقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « إِنْ الْمُنْبِتَ لَا أَرْضًا قَطَعَ وَلَا ظَهْرًا أَبْقَى » . وقال الله جلَّ ذكره : « وَلَا تَجْمَلْ يَدَكَ مَفْدُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا » . ولذلك قالوا : « خَيْرُ مَالِكَ مَا نَفَعَكَ ، > وخيرُ الأمور < أوساطها ، وسرُّ السيرِ الحقيقَةِ . والحسنة بين السيئتين » ، وقالوا : « دِينُ اللَّهِ بَيْنَ الْمُقَصَّرِ وَالغَالِي » ، وقالوا في المثل : « بَيْنَهُمَا يَرْمِي الرَّامِي » ، وقالوا : « عَلَيْكَ بِالسَّدَادِ وَالِاِقْتِصَادِ وَلَا وَكْسٌ وَلَا شَطَطٌ » ، وقالوا : « بَيْنَ الْمُخْخَةِ * وَالْعَجْفَاءِ » ، وقالوا : « لَا تَكُنْ حَلَاوًا فَتَبْتَلَعْ

(٣) ملك (فان فلوتن) - (١٣) > وخير الأمور < : ساقطة في الأصل - (١٥) كثير ك - (١٦) المنحة ك .

(١ - ٢) « ولا تبذر . . . الشياطين » سورة الاسراء : ٢٦ - ٢٧ - (٢) « ويسألونك . . . العفو » سورة البقرة : ٢١٩ - (٣ - ٤) « وأراد . . . مالك » محاضرات الراغب ١ : ٢٣٩ - (٧ - ٨) « لينفق . . . الله » سورة الطلاق : ٧ - (١٠) « والذين . . . قواما » سورة الفرقان : ٧٦ - (١١) « إن المنبت . . . أبي » نهاية الأرب ٣ : ٣ - (١٢ - ١٣) « ولا تجمل . . . محسورا » سورة الإسراء : ٢٩ - (١٣) « خير . . . ما نفعك » مجمع الأمثال للميداني ١ : ٢٥١ - « خير . . . أوساطها » مجمع الأمثال ١ : ٢٥٤ - (١٣ - ١٤) « شر السير الحقيقَةِ » مجمع الأمثال ١ : ٣٧٢ - (١٦) « بين . . . والعجفاء » عيون الأخبار ١ : ٣٣١ .

ولا مرأً فتلفظ « وقالوا في المثل : « ليس الرى عن التشاف * » . وقالوا : « ياعاقد اذكر حلاً » ، وقالوا : « الرشيف أنقع للظمان » . وقالوا : « القليل الدائم أكثر من الكثير المنقطع » . وقال أبو الدرداء : « إني لأستجتم نفسي ببعض الباطل كراهة أن أحمل عليها ٣ من الحق ما يملها » . وقال الشاعر :

وإني لخلو تعتريني مرارة وإني لصعب الرأس غير جموح

وقالوا في عدل المصلح ، ولائمة المقتصد : « الشحيح أعذر من الظالم » . وقالوا : ٦
« ليس من العدل سرعة العذل » ، وقالوا : « لعل له عذراً وأنت تلوم » ، وقالوا :
« ربّ لأثم ملّيم » ، وقال الأحنف : « ربّ ملوم لا ذنب له » . وقال : « إعطاء
السائل تضرية ، وإعطاء الملحف مشاركة » ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « لا تصلح ٩
المسألة إلا في ثلاث : فقر مدقع ، وغرم مفضّع ، ودّم موجع » . وقال الشاعر :

الحرّ يلحى والعصا للعبد وليس للملحف غير الردّ

وقالوا : « إذا جدّ السؤال جدّ المنع » ، وقالوا : « احذر إعطاء المخدوعين ، وبذل ١٢
المغبونين ، فإن المغبون لا محمود ولا ماجور » ، ولذلك قالوا : « لا تكن أدنى العيرين
إلى السهم » يقول : إذا أعطيت السائلين مالك صارت مقاتلك أظهر لأعدائك من
مقاتلتهم : وقالوا : « الفرار بقراب أكيس » ، وقال أبو الأسود : « ليس من العزّ ١٥

(١) عز التشاف ك .

(١٨٦ : ١٦ - ١٨٧ : ١) « لا تكن ... تفلظ » عيون الأخبار ١ : ٢٢٨ - (١) « ليس ...
التشاف » مجمع الأمثال للميداني ٢ : ١٣٩ ط القاهرة ، ١٣٥٢ هـ ، تذكرة ابن حمدون ، ط النهضة
١٩٢٧ م (منسوباً إلى سهل بن هارون) - (٣-٤) « إني لاستجتم ... ما يملها » الحيوان ٣ : ٧ ط
الخلي ، نثر الدرر ٢ : ١٧٠ - (٦) « الشحيح ... الظالم » عيون الأخبار ٢ : ٣٤ - (٧-٨) « لعل ... ملّيم »
الحيوان ١ : ٢٣ ط الخليلي - (٨) « رب ... له » نهاية الأرب ٣ : ٣٢ - (٩-١٠) « لاتصلح ... موجع »
النهاية لابن الأثير ٣ : ٢٣٣ ط الخيرية - (١١) « الحر ... الرد » الأغاني ٣ : ١٧٥ كتمان السر
وحفظ اللسان (مجموع رسائل الجاحظ) ص ٤٨ ط لجنة التأليف ، نهاية الأرب ٣ : ٧٩ (لبشار) - (١٢)
« إذا حد ... المنع » كتمان السر (مجموع رسائل الجاحظ) ٤٨ - (١٥) « الفرار بقراب أكيس » مجمع
الأمثال ٢ : ٢٢ .

٣ أن تتعرض للذل ، ولامن الكرم أن تستدعى اللؤم . « ومن أخرج ماله من يده افتقر ، ومن افتقر فلا بد له من أن يضرع ، والضرع لؤم . وإن كان الجود شقيق الكرم ، فلائفة أولى بالكرم . وقد قال الأول : « اللهم لا تثر لي ماء سوء فأكون امرأ سوء » . وقد قال الشاعر :

واخط مع الدهر إذا ما خطا واجر مع الدهر كما يجرى

٦ وقد قال الآخر :

يا ليت لي نعلين من جلد الضبع * كل الحذاء يحتذى الحافي الوقع

٩ وقد صدق > قول القائل < : « من احتاج اغتفر ، ومن اقتضى تجوز * » ، وقيل * « لديموس : « تأكل في السوق ؟ » قال : « إن جاع > ديموس < » في السوق أكل في السوق » ، وقال : « من أجذب انتجع ، ومن جاع خضع * » ، وقال : « احذروا نغار النعمة فإنها نوار * . وليس كل شارد بمرود ، ولا كل نادٍ بمسرود * » وقال علي بن أبي طالب : « قل ما أدبر شي فأقبل » . وقالوا : « رب أكلة تمنع أكلات . ورب عجلة تهب ريثا » ، وعابوا من قال : « أكلة وموتة » : وقالوا : « لا تطلب أثرا بعد عين » . وقالوا : « لا تكن كمن تغليه نفسه على ما يظن ، ولا يغلبها على

(٧) > وشركا من استها لا تنقطع < (فان فلوتن) عن البيان والتبيين - (٨) > قول القائل < (فان فلوتن) ساقطة بالأصل - اعمر ك - تجور ك - (٩) لديموس ك: لرسموس (فان فلوتن) ، ديونيسيوس (دى جويه) - > ديموس < : ساقطة بالأصل ، قارن نص الحيوان - (١٠) حشع ك ، جشع (فان فلوتن) - (١١) بوار ك - مصر وف ك .

(٥) « واخط . . . يجرى » البيان والتبيين ٤ : ٢١ ط لجنة التأليف ، الأما ٢ : ٢٠٥ ط دار الكتب الأغاني ٤ : ٨٨ (لأبي التاهية) - (٧) « ياليت . . . الوقع » البيان والتبيين ٣ : ٧٤ ط ١٩٣٢ م ، الحيوان ٦ : ١٥٢ ط الساسي ، الأما ١ : ١١٥ ، العقد ٣ : ٢٧٠ ، ط ١٩١٣ م ، معاني الشعر للأستاذاني ص ١١١ ط الترقى بدمشق ، ١٣٤٠ هـ - (٨-٩) « وقيل . . . السوق » البيان والتبيين ٢ : ١٧٨ ط ١٩٣٢ ، الحيوان ١ : ٢٩٠ ط الحلبي - (١٠-١١) « احذروا . . . بمرود » نهج البلاغة ٢ : ١٩٨ ط ١٣٢١ هـ - (١٢) « قلما . . . فأقبل » نهج البلاغة ١ : ٥٤ ط ١٣٢١ هـ - (١٣-١٤) (لا تطلب . . . عين » نهاية الأرب ٣ : ٥٨ .

ما يَسْتَيْقِنُ « . فانظر كيف تخرجُ الدرهمَ ، وَلِمَ تخرُجُه . وقالوا : « شرٌّ* من المرزئةِ سوءِ الخلفِ » . وقال الشاعر :

٣ إن يكن ما به أصبت* جليلاً فذهابُ العزاءِ فيه أجلُّ
ولأن تفتقرَ بجائحةٍ نازلةٍ خيرٌ لك من أن تفتقرَ بحنايةٍ مكتسبةٍ* . ومن كان سبباً
لذهابِ وفره ، لم تعدمه الحسرةُ من نفسه واللائمةُ من غيره ، وقلةُ الرحمةِ وكثرةُ
٦ الشماتةِ ، مع الإنهم الموبق والموان على الصاحب .

وذكر عمر بن الخطاب فتیان قريش وسرفهم في الإنفاق ، ومُسابقتهم في التبذير . فقال :
« لخرقة* أحدهم أشدُّ على من عيَلته » ، يقول : إن إغناء الفقير* أهون على من إصلاح الفاسد
ولا تكن على نفسك أشاماً من خوتنة ، وعلى أهلِكَ أشاماً من البسوس ، وعلى قومك
٩ أشاماً من عطر منشم . ومن سلط الشهوات على ماله ، وحكم الهوى في ذات يده ، فبقى
حسيراً ، فلا يلومن إلا نفسه . وطوبى لك يومَ تقدِر على قدم تنتفع به . وقال بعض الشعراء :

١٢ أرى كلَّ قومٍ يمنعونَ حريمهم وليسَ لأصحابِ النيذِ حريمٌ
أخوهم إذا ما دارت الكأسُ بينهم وكلهم رثُ الوصالِ سؤوم
فهذا يبانى لم أقل بجهالةٍ ولكنني بالفاسقينَ عليم

١٥ وقد كان هذا المعنى في أصحاب النيذ أوجد ، فأما اليوم فقد استوى الناس . قال
الأضبط بن قريع* ، لما انتقل في القبائل ، فأساؤا جوارَه ، بعد أن تأذى بني سعد :
« بكلِّ واد بنو سعد » .

(١) أشد (فان فلوتن) - (٣) أصيب (فان فلوتن) - (٤) مكسية ك - (٨) لخرقة ك ، لخرافة
(فان فلوتن) - الفقر ك .

(٣) « إن يكن . . . أجل » الحيوان ٦ : ١٧٢ ط الساسي ، نهاية الأرب ٣ : ٨٣ - (٨) « لخرقة . . .
عيلته » النهاية لابن الأثير ١ : ٤٥١ ، القاموس المحيط مادة ح ر ف - (٩) « أشام من خوتنة »
القاموس المحيط مادة خ ت ع - « أشام من البسوس » الأغاني ٥ : ٣٥ - (١٠) « أشام من عطر منشم »
شرح ديوان زهير للشتمري ، شرح المعلقات للتبريزي (١٢ - ١٤) - « أرى . . . عليم » العقد الفريد
٤ : ٣٢٠ - ٣٢١ ط الأزهرية ١٩١٣ م - (١٥ - ١٧) « قال . . . سعد » الحيوان ١ : ٣٥٨ ط الحلبي .

خذ بقولى ، ودع قولَ أبي العاص . وخذ بقولِ من قال : « عَشٌّ وَلَا تَعْتَرَّ » وبقولِ من قال : « لَا تَطْلُبْ أَثْرًا بَعْدَ عَيْنٍ » ، وبقولِ مَنْ قال : « اَمَلًا حُبِّكَ مِنْ أَوَّلِ مَطْرَةٍ »
 ٣ و « دَعَ مَا يُرِيْبُكَ إِلَى مَا لَا يُرِيْبُكَ » . أَخُوكَ مِنْ صَدَقِكَ ، وَمَنْ أَتَاكَ مِنْ جِهَةِ عَقْلِكَ ،
 وَلَمْ يَأْتِكَ مِنْ جِهَةِ شَهْوَتِكَ . وَأَخُوكَ مَنْ احْتَمَلَ ثِقَلَ نَصِيحَتِكَ فِي حِظِّكَ ، وَلَمْ تَأْمَنْ
 لِأُمَّتِهِ إِيَّاكَ فِي غَدِكَ * . وَقَالَ الْآخَرُ :

٦ إِنَّ أَخَاكَ الصَّدْقَ مَنْ لَمْ يَخْدَعَكَ وَمَنْ يَضِيرُ نَفْسَهُ لِيَنْفَعَكَ
 وَقَدْ قَالَ عَمِيدُ بَنِ الْأَبْرَصِ :

وَأَعْلَمَنْ عِلْمًا يَقِينًا أَنَّهُ لَيْسَ يُرْجَى لَكَ مِنْ لَيْسَ مَعَكَ

٩ وَلَا تَزَالُ بَخِيْرًا مَا كَانَ لَكَ وَأَعِظْ مِنْ نَفْسِكَ ، وَعَيْنٌ مِنْ عَقْلِكَ عَلَى طِبَاعِكَ ،
 أَوْ مَا كَانَ لَكَ أَنْخُ نَصِيْحٍ وَوَزِيرِ شَفِيْقٍ ، وَالزَّوْجَةُ الصَّالِحَةُ عَوْنٌ صَدَقَ . وَالسَّعِيْدُ
 مِنْ وُعِظَ بَغْيَرِهِ . فَإِنَّ أَنْتَ لَمْ تُرْزَقْ مِنْ هَذِهِ الْخِصَالِ خَصَلَةٌ وَاحِدَةً ، فَلَا بَدَّ لَكَ مِنْ
 ١٢ نَكْبَةٍ مَوْجَعَةٍ يَبْقَى أَثْرُهَا وَيَلْوَحُ لَكَ ذِكْرُهَا . وَلِذَلِكَ قَالُوا : « خَيْرُ مَا لَكَ مَا نَفَعَكَ » ،
 وَلِذَلِكَ قَالُوا : « لَمْ يَذْهَبْ مِنْ مَالِكَ مَا وَعَظَكَ » .

١٥ إِنَّ الْمَالَ مَحْرُوصٌ عَلَيْهِ ، وَمَطْلُوبٌ فِي قَعْرِ الْبَحَارِ وَفِي رُؤْسِ الْجِبَالِ وَفِي دَغْلِ الْفِيَاضِ ،
 وَمَطْلُوبٌ فِي الْوَعُورَةِ كَمَا يُطْلَبُ فِي السَّهْوَةِ ، وَسَوَاءٌ فِيهَا بَطُونُ الْأَوْدِيَةِ وَظُهُورُ الطَّرِقِ
 وَمَشَارِقُ الْأَرْضِ وَمَغَارِبُهَا . فَطَلِبْتَ بِالْعَزِّ وَطَلِبْتَ بِالذَّلِّ ، وَطَلِبْتَ بِالْوَفَاءِ وَطَلِبْتَ بِالْعَدْرِ ،
 وَطَلِبْتَ بِنَفْسِكَ كَمَا طَلِبْتَ بِالْفَتَكِ ، وَطَلِبْتَ بِالصِّدْقِ وَطَلِبْتَ بِالْكَذِبِ ، وَطَلِبْتَ
 ١٨ بِالْبِذَاءِ وَطَلِبْتَ بِالْمَلَقِ . فَلَمْ تَتْرِكْ فِيهَا حَيْلَةَ وَلَا رَقِيَةَ ، حَتَّى طَلِبْتَ بِالْكَفْرِ بِاللهِ كَمَا
 طَلِبْتَ بِالْإِيْمَانِ ، وَطَلِبْتَ بِالسُّخْفِ كَمَا طَلِبْتَ بِالنَّبْلِ . فَقَدْ نَصَبُوا الْفَخَاخَ بِكُلِّ مَوْضِعٍ ،

(٥) خَيْرُكَ (مَرْسِيَةٌ) - (١٢) وَيَلْزَجُ (مَرْسِيَةٌ) - (١٧) كَمَا طَلِبْتَ (فَانْ فُلُوْتِنَ) .

(١) « عَشٌّ وَلَا تَعْتَرَّ » الْبَهَائِيَةُ لِابْنِ الْأَثِيرِ ٣ : ١١٢ ط الْخَيْرِيَّةُ - (٣) « وَدَع . . . لَا يُرِيْبُكَ » الْبَهَائِيَةُ
 لِابْنِ الْأَثِيرِ ٢ : ١٢٥ - (٦) « إِنَّ . . . لِيَنْفَعَكَ » عِيُونَ الْأَخْبَارِ ٣ : ٤ .

ونصّبوا الشرك بكل ربيع^٣ . وقد طلبك من لا يقصّر دون الظفر ، وحسدك من لا ينام
دُونَ الشفاء . وقد يهدأ الطالب الطوائل ، والمطلوب بذات نفسه ، ولا يهدأ الحريص .
يقال إنه ليس في الأرض بلدة واسطة ، ولا نائية شاسعة^٤ ، ولا طرف من الأطراف ،
٣ إلا وانت واجد بها المديني والبصري والحيري^٥ وقد ترى شنف الفقراء للأغنياء ،
وتسرع الرغبة إلى الملوك ، وبغض الماشي للراكب ، وعموم الحسد في المتفاوتين . فإن^٦
لم تستعمل الحذر ، وتأخذ بنصيبك من المداراة ، وتعلم الحزم وتجالس أصحاب الاقتصاد ،
وتعرف الدهور ودهرك خاصة ، وتمثل لنفسك الغير حتى تتوهم نفسك فقيراً ضائعاً ،
وحتى تتهم شمالك على يمينك ، وسمعتك على بصرك ، ولا يكون أحد اتهم عند نفسك
من ثقتك ، ولا أولى بأخذ الحذر منه من أمينك ، اختطفت اختطافاً^٧ واستلبت استلاباً ،
٩ وذوّبوا مالك وتحيفوه ، وألزموه السل ولم يداؤوه .

وقد قالوا : تلى^٨ المال ربه وإن كان أحق ، فلا تكونن^٩ دون ذلك الأحق . وقالوا :
لا تعدم^{١٠} امرأة صناع^{١١} ثلثة ، فلا تكونن^{١٢} دون تلك المرأة . وقد قال الأول في المال المضيع
المسلط عليه شهوات العيال : ليس لها راع ولكن خلية . وليس مالك المال المعفى من
الأضرار ، فيقال فيه : مرعى ولا أكلة ، وعشب ولا بعير^{١٣} . فقصاراك مع الإصلاح
أن يقوم بملء^{١٤} بطنك وبحقائقك^{١٥} ، وبما ينوبك . ولا بقاء للمال على قلة الرعي وكثرة
الحب ؛ فكس في أمرك ، وتقدم في حفظ مالك ، فإن من حفظ ماله فقد حفظ
الأكرمين . والأكرمان الدين والعرض . وقد قيل : « للرمي يراش السهم . وعند
النطاح تغلب القرناء » . وإذا رأيت العرب مستأكلًا وافق عمرا^{١٦} قالت : « ليس عليك
١٨

(١) ربيع ك - (٣) بادية (فان فلوتن) - ساعسه ك - (٤) والحيري ك . قارن عبارة الهمداني في
البلدان ص ٥١ : ٥ « ومن دخل فرغاة القصوى والسوس الأقصى لا بد أن يجد فيهما بصرياً أو حبيرياً » -
(٥) وإن ك - (٩) واحتفظت احتفاظاً (فان فلوتن) - (١٠) ذوبوا (فان فلوتن) - (١١) بلى ك ،
ابلى (فان فلوتن) - (١٢) من ضياع ك ، [امرأة] صناع (فان فلوتن) - المرأة ك ، الصناعات (فان فلوتن) -
(١٤) و [لا] بعير ك - (١٥) يقولك ك - وبحوائجك (فان فلوتن) - (١٨) عدماً (فان فلوتن)

(١ - ٢) « وقد . . . الشفاء » عيون الأخبار ٢ : ٢١٦ - (١٦ - ١٧) « فان . . . والعرض » عيون
الأخبار ١ : ٢٤٤ .

نَسْبُهُ ، فَاسْحَقُ وَخَرَقٌ * « وقد قال رسول الله صلى الله وسلم : النَّاسُ كُلُّهُمْ سَوَاءٌ كَأَسْنَانِ الْمُسْطِ ، وَالْمَرْهُ كَثِيرٌ بِأَخِيهِ . وَلَا خَيْرَ لَكَ فِي صُحْبَةِ مَنْ لَا يَرَى لَكَ مِثْلَ مَا يَرَى لِنَفْسِهِ . ٣

فَتَعَرَّفْ شَأْنَ أَصْحَابِكَ ، وَمَعْنَى جِلْسَانِكَ : فَإِنْ كَانُوا فِي هَذِهِ الصِّفَةِ فَاسْتَعْمَلِ الْحَرَمَ ، وَإِنْ كَانُوا فِي خِلَافِ ذَلِكَ عَمَلْتَ عَلَى حَسَبِ ذَلِكَ .

٦ إِنْ لَسْتُ أَمْرُكَ إِلَّا بِمَا أَمَرَكَ بِهِ الْقُرْآنُ : وَلَسْتُ أَوْصِيكَ إِلَّا بِمَا أَوْصَاكَ بِهِ الرَّسُولُ ،

وَلَا أَعْظُكَ إِلَّا بِمَا وَعَظَّ بِهِ الصَّالِحُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا . قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

« اعْتَمِلْهَا وَتَوَكَّلْ » ، وَقَالَ مَطْرَفُ بْنُ الشَّخِيرِ * : « مَنْ نَامَ تَحْتَ صَدْفٍ مَائِلٍ وَهُوَ

٩ يَنْوِي التَّوَكُّلَ ، فَلْيُرْمِ بِنَفْسِهِ مِنْ طِمَارٍ وَهُوَ يَنْوِي التَّوَكُّلَ » . فَأَيْنَ التَّوَقُّي الَّذِي أَمَرَ اللَّهُ

بِهِ ؟ وَأَيْنَ التَّنْغِيرُ الَّذِي نَهَى عَنْهُ ؟ وَمَنْ طَمِعَ فِي السَّلَامَةِ مِنْ غَيْرِ تَسَلُّمٍ فَقَدْ وَضَعَ الطَّمِعَ

فِي مَوْضِعِ الْأَمَانِيِّ . وَإِنَّمَا يَنْجِزُ اللَّهُ الطَّمِعَ إِذَا كَانَ فِيهَا أَمْرٌ بِهِ ، وَإِنَّمَا يَحَقِّقُ مِنَ الْأَمَلِ

١٢ مَا كَانَ هُوَ الْمَسْبَبُ لَهُ . وَفَرَّ عُمرُ مِنَ الطَّاعُونَ ، فَقَالَ لَهُ أَبُو عُبَيْدَةَ : « أَنْفَرُ مِنْ

قَدَرِ اللَّهِ ؟ » قَالَ : « نَعَمْ إِلَى قَدَرِ اللَّهِ » ، وَقِيلَ لَهُ : « يَنْفَعُ الْحَذَرَ مِنَ الْقَدَرِ ! » ،

فَقَالَ : « لَوْ كَانَ الْحَذَرُ لَا يَنْفَعُ لَكَانَ الْأَمْرُ بِهِ لَعَوًّا » . فَيَبْلَاءُ الْعُدْرَةَ هُوَ التَّوَكُّلُ . وَقَالَ

١٥ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِرَجُلٍ قَالَ فِي خِصُومَةٍ : حَسْبِيَ اللَّهُ : « أَبْلِ اللَّهِ عُدْرًا ،

فَإِذَا أَعْجَزَكَ أَمْرٌ فَقُلْ : حَسْبِيَ اللَّهُ » . وَقَالَ الشَّاعِرُ :

وَمَنْ يَكُ مِنْكَ ذَا عِيَالٍ وَمُقْتَرًا مِنْ الْمَالِ يَطْرَحُ نَفْسَهُ كُلَّ مَطْرَحٍ

١٨ لِيُبَلِّغَ عُدْرًا أَوْ لِيُبَلِّغَ حَاجَةَ وَبُلْبُغُ نَفْسٍ عُدْرَهَا مِثْلُ مَنْجِحٍ

(١) فاسحق وخرق (مريه) : فاسحب وخرقك ، فاسحب وجر (الميداني) - (٢) [كثير]

(فان فلوتين) - (٧) ونظكك - (١١) ينجز (فان فلوتين) : سجدك - (١٤) هو ك : من (فان فلوتين)

(١٩١ : ١٨ - ١٩٢ : ١) « ليس... وخرق » مجمع الأمثال للميداني ٢ : ١٣٨ ط ١٣٥٢ هـ .

(٨ - ٩) « من نام... التوكل » النهاية لابن الأثير ٣ : ٤٩ - (١٧ - ١٨) « من يك... »

منجح « عيون الأخبار ١ : ٢٣٨ (لاوس بن حجر) ، الأمل ٢ : ٢٣٤ (لعروة بن الورد) .

وقال الآخر :

فإن يكن القاضي قَضَى غيرَ عادلٍ فبعدَ أمورٍ لا ألوم لها نفسى

وقال زهير الباهي* : « إن كان التوكّل أن أكون متى أخرجتُ* مالى أيقنتُ ٣

بالخلف ، وجعلتُ الخلف مالا يرجع فى كيسى ، ومتى مالم أحفظ أيقنتُ بأنه محفوظ ، فإنى أشهدكم أنى لم أتوكّل قط . إنما التوكّل أن تعلم أنك متى أخذتَ بأدب الله أنك تتقلب

فى الخيرة مجزى* بذلك* إما عاجلا وإما آجلا ، ثم قال : « فلم تجر* أبو بكر؟ ولم تجر ٦

عمر؟ ولم تجر عثمان؟ ولم تجر الزبير؟* ولم تجر عبد الرحمن؟* ولم علم عمر الناس يتجرون ، وكيف يشترّون ويبيعون؟ ولم قال عمر : إذا اشتريتَ حملا فاجمله ضحما ،

فإن لم يبيعه الخبيرُ باعه المنظر؟ ولم قال عمر : « فرّقوا بين المنايا ، واجعلوا الرأس رأسين »؟ ٩

ولم قال عثمان ، حين سئل عن كثرة أرباحه ، قال : « لم أرد من ربح قط »؟ ولم قيل : لا تشتري عيباً ولا شيباً*؟ وهل حَجَرَ على بنُ أبى طالب على ابن أخيه عبد الله بن جعفر*؟

إلا فى إخراج المال فى غير حقّه ، وإعطائه فى هواه؟ وهل كان ذلك إلا فى طلب الذكر ، ١٢

والتماس الشكر؟ وهل قال أحدٌ إن إنفاقه كان فى الخمر والقمار ، وفى الفسولة والفجور؟ وهل كان إلا فيما تسمونه جوداً وتعذونه كراماً؟ ومن رأى أن يحجر على الكرام

لكرامهم ، رأى أن يحجر على العلماء لحلمهم . وأى إمام بعد أبى بكر تريدون؟ وبأى* ١٥

سلف بعد على* تقتدون؟ » .

وكيف نرجو الوفاء والقيام بالحق ، والصبر على النائبة ، من عند لعموظ مستأكل

وملاقى مخادع ومنهوم بالطعام شره ، لا يُبالى بأى شىء أخذ الدرهم ، ومن أى وجه ١٨

(٣) الباهي (فان فلوتن) : التابى ك - خرجت ك - (٦) مجزى ، كذا (فان فلوتن) : محرى ك -

نيتك (فان فلوتن) - تجرأ ك (فى الجميع) - (١١) سيبا ك - (١٥) وأى ك .

أصاب الدينار* ، ولا يكثرُ لعنة ولا يبالي أن يكون أبداً منهوماً منقوماً* عليه، وليس يُبالي إذا أكل كيف كان ذلك الطعام ، وكيف كان سببه وما حكمه . فإن كان مالك قليلاً فإنما هو قوام عيالك ، وإن كان كثيراً فاجعل الفاضل عدة لنوائبك* . ولا يأمن الأيَّام إلا المزلَّ ، ولا يفتُرُ بالسلامة إلا المغفل . فاحذر طوارق البلاء وخُدع رجال الدهاء . سمنك في أديمك ، وغنك خيرٌ من سمين غيرك لو وجدته ، فكيف ودونه* أسل حِداد وأبواب شِداد . ٦

قالت امرأة لبعض العرب : « إن تزوجتني كفتيتك » ، فأنشأ يقول :
 إذا لم يكن لي غيرُ مالك مسني خصاص وبان الحمدُ مني والأجر
 وما خيرُ مال ليس نافع أهله وليس شيخ الحى في أمره أمر
 وقال المعلوط القريبي* :

أباهاني لا تسأل الناسَ والتمس* بكفيتك ستر الله ، فالله واسع
 فلو تسأل الناسَ التراب لأوشكوا إذا قلت : هاتوا ، أن يملؤا فيمنعوا ١٢

(١) الدنيا ك - ميعوماك ، منعموا (فان فلوتن) - (٣) لعدة نوائبك ك - (٥) ودونه (فان فلوتن) : ودونها ك .

(٥) « سمنك في أديمك » انظر مجمع الأمثال للميداني ١ : ٣٥٠ - (١١ - ١٢) « أباهاني... فيمنعوا » عيون الأخبار ٣ : ١٨٨ .

طرف شتى

ثم رجع الحديث إلى أحاديث البُخلاء وإلى طرف معانيهم وكلامهم :
 قال ابن حسان : كان عندنا رجلٌ مُقِلٌّ ، وكان له أخٌ مكثِرٌ ، وكان مُفْرِطُ البخل ، ٣
 شديد النَفَج . فقال له يوماً أخوه : « ويحك ، أنا فقيرٌ مُعِيلٌ ، وأنت غنيٌّ خفيفُ الظهر ،
 لا تعينني على الزمان ، ولا تؤاسيني ببعض مالك ، ولا تتفرَّج لي عن شيء ؟ والله ما رأيت
 قط ، ولا سمعتُ ، بأبخلَ منك » . قال : « ويحك ! ليس الأمرُ كما تظنُّ ، ولا المالُ كما ٦
 تحسب ، ولا أنا كما تقولُ في البُخلِ ولا في اليُسْرِ . والله لو ملكتُ ألفَ ألفِ درهمٍ
 لوَهبتُ لك منها خمسَ مائةِ ألفِ درهمٍ . يا هؤولاءُ ، فرجلٌ يهبُ ضربةً* واحدةً خمسَ
 مائةِ ألفٍ يقالُ له بخيلٌ ؟ » ٩

وأما صاحبُ الثريدةِ البلقاء ، فليس عَجَبِي من بُلقةِ ثريدتهِ وسائر ما كان يظهرُ على
 خِوانه ، كعَجَبِي من شيءٍ واحدٍ ، وكيفَ ضبطَه وحصرَه وقوىَ عليه . معَ كثرةِ
 أحاديثه وصنوفِ مذاهبه . وذلك أني في كثرةِ ما جالسته ، وفي كثرةِ ما كان يفتنُ ١٢
 فيه من الأحاديث ، لم أره خبِرَ أن رجلاً وهبَ لرجلٍ درهماً واحداً . فقد كان يفتنُ في
 الحِزْمِ والعِزْمِ* ، وفي الحِلْمِ والعِلْمِ ، وفي جميعِ المعاني ، إلا ذكرَ الجود ، فإني لم أسمعَ هذا
 الاسمَ منه قط . خرجَ هذا البابُ من لسانه ، كما خرَّجَ من قلبه . ١٥

ويؤكِّد ما قلتُ فيه ما حدثتني به طاهرُ الأسيير ، فإنه قال : وممَّا يدلُّ على أن الرومَ
 أبخلُ الأممِ أنك لا تجدُ للجودِ في لغتهمِ اسماً . يقول : إنما يُسمَّى* الناسُ ما يحتاجون
 إلى استعماله ، ومع الاستغناء يسقط التكلف . وقد زعمَ ناسٌ أن مما يدلُّ على غشٍّ ١٨
 الفرس أنه ليس للتصحية في لغتهم اسمٌ واحدٌ يجمعُ المعاني التي يقعُ عليها هذا الاسمُ .

(٨) > في < ضربة (فان فلوتين) - (١٤) الحزم والعزم (فان فلوتين) : في الحزم وفي الحلم والعا
 والعزم ك - (١٧) سمى (فان فلوتين) .

وقول القائل : « نصيحة » ليس يُراد به سلامة القلب ، فقد يكونُ أن يكونَ الرجل سليمَ الصدر ، ولم يحدثُ سببٌ من أجله يقصدُ إلى المشورة عليك بالذى هو أردُّ عليك — على حسب رأيه فيك — ووجهٌ * لنفعلك . ففي لغتهم اسمٌ للسلامة ، واسمٌ لإرادة الخَيْر ، وحُسن المشورة ، وحملكِ بالرأى على الصواب . فللنصيحةِ * عندهم أسماءٌ مختلفة ، إذا اجتمعت دلت على ما يدلُّ عليه الاسم الواحد في لغة العرب . فمن قضى عليهم بالغشُّ من هذا الوجه فقد ظلم .

وحدثني إبراهيم بنُ عبد العزيز * ، قال : تغديتُ مع راشد الأعمور ، فأتونا بجامٍ فيه بياح سبخى * ، الذى يقال له الدرّاج . فجعلتُ أخذُ الواحدة فأقطعُ رأسها ، ثم أعزله . ثم أشقتها باثنين من قبل بطنها ، فأخذ شوكة الصلب والأضلاع ، فأعزها ، وأرمى بما في بطنها ، وبطرف الذنب والجناح ثم أجمعها في لقمة واحدة وآكلها . وكان راشد يأخذ البياحة فيقطعها قطعتين ، فيجعل كل * قطعة في لقمة ، لا يُلقى رأساً ولا ذنباً .

فصبرلى على لقمِ عدة . فلما بلغتُ المجهود منه قال : « أى بنى إذا أكلت الطعام فكل خيره بشره » .

قال : وكان يقول : لم أنتفع بأكل التمر قط إلا مع الزنج وأهل أصهبان . فأما الزنجى فإنه لا يتخير وأنا أنخير ، وأما الأصهبان فإنه يقبضُ القبضة ولا يأكل من غيرها ، ولا ينظرُ إلى ما بين يديه حتى يفرغ من القبضة . وهذا عدل ، والتخيرُ قرفة وجور . لا جرم أن الذى يبقى من التمر لا ينتفع به العيال إذا كان قدّام من يتخير .

وكان يقول : ليس من الأدب أن تجول يدك في الطبق ، وإنما هو تمر وما أصاب * .

وزعم سري بن مكرم ، وهو ابن أخى موسى بن جناح ، قال : كان موسى يأمرنا ألا نأكل مادام أحد منّا مشغولاً بشرب الماء وطلبه . فلماً رأنا لانطاوعه دعا ليلة

(٣) وجهك ، وجهها (فان فلوتن) - (٤) فالنصيحة (فان فلوتن) - (٨) لعله : من الذى أو وهو الذى أو نحو ذلك - (٩) بهاك - (١١) فيجعل [كل] ك ، فجعل [كل] (فان فلوتن) - (١٨) كذا فى ك ، وما أصابت يدك (دى جويه)

بالماء، ثم خطَّ بإصبعه خطأً في أرزّة كانت بين أيدينا، فقال: هذا نصيبي، لا تعرضوا له، حتى أنتفع بشرب الماء.

٣ وأحاديثه في صدر الكتاب، وهذا منها.

وقال المكيّ * لبعض من كان يتعشى ويفطر عند الباسيانيّ: ونحکم! كيف تسينون طعامه، وأنتم تسمعونه يقول: «إنما نطعمكم لوجه الله، لا نريد منكم جزاءً ولا شكوراً». ثم ترونه لا يقرؤها إلا وأنتم على العشاء، ولا يقرأ غير هذه الآية؟ ٦ أنتم والله ضدّ الذي قال:

ألبانُ لابل تيلة بن مساور مادام يملكها على حرام

٩ وطعام عمران بن أوفى مثله مادام يسلك في البطون طعام

إن الذين يسوغ في أعناقهم زادٌ يمنٌ عليهم للثام

قال: فتى تعجب فاعجب* من خمسين رجلاً من العرب فيهم أبو رافع الكلابي،

١٢ وهو شاعر بذي، يفطرون عند أبي عثمان الأعور. فإطاري من طعام نصراني أشد من إطاري من طعام مسلم يقرأ القرآن ويقول الحق.

وحدثني أبو المنجوف السدوسي *، قال: كنت مع أبي ومعنا شيخ من موالى الحى

١٥ فمررنا بناطور على نهر الأبلّة، ونحن تمبون، فجلسنا إليه. فلم يلبث أن جاءنا بطبق

عليه رطب سكر* وجيسران* أسود، فوضعه بين أيدينا. فأكل الشيخ الذي كان

معنا. فلما رأيتُ أبي لا يأكل لم آكل، وبى* إلى ذلك حاجة. فأقبل الناطور على أبي،

١٨ فقال: «لم لاتأكل؟»، قال: «والله* إني لأشتهيه، ولكن لا أظنّ صاحب الأرض

أباح لك إطعام الناس من الغريب. فلو جئتنا بشيء من السميريز والبرنى لأكلنا»،

(٤) المكي > ذلك < ك - الباسياني (فان فلوتن) - (١١) اعجب ك - (١٦) جيسوان ك ،

انظر ادنى أشير - (١٧) ولي (فان فلوتن)

(٥-٦) «إنما نطعمكم... شكورا» سورة الانسان : ٩ - (٨-١٠) «ألبان... للثام»

الكامل للمبرد ١ : ٤٤ .

- فقال مولانا، وهو شيخ كبير السن: «ولكني أنا لم أنظر في شيء من هذا قط» .
- قال المكي: دخل إسماعيل بن غزوان إلى بعض المساجد يصلي، فوجد الصف تماماً، فلم يستطع أن يقوم وحده، فجذب ثوب شيخ في الصف ليتأخر فيقوم معه. فلما تأخر الشيخ، ورأى إسماعيل الفرج، تقدم فقام في موضع الشيخ، وترك الشيخ قائماً خلفه ينظر في قفاه، ويدعو الله عليه .
- ٦ كان ثمامة محتشم أن يقعد على خوانه من لا يأنس به، ومن رأيه أن يأكل بعض غلمانه معه. فحبس قاسم التمار^{١٠} يوماً على غذائه بعض من محتشمه فاحتمل ذلك ثمامة في نفسه. ثم عاد بعد ذلك إلى مثلها، ففعل ذلك مراراً حتى ضج ثمامة، واستفرغ صبره.
- ٩ فأقبل عليه فقال: «ما يدعوك إلى هذا؟ لو أردتهم لكان لسانى مطلقاً، وكان رسولى يؤدنى عنى. فلم تحبس على طعامى من لا آنس به؟»، قال: «إنما أريد أن أسخيك، فأنفى عنك التبخيل وسوء الظن». فلما أن كان بعد ذلك، أراد بعضهم الانصراف، فقال له قاسم: «أين تريد؟» قال: «قد تحرك بطنى، فأريد المنزل» قال: «فلم لا تتوضأ هنا؟ فإن الكنيف خال نظيف، والغلام فارغ نشيط، وليس من أبى معن حشمة، ومنزله منزل إخوانه»، فدخل الرجل يتوضأ. فلما كان بعد أيام حبس آخر، فلما كان بعد ذلك حبس آخر، فاغتاظ ثمامة، وبلغ في الغيظ مبلغاً لم يكن على مثله قط، ثم قال: «هذا يحبسهم على غذائى لأن يسخيني. يحبسهم على أن يخرأوا عندي لمة؟ لأن من لم يخرأ الناس عنده فهو بخيل على الطعام؟ وقد سمعتمهم يقولون: فلان يكره أن يؤكل عنده، ولم^{١٠} أسمع أحداً قط قال: فلان يكره أن يخرأ عنده» .
- ١٨ وكان قاسم شديد الأكل، شديد الخبط، قذر المواكلة^{١١}. وكان أسخى الناس على طعام غيره، وأبخل الناس على طعام نفسه. وكان يعمل عمل رجل لم يسمع بالحشمة ولا بالتجمل قط. فكان لا يرضى بسوء أدبه على طعام ثمامة، حتى يجر معه ابنه

(٦) وكان (فان فلوتن) - (١٢) بارد ك - (١٨) [و] لم ك - (١٩) قدر اولواكله ك .

إبراهيم . وكان بينه وبين إبراهيم ابنه في القَدَر * ، بقدر ما بينه وبين جميع العالمين . فكانا إذا تقابلا على خوان ثُمَامَة لم يكن لأحد — على أيمانها وشمالهما — حظ في الطيبات .

٣

فأتوه يوماً بقصعة ضَخْمَة فيها ثَرِيدَة كَهَيْئَة الصَّوْمَعَة مَكْلَلَة بِأَكْلِيل من عراق ، بأكثر ما يكون من العراق . فأخذ قاسم الذي يستقبله ، ثم أخذ يَمَنَة ، وأخذ ما بين يدي من كان بينه وبين ثُمَامَة ، حتى لم يدع إلا عَرَقًا قَدَام ثُمَامَة ، ثم مال على جانبه الأيسر فصنع مثل ذلك الصنيع . وعارضه ابنه وحكاه . فلما أن نظرت ثُمَامَة إلى الثريدة مكشوفة القناع ، مسلوحة عارية ، واللحم كله بين يديه وبين يدي ابنه ، إلا قطعة واحدة بين يديه ، تناوَلها فوضَعها قَدَام إبراهيم ابنه . فلم يدفَعها . واحتسب بها في الكرامة والبر .

فقال قاسم لما فرغ من غَدائه : « أما رأيتم إكرام ثُمَامَة لابني ، وكيف خصّه ؟ » فلما حُكِيَ هذا لي ، قلت : « وبلك ما أظن أن في الأرض عَرَقًا أشأم على عيالك منه . هذا أخرجه النغيظ ، وهذا النغيظ لا يتركه حتى يتشفي منك . فإن قدر لك على ذنب فقد والله هلكت ، وإن لم يقدر عليه أقدره لك النغيظ . وأبواب التجني كثيرة ، وليس أحد إلا وفيه ما إن شئت تجعله ذنباً جعلته ، فكيف وأنت ذنوب من قرنتك إلى قدمك ؟ »

وكان ثُمَامَة يفتّر — أيام كان في أصحاب الفساطيط — ناساً ، فكثروا عليه ، وأتوه بالرقاع والشفاعات . وفي حُشوة المتكلمين أخلاق قبيحة ، وفيهم على أهل الكلام ، وعلى أرباب الصناعات ، مِحنة عظيمة . فلما رأى ثُمَامَة ما قد دهمه ، أقبل عليهم — وهم يتعشون — فقال : « إن الله عز وجل لا يستحي من الحق ، كلكم واجب الحق ، ومن لم يجئنا شفاعته فالحرمة كمن تقدمت شفاعته . كما أنالوا استطعنا أن

٢١

(١) القدر ك - (٩) ولم ك - (١٥) تجعله ذنباً جعلته ك : جعلته ذنباً (فان فلوتن) -
(١٨) الرقاق (فان فلوتن) - (٢١) فالحرمة ك : فاكرمه (فان فلوتن) . ولعلها : فالحرمة له .

نعمكم بالبرِّ لم يكن بعضكم أحقَّ بذلك من بعض ، فكذلك أتمَّ إذا أعجزنا أو بدأ لنا ، فليس بعضكم أحقَّ بالحرمان من بعض ، أو بالحمل عليه ، أو بالاعتذار إليه ، من بعض . ومتى قرَّبْتكم وفتحتُ بابي لكم ، وبعدتُ من هُوأ أكثرُ منكم عدداً ، وأغلقتُ بابي دونهم ، لم يكن إدخالي* إياًكم عُذراً لي ، ولا في منع الآخرين حجةً .
فانصرفوا ولم يعودوا* .

٦ قال أبو محمد العروضي : وقعت بين قوم غربة ، فقام المغنيَّ مجز بينهم — وكان شيخاً معتلاً* بخيلاً — فسك رجلٌ بحلقه فعصره ، فصاح : معيشتي معيشتي ، فتبسم وتركه .

٩ وحدثني ابن أبي كريمة ، قال : وهبوا للكِناني المغنيَّ خابية فارغة : فلما كان عند انصرافه وضعوها له على الباب ، ولم* يكن عنده كِراء حمالها ، وأدركه ما يدرك المغنين من التيه ، فلم يحملها ، فكان يركلها ركلة ، فتدحرجُ وتدور بمبلغ حمية الركلة .
١٢ ويقومُ من ناحية كى لا يراه إنسان ، ويرى ما تصنع ، ثمَّ يدنو منها ثم يركلها أخرى ، فتدحرجُ وتدور ، ويقف من ناحية . فلم يزل يفعلُ ذلك إلى أن بلغ بها المنزل .

قالوا : كان عبدُ النور كاتبُ إبراهيم بن عبد الله بن الحسن قد استخفى بالبصرة ، في عبد القيس ، من أمير المؤمنين أبي جعفر وعماله . وكان في غرفة قدامها جناح ، وكان لا يطلع رأسه منها . فلما سكن الطلبُ شيئاً ، وثبت عنده حُسن جوار القوم ، صار يجلس في الجناح ، يرضى بأن يسمع الصوتَ ولا يرى الشخص ، لما في ذلك من الأُس عند طول الوحشة ، فلما طالت به الأيام ، ومرت أيام السلامة ، جعل في الجناح خرقاً بقدر عينه . فلما طالت الأيام صلر ينظر من شقِّ باب كان مسموراً . ثم ما زال يفتحه الأوَّل فالأوَّل ، إلى أن صار يُخرج رأسه ، ويبدى وجهه . فلما لم ير شيئاً يُريه ،

(٤) > في < ادخالي (فان فلوتين) - (٥) ولا تعودوا (فان فلوتين) - (٧) معيلا (فان فلوتين) - (١٠) فلم (فان فلوتين) .

- قعد في الدهليز ، فلما ازداد * في الأنس ، جلس على باب الدار ، ثم صلى معهم في
مُصْلَامٍ ودَخَلَ ، ثم صلى بعد ذلك وجلس . والقومُ عرب ، فكانوا * يفيضون في
الحديث ، ويذكرون من الشعر * الشاهد والمثل ، ومن الخبر الأيام * والمقامات . وهو في ٣
ذلك ساكت ، إذ أقبل عليه ذات يوم فتى منهم ، خرج عن أديهم ، وأغفل بعض
ماراضوه به من سيرتهم * ، فقال له : « يا شيخُ إنا قومٌ نخوض في ضروب ، فربما
تكلّمنا بالثلثة ، وأنشدنا الهجاء ، فلو أعلمتنا ممن أنت تجنبنا كل ما يسوءك . ولو ٦
اجتنبنا أشعار الهجاء كلها ، وأخبار المثالب بأسرها ، لم نأمن أن يكون نائونا ومديحنا
لبعض العرب مما يسوءك . فلو عرفتنا نسبك كفييناك سماع ما يسوءك من هجاء قومك ،
ومن مدح عدوك » . فطمه شيخٌ منهم وقال : « لا أم لك ! مِحْنَة كَمِحْنَة الخوارج ، ٩
وتنقير كتنقير العيابين . ولم لا تدع ما يُريبك إلى ما لا يُريبك ، فسكتَ إلا عما توقن *
بأنه يسره ؟ » .
- ١٢ قال : وقال عبدُ النور : ثم إن موضعي نبا بي لبعض الأمر ، فتحوّلت إلى شقِّ بني
تميم . فزلتُ برجل ، فأخذهُ * بالثقة ، وأكمتُ نفسي إلى أن أعرف سبيل القوم .
وكان للرجل كنيّف إلى جانب داره ، يشرع في طريق لا ينفدُ ، إلا أن من مرَّ به في
ذلك الشارع رأى مسقط الغائط من خلاء ذلك الجناح . وكان صاحبُ الدار ضيقُ العيش ، ١٥
فاتسع بزولي عليه . فكان القومُ إذا مرُّوا به ، ينظرون إلى موضع الزبل والغائط ،
فلا يذهبُ قلبى إلى شيء مما كانوا يذهبون إليه . فبينما أنا جالسٌ ذات يوم ، إذ أنا
بأصوات ملتفة على الباب ، وإذا صاحبي ينتفى ويعتذر ، وإذا الجيران قد اجتمعوا إليه ، ١٨
وقالوا : « ما هذا الثلث الذى يسقط من جناحك ، بعد أن كنا لا نرى إلا شيئاً كالبحر
من * ييس الكعك . وهذا ثلث يعبرٌ * عن أكل غض . ولولا أنك انتجعت على

(١) زاد (فان فلوتن) - (٢) وكانوا (فان فلوتن) - (٣) الشعراء (فان فلوتن) - والأيام ك -
(٥) سترهم (فان فلوتن) - (٧) ولم (فان فلوتن) - (٩) مديح (فان فلوتن) - (١٠) يوقن ك -
(١٣) فأخذهُ ، كذا في ك : فأخذته (فان فلوتن) - (١٧) إذا (فان فلوتن) - (٢٠) من (فان فلوتن)
في ك معرك ، يعير (فان فلوتن) - انتجعت (فان فلوتن) : التحقت ك .

- بعض من تستر وتوارى لأظهرته . وقد قال الأول :
- السترُ دونَ الفاحِشَات ولا يَلقَاكَ دونَ الخَيْرِ من سِتر
- ٣ ولولا أن هذا طلبة السلطان لما توارى . فلنسا نأمنُ من أن يجرَّ على الحىُّ بليَّة، ولستُ تبالى إذا حسنتُ حالك في عاجلِ أيامك إلا مَ يفضى بك الحال ، وما تلقى عَشيرتك . فإما أن تُخرِجه إلينا ، وإما أن تُخرِجه عنا .
- ٦ قال عبدُ النور : فقلتُ : هذه والله القيافة ، ولا قيافة بنى مُدلج . إنَّا لله ! خرجتُ من الجنة إلى النار . وقلت : هذا وعيد وقد أَعذر من أنذر . فلم أظنَّ أن اللومَ يبلغ ما رأيتُ من هؤلاء ، ولا ظننتُ أن الكرمَ يبلغ ما رأيتُ من أولئك .
- ٩ شهدتُ الأصعى يوماً ، وأقبلَ على جُلسائه يسألهم عن عيشتهم ، وعمَّا يأكلون ويشربون . فأقبلَ على الذى عن يمينه ، فقال : « أبا فلان ما إدامك ؟ » ، قال : « اللحم » ، قال : « أكلَّ يوم لحم ؟ » ، قال : « نعم » ، قال : « وفيه الصفراء البيضاء والحمرَاء والكدرَاء والحامِضة والحلوة والمرَّة ؟ » . قال : « نعم » . قال : « بشن العيش ! هذا ليسَ عيشَ آل الخطَّاب . كانَ عمر بن الخطَّاب رحمةً اللهُ عليه ورضوانه يضربُ على هذا ، وكان يقول : مُدْمِنُ اللحمِ كمدْمِنِ الخمر » .
- ١٥ ثم سأل الذى يليه ، قال : « أبا فلان ما إدامك ؟ » ، قال : « الآدام الكثيرة والألوان الطيبة » ، قال : « أفى إدامك سمن ؟ » ، قال : « نعم » ، قال : « فتجمَعُ السمن والسمن على مائدة ؟ » ، قال : « نعم » . قال : « ليسَ هذا عيشَ آل الخطَّاب . كانَ ابنُ الخطَّاب رحمةً اللهُ عليه ورضوانه يضرب على هذا . وكان إذا وجدَ القدور المختلفة الطعموم كدَّرها في قدرٍ واحدة ، وقال إنَّ العربَ لو أكلت هذا لقتل بعضها بعضاً » .

(١٩) المعطوم ك .

ثم يُقْبَلُ عَلَى الْآخِرِ، فيقول: «أبا فلان ما إدامك؟»، قال: «اللحمُ السمين، والجداء الرضع»، قال: «فتأكله بالحواري؟»، قال: «نعم». قال: «ليس هذا عيش آل الخطاب. كان ابن الخطاب يضربُ على هذا. أو ما سمعته يقول: أتروني ٣ لا أعرف الطعام الطيب؟ لبابُ البرِّ بصغار المعزى. ألا تراه كيف ينتفى من أكله، وتنتحل معرفته؟».

٦ ثم يقبلُ على الذى يليه، فيقول: «أبا فلان ما أدمك؟»، فيقول: «أكثرُ ما نأكل لحوم الجزور»، وتتخذ منها هذه القلايا، ونجعلُ بعضها شواء»، قال: «أفتأكلُ من أكبادها وأسنمتها، وتتخذ لك الصباغ؟»، قال: «نعم». قال: «ليس هذا عيش آل الخطاب. كان ابن الخطاب يضربُ على هذا أو ما سمعته ٩ يقول: أتروني لا أقدرُ أن أتخذ أكباداً وأفلاذاً وصلائق وصناباً؟ ألا تراه كيف ينكر أكله، ويستحسِّن معرفته؟».

١٢ ثم يقول للذى يليه: «أبا فلان ما أدمك؟»، فيقول: «الشِّبَارِقَاتُ والأخبِصَة والفالوذجات»^{١٠}. قال: «طعام العجم، وعيش كسرى، ولبابُ البرِّ، بلعاب النحل، بخالص السمن». حتى أتى على آخرهم. كل ذلك يقول: «بئس العيش هذا. ليس هذا عيش آل الخطاب. كان ابن الخطاب. يضرب على هذا».

١٥ فلما انقضى كلامه أقبل عليه بعضهم، فقال: «يا أبا سعيد ما أدمك؟»، قال: «يوماً لبن، ويوماً زيت، ويوماً سمن، ويوماً تمر، ويوماً جبن، ويوماً قفار، ويوماً لحم. عيش آل خطاب».

١٨ ثم قال: قال أبو الأشهب: كان الحسن يشتري لأهله كلَّ يوم بنصف درهم لحمًا. فإن غلا فبدرهم، فلما حُبِس عطاؤه كانت مرَّفته بشحم.

(٢) الجدى (فان فلوتن) - (٥) أو ينتحل ك - (٧) الجزر (فان فلوتن).

(١٧) [لبن . . . ويوماً جبن ويوماً] (فان فلوتن) - (١٩) لحم ك.

- وَنَبَّتُ عَنْ رَجُلٍ مِنْ قَرِيْشٍ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ : « مَنْ لَمْ يَحْسِنِ يَمْنَعُ لَمْ يَحْسِنِ يُعْطَى » .
 وَأَنَّهُ قَالَ لِابْنِهِ : « أَيُّ بُنَى إِنْكَ إِنْ أُعْطِيتَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِ الإِعْطَاءِ أَوْثَكَ أَنْ تَسْتَطِيعَ
 ٣ النَّاسَ فَلَا تُعْطَى » . ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْنَا ، فَقَالَ : هَلْ عَلِمْتُمْ أَنَّ الْيَأْسَ أَقْلُّ مِنَ الْقَنَاعَةِ وَأَعَزُّ ؟
 إِنَّ الطَّمْعَ لَا يَزَالُ طَمَعًا ، وَصَاحِبَ الطَّمْعِ لَا يَنْتَظِرُ الْأَسْبَابَ ، وَلَا يَعْرِفُ الطَّمْعُ الْكَاذِبَ
 مِنَ الصَّادِقِ . وَالْعِيَالُ عِيَالَانِ : شَهْوَةٌ مَفْسِدَةٌ وَضُرْسٌ طَحُونٌ ، وَأَكَلَ الشَّهْوَةَ أَثْقَلَ مِنْ
 ٦ أَكْلِ الضُّرْسِ : وَقَدْ زَعَمُوا أَنَّ الْعِيَالَ سُوسُ الْمَالِ ، وَأَنَّهُ لَا مَالَ لِذِي عِيَالٍ . وَأَنَا أَقُولُ
 إِنَّ الشَّهْوَةَ تَبْلُغُ مَا لَا يَبْلُغُ السُّوسُ ، وَتَأْتِي عَلَى مَا يَقْصُرُ دَوْنَهُ الْعِيَالُ : وَقَدْ قَالَ الْحَسَنُ :
 « مَا عَالَ أَحَدٌ قَطَّ عَنْ قَصْدِهِ » ، وَقِيلَ لِشَيْخٍ مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ : « مَا لَكَ لَا يَنْمَى لَكَ
 ٩ مَالٌ ؟ » ، قَالَ : « لِأَنِّي اتَّخَذْتُ الْعِيَالَ قَبْلَ الْمَالِ ، وَاتَّخَذَ النَّاسُ الْمَالَ قَبْلَ الْعِيَالِ » ، وَقَدْ
 رَأَيْتُ مَنْ تَقَدَّمَ عِيَالُهُ مَالَهُ فَجَبَرَهُ الإِصْلَاحَ ، وَرَفَدَهُ الإِقْتِصَادَ ، وَأَعَانَهُ حُسْنَ التَّنْذِيرِ ،
 وَلَمْ أَرْ لَشَهْوَاتِي تَدْبِيرًا ، وَلَا لَشَرْهِي صَبْرًا . وَقَالَ إِيَّاسُ بْنُ مُعَاوِيَةَ * : « إِنْ الرَّجُلَ
 ١٢ يَكُونُ عَلَيْهِ أَلْفٌ فَيُصْلِحُ فَتُصْلِحُ لَهُ الْغَلَّةُ ، وَيَكُونُ عَلَيْهِ أَلْفَانٌ فَيَنْفِقُ أَلْفَيْنِ فَيُصْلِحُ فَتُصْلِحُ
 لَهُ الْغَلَّةُ ، فَيَكُونُ عَلَيْهِ أَلْفَانٌ فَيَنْفِقُ ثَلَاثَةَ آلَافٍ فَيَبِيعُ الْعَقَارَ فِي فَضْلِ النَّفَقَةِ » . وَذَكَرَ
 الْحَدِيثَ عَنْ أَبِي لَيْنَةَ ، قَالَ : « كُنْتُ أَرَى زِيَادًا وَهُوَ أَمِيرِمِرَّ بِنَا عَلَى بَغْلَةَ فِي عُنُقِهَا حَبْلٌ
 ١٥ مِنْ لَيْفٍ مُدْرَجٍ عَلَى عُنُقِهَا » . وَكَانَ سَلْمٌ بْنُ قُتَيْبَةَ يَرْكَبُ بَغْلَةَ وَحَدَهُ ، وَمَعَهُ أَرْبَعَةُ آلَافٍ
 مَرَابِطَةٍ . وَرَأَاهُ الْفَضْلُ بْنُ عِيْسَى عَلَى حِمَارٍ ، وَهُوَ أَمِيرٌ ، فَقَالَ : « قَعُودُ نَبِيٍّ وَبَذَلَةٌ
 جِبَارٌ » ، وَلَوْ شَاءَ أَبُو سَيَّارَةَ أَنْ يَدْفَعَ بِالْعَرَبِ عَلَى جَمَلٍ مَهْرِيٍّ ، أَوْ فَرَسٍ عَتِيقٍ لِفَعْلٍ ،
 ١٨ وَلَكِنَّهُ أَرَادَ هَدْيَ الصَّالِحِينَ : وَحُمِلَ عُمَرُ عَلَى بَرْدُونَ فَهَمَلَجَ تَحْتَهُ ، فَزَلَّ عَنْهُ ، فَقَالَ
 لِأَصْحَابِهِ : « جَبَّوْنِي هَذَا الشَّيْطَانُ » ثُمَّ قَالَ لِأَصْحَابِهِ : « لَا تَطْلُبُوا الْعَرَّ بغيرِ
 مَا أَعَزَّكُمْ اللَّهُ بِهِ » .

(١١) لشره (فان فلوتن) : لشره كـ - (١٦) مرابطة ؟ : رابطة كـ - (١٦ - ١٧) بذلة نبي وقعود جبار كـ .

(٦) « العيال سوس المال » عيون الأخبار ١ : ٢٤٥ - (٨ - ٩) « وقيل . . . العيال » عيون

قد كنتُ أعجب من بعض السلف حيث قال: « ما أعرف شيئاً مما كان الناس عليه إلا الأذنان » ، وأنا أقول ذلك ، ولم يزل الناس في هبوط ما ترفعوا بالإسراف ، وما رفعوا البنيان للمطأولة . وإن من أعجب ما رأيتُ في هذا الزمان أو سمعتُ مفاخرة مؤيس ٣ ابنِ عمران لأبي عبيد الله بن سلمان في أيهما كان أسبق إلى ركوب البراذين . وما للتاجر والمبرذون ؟ وما ركوبُ التجار* للبراذين إلا كركوب العرب للبقر .

لو كانوا إذا جلسوا في الخيوش ، واتخذوا الحمامات في الدور ، وأقاموا وظائف ٦ الثلج والريحان ، واتخذوا القيان والخصيان ، استردَّ الناس ودائمهم ، واسترجعت القضاة أموال الأيتام* والحشرية* منهم ، لعادوا إلى دينهم وعيشتهم واقتصادهم . وإذا رآهم أصحاب الغلات وأهل الشرف والبيوتات أنفوا أن يكونوا دونهم في البزة والهيئة ، ٩ فهلكوا وأهلكوا .

زعم أبو يعقوب الخرمي أن جعفر بن يحيى* أراد يوماً حاجة كان طريقه إليها على باب الأصمعي* ، وأنه دفع إلى خادم له كيساً فيه ألف دينار ، وقال له : « سأنزل في ١٢ رجعتي إلى الأصمعي* ، وسيحدثني ويضحكني . فإذا رأيتني قد ضحكت ، فضع الكيس بين يديه » . فلما دخل فرأى حُباً مقطوع الرأس ، وجرة مكسورة العروة . وقصعة مشعبة ، وجفنة أعشاراً ، ورآه* على مصلى بال ، وعليه بر كان أجرد ، غمز ١٥ غلامه بمينه ألا يضع الكيس بين يديه ، ولا يدفع إليه شيئاً . فلم يدع الأصمعي شيئاً مما يضحك السكلكان والغضبان إلا أورده عليه ، فما تبسم .

فقال له أنس* : « ما أدري من أي أمريك أعجب : أم من صبرك على الضحك ، ١٨ وقد أورد عليك ما لا يصبر على مثله ، أم من تركك إعطائه ، وقد كنت عزمت علي

(٥) التاجر (فان فلوتن) - (٨) الخشوية لك - (١٣) وإذا (فان فلوتن) - (١٥) ورآه

(عيون الأخبار) : ورأه لك ، وزاده (فان فلوتن) - (١٨) أنس (المسعودي) : إفسان لك .

إعطائه، وهذا خلافُ ما أعرُفك به؟»، قال: «ويلك! من استرعى الذئبَ فقد ظلم، ومن زرع سبيخة حصّد الفقر. إني والله لو علمت أنه يكتُم المعروفَ بالفعل، لما احتفلتُ* بنشره له باللسان. وأين يقع مديح اللسان من مديح آثر الغنى على الإنسان. فاللسانُ قد يكذب، والحالُ لا تكذب. لله درُّ نصيب حيثُ يقول:

فعاوجوا فأنثوا بالذي أنتَ أهله ولو سكتوا أثنت عليك الحقائق
أعلمت أن ناووس* ابرويز* أمدح له من شعر زهير لآل سنان بن أبي حارثة. لأنَّ
الشاعر يكذبُ ويصدقُ، وبيانُ المراتبِ لا يكذبُ مرّةً ويصدقُ مرّةً. فلست بعائدٍ
إلى هذا بجمعرُوفُ أبدأ.

كان الأصمعيُّ يتعوذُ بالله من الاستقراض والاستيفاض، فأنعم الله عليه، حتى
صار هو المستقرض منه، والمستقرض ما عنده. فاتفق أن أتاه في يوم واحد رجُلان،
وكان أحدهما يطلبُ القرض، والآخر يطلبُ القرض، هجما عليه معاً، فأبعله ذلك وملاً
صدره ثم أقبلَ على صاحب السلف، فقال:

تبتدلُ الأفعالُ بتبدلِ الحال. ولكل زمان تدير ولكل شيء مقدار، والله في كل
يومٍ في شأن. كان الفقيهُ يمرُّ باللقطة فيتجاوزها ولا يتناولها، كى يُمتحن بحفظها سواء،
إذ كان جُلَّ الناس في ذلك الدهر يؤدون* الأمانة ويحوظون اللقطة، فلماً تبدلوا
وقسدوا، وجب على الفقيه إحرازها والحفظ لها، وأن يصبرَ على ما نابَه من المنة
واختبر* به من الكلفة.

وقد بلغني أن رجلاً أتى صديقاً له يستقرض منه مالا، فتركه بالباب، ثم خرج إليه،

(٢) < أن > لو ك - (٣) احتفلت: ارتعتك، ارتفعت (فان فلوتن) - (٦) ناروس بارويه
ك، ناووس بارويه (فان فلوتن) - (١١) انعله ك، أثقله (فان فلوتن) - (١٥) يزدون (مرسيه)
: يريدونك - (١٧) [و] اختبرك

(٢-١) «من استرعى... ظلم» مجمع الأمثال للميداني ٢: ٢٥٧ - (٥) «فعاوجوا... الحقائق»
الأغاني ١: ٣٣٧.

(٢٠٥: ١١-٢٠٦: ٦) «زعم... سنان» عيون الأخبار ١: ٢٩٩. الوزراء والكتاب للجهشياري
(بايجاز) ص ١٦٠ ط الصاوي، ديوان المعاني (مروية عن القتيبي) ١: ١٢٩ - ١٣٠ ط القدسي.

- مؤتزرأ . فقال له : مالك ؟ قال جئتُ للقتال واللطم وأنخصومة والصخب . قال : ولم ؟ قال : لأنك في أخذ مالي بين حالين : إما أن تذهب به ، وإما أن تملئني به . فلو أخذته ، على طريق البرِّ والصلة ، لاعتدتُ عليك بحق ، ولوجبَ عليك به شكر . وإذا أخذته ٣ من طريق السلف ، كانت العادةُ في الديون والسيرةُ في الإسلاف الردَّ أو التقاضى . وإذا تقاضيتُك أغضبتُك ، وإذا أغضبتُك أسمعتني ما أكره ، فتجمعُ على المطلق وسوء اللفظ والوحشة وإفساد اليد في الإسلاف ، وأنتَ أظلم . فأغضبُ كما غضبتَ ، فإذا ٦ نقلتني إلى حالك فعلتُ فِعلك ، وصرتُ أنا وأنتَ كما قال العربيّ : « أنا تثقُ وصاحبي متق » . فما ظنُّك بتثق * من الفيظ مملوء من الفضب ، لأني متاق من الموق مملوء من الكفران * . ولكنني أدخل إلى المنزل فأخرج إليك مؤتزرأ ، فأعجل لك اليوم ما ادخرته ٩ إلى غد . وقد علمت أن ضرب الموعظة دون ضرب الحقد والسخيمة ، قربحُ صرف ما بين الأيمن ، وفضل ما بين الشمين .
- وبعد ، فأنا أضنَّ * بصدقتي لك ، وأشحَّ على نصبي * منك ، من أن أعرضه ١٢ للفساد ، وأن أعينك على القطيعة ، فلا تلمني على أن كنتَ عندي واحداً من أهل عصرك . فإن كنتَ عندَ نفسك فوقهم وبعيداً من مذهبهم ، فلا تكلف الناسَ علم الغيب فتظلمهم .
- ١٥ ثم قال : وما زالت العارية مؤداة ، والوديعة محفوظة ، فلما قالوا : « أحقَّ الخيل بالركض المَعار » ، بعد أن كان يقال : « أحقَّ الخيل بالصون المَعار » ، وبعد أن قيل لبعضهم : ارفقُ به ، فقال * : إنه عارية ، وقال الآخر : فاقتل ، فسدت العارية ، واستدَّ ١٨ هذا الباب .

(٨) بمثق ك - (٩) النكران (فان فلوتين) - (١٢) أظن ك - نصيبي (فان فلوتين) : نفسى ك (١٨) قال ك .

ولما قالوا :

شمرٌ قميصك ، واستعدّ لنائل واحكك جيبك للقضاء بشوم
 ٣ واخفيض جناحك إن مشيت تحشعاً حتى تصيب ودبعة لئيم
 وحين آكلت الأمانات الأمانة والأوصياء ، ورتع فيها المعدلون والصرافون ، وجب
 حفظها ودفنها ، وكان أكل الأرض لها خيراً من أكل الخؤون الفاجر واللثم الغادر .
 ٦ وهذا مع قول أكرم بن صيفي في ذلك الدهر : « لو سُئلت العارية أين تذهبين ،
 قالت : أ كسب أهلي ذمًا » .

وأنا اليوم أنهى عن العارية والوديعة ، وعن القرض والقرض . وأكره أن يخالف
 ٩ قولي فعلى . أما القرض فلما أنباتك * ، وأما القرض فليس يسعه إلا بيت المال . ولو
 وهبت لك درهماً واحداً ، لفتحت على مالي باباً لا تسدّه الجبال والرمال . ولو استطعت
 أن أجعل دونه ردماً كردم ياجوج وماجوج > لعلت < * . إن الناس فاغرة أفواههم
 ١٢ نحو من عنده دراهم ، فليس يمنعهم من النهس إلا اليأس . وإن طعموا لم تبق رغبة
 ولا ثاغية ، ولا سبد ولا لبد ، ولا صامت ولا ناطق ، إلا ابتلعوه والتهموه . أتدرى
 ما تريد بشيخك ؟ إنما تريد أن تفقره . فإذا أفقرته فقد قتلت . وقد تعلم ما جاء في قتل
 ١٥ النفس المؤمنة .

فلم أشبهه قول الأصمعيّ لهذا الرجل حين قال : « أضن بك ، وأشح على نصيبي منك ،
 من أن أعرضه للفساد » إلا بقول ثمامة حين قال لابن سافري * : « يا عاض بظر أمه .
 ١٨ بالنظر مني أقول لك ، وبالشفقة مني أسبك » . وذلك أنه ندم حين أعضه ، فرأى أن
 هذا القول يجعل ذلك منه يداً ونعمة .

(٩) أنباتكم (فان فلوتن) -- (١١) > لعلت < : ليست بالأصل .

(٢ - ٣) « شمر . . . لئيم » البيان والنتين ٣ : ٨٨ ط الفتح الأدبية ، ١٣٣٢ ؛ الأغاني ١٦ :

١٦٩ مساور الوراق .

وشهدتُ ثمامة، وأتاه رجلان * > قال أحدهما: «لى إلك حاجة» < *، فقال ثمامة:
 «ولى إلك أيضاً حاجة»، قال: «وما حاجتك؟»، قال: «لست أذكركها لك
 حتى تضمن لى قضاءها»، > قال: «قد فعلت * <»، قال: «فحاجتى ألا تسألنى ٣
 هذه الحاجة»، قال: «إنك لا تدري ما هى»، قال: «بلى قد دريت»، قال:
 «فما هى؟»، قال: «هى حاجة. وليس يكونُ الشئ حاجة إلا وهى تموج* إلى شئ
 من الكلفة»، قال: «فقد رجعتُ عما أعطيتك»، قال: «لكنى لا أردتُ ٦
 ما أخذتُ».

فأقبل عليه الآخر*، فقال: «لى حاجة إلى منصور بن النعمان»، قال: «قل:
 لى حاجة إلى ثمامة بن أشرس. لأنى أنا الذى أفضى لك الحاجة، ومنصور يقضيها لى. ٩
 فالحاجة أنا أفضيها لك وغيرى يقضيها لى»، ثم قال: «فأنا لا أتكلم فى الولايات ولا أتكلم
 فى الدراهم من قلوب* الناس ولأن الحوائج تُقتص، فمن سأله اليوم أن يعطيك، سألتى
 غداً أن أعطى غيرك، فتمجلى تلك العطية لك أروح لى. ليس عندي دراهم، ولو ١٢
 كان عندي دراهم لكانت نوائب القائمة الساعة تستغرقها. ولكنى أؤنب لكم من
 شئتم. على لكم من التأنيب كل ما تريدون». قلت له: «فإذا أنبت رجلاً فى أمر
 لم تتقدم فيه بمسألة، كيف يكون جوابه لك؟». فضحك حتى استند إلى الحائط. ١٥
 وجاء مرة أبوهمام السنوط*، يكلمه فى مرمة داره التى تطوع بينائها فى رباط
 عبّادان، فقال: «ذكرتني الطعن وكنت ناسياً. قد كنت عزمْتُ على هدمها حين

(١) رجل (فان فلوتن) - > قال أحدهما لى إلك حاجة < : ليست بالأصل، قال [أحدهما]
 (فان فلوتن) - (٣) > قال قد فعلت < (عيون الأخبار) : ساقطة فى الأصل، قال نعم (فان فلوتن) -
 (٥) تخرج لك - (٨) آخر ك - (١١) كذا فى الأصل : فلوت الناس، ويقترح دى جويه وضعها
 بعد كلمة «تنقص». (١٤) أنبت لك، أنبت (فان فلوتن) - (١٦) المسوط لك.

(٧ - ١) «وشهدت . . . ما أخذت» عيون الأخبار ٣: ١٣٧ - (١٧) «ذكرتني. . . ناسياً» عيون
 الأخبار ١٨ : ١٧٥، الفاخر ص ١١٤، الأمالى أ : ١٩٢، تاريخ الطبرى ٥ : ١٣٨ (على لسان
 الحجاج)، محاضرات الراغب ١ : ١٧ ط الشرفية.

- بَلَّغْنِي أَنَّ الْجَبْرِيَّةَ قَدْ نَزَلَتْهَا ، قَالَ : « سَبَحَانَ اللَّهِ تَهْدِمُ مَكْرُمَةَ وَدَارًا قَدْ وَقَفَتْهَا
 لِلسَّيْلِ ؟ » ، قَالَ : « فَمَعْجَبٌ مِنْ ذَا ؟ قَدْ أَرَدْتُ أَنْ أَهْدِمَ الْمَسْجِدَ الَّذِي كُنْتُ بَيْنَهُ
 ٣ لِيَزِيدَ بِنِ هَاشِمٍ حِينَ تَرَكَ أَنْ يَبْنِيَهُ فِي الشَّارِعِ ، وَبَنَاهُ فِي الرَّائِغِ * ، وَحِينَ بَلَّغْنِي أَنَّهُ يَخْلِطُ
 فِي الْكَلَامِ ، وَيَعِينُ الشَّمْرِيَّةَ * عَلَى الْمَعْتَزِلَةِ . * فَلَوْ أَرَادَهُ أَبُو هَمَامٍ وَجَدَ مِنْ * ثَمَامَةَ مَرِيدًا
 جَمِيعَ مَسَاحَةِ الْأَرْضِ * . وَكَانَ حِينَ يَسْتَوِي لَهُ * اللَّفْظُ لَا يَنْظُرُ فِي صِلَاحِ الْمَعَانِي مِنْ فِسَادِهَا .
 ٦ وَتَمَشَّى رَجُلٌ إِلَى الْغَاضِرِيِّ * * > قَالَ < * : « إِنْ صَدِيقُكَ الْقَادِمِي * قَدْ قَطَعَ عَلَيْهِ
 الطَّرِيقَ » ، قَالَ : « فَأَيُّ شَيْءٍ تَرِيدُ ؟ » ، قَالَ : « أَنْ تُخْلِفَ عَلَيَّ » ، قَالَ : « فليس
 عَلَيْهِ قَطَعَ الطَّرِيقُ ، بَلْ عَلَى قَطَعَ » .
 ٩ وَأَتَى ابْنَ أَشْكَابِ * الصَّيْرَفِيِّ صَدِيقًا لَهُ ، يَسْتَلْفُ مِنْهُ مَالًا . فَقَالَ : « لَوْ شِئْتُ أَنْ
 أَقُولَ لَقَلْتُ ، وَأَنْ أَعْتَلَّ أَعْتَلْتُ ، وَأَنْ أَسْتَعِيرَ بَعْضَ كَلَامٍ مِنْ يَسْتَلْفُ مِنْهُ إِخْوَانَهُ
 فَعَلْتُ . وَلَيْسَ أَرَى شَيْئًا خَيْرًا مِنَ التَّصْحِيحِ * وَقَشْرِ الْعَصَا . لَيْسَ أَفْعَلُ . فَإِنْ التَّمَسْتُ لِي
 ١٢ عُدْرًا فَهِيَ أَرْوَحَ لِقَلْبِكَ ، وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَهِيَ شَرُّ لَكَ » .
 وَضَاقَ الْقَيْضُ بْنُ يَزِيدَ ضَيْقًا شَدِيدًا ، فَقَالَ : « وَاللَّهِ مَا عِنْدَنَا مِنْ شَيْءٍ نَعُوَّلُ
 عَلَيْهِ ، وَقَدْ بَلَغَ السَّكِينُ الْعَظْمَ . وَالْبَيْعُ لَا يَكُونُ إِلَّا مَعَ طَوْلِ الْمُدَّةِ . وَالرَّأْيُ أَنْ
 ١٥ تُنْزَلَ هَذِهِ النَّائِبَةُ بِمُحَمَّدِ بْنِ عَبَّادٍ * ، فَإِنَّهُ يَعْرِفُ الْحَالَ وَصِحَّةَ الْمَعَامَلَةِ وَحَسْنَ الْقَضَاءِ
 وَمَا لَنَا مِنَ السَّبَبِ الْمُنْتَظَرِ . فَلَوْ كَتَبْتُ إِلَيْهِ كِتَابًا لَسَرَّهُ ذَلِكَ وَلَسَدَّ مَنَا هَذِهِ الْخَلَّةُ
 الْقَائِمَةُ السَّاعَةَ » .

- ١٨ فَتَنَاوَلَ الْقَلَمَ وَالْقِرْطَاسَ ، لِيَكْتُبَ إِلَيْهِ كِتَابَ الْوَائِقِ الْمُدِلِّ ، لَا يَشْكُ أَنَّهُ سَيَتَلَقَّى
 حَاجَتَهُ بِمِثْلِ مَا كَانَ هُوَ الْمُتَلَقَّى لَهَا مِنْهُ . وَمَضَى بَعْضُ مَنْ كَانَ فِي الْمَجْلِسِ إِلَى مُحَمَّدٍ

(٣) الرائغ ؟ (فان فلوتن) : الرابع ك - (٤ - ٥) « فلو . . . الأرض » كذا في الأصل ، وجد
 من (فان فلوتن) : وحدم ك ، فلو أرادته أبو همام وجد من ثمامة مزيداً جميع مساحة الأرض (دى جويه) -
 (٥) له : لك ك - (٦) > قال < : ساقطة في الأصل - العادمي ك - (٩) بل سكاب ك ، ابن سكاب
 (فان فلوتن) - (١١) كذا ، ولعلها : التصريح .

ابن عباد ليشره بسرعة ورود حاجة الفيض إليه . فأتاه أمر لا يقوم > له إلا بأن يتقدم با < ° لكتابة ، ليشغله بمحاجته إليه عن حاجته إليه ، فكتب إليه :

- ٣ « مالى يضعف ، والدخّل قليل ، والعيال كثير ، والسعر غال ، وأرزاقنا من الديوان قد احتُبست ، وقد تفتحت علينا من أبواب النوائب فى هذه الأيام ما لم يكن لنا فى حساب . فإن رأيت أن تبعتّ إلّى بما أمكنك فمجلّ به ، فإن بنا إليه أعظمّ الحاجة » .
- ٦ فورد الكتابُ على الفيض قبلَ نفوذِ كتابه إليه ، فلما قرأه استرجع وكتبَ إليه :
- « يا أخى تضاعفت على المصيبة ، حتّى جمعت خلة عيالك إلى خلة عيالى . وقد كنت على الاحتيال لهم ، وسأضطرب فى وجوه الحيل * غيرَ هذا الاضطراب ، وسأتحرك فى بيع ما عندى ، ولو ببعض الطرح » .

- ٩ فلما رجع الكتاب إلى ابن عباد سكن ، وألقى صاحبه فى أشدّ الحركة وأتعب التعب وكان رجل من أبناء الحربيّة له سخاء وأريحية ، وكان يُكثّر من استزارة ابن عباد ، ويتلف عليه من الأموال ، من طريق الرغبة فى الأدباء وفى مشايخ الظرفاء . وكان يظنُّ
- ١٢ — بكرمه — أن زيارته ابن عباد فى منزله زيادةٌ فى الموانسة . وقد كان بلغه إمساكه ، ولسكنه لم يظنّ أنه لا حيلة فى سببه .

- ١٥ فأتاه يوماً متطرّفاً ، وقال : « جئتك من غير دعاء ، وقد رضيتُ بما حَصَرَ » ، قال : « فليس يحضر شىء . » وقولك : ” بما حضر ” لا بدّ من أن يقع على شىء . » قال : « فقطعة مالح » ، قال : « وقطعة مالح ليس هى شىء ؟ » ، قال : « بلى » ، > ثم < قال : « فنحن نشربُ على الريق » ، قال : « لو كان عندنا نبيذ كتنا فى عرس » ، قال : « فأنا أبعثُ إلى نبيذ » ، قال : « فإذا صرت إلى تحويل النبيذ ، فحوّل أيضاً ما يصلح للنبيذ . » ، قال : « ليس يمنعنى من ذلك ، ومن إحضار النقل والريحان إلا لأنى * أحسب لك هذه الزورة بدعوة ، وليس يجوزُ ذلك إلا بأن يكون لك فيها أثر » . قال محمد : « فقد انفتح لى

(١ - ٢) زيادة مفترضة لتقوم السياق - (٨) الجبل (فان فلوتين) - (١٧) قال فنحن ك ، فنحن (فان فلوتين) - (٢٠) لأن ك ، أن (فان فلوتين) .

بابٌ لكم فيه صلاح ، وليسَ عليّ فيه فساد . في هذه النخلة زَوْجٌ ورشان* ، ولهما
 قَرخان مُدرِكان . فإنَّ نحن وجدنا إنساناً يصعدُها — فإنها سحيقةٌ منجَرَدَةٌ — ولم
 ٣ يطيرا — فإنهما قد صارا ناهِضين — جعلنا الواحدَ طُباهِجَةً ، والآخرَ كَرْدانِجاً ، فإنه
 يومُ كَرْدانِج* .

فطلبوا في الجِيران إنساناً يصعد تلك النخلة ، فلم يقدرُوا عليه ؛ فدلوهم على أكارٍ لبعض
 ٦ أهل الحريّة . فما زال الرسول يطُلبه ، حتّى وقع عليه . فلما جاء به* ونظر إلى النخلة ،
 قال : « هذه لا تصعد ولا يُرتقى عليها إلا بالتبلييا والبرَبند* ، فكيف أرومها أنا
 بلا سَبَب ؟ » ، فسألوه أن يلمس لهم ذلك ، فذهبَ فغَبَر ملبياً ، ثم أتاهم به . فلما صار في
 ٩ أعلاها طارَ أحدهما وأنزل الآخر فكان هو الطُباهِج والكَردانِج ، وهو الغداء وهو العشاء .
 وكتب إبراهيمُ بن سيّابة* إلى صديق له ، يُساويه في الأدب ، ويرتفع عليه في الحال
 — وكان كثير المال ، كثير الصامت — يستسلف منه بعض ما يرتفق به ، إلى أن
 ١٢ يأتيه بعض ما يؤمل . فكتبَ إليه صديقه هذا يعتذر ، ويقول : « إن المالَ مكذوبٌ
 له وعليه ، والناسُ يضيّفون إلى الناس في هذا الباب ما ليسَ عندهم . وأنا اليومَ مُضيق .
 وليستَ الحالُ كما نحبُّ . وأحقُّ من عذَر الصديق العاقل » ، فلما وردَ كتابه على ابنِ
 ١٥ سيّابة > كتبَ إليه < : « إن كنتَ كاذباً فجعلك الله صادقاً ، وإن كنتَ ملوماً
 فجعلك الله معذوراً » .

(٢) وإن (فان فلوتن) - (٦) [به] (فان فلوتن) - (١٥) > كتب إليه < : ساقطة في الأصل

(١٥ - ١٦) « وكتب . . . معذوراً » البيان والتبيين ١ : ٣٠٨ ط ١٩٣٢ م ، المحاسن والمساور
 ص ٢٧٩ ، المحاسن والأضداد ٦٠ ، الأغاني ١١ : ٦ .

أطراف من علم العرب في الطعام

- قال عمرو الجاحظ : احتجنا عند التطويل ، وحين صار الكتاب طويلاً كبيراً ، إلى أن يكون قد دخل فيه من علم العرب وطعامهم ، وما يتأدحون به وما يتهاجون به شيء ، ٣ وإن قل ، ليكون الكتاب قد انتظم جمل هذا الباب . ولولا أن يخرج من مقدار شهوة الناس ، لكان الخبر عن العرب والأعراب أكثر من جميع هذا الكتاب .
- ٦ الطعام ضروب . والدعوة اسم جامع ، وكذلك الزلة . ثم منه العرس والخرس والإعذار والوكيرة والنفقة . والمأذبة اسم لكل طعام دُعيت إليه الجماعات . قال الشاعر :
- نحن في المشتاة ندعو الخفلى لا ترمى الأدب فينا ينتقر
- وجاء في الحديث : « القرآن مأذبة الله » . وقد زعم ناس أن العرس هو الوليمة لقول النبي صلى الله عليه وسلم لعبد الرحمن : « أولم ولو بشاة » ، وكان ابن عوز* والأصمعي من بعده يذمان عمرو بن عبيد* ، ويقولان : لا يجيب الولائم . يجعلان طعام الإملاك والإعراس والسبوع والختان وليمة . والعرس معروف ، إلا أن المفضل الضبي زعم أن هذا الاسم مأخوذ من قولهم : « لا عطر بعد عروس » . وكان الأصمعي يجعل العروس رجلاً بعينه ، كان بنى على أهله فلم يتعطر له ، فسمى بعد ذلك كل بن على أهله بذلك الاسم . ومثل هذا لا يثبت إلا بأن يستفيض في الشعر ، ويظهر في الخبر ١٥
- وأما الخرس فالطعام الذي يتخذ صبيحة الولادة للرجال والنساء . وزعموا أن أصل ذلك مأخوذ من الخرس ، والخرس طعام النساء . قالت جارية وكادت حين لم يكن لها من يخدمها ويمارس لها ما يمارس للنساء : « تخرسى لا خرس لك » . وفي الخرس ١٨ يقول مساور الوراق* :

(٨) « نحن . . . ينتقر » الكامل للمبرد ٣ : ٢٣ ، العقد الفريد ٤ : ٢٩٣ ط الأزهرية ، ١٩١٣ م (لطفه) - (١٣) « لا عطر بعد عروس » الفاخر ص ١٧٢ ، مجمع الأمثال للميداني ٢ : ١٦٢ .

(١٧ - ١٨) « قالت . . . لك » المخصص ٤ : ١٢٠ ، نوادر أبي زيد ص ١٨٨ .

إذا أُسديَّةٌ ولدت غلاماً فبشَّرها بلؤم في السلام
تخرَّسُها نساء بني دُبَيْرٍ بأخبث ما يجدن من الطعام

٣ وقال ابنُ القميَّة^{٥٥} :

شركم حاضر وخيركم د رَّ خروس من الأرانب بكر

فألخروس هي صاحبة الخرسه .

٦ والإعذار طعام الختان ، يقال : صبي معذور وصبي معذّر جميعاً . وقال بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو يريد تقاربهم في الأسنان : « كنا إعذار عام واحد » . وقال النابغة :

٩ فنكحن أبقاراً وهنَّ بيّمة أعجلننَّ مَظِنَّةَ الإعذار

فزعوا أنهم سموا طعام الإعذار بالإعذار للملاسة والمجاورة .

١٢ كان الأصمعي^{٥٦} يقول : قد كان للعرب كلامٌ على معانٍ ، فإذا ابتدلت تلك المعاني لم^{٥٧} يتكلم بذلك الكلام . فمن ذلك قولُ الناس اليوم : ساق إليها صداقها . وإنما كان هذا يُقال حين كان الصداقُ إبلا وغنماً . وفي قياس قول الأصمعي أن أصحاب التمر ، الذين كان التمر دياتهم ومهورهم ، كانوا لا يقولون ساق فلان صداقه . قال : ومن ذلك قولُ الناس اليوم : قد بنى فلان البارحة على أهله . وإنما كان هذا القولُ لمن كان يضربُ على أهله في تلك الليلة قبَّته وخيمته ، وذلك هو بناؤه . ولذلك قال الأول :

لو نزل الغيثُ لأبنين^{٥٨} امرأاً كانتْ له قبة سَحَقُ بجاد

(١٢) لم > نزل < (مرسيه) - (١٧) ابنين (فان فلوتن) .

(٤) «شركم . . . بكر» الحيوان ٥ : ٧٤ ط الخلي ، لسان العرب ٧ : ٣٦٤ - (٧) «كنا . . . واحد» النهاية لابن الأثير ٣ : ٨٤ (منسوباً لسعد بن أبي وقاص) - (٩) «فنكحن . . . الإعذار» الديوان ص ٤٥ ط بيروت - (١٧) «لونزل . . . بجاد» التنبيه لأبي عبيد ص ١٩ .

وكان الأصمعيُّ يعدّ من هذا أشياء ليس لذكرها ها هنا وجه
ومن طعامهم الوَكيرة ، وهو طعام البناء . كان الرجلُ يطعم من يبيي له ، وإذا فرغ
من بنائه تبرّك بإطعام أصحابه ودُعائهم . ولذلك قال قائلهم :

خير طعام شهد العشيّة العُرس والإعذار والوَكَيرة
ويسؤون ما ينحرون من الإبل والجزر من عُرض المغنم النقيعة . قال الشاعر :
إنالضربُ بالسيوف رؤوسهم ضرب القدار نقيعة القدام
والعقيقة دَعوة على لحم الكَبش * الذي يُعقّ عن الصبي . والعقيقة اسم للشعر نفسه ،
والأشعارُ هي العقائق . وقولهم : عقّوا عنه أى احلقوا عقيقته . ويقولون : عقّ عنه ، وعقّ
عليه . فسُمي الكَبشُ لقرب الجوار وسببِ الملتبس عقيقة . ثم سموا ذلك الطعام باسم
الكَبش .

وكان الأصمعيُّ يقول : لا يقولنَّ أحدُكم : أكلتُ مَلّة . بل يقولُ : أكلتُ حُبزة ،
وإنما المَلّة موضعُ الحُبزة . وكذلك يقول في الراوية والمزادة * . يقول : الراوية هو الجمل ،
وزعموا أنّهم اشتقوا الراوية للشعر من ذلك .

فأمّا الدعاء إلى هذه الأصناف فمنه المذموم ، ومنه المدوح . فالمدموم النَّقري ، والمدوح
الجفلي . وذلك أنّ صاحبَ المأذبة ووليّ الدعوة إذا جاء رسوله ، والقومُ في أحويتهم *
وأنديتهم ، فقال : أجيئوا إلى طعام فلان ، فجعلهم جفلةً واحدة ، وهى الجفالة ، فذلك هو
المحمود . وإذا انتقر فقال : مُم أنت يا فلان ، ومُم أنت يا فلان ، فدعا بعضاً وترك بعضاً
فقد انتقر . قال الهدلي :

وليلةٍ يصطلي بالفَرث جازرها يخصُّ بالنقري المثرين داعيها

(٧) كبشك (١٢) الزادة (فان فلوتن) - (١٣) الشعر ك - (١٥) اخويتهم (فان فلوتن)

(٦) «إنا . . . أقدام» الفاخر للمفضل ط الجوائب ، المخصص ٤ : ١٢٠ ، تهذيب الألفاظ
ص ٦٢٥ (لمهلهل بن ربيعة) ، أمالي السيد المرتضى ٢ : ٢٨ ط السعادة ، القاهرة سنة ١٩٠٧ م -
(١٩) : ١١٠ . داعيها «الحيوان ٢ : ٧٢ ط الحلبي ، تهذيب الألفاظ ص ٦١٤ .

يقول : لا يدعُو فيها إلا أصحابَ الثروة وأهل المكافأة ، وهذا قبيح . وقال في ذلك بعضُ ظرفائنا :

٣ آثَرَ بِالْجَدَى وَبِالْمَائِدَةِ مِنْ كَانَ يَرْجُو عِنْدَهُ الْعَائِدَةَ
لَوْ كَانَ مَكُوكَانَ فِي كَفِّهِ مِنْ خَرْدَلٍ مَاسَقَطَتْ وَاحِدَهُ

وقال طرفةُ بن العبد :

٦ نحن في المَشْتَاة ندعو الْجَفْلَى لا تَرَى الْآدِيبَ فِينَا يَنْتَقِرُ
ولما غزا * بسطامُ بن قيسِ الشَّيباني مالِكَ بنِ الْمُتَنَفِقِ الضُّبِّي ، وأثبتَه عاصمُ بن
خليفة الضُّبِّي * ، شدَّ عليه فطمَنه وهو يقول :

٩ هذا وفي الحفلة لا يدعوني

ويروى : في الجفلة * لا يدعوني . كأنه حقد عليه حين كان يدعو أهل المجلس ويدعاه
والطعام المذموم عندهم ضربان ، أحدهما طعامُ المجاوع والحطامات والصَّرائك والسَّباريت
واللثام وأُجبناء والفقراء والضعفاء * . من ذلك الفث * والدُّعاع والهبيد والقرامة والقررة
والعُشوم * ومُنقَع البرم والقصيد * والقِد والحيات . فأما الفظ فإنه وإن كان شراباً كريهاً
فليس يدخلُ في هذا الباب ، وكذلك المجدوح . فأما الفظ فإنه عصارَةُ الفَرث إذا أصابهم
١٥ العطش في المفاوز ، وأما المجدوح فإنهم إذا بلغ العطش منهم المجهود نَحَرُوا الإبل وتلقوا
ألبابها * بالجفان كيلاً يضيع من دماها شيء * . فإذا برد الدم ضربوه بأيديهم ، وجدحوه
بالعيدان جدحاً حتى ينقطع ، فيعزل ماؤه من ثقله * ، كما يخلص الزبد بالمخض * والجبن
١٨ بالأنفحة * ، فيتصافنون ذلك الماء ويتبلغون به ، حتى يخرجوا من المفازة . وقال الشاعر :

لم تأكل * الفث * والدُّعاع ولم تَجِنِ هبيداً يَجْنِيهِ مُهْتَبِدُهُ *

(١٠) الحفلة ك - (١٢) والضعفاء (فان فلوتن) - الفث ك - (١٣) العشوم ك - والمقصيد ك -
(١٦) البأها (مريه) : البأها ك - شا ك - (١٧) ثقله (مريه) : ثقله ك - (١٧) الخيض
(فان فلوتن) - (١٨) الأنفحة (فان فلوتن) - (١٩) يأكل (فان فلوتن) - بحر هبيد محه مهنيد ك

وقال أمية ابنُ أبي الصَّلْتِ * * :

ولا يتنازَعون عِنانَ شِرْكٍ * ولا أقواتَ أهْلِهِم العُسُوم
ولا قَرَدَ * يقزَز من طَعَامٍ ولا نَصِبَ ولا مَوَلَى عَدِيمٍ

٣

وقال معاوية بنُ أبي ربيعة * الجَرَمي، في القَرَّة ، وهو يعيرُ بنى أسد وناساً من هوازِن ،
وهما ابنا القملية :

ألم تر جَرَمًا أنجَدتَ وأبوكم مع القمل في حَفَرِ الأقيصرِ شارعٍ
إذا قُرَّةٌ جاءت يقول أصيبَ بها سوى القمل ، إني من هوازِنَ صَارِعِ

٦

والقُرَّامة نُحاتة القرون والأظلاف والمناسيم وبرادتها . والعلهز القردان ترضُ وتعجنُ
بالدَّم ، والقُرَّة الدقيق * المختلطُ بالشعر . كان الرجلُ منهم لا يحلقُ رأسه إلا على رأسه
قبضة * من دقيق ، ليكونَ صدقةً على الضرائك ، وظهوراً له . فمن أخذ ذلك الدقيقَ
للأكل فهو مَعيب .

٩

١٢ وفي أكل الحيات يقول ابنُ مُناذِرٍ * * :

فأياكم والريفَ لا تقربنَّه فإن لَدَيْه الحُتَفَ والموتَ قاضيا
وهم طرَدوكم من بلادِ أبيكم وأنتم حلولُ تشتؤون الأفاعيا

١٢

١٥ وقال القطامي * * في أكلهم القِدَّ :

تعممت في طَلِّ وريحٍ تَلْفَنِي وفي طرِمِساءٍ غيرِ ذاتِ كواكبِ
إلى حَيْرَبونٍ توقدُ النارَ بعد ما تَلَفَّت الظلماءُ من كلِّ جانبِ

١٥

(٢) عناق شول ك - (٣) قرن ك - (٤) أبي ربيعة ك - أبي معاوية (فان فلوتين) ، عبد العزى
(ياقوت) - (٩) واندقيق ك - (١٠) قبضة ك ، قبضة (فان فلوتين) .

(٢) « ولا يتنازعون . . . العسوم » مبادئ اللغة للإسكافي ص ٦٥ ط السعادة ، القاهرة ، السنن
١٥ : ٢٩٥ - (٦ - ٧) « ألم تر . . . ضارع » الأصنام لابن الكلبي ص ٤٨ - ٤٩ مع قصة الأبيات ،
الحيوان ٥ : ٣٧٨ ، معجم البلدان ١ : ٣١٥ مطبعة السعادة بالقاهرة .

فسلمت ، والتسليمُ ليسَ يسرّها ولسكّته حقّ على كلِّ جانب
فلما تنازَعنا الحديثَ سألتُها : من الخيُّ ؟ قالت : معشرٌ من محاربِ
من المشتوين القِدِّ في كلِّ شتوة وإن كان ريفُ الناسِ ليسَ بناضب
وقال الراعي :

بكي معوزٌ من أن يضاف وطارق يشدُّ من الجوع الإزار على الحشا
إلى ضوءِ نارٍ يشتوي القدَّ أهلها وقد يُكرم الأضياف والقدَّ يشتوي
وقد يُضيقون في شراب غير المجدوح والفظّ في * المغازي والأسفار ، فيمدحون من آثر
صاحبه ، ولا يذمون من أخذ حقه منه . وهو ماء المصافنة ، والمصافنة مقاسمة هذا الماء
بعينه . وذلك أن الماء إذا نقص عن الريّ اقتسموه بالسواء ، ولم يكن للرئيس ولصاحب
المرباع والصفى وفضول * المقاسم فضلٌ على أحسن القوم . وهذا خلُق عامٌّ ومكرمة عامة
في الرؤساء . قال الفرزدق :

فلما تصافنا الإداوة أجهشت إلى غُضون العنبريِّ الجُراضمِ
على ساعةٍ لو أنّ في القوم حاتمًا على جوده ضنّت به نفس حاتم
وبذلك المذهب من الأثرة مدح الشاعر كعب بن مامة ، حين آثر بنصيبه رفيقه
النعمري ، فقال :

ما كان من سوقة أسقى على ظمًا خمرًا بماء إذا ناجودها برّدا
من ابنِ مامة كعبٌ ثمّ عىّ به زورَ المنية * إلا حرة وقددا
أوفى على الماء كعبٌ ثمّ قيل له ردّ كعبٌ ، إنك ورداد . فما ورداد

(٥) معوز (الحمامة) : منذر ك- (٧) من ك- (١٠) [و] فضول ك- (١٧) عزبه ر وaimنية ك .

(٢١٧ : ١٦ - ٢١٨ : ٣) « تعمّت . . . بناضب » ديوان القطامي ٥١ - ٥٢ ط ليدن ١٩٠٢ ،
العقد الفريد ٦ : ١٨٨ - ١٨٩ ط لجنة التأليف - (٥ - ٦) « بكي . . . يشتوي » حماسه أبي تمام
٢ : ٢١٠ ، طبقات ابن سلام ص ١٧٨ ط السعادة ، مصر - (١٢ - ١٣) « فلما . . . حاتم » ديوان
الفرزدق ص ٨٤١ ، ٨٤٢ ط الصاوي - (١٦ - ١٨) « ما كان . . . وردا » مجمع الأمثال لمبيداني
١ : ١٠٢ : ٢ : ٢٢١ ، اللؤلؤ ص ٨٤٠ ، الكامل للمبرد ١ : ١٦١ .

وفي المصافنة يقول الأسدى :

كأن أطيّطاً يابنة القوم لم يُبْنَحْ قلائصَ يحكيها الحنّى المنقح
 ٣ ولم يسق قوماً ما دُمِّيَّ على الحصا صُباب الأداوى والمطيات جُنَّح
 ويزعمون أنّ الحصاة التي إذا غمرها الماء في الإناء كانت نصيب أحدهم تُسمّى المقلّة .
 وهذا الحرفُ سمعته من البغداديين ، ولم أسمعهُ من أصحابنا ، وقد برئتُ إليك منه .
 ٦ وقال ابنُ جَحْشٍ في المصافنة :

ولما تعاوَرنا الإداوة أجهّشت إلى الماء نفسُ العنبريِّ الجراضم
 وآثرته لما رأيتُ الذي به على النفس أخشى لاحقاتِ الملالومِ
 ٩ فجاء مجلُود له مثلُ رأسِهِ ليشربَ حظَّ القوم بين الصرائمِ
 وقد يصيبُ القوم في باديتهم ومواضعهم من الجهد ما لم يُسمع به في أمة من الأمم ،
 ولا في ناحية من النواحي . وإن أحدهم ايجوعُ حتى يشدَّ على بطنه الحجارة ، وحتى
 يعتصم بشدّة معاقد الإزار ، وينزع عمامته من رأسه فيشدّها بها بطنه . وإنما عمامته
 ١٢ تاجه ، والأعرابيُّ يجد في رأسه من البرد — إذا كان حاسراً — ما لا يجدُهُ أحد ، لطول
 ملازمته العمامة ، ولكثرة طيِّبها وتضاعف أثنائها . ولربّما اتمَّ بعمامتين ، ولربّما كانت
 على قلنسوة خدرية* . وقال مُصعب بن عمير اللبيّ :
 ١٥

سيروا فقد جنّ الظلامُ عليكم فبشّ امرؤُ يرجو القري عند عاصم
 دَفَعْنَا إِلَيْهِ وَهُوَ كَالذَّبِيحِ حَاطِياً* نَشَدْتُ عَلَى أَكْبَادِنَا بِالْعَامِّمِ

(٣) مادمى (؟) : فارسي كـ - (٨) لاعقات اللوم كـ - (١٥) خدرية (فان فلوتن) :
 خدرية كـ - (١٧) حاطبا كـ - حاطياً (فان فلوتن) .

(٧ - ٩) « ولما . . . الصرائم » الكامل للمبرد ١ : ١٦٢ ، اللال ص ٨٤١ ، ديوان الفرزدق

وقال الراعي^٥ في ذلك :

يشبّ لركب منهم من ورأهم
إلى ضوء نار يشتوى القدّ أهلها
فكلمهم أمسى إلى صونها سرى
وقد يُكرّم الأضياف والقدّ يشتوى
فلما أناخوا واشتكينا إليهم
بكوا وكلا الخضمين^٦ مما به بكى
يشدّ من الجوع الإزارَ على الحشا
بكى معوز^٧ من أن يضاف وطارق^٨

وما يدلُّ على ما هم فيه من الجهد ، وعلى امتداحهم بالأثرة ، قول الغنوي :
لقد علمت قيسُ بنُ عيلان أننا
نضار ، وأنا حيثُ ركبُ عودها
إذا الماء بعدَ اليوم يمدقُ < بعضه > *
بعض ، وبيلي شحُ نفس وجودها
وأنامقارٍ حين يبتكرُ النضا
إذا الأرض أمست وهي جذب جنودها
وقال في ذلك العجير السلوي^٩ :

من المهديات الماء بالماء بعدما
رمى بالمقادي^{١٠} كلَّ قادٍ ومُعتمٍ
وقال آخرُ في مثل هذا :
لنا إبلٌ يروينَ يوماً عيالننا
نمدّم بالماء لا من هوانهم

ثلاثُ فإن يكثرنَ يوماً فأربعُ
ولكن إذا ما قلَّ شيء يوسعُ
على أنها تغشى أولئك بيتهما
على اللحم حتى يذهب الشرُّ أجمع
وقال أبو سعيد الخدري^{١١} : « أخذتُ حجراً فعصبتُه على بطني من الجوع وأتيتُ

(٤) الحين (الحماسة) - (٥) معوز (الحماسة) : منذر ك - (٨) < ببعضه > : ساقطة في الأصل - (١١) بالمقاري ك - قار (فان فلوتن) ، فار ك - (١٤) يوسع (الحيوان) : ويمع ك - (١٥) الشر (فان فلوتن) : الشتر ك .

(٣ - ٥) « إلى ضوء ... الحشا » ديوان الحماسة ٢ : ٢١٠ وانظر طبقات ابن سلام ص ١٢٠ ط ليدن ١٩١٣ - (١١) « من ... ومعتم » الحيوان ٥ : ٥٩٧ ، ط الحلبي - (١٣ - ١٤) « لنا ... يوسع » الحيوان ٥ : ٥٩٧ ، ط الحلبي .

النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَسْأَلَهُ . فَلَمَّا سَمِعْتُهُ وَهُوَ يَخْطُبُ : مِنْ يَسْتَعْفُ يَعْفَهُ اللهُ ، وَمَنْ يَسْتَعِينُ يَعْنَهُ اللهُ ، رَجَعْتُ وَلَمْ أَسْأَلَهُ .

قال أعرابي : « جئتُ حتى سمعتُ في مسامعي دويًّا . فخرجتُ أريغُ الصيدَ ، فإذا ٣ بمغارة ، وإذا هو جروُّ ذئبٍ . فذبحتهُ وأكلتهُ ، وادَّهنتُ واحتدَّيتُ » .

ولما قدِمَ المغيرةُ القادِسيَّةُ على سعدٍ بسبعينَ من الظَّهيرِ — وعندَ سعدٍ ضيقٌ

شديدٌ من الحال — نَحَرُوهَا ، وَأَكَلُوا لَحْوَمَهَا ، وَادَّهَنُوا بِسُحُومِهَا ، وَاحْتَدَّوْا جُلُودَهَا . ٦

وذكر الأَصمعيُّ عن عُمَانَ الشَّحَامِ ، عن أَبِي رَجَاءِ العَطَارِدِيِّ ، قال : « لما بلغنا

أنَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد أخذَ في القتلِ هرَبنا فاشتوينا فَنَحَدَّ أَرنبَ دَفينًا وألقينا

عليها جُمالتنا . فلا أنسى تلكَ الأكلةَ » . وكان الأَصمعيُّ إذا حدث بهذا الحديث قال : ٩

« نَمَّ الأَدَامُ الجُوعَ . ونَمَّ شَعَارُ المُسلمينَ التَّخفيفَ » .

وذكروا عن عبد الملكِ بنِ عُمرٍ ، عن رَجُلٍ من بني عُذرة ، قال : خرجتُ زائرًا

لأحوالِ لي بهَجَرَ ، فإذا هم في بَرثِ أَحمرٍ ، بأقصى حَجَرَ ، في طلوعِ القمرِ . فذكروا أن ١٢

أنا نًا نعتادُ نَحْلَةً ، فترفعُ يديها ، وتعطوُ بفيها ، وتأخذُ الحُلُقَانَ والمُنسِبتَةَ والمنصِفةَ والمَعوَةَ .

فَتَسْكَبُ قَوْسِي ، وتقلدُ جَفِيرِي . فإذا هي قد أقبلتْ ، فرميتها فخرتْ لفيها .

فأدركتُ فَمَوَّرتُ سرَّها ومَعرفتها ، ففقدتُ ناري ، وجمعتُ حطبي ، ثم دفنتُها . ثم ١٥

أدركني ما يدركُ الشَّبابَ من النومِ ، فما استيقظتُ إلاَّ بجرِّ الشمسِ في ظهري . ثم

كشفتُ عنها ، فإذا لها غَطِيطٌ من الوَدَكِ ، كتداعى طيءٌ وغَطِيفٌ وغَطْفَانٌ . ثم قمتُ إلى

الرُّطْبِ — وقد ضربَ به بردُ السَّجَرِ — فجنيتُ المَعوَةَ والحُلُقَانَ فجعلتُ أضعُ الشَّحْمَةَ بين ١٨

(٣) من (فان فلوتن) - (١٢) هجر (فان فلوتن) - (١٤) حفيري ك - (١٤) كذا ك ،

ولعلها : فأدركت ذكاتها -- (١٨) الشجر ك .

الرُّطْبَتَيْنِ ، والرُّطْبَةَ بَيْنَ الشَّحْمَتَيْنِ ، فَأُظِنَ الشَّحْمَةَ سَمْنَةً ، ثُمَّ سَلَاةٌ * . وَأَحْسَبُهَا مِنْ حَلَاوَتِهَا شُهْدَةً أَحَدَرَهَا مِنَ الطُّودِ * .

٣ وأنا أنتم هذا الحديث لأن فيه ما لا يجوز أن يتكلم به عربي يعرف مذاهب العرب . وهو من أحاديث الهيثم * *

وقال مديني لأعرابي : « أي شيء تدعون ، وأي شيء تأكلون ؟ » قال : نأكل

٦ ما دبَّ ودَرَجَ إلا أمَّ حُبِينِ » ، فقال المديني : « لهن أمَّ حُبِينِ العافية » .

وقال الأصمعي : تعرَّقَ أعرابيَّ عظما ، فلما أراد أن يلقيه ، وله بنون ثلاثة ، قال له

أحدُهم : « أعطنيه » ، قال ، « وما تصنعُ به ؟ » ، قال : « أتعرقُّه ، حتى لا تجدَ فيه ذرَّةَ

٩ مَقِيلًا » ، قال : « ما قلتَ شيئًا » ، قال الثاني : « أعطنيه » ، قال : « وما تصنعُ به ؟ » ،

قال : « أتعرقُّه ، حتى لا يُدرى أليامه ذلك هو أم للعام الذي قبله » ، قال . « ما قلتَ

شيئًا » ، قال الثالث : « أعطنيه » ، قال : « وما تصنعُ به ؟ » . قال : « أجعله مَخَّهُ

١٢ إدامه * » ، قال : « أنت له » .

وقال الآخر :

فإنك لم تشبه لقيطًا وفعله وإن كنت أطعمت الأرز مع التمر

١٥ وقال الآخر :

إذا انقاص منها بعضها لم تجد لها رهوبا لما قد كان منها مدانيا

وإن حاولوا أن يشعبوها رأيتها على الشعب لا تزداد إلا تداعيا

(١) سلاءه (فان فلوتن) : سلاخى ك- (٢) كذا فى ك : الطور (فان فلوتن) - (١٢) ادام

(فان فلوتن) - (١٦) انماض ك ، انقاص (فان فلوتن) - بعدها ك - روياء ك ، دوياء

(فان فلوتن) - (١٧) يشعبوها ك - الشبع (فان فلوتن) .

(٢٢١ : ١١ - ٢٢٢ : ٢) « وذكروا . . . الطود » انظر الأغانى ٨ : ٤٠ - ٤١ ط دار الكتب المصرية

(٥ - ٦) « وقال مديني . . . العافية » عيون الأخبار ٣ : ٢٠٩ - (٧ - ١٢) « تعرَّق . . .

أنت له » عيون الأخبار ٣ : ٢١٣ .

- معوذة* الأرحال ، لم ترق* مرقبا ، ولم تمتطِ الجُون الثلاثَ الأثافيا ، ولا اجتزعت* من نحو مكة شقّة ولكنها في أصلها موصليّة ٣
 أتتنا تزجّجها المجاذيف نحونا ، فتلت: لمن هذى القدور التي أرى فقالوا: وهل يخفى على كلِّ ناظر ٦
 فقلت: متى باللحم عهدُ قدوركم؟ الاضحى إلى الأضحى ، وإلا فإنها فلما استبان الجهدُ لي في وجوههم فكنتُ إذا ما استشرّفوني مقبلا ٩
- ٣
 ٦
 ٩

ومّا قالوا في صفة قدورهم وجفانهم وطعامهم ما* أنا كاتبه لك . وهم وإن كانوا في بلاد جدب ، فإنهم أحسنُ الناسُ حالا في الخصب . فلا تظننَّ أن كلَّ ما يصفون به ١٢
 قدورهم وجفانهم وثريدهم وحيسهم باطل .

وحدثني الأعمى ، قال : سألتُ المنتجع* بن نبهان عن خصب البادية ، فقال : ١٥
 « ربما رأيت الكلب يتخطى الخلاصة ، وهي له معرصة ، شبعاً » .
 وقال الأفوه الأودي* :

تَهِنَا لثَعْلَبَةَ بِنِ قَيْسِ جَفْنَةَ يَا أَوْى إِلَيْهَا فِي الشَّتَاءِ الْجَوَّعُ

(١) معودة ك - توف ك - (٢) اخترعت ك - (٣) مجاوزة (فان فلوتن) - فيها ك - حاديا ك - (٥) تهيل (عيون الأخبار) ، تحيل ك ، تحيل (فان فلوتن) - (١١) مما ك - (١٧) تهنّا ك : فينا (الديوان) .

(٢٢٢ : ١٦ - ٢٢٣ : ١٠) « إذا . . . وتداعيا » عيون الأخبار ٣ : ٢٦٦ ، والبيت الثاني في الحيوان ٣ : ١٠٢ ط الحلبي (محمد بن يسير) .
 (١٤ - ١٥) « وحدثني . . . شبعاً » البيان والتبيين ٢ : ١٢٩ ط ١٩٣٢ م .

- ومذانبٌ لا تستعارُ* وخيمةٌ سوداءٌ عيبٌ نسيجها لا يُرقع*
 وكأنما فيها المذانبُ حلقةٌ وذمٌ* الدلاءُ على دلوجٍ تنزع
 ٣ وقال معن بن أوس** ، وهو يذكرُ قدرَ سعيدِ بنِ العاصِ ، في بعض ما يمدحه :
- أخو شتوات لا تزال قدوره يُحلُّ* على أرجائها ثم يُرحلُ*
 إذا ما امتطأها الموقِدون رأيتها لوشكُ قراها وهي بالجزل تشعل
 ٦ سمعت لها لفظاً إذا ما تنظمت كهدرِ الجمالِ رزماً حين تجفل
 ترى البازل الكوماء فيها بأسرها مقبضة في قمرها ما تحلحل*
 كأن الكهول الشمط* في حجراتها تنطش في تيارها حين يحفل
 ٩ إذا التظمت أمواجها فكانها عوائدٌ دهمٌ في المحلة قبيل
 إذا احتدمت أمواجها فكانت ما يززعها من شدة الغلى أفكل
 تظللُ رواسيها ركوداً مقيمةً لمن نابه* فيها معاش وما كل
 ١٢ وضاف الفرزدقُ أبا السَّحماءِ ، سُحيمَ بنَ عامرٍ ، أحدَ بني عمرو بنِ مرثدٍ ، فأحمدَه
 وذكر في إحماده قدره ، فقال :
- سألنا عن أبي السَّحماءِ حتى أتينا خيرَ مطرُوقٍ لسارى
 فقلنا : يا أبا السَّحماءِ إنا وجدنا الأزدَ أبعدَ من نزار
 فقام يجرُّ من عجلٍ إلينا أسابي* النُّعاسِ مع الإزار
 ١٥ وقام إلى* سُلَافةٍ مسلَّحِبٍ رثيمِ الأنفِ مرْبُوبٍ بقار

(١) وجفنة سوداء عند نسيجها ما ترفع (الديوان) - (٢) وذم (الديوان) : وذم لك .

(٤) تحل . . . ترحل لك - (٧) ما تجلجل (فان فلوتن) - (٨) الشمط (الديوان) ،

الشبه لك ، الشهب (فان فلوتن) - (٩) عواتب لك ، غواتب (فان فلوتن) - (١١) فاته لك

(١٦) اساق لك - (١٧) وقام إلى (الديوان) : قصب له لك .

(٢٢٣ : ١٧ - ٢٢٤ : ٢) «هنأ . . . تنزع» ديوان الأفيوه الأودي (الطرائف الأدبية) ص ١٩ ط لجنة

التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٧ م .

(٤ - ١١) «أخو . . . ومأكل» ديوان معن بن أوس ١٥ - ١٧ ط مصر ، ١٩٢٧ .

تدور عليهم والقدر تغلى
 كأن تطلع الترعيب فيها^٥
 وقال الكُميت^٦ في صفة القدر :

٣

إوزر تغمس في لجة
 كأن العظام من غليها
 تغيب مرارا وتطفو مرارا
 أراجيز أسلم تهجو غفارا

وأما ما ذكروا من صفات القدر ، من تعبير بعضهم بعضاً ، فهو ، كما أنشدني محمد
 ابن يسير^٧ : قال : لما قال الأوّل :

إن لنا قدراً ذراعين عرضها
 وللطول منها أذرع وشبار

٩

قال الآخر : وما هذه ؟ أخزى الله هذه قدرا . ولكنى أقول

بوات قدرى موضعاً فوضعها
 جعلت لها هضب الرجام وطخفة
 بقدر كأن الليل سحمة^٨ قعرها
 يعجل للأضياف وارى سديفها
 براية من بين ميث وأجرع
 وغولا^٩ أثافي دونها لم تنزع
 ترى القيل فيها طافياً^{١٠} لم يقطع
 ومن يأمها من سائر الناس يشبع

١٢

قال أبو عبيدة : ولما قال الفرزدق :

١٥

وقدر كحيزوم النعمة أحمشت
 بأجدال خُشب زال عنها هسيما

(٢) الترغيب منهم ك - (٧) بشير ك - (١٠) موضعاً (الحصري) ؛ ساقطة في الأصل .

(١١) الرجام وطفقه وعولا ك - (١٢) شجنه ، شجنه (فان فلوتن) ، صحنه (مرسيه) ، طاميا

(فان فلوتن) .

(٢٢٤ : ١٤ - ٢٢٥ : ٢) « سألنا . . . عذاري » ديوان الفرزدق ص ٢٤٨ ط الصاوي ، مصر ،

والبيت الأخير في عيون الأخبار ٣ : ٢٦٥ .

(٥) « كأن . . . غفارا » الأغاني ١ : ٣٤٩ ط دار الكتب المصرية - (١٠ - ١٢) « بوات . . .

يقطع » جمع الجواهر للحصري ص ٦٥ ط الرحمانية ، القاهرة .

(١٥) « وقدر . . . وهسيما » حماسة أبي تمام ٢ : ٣٠٨ ، ط ١٣٣٥ هـ ، القاهرة .

قال ميسرة أبو الدرداء : وما حيزوم النعمة ؟ والله ما تُشيعُ هذه الفرزدق
ولكنّي أقول :

٣ وقدر كجوف الليل أحشتُ غليها ترى الفيلَ فيها طافياً لم يفصل
وقال عبدُ الله بن الرّزّبيرُ* يمدح أسماءَ بنَ خارجة** :

٦ ألم تر أنّ المجددَ أرسلَ يبتغى حليفَ صفاءٍ وأتلى* لا يزاله
تخيّرَ أسماءَ بنَ حصنِ فبطنت بفعلِ العُلى أيمانه وشماله
> ترى البازلِ البُختى فوقِ خوانه مقطعة أعضاءه ومفاصله < *

٩ < و > مما* يجوز في هذا الباب ، وإن لم يكن فيه صفة قدر ، قولُ الفرزدق
في العذافر بن زيد ، أحدِ بنى تيمم الألات بنِ ثعلبة :

١٢ لعمرك ما الأرزاق يوم اكتيالها بأكثر خيراً من خوان العذافر
ولو ضافه الدجال يلتسنُ القرى وحلّ على خبازه بالعساكر
بعدهً يأجوج ومأجوج جوعاً لأشبعهم شهراً غداء العذافر
وقال ابنُ عبدل* في بشر بن مروان بن الحَكَم* :

١٥ لو شاء بشرٌ كان من دونِ بابه طماطمٍ سودّ أو صفّالة حمراء
ولكنّ بشراً أسهلَ البابِ للتي يكون لبشر عندّها الحمدُ والأجر
بعيدُ مرادِ العينِ ماردٌ طرفه حذارِ الغواشي بابُ دار ولا ستر

(٥) قابلاك - (٧) > ترى... ومفاصلة < ساقطة في الأصل ، وفيه موضع الشاهد - (٨) ما ك

(٣) « وقدر... يفصل » عيون الأخبار ٣ : ٢٦٥ - (٥ - ٧) « ألم تر... ومفاصله » الأغاني
١٣ : ٣٥ ، والبيت الأخير في عيون الأخبار ٣ : ٢٦٥ - (١٠ - ١٢) « لعمرك... العذافر »
ديوان الفرزدق ص ٣٩٦ ط الصاوي ، جمع الجواهر للحصري ص ٦٥ - (١٤ - ١٦) « لو شاء... ستر »
كتاب الحجاب للجاحظ (رسائل الجاحظ) ص ١٨٤ ط الرحمانية ١٩٣٣ م .

وقالوا في مناقضات أشعارهم في القُدور . قال الرِّقَاشيُّ * :

لنا من عطاء الله دَهْماءَ جَوْنَةٍ تناولُ بعد الأقرين الأفاصيا
جعلنا أَلالاً * والرَّجَامَ وطِخْفَةَ لها فاستقلت فوقهن أنافيا
مؤدِّيةً عَنَّا حُقُوقَ مُحَمَّدٍ إذا ما أتانا بانسَ الحال طاويا
أتى ابن يسير * كي ينفسَ كَرِيهاً * إذا لم يرح وافي مع الصُّبحِ غاديا

فأجابه ابنُ يسير ، فقال :

وثرماءُ ثلماه النواحي ولا * يَرى بها أحدٌ عيباً سوى ذاك باديا
ينادى ببعضٍ بعضهم عند طلعتي : ألا أبشروا هذا اليسيرى جاثيا

وقال ابنُ يسير في ذلك :

قدر الرِّقَاشيُّ * لم تنقر بمِنقار مثلَ القُدور ، ولم تفتصَّ * من غار
لكنَّ قدرَ أبي حفص - إذا نُسبت * يوماً - ربيبةُ آجامٍ وأنهار

فاعترض بينهما أبو نواس الحَسَنُ بنُ هانئ الحَكَميُّ ، يذكرُ قدرَ الرِّقَاشيِّ بالهيجاءِ ١٢
أيضاً ، فقال :

ودَهْماءُ تُنفِها رِقَاشٌ إذا شتت مركبةُ الآذان أمَّ عِيال
يغصَّ بمخيزوم البعوضة صدرها وتنزلها عقواً بنفيرِ جمال
ولو جثتها مَلأى عبيطاً مجزلاً لأخرجت ما فيها بعود خِلال
هي القِدْرُ قِدْرُ الشَّيخِ بَكْرِ بنِ وائل ربيعَ البتاسي عامَ كلِّ هُزال

(٣) الألام (فان فلوتن) - (٥) بشير لك - كربه (عيون الأخبار) - (٧) ترى احد عاك -
(١٠) تفتص : تفتص لك - (١١) نشبت لك .

(٥-٢) « لنا . . . غاديا » عيون الأخبار ٣ : ٢٦٦ - (٧ - ٨) « وثرماء . . . جاثياً » عيون الأخبار
٣ : ٢٦٦ - (١٤ - ١٧) « ودهماء . . . هزال » ديوان أبي نواس ١٤٧ ط الحميدية ١٣٢٢ هـ ، عيون
الأخبار ٣ : ٢٦٧ - ٢٦٨ .

وقال فيها أيضاً :

رأيتُ قدورَ الناسِ سُوداً على الصلبي ،
ولو جثتها ملاي عبيطاً مجزلاً ،
يبينها* للمعتقى بفنائهم
تبينُ في محرائها أن عودَه
تروح على حيِّ الربابِ ودارم
وللحيِّ عمرو نفحة من سجالها
إذا ما تنادوا بالرحيل سعى بها

٩ وقال بعضُ التميميين ، وهو يهجو ابن حَبَّار :

لو أن قِدراً بَكَتْ من طولِ ما حُبِسَتْ
من الخُفوفِ* بَكَتْ قَدْرُ ابنِ حَبَّار
ما سَمَّها دَسَمٌ مذ فُضَّ معدِنُها
ولا رَأَتْ بعدَ نارِ القَيْنِ من نارِ

١٢ والشُعوية والآرادمردية* المفيضون لآل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه ، ممن

فَتَحَ الفُتوح ، وَقَتَلَ المَجوس ، وَجاءَ بالإسلام ، تَزِيدُ في جُشُوبَةِ عَيْشِهِمْ ، وَخُشُونَةِ مَلْبَسِهِمْ ،
وَتَنقُصُ من نعيمِهِمْ وَرِفاغَةِ عَيْشِهِمْ . وَهم من أَحْسَنِ الأُمَمِ حالاً مع الغَيْثِ ، وَأَسْوَأِهِمْ حالاً

١٥ إِذا خَفَتِ السحابُ . حَتَّى رِيباً طَبَّقَ الغَيْثُ الأَرْضَ بالكَلأِ والماءِ فَعَدَدَ ذلك يَقولُ

المصرم والمقتر* : « مرعى ولا أكلة ، وعُشبٌ ولا بعير ، وكلاً تيجع له كيدٌ
المصرم » . ولذلك قال شاعرهم :

١٨ وَجُنِبَتِ الجِيوشُ* أبا زَنِيبٍ* وَجاد على مَسارِحِكِ السَّحابِ

(٤) يشبها (فان فلوتن) - (١٠) الخفوف (عيون الأخبار) : الخفوف ك ، القفور (الخطيب) -

(١٦) والمقتر (فان فلوتن) : والمقبل ك - بنعم كد ك - (١٨) الجيوس ك ، الجيوس ؟ - ربيت ك .

(٢ - ٨) « رأيت . . . انذر » الديوان ص ١٤٧ ، عيون الأخبار ٣ : ٢٦٨ ، العقد الفريد

٦ : ١٩٠ - ١٩١ ط لجنة التأليف - (١٠ - ١١) « لو أن . . . نار » عيون الأخبار ٣ : ٢٦٥ ،

البخلاء للخطيب ورقة ٢٤ - (١٦) « مرعى ولا أكلة » مجمع الأمثال للميداني ٢ : ٢٣١ - « عُشب ولا بعير »

مجمع الأمثال ١ : ٤٧٨ - (١٦ - ١٧) « كلاً تيجع له كيد المصرم » البيان والتبيين ٢ : ٨١ ط ١٣٣٢ هـ ،

الميداني ٢ : ١١٠ - (١٨) « وجنبت . . . السحاب » البيان والتبيين ٢ : ٨١ ط ١٣٣٢ هـ ، معاني الشعر

للأستاذاندي ص ١٠٨ .

وإذا نظرت في أشعارهم علمت أنهم قد أكلوا الطيب وعرفوه ، لأن الناعم من الطعام لا يكون إلا عند أهل البراء وأصحاب العيش . فقال زياد بن قياض ، يذكر^٣ الدرملك ، وهو الحواري :

ولاق فتى قيس بن عيلان ماجداً إذا الحرب هرتها الكماة الفوارش
 قسام إلى البرك الهجان بسيفه وطار حذار السيف دهم قناعس
 فصادف حد السيف قباء جلعداً فكاست وفيها ذو غرارين نائس ٦
 فأطعمها شحماً ولحمًا ودرمكا ولم تفتنا عنه الليالي * الخنادس

وقال :

تظل في درمك وفاكية وفي شواء - ماشئت - أو مرقة ٩

وقال جرير :

تكلفني معيشة آل زيد ومن لي بالمرقق والصناب ؟

وقال النمر بن تولب :

لها ما تشتهي : عسل مصفى وإن شاءت فحواري بسمن

١٢
 « ومن أشرف ما عرفوه من الطعام ، ولم يطعم الناس أحداً منهم ذلك الطعام إلا عبد الله بن جدهان * » ، وهو « الفالودق » . مدحه بذلك أمية بن أبي الصلت ، فقال :
 إلى رُدح من الشيرزي عليها نيب البر يلمك بالشهاد

(٧) الهم ك - (١٤) هنا ، قبل : « ومن أشرف » . سقط بيتك منه هذه الكلمة ، وهي شطر بيت : « وحديثها أشفى من التمر » . فيبدو أنه بعد أن تكلم عن الدرملك أخذ في الكلام عن التمر ثم انتقل إلى الفالودق - أشرف : أشرف ك - (١٥) نعلها مقحمة .

(١١) « تكلفني . . . والصناب » ديوان جرير ص ٤٥ ط الصاوي : الناهرة ، طبقات الشعراء لابن سلام ص ٩١ ط ليدن - (١٦) « إلى روج . . . الشهاد » ذيل الأمل ص ٣٨ ، شعراء التبرانية ص ٢٢٢ .

ولهم الثريد، وهو في أشرفهم عام، وغلب عليه هاشم، حين هشم الخبز لقومه،
وقد مدح به في شعر مشهور، وهو قوله:

٣ عمرو العلاء هشم الثريد لقومه ورجال مكة مُسننون عجاف
ومن الطعام المدوح الخيس. وتزعم مخزوم أن أول من حاس الخيس سويد بن
هرمى. وقال الشاعر:

٦ وإذا تكونُ شديدة أدعى لها وإذا يحاسُ الخيس يُدعى جُندُب
والخبزُ عندهم مدوح وكان عبد الله بن حبيب العنبري، أحد بني سبرة، يقال له:
٩ آكلُ الخبز، لأنه كان لا يأكلُ التمر، ولا يرغبُ في اللبن. وكان سيد بني العنبري
زمانه. وهم إذا فخرُوا قالوا: منّا آكلُ الخبز ومنّا مجيرُ الطير، يعني ثوب ابن شحمة
العنبري. وهم يقدمون اللحم على اللبن، ولذلك قال شاعرهم:

ولو أنّها لم تدفع الرِسلَ دَمَّها رأى بعضها من بعض أنسابها دما
١٢ ويقدمون اللحم على التمر، ألا تراه يقول:

قرّنتي عُبيد تمرّها وقرّيتها سنام مُصرّاة قليل ركوبها
فهل يَسْتوى شحمُ السنام إذا شتا وتمر جوائنا حين يُلقى عسيبها

١٥ وليس يكون فوقَ عقر الإبل وإطعام السنام شيء. والمعمر هو النَّجدة، واللبن هو
الرسل. قال الهذلي:

لو أنّ عندي من قريم رجلا لمنعوني نجدةً أو رسلا

(١٠-١١) [وهم يقدمون اللحم على اللبن . . . دما] [فان فلوتين] .

(٣) « عمرو . . . عجاف » فضل هاشم على عبد شمس (رسائل الجاحظ) ص ٦٨ ، نوادر
أبي زيد ١٦٧ ، الكامل المبرد ١ : ١٧٦ ، صحيح الأعمش ١ : ٣٥٨ - (٦) « وإذا . . . جندب »
عيون الأخبار ٣ : ١٩ ، معجم الشعراء للمرزباني ص ٢١٥ ، خزنة الأدب للبغدادي ٢ : ٣٢ ط السلفية .
لسان العرب ٧ : ٣٦٢ - (١٧) « لو أنّ . . . أو رسلا » الأمال ١ : ٢٠٧ ، اللؤلؤ ص ٤٩٤ .
الإغاثة ٢٠ : ٢١ .

وقال الهذلي :

إلا إن خيرَ الناسِ رسلاً ونجدة

وقال المرار بن سعيد الفقعسي* :

٣

لهم إبلٌ لا من ديات ولم تكن مُهوراً ولا من مكسب غير طائل
ولكن حماها من شاطئِ غارة جلال العوالي فارسٌ غير مائل
نجيسة* في كلِّ رسلٍ ونجدة ومعروفة ألوانها في المعال

٦

وقد وصفوا الثريد، فقال الراعي :

فباتَ يعدُّ* النجم من مستحيرة سريع على أيدي الرجال جمودها

٩

> وقال حسان بن ثابت* <

ثريد كأنَّ السمنَ في حجراته نجوم الثريا أو عيون الضياون

وقال بن هرمة :

١٢

إلى أن أتاهم بشيزية تعنُّ كواكبها الشبك

وقال كامل بن عكرمة* :

١٥

فقرَّبَ بينهمُ خبزاً وكوما* كساها الشحمُ ينهمر انهمازا*
يدفُّ بها غلاماه جميعاً تردّهما إلى الأرض انحصارا
فأصبح سورهم فيها - وعلمى لو ان العلم صنفها - إصارا

(٣) سعد ك - (٦) محبسة ك - (٨) فامن بعدك - (٩) > وقال حسان بن ثابت < : ساقطة في الأصل ، وقال آخر (فان فلوطن) - (١٤) وكوما : ركودا ك - ينهمر انهمازا (مرسية) : ينصر انحصار ك

(٨) « فبات ... جمودها » الحماسة لأبي تمام ٢ : ٢١٥ ، الكامل للمبرد ٢ : ١٨٨ ، تهذيب الألفاظ ٦٤٠ - (١٠) « ثريد ... الضياون » الحيوان ٥ : ٣٢٩ ط الحلبي ، لسان العرب ١٧ : ١٣٢ .

- فهذا في صفة الثريد .
 وقال بشرُ بن أبي خازم * * :
 ترى وَدَكَ السديف على لِجَاهم ٣
 كَلَوْنُ الرارِ * لَبَدَه الصَّقيع
 وقال الآخرُ :
 جلا الأذفرَ الأحوى من المسك فَرَفَه
 إذا نَفَرَ السُودُ اليانُونُ حاولوا ٦
 له حَوَكُ بردِيه * أرقُوا وأوسَعُوا
 وقال الزُّبيرُ بنُ عبدِ المَطَلَبِ * * :
 فإنا قد خَلِقْنَا إذ خُلِقْنَا
 لنا الجِبرَاتُ والمِسْكُ الفَتِيَتُ
 ولولا الحُمسُ لم يلبَسَ رِجالُ ٩
 ثيابُ أعزّة * حتى يموتوا
 ثيابُهُم شِمالُ أو عِباءُ
 بها دَنَسٌ كما دَنَسَ الحَمِيَتُ
 فمَيَّرَ كما ترى بين لِباسِ * الأشرافِ وأهلِ التَّروَةِ وغيرِهِم .
 وقال الأَعشى : ١٢
 للشرفِ * العودُ فأَكنافُه
 ما بين حُمرانِ فينصُوبُ *
 خيرٌ لها إن خَشِيَتِ جِجْرَةَ
 من رَبِّها زِيدِ بنِ أبِوبِ
 مُتَكَيِّئًا تُقَرِّعُ أبوابُه
 يسعَى عليه * العبدُ بالكُوبِ ١٥
 وقال * * أبو الصَّلْتِ بنُ أبي ربيعة * :
 اشربْ هَنِيئًا عليكِ التاجُ مرتَفِقًا
 في رَأْسِ غَمَدانِ داراً منكِ مِحلالاً

(٣) الراد (فان فلوتن) - (٦) بردك - (٩) ثياباغرة (فان فلوتن) - (١١) الناس (فان فلوتن) - (١٣) الشرفك - (١٥) عليهاك - (١٦) ابن ربيعةك

(٥ - ٦) « جلا . . . واوسعوا » الكامل للمبرد ١ : ١٢٢ - ١٢٣ ط الأزهرية - (١٣ - ١٥) للشرف « . . . بالكوب » ديوان الأعشى ص ٢٣٧ ط ليدن ، معجم البلدان ٨ : ٥٢٨ ط السعادة - (١٧) « اشرب . . . محلالا » الشعر والشعراء ١ : ٤٣٣ ، ط الحلبي ، معجم البلدان ٦ : ٣٠٢ (في سيف بن ذي يزن)

وليس هذا من باب الإفراط . و باب الإفراط كقول جرّان العوّد حين وصف نفسه وعشيقته ، فقال :

٣ فأصبح في حيثُ التّقيّنا غديّة*
سوار وخالخال ومِرط ومُطَرَف
ومنقطّعاتُ من عُقود تركّنها
كجَمَر الغصّاء في بعض ما تتخطف
ومن ذلك قولُ عديّ بن زيّد* :

٦ يا بُني أوقدي النارا
إن من تهوين قد حارا
ربّ نار بتُّ أرقبها
تقضمُ الهنديّ والغارا

وقال الآخر :

٩ أرى في الهوى ناراً لظبية أوقدت
تشبُّ بعيدان اليلنججوج موهنا
ويذكي بعدهنّ وقودها
وبالرتند أحياناً فذاك وقودها

قد ذكرنا الطعام المدوح ماهو، وذكرنا أحدَ صِنفي الطعام المذموم والصنف الآخرُ
كالجزيرة* التي تعابُ بها مجاشع بنُ دارم، وكنحو السخينة التي تعابُ بها قريش .
قال خدّاش بن زهير* :

ياشدة ما شدّنا غير كاذبة
على سخينة لولا الليل والحرمُ

١٥ وقال عبد الله بن همّام* :

إذا لضربتهم حتى يعودوا
بمكة يلعقون بها السخينا

(٣) غديّة (الديوان) : غنيمة ك - (١٢) الجزيرة (فان فلوتن) .

(٣ - ٤) « فأصبح . . . تتخطف » ديوان جرّان العود ص ٢٤ ط دار الكتب المصرية - (٦ - ٧)
« يالبيى . . . والغارا » الأغاني ٢ : ١٤٧ - (١٤) « ياشدة . . . والحرم » طبقات ابن سلام ص ٣٣ ط
ليدن .

وقال جرير :

وُضِعَ الخَزِيرُ ، فَقِيلَ : أَيْنَ مَجَاشِعُ فِشْحَا * جِجَافَلَهُ هِجْفًا هِبْلَعُ
والخزيرُ لم يكن من طعامهم ، وله حديث . والسَّخِينَةُ كانت من طعام قريش .
وتَهَجَى الأنصارُ وعبدُ القَيْسِ وعُدْرَةُ وكلُّ من كانَ بقَرْبِ النخْلِ ، بأكلِ التَّمْرِ ،
فقال الفرزدق :

لَسْتُ بِسَعْدِيٍّ عَلَى فِيهِ حُبْرَةٌ * وَلَسْتُ بِعَبْدِيٍّ حَقِيْبَتِهِ التَّمْرُ
وتَهَجَى أسدُ بأكلِ الكلابِ ، وبأكلِ لُحُومِ النَّاسِ . والعربُ إذا وجدت رجلاً من
الْقَبِيْلَةِ قد أتى قَبِيْحًا أَلْزَمَتْ ذَلِكَ الْقَبِيْلَةَ كُلَّهَا ، كما تَمْدَحُ الْقَبِيْلَةَ بفعلِ جَمِيْلٍ ، وإن لم
يكن ذلك إلا بواحد منها . فتهجو قريشاً بالسَّخِينَةَ ، وعبدَ القَيْسِ بالتَّمْرِ . وذلك عامٌّ
في الحَيْنِ جَمِيْعًا ، وهما من صالحِ الأَغْذِيَةِ والأقْوَاتِ . كما تهجوُّ بأكلِ الكلابِ والنَّاسِ
وإن كان ذلك إنما كان < من > * رجل واحد ، وعلك * إذا أردت التحصيل تجده معذوراً .
قال الشاعر :

يَا فَقْعَسِي لِمَ أَكَلْتَهُ لِمَهُ ؟ لَوْ خَافَكَ اللهُ عَلَيْهِ حَرَمَهُ
فَمَا أَكَلْتَ لَحْمَهُ وَلَا دَمَهُ

وقال في < ذلك > * مُسَاوِرِ بْنِ هَنْدٍ :

إِذَا أَسَدِيَّةٌ وَلَدَتْ غَلَامًا فَبَشَّرَهَا بِلُؤْمٍ فِي الْغَلَامِ
تَخَرَّسَهَا نِسَاءُ بَنِي دُبَيْرٍ بِأَخْبَثِ مَا يَجِدْنَ مِنَ الطَّعَامِ
تَرَى أَظْفَارَ أَعْمَدٍ * مَلَقِيَّاتٍ بِرَائِنِهَا * عَلَى وَضَمِّ الثَّمَامِ

(٢) فحشاك - (٦) خبزة ك - (١١) من < : لست بالأصل - فلعلك ك - (١٥) > ذلك < :
ليست بالأصل - (١٨) اظفار غفارك - ترايبها ك .

(٢) « وضع ... هبلع » ديوان جرير ص ٣٤٥ ط الصاوي - (٦) « لست .. التمر » الكامل
للمبرد ٢ : ٧٠ ط الأزهرية - (١٣ - ١٤) « يا فقعسي ... دمه » الحيوان ١ : ٢٦٧ ، ٢ :
١٥٩ - ١٦٠ ، ٤٤ : ٤١ ط الحلبي - (١٦ - ١٨) « إذا ... الثمام » الحيوان ١ : ٢٦٧ ط الحلبي .

وقال :

بنى أسدان تحمل العام ققمسُ
فهذا إذا دهرُ الكلاب وعامها

وقال الفرزدق :

إذا أسدىَ جاع يوماً بيلدة
وكان سميناً كلبه فهو آكله

وقال شريح بن أوس، وهو يهجو أبا المهوش الأسدى :

٦ عيرتنا تمر العراق وبره
وزادك أيرُ الكلب ححصه * الجمر

وتهمجى أسد وهذيل والعنبر وباهلة بأكل لحوم الناس . قال الشاعر في هذيل :

وأتم * أكلتم سحفة ابن محدم
زباب * فلا يأمنكم أحدٌ بعدُ

تداعوا له من بين خمس وأربع
وقد نصل الأظفار وانسبأ الجلد

ورفتم * جردانه لرئيسكم
معاوية الفلحاء يالك ما شكك

وقال حسان فيهم :

١٢ إن سرك الغدرُ صيرفا لا مزاج له
فأنت الرجيعَ وسل عن دار الحيانِ

قوم تواصوا بأكل الجار بينهم
فالشاةُ والكلبُ والإنسانُ سيانِ

وهجا شاعرٌ بلعبر، وهو يريد ثوب * بن شحمة، وفيه حديث :

١٥ عجلتم ما صادكم علاج * من العنوق ومن التجاج

حتى أكلتم طفلة كالعلاج

(٦) حشحه (فان فلون) - (٨) وأنتم (الحيوان) : إن أنتم ك - رباب ك - (١٠) ونفتم ك (١٤) بن أيوب ك ، انظر الحيوان ١ : ٢٦٩ - (١٥) علاجى (فان فلون) .

(٢) « بنى ... وعامها » الحيوان ١ : ٢٦٧ - (٤) « إذا ... آكله » الحيوان ١ : ٢٦٧ ط الحلبي - (٦) « عيرتنا ... الجمر » الحيوان ١ : ٢٦٨ ، ٣١٩ - (٨ - ١٠) « وأنتم ... شكك » الحيوان ١ : ٢٦٨ - ٢٦٩ - (١٢ - ١٣) « إن سرك ... سيان » الحيوان ١ : ٢٦٨ ، ديوان حسان ص ١٠١ ط تونس - (١٥ - ١٦) « عجلتم ... كالعلاج » الحيوان ١ : ٢٦٩ .

ولما عُيرَ ثوبٌ* بن شحمة بأكل الفتى لحم المرأة ، إلى أن نزل هو من الجبل ، قال ° :

يا بنت عمي ما أدراك ما حسبي إذ لا ° تجنّ خبيث الزاد أضلاعي

إني لذو مِرّةٍ تُحشى بوادره عند الصياح بنصل السيف قرّاع

٣

فهبجا ثوبَ بن شحمة بأكل لحوم امرأة ، وكان ثوبٌ هذا أكرم نسا عندهم من أن يَظعم طعاماً خبيثاً ، ولو مات عندهم جوعاً . وله قصص . ولقد أسرّ حاتم الطائي ، وظلّ عنده زماناً .

٦

وقال الشاعرُ يهجو باهلةً بمثل ذلك :

إن غفاقا أكلته باهله تمششوا عظامه وكاهله

وأصبحت أم غفاقا ناكله

٩

وهجيت بذلك أسد جميعاً ، بسبب رملة بنت فائد بن حبيب بن خالد بن نضلة* ، حين أكلها زوجها وأخوها أبو أرب ، وقد زعموا أن ذلك إنما كان منهما من طريق الغَيْظِ وَالغَيْرَةِ ، فقال ابنُ دارة ° يعني ذلك عليهم :

١٢

أفي أن رويتم واحتلبتم شكيتكم* فخرتم؟ وفيم الفقعي من الفخر؟

زرملة كانت زوجة لفريقكم* وأخت فريق ، وهي مخزبة الذكر

أبا أرب كيف القرابة بينكم وإخوانكم من لحم أكلها عجر؟

١٥

وقال :

عدمت نساء بعد رملة فائد بن ققس تأتيكم بأمان

وباتت عروساً ثم أصبح لحمها جلا* في قدور بينكم وجفان

١٨

(١) أيوب ك - فقال ك - (٢) إذ لا (الحيوان) : إلا ك - (١٣) شكوتكم ك - (١٤) لقربكم ك - (١٨) حلا ك .

(٢-٣) « يا بنت ... قرع » الحيوان ١ : ٢٦٩ - (٨-٩) « إن غفاقا ... ناكله » الحيوان ١ : ٢٦٩ ط الحلبي .

من حديث القرى عند العرب

وقال البراء بن ربيع^٥، أخو مضر بن ربيع^٥، يُعيرُ صلتنا، وهو أخوه، فقال:

يا صلتُ إنَّ محلَّ بيتك مُنْتِنٌ فارحَلْ فإنَّ العودَ غيرَ صليب

وإذا دَعَاكَ إلى المَعَاوِلِ فائتدَّ ٣ فاذكِرْ مَكَانَ صِدَارِهَا المَسْلُوبِ^٥

والآن فادعُ أبا رجالٍ إنَّها شنعاءُ لا حِقَّةَ بأمِّ حبيب

وأبو رجال هذا عمها. وقال في ذلك معروف الدُبَيْري:

٦ إذا ما ضِفْتَ ليلًا فقَعسيًا فلا تَطْعَمْ له أبدأ طَعَامًا

فإنَّ اللحمَ إنسانٌ فدَعه وخيرُ الزاد ما مَنَعَ الحَرَامَا

وعُيرت كلبٌ والفتين^٥ بنُ جسرٍ بأكل الخصى. وذلك بسبب النساء، وذلك أن

٩ واحدًا منهم لما أُطعم خصيَّه بسبب العَبَثِ بامرأة، سار مع من رَكِبوا ذلك منه فيهم

مثل > هذه <^٥ السيرة، فقال بعضُ من ركب ذلك:

أبلغ لَدَيْكَ بنى كَلْبٍ وإخوتهم كلبًا فلا تجتروا بعدى على أحد

١٢ هذى الخصى فكلُّوها من نُفوسِكُم كما أكلتمُ خُصًاكم في بنى أسد

وهذا الباب يكثر ويطول، وفيما ذكرنا دليل^٥ على ما قصدنا إليه من تصنيف الحالات.

فإن أردته مجموعًا فاطلبه في كتاب الشعوبية. فإنه هناك مُستَقَصَى.

١٥ والأعرابي إذا أراد القرى ولم ير نارًا نَبَحَ، فيجاوبه الكلبُ، فيتبعُ صوته. ولذلك

قال الشاعر:

مُستَبحِ أهلَ الثرى يَطْلُبُ القَرَى إلينا ومُصاه من الأرض نازح

(١) كلبًا ك - (٣) المصلوب ك - (١٠) > هذه < : ليست بالأصل .

(٦-٧) « إذا ما ... الحراما » الحيوان ١ : ٢٦٨ - (١٧) « مستبج ... نازح » الحيوان

١ : ٣٧٩ ط الخلبى .

وقال الآخر :

عَوَى حَدَسٌ * والليلُ مستحسِنُ الندى لمستنجِحٌ * بين الرُمَيْثَةِ والحَضْر

ويدلُّك على أنه يَنْبِحُ وهو على راحِلته لينبِجَه الكلبُ قول حُميد الأرقط :

وعاوَ عَوَى والليلُ مستحسِنُ الندى وقد ضَجَمَت للَنورِ تالِيَةُ النجم

فمنهم من يُبرِزُ كلبَه ليحبِّب ، ومنهم من يَمْنعه ذلك . قال زيادُ الأعجم ، وهو

يَهْجُو بنِي عَجَل :

وتكعمُ * كلبَ الحَيِّ من خَشِيَةِ القَرى وقَدْرُك كالعَدْرَاءِ من دونِها سِتر

وقال آخر :

نزلنا بعمار فأشلى كلابَه علينا فكدنا بين بيتيه نؤكل

فقلت لأصحابي ، أسِر إليهم : إذا اليومُ أم يومُ القيامة أطول ؟

وقال آخر :

أعددتُ للضيفان كلاباً ضاريا عندي وفَضْلَ هِراوةٍ من أرزن

وقال أعشى بنى تغلب :

إذا حلت معاويةُ بنُ عمرو على الأطواء خنفت الكلابا

(٢) حدس (فان فلوتن) : حوس ك - بمستنبح ك - (٧) وتعلم ك .

- (٤) «وعاوَ . . . النجم» الحيوان ١ : ٣٧٩ ، عيون الأخبار ٣ : ٢٤٤ - (٧) «وتكعم . . . ستر» الحيوان ١ : ٣٨٥ ، عيون الأخبار ٣ : ٢٤٢ ، لسان العرب مادة ك ع م - (٩-١٠) «نزلنا . . . أطول» الحيوان ٢ : ٢١٠ - (١٢) «أعددت . . . أرزن» الحيوان ٢ : ٢١٠ ، البيان والتبيين ٣ : ٤١ - (١٤) «إذا . . . الكلابا» الحيوان ١ : ٣٨٥ ، عيون الأخبار ٣ : ٢٦٣ .

وأشدني ابنُ الأعرابيِّ ، وزعم أنه من قول المجنون :

ونارٍ قد رفعتُ لغير خير رجاء أن تأوَّبني الرعاء
تأوَّبني طويلُ الشخص منهم يجرُّ ثقاله* يرجو العشاء
فكان عشاءه عندى خزير بتعر جثيثة* فيه النواء
وقال في خلاف ذلك حسان بن ثابت :

أولادُ جفنة حولَ قبر أبيهم قبر ابنِ مارية الكرمِ المُفضل
يُغشون حتى ما تهرُّ كلابهم لا يسألون عن السواد المقبل
وقال المرار الحماني* في كلبه .:

ألفَ الناسَ فما ينبجهم من أسيفٍ يبتغي الخيرَ* وحرَّ
وقال عمران بن عصام* :

لعبد العزيز على قومه وغيرهم مِن غايمره
فبابك ألين أبوابهم ودارك مأهولة عامره
وكلبك آنسُ بالمتعفين من الأمِّ بابتها الزائرة
وكفك حينَ ترى السائدا بين أندى من الليلة الماطره
فمنك العطاء ومنا التناء بكلِّ محبِّرة سائره

وفي أنس الكلاب بالناس ، لطول الرؤية لهم ، شعرٌ كثير . وقال الشاعر :

يا أمَّ عمرو أنجزى الموعودا وارعى بذاك أمانة وعهودا

(٣) محرّثه لك ، يجرُّ ثقاله (فان فلوتن) - (٤) مسه لك - (٨) الحماني (فان فلوتن عن الحيوان
مخطوطة كبريل) : الحمل لك - (٩) الحرر لك .

(٦-٧) « أولاد . . . المقبل » الحيوان ١ : ٣٨١ ، ديوان حسان ص ٧٢ ط تونس - (٩) « الف . .
وحر » الحيوان ١ : ٣٨٢ - (١١-١٥) « لعبد العزيز . . . سائره » الحيوان ١ : ٣٨٢ ، كتار
الحجاب (رسائل الجاحظ) ص ١٨٤ ، الأغاني ١ : ٣٣٢ ، ديوان الحماني ١ : ٣٣ .

ولقد طرقتُ كلابَ أهلك بالضحى حتى تركتُ عَقورهن رَقودا
يُضْرِبِينَ بالأذنانِ من فَرَحِ بنا متوسِّداتٍ أذْرُعاً وخذودا
وقال ذو الرُّمَّة * :

٣

رَأَتْنِي كلابُ الحِمَى حَتَّى أَلْفَنِي ومُدَّتْ نَسُوجُ العنكبوتِ على رَحَلِي
وقال الآخر :

بات الحَوِيثُ والكلابُ تشمُه وسَرَّتْ بأبيضِ كالهلالِ على الطَّوِي
هذا البيتُ يَدْخُلُ في هذا الباب . وقال الآخر :

٦

لو كنتُ أَحْمِلُ خَمراً يَوْمَ زرتكم لم يَنْكِرِ الكلبُ أَنِي صاحبُ الدار
لكن أَنيتُ وريحُ المِسْكِ يَنْفِخُنِي * والعنبرُ الوردُ أَذْكِه على النار
فَأَنْكَرَ الكلبُ رِيحِي حينَ أَبصرني وكان يَعْرِفُ رِيحَ الرِّقِّ والقار
وقال هلالُ بنِ خَنْم * :

٩

إِنِي لَمَفَّةٌ عن زيارةِ جارتِي وإِنِي لَمَشْنُوَةٌ إلى اغْتِيابِهَا
إِذَا غابَ عنها بعلُها لم أَكن لها زَوُوراً ولم تَأْنَسْ إلى كلابِهَا
وما أَنَا بالدارِي أَحاديثَ بيتِها ولا عالمٌ من أَيِّ حَوْكِ ثيابِهَا

١٢

وقال ابنُ هَرَمَةَ في فَرَحِ الكلبِ بالضيف ، لعادة النَّحْرِ :

١٥

وفَرَحَةٍ من كلابِ الحِمَى يَتَّبِعُهَا مَحْضُ يَزْفُ به الراعي وترعيبُ

(٤) رجل (فان فلوتن) - (٩) ينفخي ك : يفعمي (فان فلوتن) - (١١) حكيم ك .

- (٢٣٩ : ١٧ - ٢٤٠ : ٢) « يا أم عمرو ... وخذودا » الحيوان ١ : ٣٨٠ - (٤) « رأيتني ...
رجل » الحيوان ١ : ٣٨١ - (٦) « بات ... الطوى » الحيوان ١ : ٣٨١ - (٨ - ١٠) « لو كنت ...
والقار » الحيوان ١ : ٣٨٠ ، حاسة أبي تمام ٢ : ٢٢٣ ، اللال ص ١٩١ ، معجم المرزباني ٢٦٧ -
(١٢ - ١٤) « إني ... ثيابها » الحيوان ١ : ٣٨٢ - ٣٨٣ ، عين الأخبار ٣ : ١٨٣ - ١٨٤ -
(١٦) « وفرجه ... وترعيب » الحيوان ١ : ٣٨٥ ، اللال ص ٥٠٠ .

وقال ابن هرمة :

«ومستنجحٍ نبهت كلبى لصوته* فقلتُ له : قَمُ بِالْيَفَاعِ فِجَاوِبِ
فجاء خَفَى الشَّخْصِ قَد رَامَهُ الطَّوَى بِضَرْبَةِ مَفْتُوقِ الْغَرَارِينَ قَاضِبِ
فَرَحَّبْتُ وَاسْتَبَشَرْتُ حِينَ رَأَيْتُهُ وَتَلَّكَ الَّتِي أَلْقَى بِهَا كُلَّ نَائِبِ

وفي معنى الكلب من النباح يقول ابن أعيان* في الحطيئة :

أَلَا قَبِحَ اللَّهُ الْحَطِيئَةَ ! إِنَّهُ عَلَى كُلِّ ضَيْفٍ ضَافَهُ فَهُوَ سَالِحٌ
دَفَعْتُ إِلَيْهِ وَهُوَ يَخْنُقُ كَلْبَهُ الْأَكْلُ كَلْبٌ - لَا أَبَالِكُ - نَائِبُ
بَكَيْتَ عَلَى مَذْقِ خَيْبِثِ قَرِيْتِهِ الْأَكْلُ عَيْسَى عَلَى الزَادِ نَائِحٌ

وقد قالوا في صفة أبواب أهل المقدرّة والثروة ، إذا كانوا يقومون بحقّ النعمة .

قال الراجز :

إِن النَّدَى حَيْثُ تَرَى الضِّفَاطَا

وقال الآخر :

يَزْدَحِمُ النَّاسُ عَلَى بَابِهِ وَالْمَشْرَعُ السَّهْلُ كَثِيرُ الزَّحَامِ

وقال الآخر :

وَإِذَا افْتَقَرْتَ رَأَيْتَ بَابَكَ خَالِيَا وَتَرَى الْفَتَى يَهْدِي لَكَ الزَّوَارَا

(٢) ومستنجح . . . لصوته : ساقط في الأصل - (١٣) والشرع (فان فلوتن) .

(٢-٤) « ومستنجح . . . فانب » الحيوان ١ : ٣٦٧ - (٦-٨) « ألا قبيح . . . فانب »
الحيوان ١ : ٣٨٥ - ٣٨٦ ، الأغاني ٢ : ١٧٢ - ١٧٣ - (١١) « إن الندى . . . الضفاطا » البيان
والتبيين ١ : ١٥٧ ط ١٩٣٢ م (للتيمى) ، الحيوان ٥ : ٤٤٥ ، عيون الأخبار ١ : ٩١ ، الكامل
للمبرد ١ : ١١٨ (لرؤبة ، وقال أبو الحسن الأخفش لابن أبي نخيلة) - (١٣) « يزدحم . . . الزحام »
كتاب الحجاب (رسائل الجاحظ) ص ١٨٤ ، عيون الأخبار ١ : ٩٠ ، الكامل للمبرد ١ : ١١٨ -
(١٥) « وإذا افتقرت . . . الزوارا » انظر البيان والتبيين ١ : ١٥٧ .

وليسَ هذا من الأول ، إنما هذا مثلُ قوله :

ألم ترَ بيتَ الفقرِ يُهجرُ أهلهُ . وبيتَ الغنى يُهدى له ويزار

وهذا مثلُ قوله : ٣

إذا ما قلَّ مالكَ كنتَ فرداً . وأىُّ الناسِ زوّارَ المقلِّ ؟

والعربُ تفضّلُ الرجلَ الكسُوبَ والفرّةَ الطلوبَ ، ويدّمون المقيمَ الفشلَ والدثور

الكسلانَ . ولذلك قال شاعرُهُم ، وهو يمدح رجلاً :

شئى مطالبُه ، بميدُ همهُ . جوابُ أودية ، برود المضحج

ومدح آخرُ نفسه ، فقال :

فإن تأتبانى فى الشتاء وتلمسا . مكانَ فراشى فهو بالليل باردُ ٩

وقال آخر :

إلى ملكٍ لا ينقضُ النأى عزّمه . خروجَ تروكٍ للفراش الممهّد

وقال الآخر : ١٢

فِذاك قصيرُ الهَمِّ يملأُ عينه . من النوم ، إذ ملقَى فراشك باردُ

وقال آخر :

أبيضُ بسامِ برودِ مضجعه . اللقمةُ الفردُ مراراً تشبعه ١٥

(٥) لعلها : والفرّة - (٥-٦) والدثر والكسلان ك - (١٣) عزمه ك

(٢) « ألم تر ... ويزار » عين الأخبار ١ : ٢٤٢ - (٤) « إذا ... المقل » عين الأخبار

وهم يمدحون أصحاب النيران ، ويذمّون أصحاب الإخماد . قال الشاعر :

له نارٌ تُشَبُّ بكلِّ رِيحٍ إذا الظلماء جَلَّتِ الفِعا

وما إن كان أكثرهم سواما ولكن كان أرحبهم ذراعا

وقال مزرد بن ضرار :

فأبصر نارى وهى شقراء أوقدت بعلياء نشز ، للعيون النواظر

جعلها شقراء ليكون أضوا لها . وكذلك النار إذا كان حطبها يابسا كان أشدّ لحرمة

ناره ، وإذا كثرت دخانه قلّ ضوءه . وقال الآخر :

ونار كستخر* العود يرفع ضوءها مع الليل هبّت الرياح الصوارد

وكلما كان موضع النار أشدّ ارتفاعا ، كان صاحبها أجود وأبعد ، لكثرة من يراها

من البعد . ألا ترى النابغة الجعدي* حين يقول :

منع القدر فلم أهم به وأخو القدر إذا هم فعل

خشية الله وأنى رجل إنما ذكرى كئار - بقبل*

١٢

وقالت خنساء السلمية* :

وإن صخرأ لتأتم الهداة به كأنه علم فى رأسه نار

وليس بمنعنى من تفسير كل ما يمر إلا أتكالى على معرفتك . ولس هذا الكتاب

نفعه إلا لمن روى الشعر والكلام ، وذهب مذاهب القوم ، أو يكون قد شدا منه شدا حسنا .

(٨) كسجر (فان فلتين) - (١٢) تقيل ك .

(٢-٣) « له نار ... ذراعا » حاسة أبي تمام ٢ : ٢٥٥ ط ١٣٣٥ هـ (لزياد الأعرابي الكلابي) -

(٥) « فابصر ... النواظر » الحيوان ٥ : ٦٣ - (٨) « وفار ... الصوارد » الحيوان ٥ : ٦٣ ،

حاسة أبي تمام ٢ : ١٢٩ (١١-١٢) « منع ... بقبل » اللسان ١٤ : ٥٩ .

من دلائل الكرم عند العرب : الأيمان
ومما يدل على كرم القوم أيمانهم الكريمة وأقسامهم الشريفة . قال معدان بن
جواس الكندي* :

٣ إن كان ما بلغت عنى فلامى صديقى وحزت من يدي الأنامل
وكفنت وحدي منذراً في ردايه وصادف حوطاً من أعادى قاتل

وقال الأشرمالكُ بنُ الحارثِ ، في مثل ذلك أيضاً :

٦ بقيت وفري* وانحرفتُ عن العلى ولقيتُ أضيافى بوجه عبوس
إن لم أشن على ابن حرب غارة لم تخلُ يوماً من نهاب نفوس
خيلاً كأمثال السعالى شرباً* تعدو بيض في الكريمة شوس
٩ حى الحديدُ عليهم فكأنه لمعانُ برق أو شعاع شوس

وقال ابنُ سيحان* :

١٢ حرامٌ كنتى منى بسوء وأذكرُ صاحبي أبداً بدام
لقد أحرمت ودّ بنى مطيع حرامَ الدهن للرجل الحرام
وخزّم الذى لم يشتروه* ومجلسهم بمعتلج الظلام
وإن جنّف الزمان مددتُ حبلا متيناً من حبال بنى هشام
١٥ وريقٌ عودهم أبداً رطيب إذا ما اغبرَّ عيدان اللثام

(٦) وفري ك : وحدي (فان فلوتن) - (٨) شرباك : سربا (فان فلوتن) - (١٣) لم يشتروه (البيان والتبيين) : قد يشتروه ك .

(٣-٤) « إن كان ... قاتل » حاسة أبي تمام ١ : ٤٩ ، معجم الشعراء للمرزباني ص ٤٠٧ ، أمالى القالى ١ : ١٨٧ ، وانظر التنبيه لأبي عبيد ص ٥٧ - (٦-٩) « بقيت ... شوس » حاسة أبي تمام ١ : ٤٨ - ٤٩ ، أمالى القالى ١ : ٨٥ ، معجم المرزباني ٣٦٢ - (١١-١٥) « حرام ... اللثام » البيان والتبيين ٣ : ٢١٠ ط ١٣٣٢ ، الأغاني ٢ : ٢٥٥ .

تعليقات وشرح

obeikandi.com

تعليقات وشروح

١ - كتاب اللصوص (١ : ٢)

كتاب من كتب الجاحظ التي ضاعت ، ولم يبق منها إلا جريدة أسمائها ، وإلا بعض الإشارات الخاطفة - في بعض الأحيان - إلى موضوعاتها ، كما نرى هنا في هذا الكتاب . وقد أشار إليه مرة أخرى في مقدمة كتاب الحيوان ، وسماه كتاب « حيل اللصوص »^(١) ، كما ذكره البغدادي في الفصل الذي كتبه عن الجاحظية ، فقال في لهجة متحاملة : « وأما كتبه المزخرفة فأصناف ، منها كتاب في حيل اللصوص . وقد علم بها الفسقة وجوه السرقة »^(٢) . ومهما يكن من لهجة هذه العبارة ، فهي تشير إشارة ما إلى المنحى الذي انتحاه الجاحظ في تأليفه .

وهو يصف هذا الكتاب هنا بأنه « في تصنيف حيل لصوص النهار ، وفي تفصيل حيل سراق الليل . وأنه جمع فيه لطائف الخدع ، وغرائب الحيل » ؛ وفي موضع آخر نجد إشارة إلى شيء من منهجه في تأليفه ، وذلك في سياق خبر رواه عن « بابويه صاحب الحمام » إذ يقول عنه : « ولو سمعت بقصصه في كتاب اللصوص علمت أنه بعيد من الكذب والتزويد »^(٣) . وإذن فالجاحظ سلك في هذا الكتاب مسلك الرواية ؛ أو وضع الأحاديث ونحلها هذا أو ذلك ، كبابويه هذا ، وعمان الحياط ، كما سنرى بعد قليل .

على أنا - فوق هذا الوصف الذي أشار إلى منحى الجاحظ ومنهجه في كتاب اللصوص - نستطيع أن نتلمس بعض الآثارات من هذا الكتاب تلمساً ، بفضل ما عرف به الجاحظ من الترداد والتكرار ، وهي عادة عرفها فيه معاصروه - ونلاحظها نحن كثيراً فيه ، على قلة ما بقي لنا من آثاره - كما يشهد بذلك بعض ما يتحدث به عن كتبه^(٤) . وبذلك نستطيع أن نفترض أن هاتين القطعتين اللتين أوردتهما في موضعين مختلفين تمثلان بعض الشيء كتاب اللصوص ، ولنا أن نعتبرهما - إلى حد ما - أنموذجاً له .

(١) الحيوان ١ : ٣ ط الحلبي .

(٢) الفرق بين الفرق ص ١٦٢ .

(٣) الحيوان ٢ : ١٥٦ .

(٤) « ونسبى إلى التكرار والترداد ، وإلى التكثير والجهل بما في المعاد من الخطل » الحيوان ١ : ٥ .

أما إحدى هاتين القطعتين فإنها تتضمن وصفاً لبعض حيل اللصوص ، فهي بذلك أشبه بموضوع كتاب اللصوص ، على الصفة التي قدمناها ، وأجدد أن تكون صورة منه . وهي هذه القطعة :

« ونحن نرى كل من كان في يده كيس أو درهم أو حبل أو عصا ، فإنه متى خالط عينيه النوم ، استرخت يده ، وانفتحت أصابعه . ولذلك يتناهب المحتال للعبد الذي في يده عنان دابة مولاة ، ويتناوم له وهو جالس ؛ لأن من عادة الإنسان ، إذا لم يكن بحضرته من يشغله ، ورأى إنساناً قبلته يتناهب أو ينعس ، أن يتناهب وينعس مثله . فمتى استرخت يده أو قبضته عن طرف العنان ، وقد خامره سكر النوم ، ومتى صار إلى هذه الحال ، ركب المحتال الدابة ، ومر بها »^(١).

وأما القطعة الأخرى فهي جزء من وصية عثمان الخياط للشطار من اللصوص . قال :
« إياكم إياكم وحب النساء ، وسماع ضرب العود ، وشرب الزبيب المطبوخ . وعليكم باتخاذ الغلمان ، فإن غلامك هذا أنفع لك من أخيك ، وأعون لك من ابن عمك . وعليكم بنبيد التمر ، وضرب الطنبور ، وما كان عليه السلف . واجعلوا النقل باقلاء ، وإن قدرتم على الفستق والريحان شاهسفرم . وإن قدرتم على الياسمين . ودعوا لبس العمام وعليكم بالقناع . والقلمسوة كفر ، والخف شرك . واجعل لحوك الحمام ، وهارش الكلاب . وإياك والكباش واللعب بالصقورة والشواهين . وإياكم والفهود » ، فلما انتهى إلى الديك قال : « والديك فإن له صبراً ونجدة وروغاناً وتديباً وإعمالاً للسلاح . وهو يهر بهر الشجاع . » ، ثم قال : « وعليكم بالزرد ودعوا الشطرنج لأهلها . ولا تلعبوا في الزرد إلا بالطويلتين . والودع رأس مال كبير ، وأول منافعه الخدق باللقف » . ثم حدثهم بحديث يزيد بن مسعود القيسي^(٢).

وهناك قطعة ثالثة أوردتها صاحب المحاسن والمساوي في الباب الذي عقده للكلام عن مساوي الجبن . ونستطيع أن نفترض أيضاً أن هذه القطعة مأخوذة كذلك من كتاب اللصوص ، وإن لم ينص على الكتاب ، بل اكتفى بالنص على أنها من كلام عمرو بن بحر الجاحظ . قال :

« سمعت بلالا يحكى عن أصحابه أن رئيسهم كان يسمى أبريقياء ، وأنهم خرجوا في سفر ، فإذا بعشرة نفر من اللصوص قد تعرضوا لهم ، قال : وكان أشد أصحابنا والمنظور

(١) الحيوان ٣ : ٤٠٩ .

(٢) الحيوان ٢ : ٣٦٦ .

إليه مناقى يقال له : « دومانى ، بطل شديد لا يهوله شىء ، مطاعن مسابق . فحمل على رجل منهم ، فعطف عليه الرجل ، فقطع أنف دومانى ونزع حقيقه وكسر أسنانه ، رجع منهزماً . فغازنى ذلك ، فوثبت وأخذت كسائى وطويته بطاقين ولففته على يدى وأخذت عصاى ، وأخذ آخر ملحفة والدته فلفها على ذراعه ، وأخذ آخر طبقاً كبيراً من أطباق الفاكهة فسّر به وجهه . وخرجنا وتقدم رئيسنا أبريقياء ، وقد لف على يده قطيفه وهو يقول :

إن تنكرونى فأنا ابن كلب

فقال له بعض اللصوص : ما ننكر ذلك عليك . فشد عليه أبريقياء بأسفل دن كان معه ، فلم يحك فيه . فأخذ اللص أسفل الدن فرمى به أبريقياء ، فهشم وجهه وكسر أسنانه ، وتنحى أبريقياء . وأقبل منا آخر يسمى لقوة ، وأنشأ يقول :

إن عصاى — فاعلموا — مقسيرة أضرب بها وجه اللصوص الكفره

ثم شد على واحد منهم فضرب مفرق رأسه فلم يحك فيه . واستلب العصا منه وطلاه بها طلياً ، فإذا هو قد خلع منكبه وكسر أضلاعه وبقى لا يحلى ولا يمر . ثم أقبل فى من أصحابنا وفى يده مجرفة وهو يقول :

أنا ابن كهل فى يدى مجرفه
والله لو كان بكفى مغرفه
وهى لعمرى قد كستنى ملحفه
والدى كريمة منطفة
قتلتكم فكيف عندى مجرفه

فضرب بالمجرفة واحداً من اللصوص فأخطأه ، وعطف عليه اللص فأخذها من يده ، ثم ضربه بها ضربة ، فدار سبع مرات وسقط ، وقد غشى عليه ، فلما رأيت ذلك عدت إلى الطعان وأنا أقول :

أنا فلان سيد الفتيان
أخو ابن حمران فى الميدان

أحلف بالله وبالفرقان
لأضربن القوم بالمنيان
ضرب غلام ماجد كشجان
والعجز منسوب إلى الجبان

فأشد على واحد منهم فأضرب كتفيه ، فوثب قبل أن تصل إليه الضربة ، فضربني فهشم أنفي وكسر أسناني وخررت مغشياً على . ثم فتحت عيني فلم أر منهم أحداً ، ولا أدري كيف أخذوا ، والحمد لله على الظفر^(١) .

ولعلنا نستطيع القول - بعد هذا الوصف وهذه التماذج - بأن كتاب اللصوص هذا كان من أهم كتب الجاحظ الفنية . ولعله لم يكن يقل خطراً عن كتاب البخلاء في تصويره لبعض نواحي المجتمع الإسلامي المعقد في تلك الفترة من الزمن ، وما كان يداخله من الشرور الاجتماعية الملازمة التي لا يخلو منها مثله ، تصويراً فنياً رائعاً يجمع إلى الدقة في الوصف والاسترسال في التفصيل روح الفكاهة والسخرية التي تستغل بعض نواحي الضعف ومظاهر الغفلة فتتخذها موضوعاً لها .

وإلى جانب هذه المعلومات القليلة التي نستطيع أن نتعلل بها يمكن أن نفترض فرضاً آخر يمدنا بشيء جديد نضيفه إلى ما سبق ، وهو أن هذا الكتاب كان من أهم المصادر التي اعتمد عليها أبو القاسم الراغب الأصبهاني ، من علماء القرن الخامس ، في الفصل الذي كتبه عن : « التلصص وما يجري مجراه »^(٢) وهو فصل قيم يصور كثيراً من النواحي في هذا الموضوع ، ويذكر طوائف اللصوص المختلفة ، وقد أورد فيه فقرات أخرى من وصية عثمان الخياط . كما ذكر بعض الأخبار عنه وعن غيره من اللصوص المعاصرين للجاحظ كأبي معن الزنجي . وقد روى في الحديث عنه وصف النظام له إذ يقول : « لو ادعى النبوة وأن معجزته الصبر على الضرب بالسياط ، لأدخل عليهم به شبهة عظيمة » . وما أشبه أن يكون هذا منقولاً عن كتاب الجاحظ .

٢ - الحرامي (١ : ٨)

هكذا جاء بالراء في مواضع ، وفي مواضع أخرى بالزراي ، وكلا الاثنين وارد متجه .

(١) المحاسن والمساوي ٢ : ١٤٣ ، ط السعادة ١٩٠٦ .

(٢) محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء . ٢ : ٨١ - ٨٤ ط الشرفية ١٣٢٦ .

وإذا صحت الأولى فالأكثر أنها نسبة إلى « بنى حرام » (سكة بالبصرة ، منها أبو محمد القاسم بن علي بن محمد بن عثمان الحريري ، مصنف المقامات المشهورة) (١).

وهو أبو محمد عبد الله بن كاسب ، أحد الذين بنى الجاحظ عليهم كتاب البخلاء ، وقد عقد له فصلاً كبيراً أظهر فيه روحه الفكهة ، فيما يصوره به ، وفيما يحكى من نوادره وحججه. وقد قال في صفته : إنه « كان أبخل من برأ الله ، وأطيب من برأ الله » (٢) ، وكذلك وصفه في موضع آخر بأنه كان أطيب الخلق (٣) . وكذلك وجد الجاحظ في هذه الشخصية مادة طيبة لتصوير البخل وتفكير البخلاء وأحاسيسهم ، تصويراً فكهاً ساخرًا طريفاً .

ومن تمام صفة الحرامى ما يشير إليه الجاحظ أنه كان حليماً ، وأن لون بشرته كان إلى الحمرة . وذلك إذ يقول : « وكان إسماعيل (يعنى ابن غزوان) أحمر حليماً ، وكذلك كان الحرامى . وكنت أظن بالحمرة الألوان التسرع والحلدة ، فوجدت الحلم فيهم أعم » (٤) . وفيما ذكره الجاحظ عنه ما يدل على أنه كان من أصحاب أبي نواس ، وأنه كان يتكلف الشعر على مذهبه ، ويحاول أن يسلك فيه سبيله ، وأنه كان يغطى تخلفه فيه بما كان يصطنع من فكاهاة وعبث (٥) وقد أورد له أبو عبيد قطعة صغيرة من الشعر يظهر فيها هذا التأثير إلى جانب طبيعته العابثة (٦) . وكذلك أورد له الجاحظ بيتاً مفرداً يظهر فيه هذا الاتجاه (٧) .

وكان الحرامى يصطنع الكتابة للسراة والولاة . فقد كان كاتباً لمويس بن عمران ، كما كان كاتباً لأبي سليمان داود بن داود . ويظهر أن هذا كان في أيام ولايته كسكر ، وكان مقبياً بواسط .

(١) انظر الباب في تهذيب الأنساب ، لأبي الحسن علي بن محمد بن الأثير ، ١ : ٢٨٨ ، ٢٦٩ ، ط مكتبة القدسي ، القاهرة ، ١٣٥٧ هـ .

(٢) البخلاء ص ٥٩ .

(٣) الحيوان ٧ : ٦٩ ط التقدم ، ١٩٠٦ م . (٧ : ٢٢٤ ط الحلبي ، ١٩٤٥)

(٤) الحيوان ٥ : ١٠٤ ط مصطفى الباني الحلبي . ١٩٤٣ .

(٥) انظر صورة من ذلك ، مما كان بينه وبين أبي نواس ، في الحيوان ٧ : ٢٢٤ ، ٢٢٥ ط الحلبي .

(٦) اللآلئ ٢ : ٢٧٠ ط لجنة التأليف والترجمة والنشر .

(٧) الحيوان ٥ : ١٨٠ ط الحلبي .

٣ - الكندي (١ : ٩)

ذكره الجاحظ هنا في قطعة يمكن القول بأنها من أحسن ما خلف الجاحظ من الآثار الفنية : دقة في الوصف ، وروعة في التحليل ، وجمالا في العبارة . وقد جعل الكلام فيها على لسانه ، باعتباره من أصحاب البيوت « أو « المسكنين » ، على حد تعبيره . وقد قدم في صفته أنه كان رجلا بخیلا شديد البخل ، صاحب تدبير عجيب ، ثم كان مع هذا طبيبا ظريفاً خفيف الظل حسن الحديث . ويقول أستاذنا الجليل الدكتور طه حسين في التعليق على هذه القطعة : « في هذه السهولة ، وهذا اليسر والجمال ، يصور لنا الجاحظ الخصومات ، لا كما كانت تقع بين الملاك والمستأجرين في بغداد ، بل كما تقع هنا في القاهرة »^(١) وهذه العبارة وصف دقيق لهذه القصة في أسلوبها وموضوعها ، وهي كافية في التعبير عن الحيوية التي تتمتع بها ، وعن مقدار صدقها في تحليل دخائل النفس الإنسانية في إحدى صورها ، متمثلة في شخص الكندي ، حتى لم تعد هذه القطعة رهينة بعصرها وبيئتها ، بل تجاوزت هذه الحدود الضيقة ، إذ كانت قطعة فنية خالصة ، أكسبها الفن نوعاً من الخلود ، وإذ كان ما تتضمنه من خصومات ومحاورات ليس إلا مظاهر للحركات النفسية التي يبعثها شعور الحرص في تلك الظروف الخاصة .

وبعد ، فن هو هذا الكندي الذي كان الجاحظ يعنيه بهذه القطعة ؟ أهو شخص من الأشخاص الذين عنى التاريخ بهم ، فحفظ أسماءهم وخلد شيئاً من آثارهم ؟ يقول الأستاذ فان فلوتن في تحليله السريع لكتاب البخلاء إن من المحتمل أن يكون هو الفيلسوف المشهور^(٢) ، يعنى أبا يوسف يعقوب بن إسحاق الكندي . ثم يقول في التعليق على هذا الرأي والاستئناس له إن من الممكن أن يستخلص من العبارة الواردة في (ص ٩٠ س ٣) أن كندينا هذا كان كوفياً ، وكذلك كان الفيلسوف . والعبارة التي يشير إليها هي قول الكندي في رسالته : « أنت تطالبني ببغض المعتزلة للشيعة ، وبما بين أهل الكوفة والبصرة » ، وهذا ولا ريب استنتاج غريب ، فواضح أن هذه العبارة لا يمكن أن تفيد شيئاً يعين نسبه إلى بلده أو يشير إليه إشارة ، إلا على شيء من القسر والفهم المتكلف . فهذه واحدة . وأخرى إن أبا يوسف الكندي لم يكن كوفياً ، وكل

(١) من حديث الشعر والنثر ص ١٢٤ ط الصاوي .

(٢) مقدمة كتاب البخلاء لفان فلوتن ص IV .

ما يذكره المؤرخون هو أن أباه إسحاق بن الصباح كان أميراً على الكوفة للخليفة المهدي ، وليس معنى هذا أنه كوفي ، بل إنهم يجمعون على أنه بصرى المنشأ ، ثم انتقل إلى بغداد وتأدب فيها وأقام بها . وكل أخباره وتاريخه العلمي في بغداد ، منذ لم يعد يربطه بالبصرة إلا ضيعة كانت له فيها . وهكذا نرى أن مقدمتي الاستنتاج باطلتان ، فلا يمكن أن يترتب عليهما شيء .

وكأن الذي يشبه القول بأن كندی كتاب البخلاء هو أبو يوسف الفيلسوف ما يثرونه عنه من أنه كان معروفاً بالبخل ، محتجاً له . على النحو الذي نراه مثلاً عند الحصري^(١) وابن أبي أصيبعة^(٢) . على أن شهرته بالبخل هذه – على فرض صحتها – لا يمكن أن تدل وحدها دلالة قاطعة ولا مقاربة على أنه هو . فإذا أردنا أن نلتمس شخصية الكندي الفيلسوف على ما تأدت إلينا في ثنايا كلام الكندي الذي ساقه الجاحظ لم نكد نظفر بها ، إلا أن نتكلف أشد التكلف ، ونتعسر في الاستنتاج والتطبيق ، مما لا يطمئن إليه الضمير العلمي .

وهكذا يبقى ذلك الفرض الذي افترضه العلامة فان فلوطن وتابعه عليه غيره فرضاً تحكيمياً ليس له ما يرجحه إلا هذه الصدفة المحضة . وإلى هنا نرى أننا على الأصل في هذا الكندي ، وهو أنه شخص مستقل عن الكندي الفيلسوف ، حتى نجد ما يثبت أنه هو . وفوق هذا نجد لدينا أشياء تجعلنا نستأنس بها في ترجيح هذا الاستقلال :

من ذلك ما قدمنا من أن أبا يوسف الكندي انتقل إلى بغداد وتأدب فيها ، وأقام بها ، حتى أصبح رجلاً بغدادياً . ولكننا نجد في قصة الكندي ما يشير إلى أنه بصرى لا بغدادى . وهذه الإشارة لا نزع أنها قاطعة ولا قريبة من القطع ولكننا نسوقها على سبيل الاستئناس وحده حتى نجد ما يعززها ويشد منها . وذلك في القصة التي رواها عمرو بن نهوي أن الكندي سمع صوت انقلاب جرة من الدار الأخرى ، فصاح بالخادمة . فقالت مجيبة له ، إنه ماء بئر^(٣) وظاهرة الحرص على الماء العذب والمغلاة به ظاهرة بصرية – كما سيجيء القول في بعض هذه التعليقات – ويقل عندنا أن يكون شيء من ذلك في بغداد ، حيث الماء العذب كثير موفور .

(١) زهر الآداب ٣ : ٢٤٦ .

(٢) طبقات الأطباء ١ : ٢٠٩ ط الراهبية ١٨٨٢ .

(٣) كتاب البخلاء ص ٨١ .

ومن ذلك أيضاً، مما يشير إلى التعارض بين الكنديين، ونسوقه أيضاً من قبيل الاستثناس، أن كندى البخلاء لم يكن له إلا غلة دارة، فلم يكن صاحب ضيعة، إذ كان يقول لعياله: «أنتم أحسن حالا من أرباب هذه الضياع»^(١) وأما أبو يوسف الكندى الفيلسوف فقد رأينا أنه كان يملك ضيعة بالبصرة.

وعلى هذا نرجح أن كندينا هذا هو شخص آخر منسوب إلى كندة، غير أبي يوسف يعقوب ابن اسحق الكندى الفيلسوف.

٤ - ابن غزوان (١ : ٩)

هو إسماعيل بن غزوان. ذكره الجاحظ في كتابه البخلاء في عدة مواضع، مذكوراً بالبخل، مقروناً بيا لانتصار له، وقد كان من أصحاب الكندى وأبي سعيد الثوري. والأخبار عنه بعد ذلك قليلة لا تعطينا صورة واضحة عنه. وقد أسند الجاحظ إليه في البيان والتبيين عبارة جيدة الصنعة من قبيل احتجاج الأشياء، وهي: «لا تنفق درهماً حتى تراه، ولا تثق بشكر من تعطيه حتى تمنعه، فالصابر هو الذى يشكر، والجازع هو الذى يكفر»^(٢).

ويظهر أنه كان ممن يلبس المتكلمين ويأخذ مأخذهم. وقد حكى عنه الجاحظ في الحيوان ما يشير إلى هذا. قال: «ولإسماعيل بن غزوان في هذا نادرة. وهو أن سائلاً سألنا، من غير أهل الكلام، فقال: ما بال ورق الخبىرى ينضم بالليل ويتشر بالنهار؟ فانبرى له إسماعيل بن غزوان فقال: لأن برد الليل وثقله من طباعهما الضم والقبض والتنويم، وحر شمس النهار من طباعه الإذابة والنشر والبسط والخفة والإيقاظ. قال السائل: فيما قلت دليل، ولكنه... قال إسماعيل: وما عليك أن يكون هذا في يدك إلى أن تصيب شيئاً هو خير منه». قال الجاحظ بعد ذلك: «وكان إسماعيل أحمر حلماً»^(٣) وكذلك تدل بعض الأخبار التي يحكيها الجاحظ عند أنه كان على صلة بأبي إسحاق إبراهيم النظام^(٤)، وكذلك كان على صلة بأنس بن أبي شيخ، كاتب جعفر بن يحيى، وكان أنس - كما يصفه الجاحظ - زكناً فهماً، نقي الألفاظ، جيد المعاني،

(١) المصدر نفسه، ص ٨١.

(٢) البيان والتبيين ٣ : ١٣٧، ط ١٩٣٢ م.

(٣) الحيوان ٥ : ١٠٤ ط الحلبي، ١٩٤٣ م.

(٤) الحيوان ٥ : ١١٧.

حسن البلاغة^(١)، وقد شهد أنس له بأنه حسن الفهم حسن الاستماع^(٢)، ويدلنا هذا الخبر الذي تضمن هذه الشهادة أن إسماعيل ابن غزوان كان رجلاً مقدور الجانب قبل سنة ١٨٧، وهي السنة التي قتل فيها أنس مع جعفر بن يحيى.

وأما أخلاقه الشخصية ففي الحيوان خبران يدلان على أنه كان مستهتراً بالنساء، غير متحرج فيهن^(٣).

ومن أقواله المأثورة: «الأصوات الحسنة، والعقول الحسان كثيرة. والبيان الجيد والجمال البارع قليل»^(٤).

٥ - الحارثي (١ : ٩)

أحد الذين عقد لهم الجاحظ الفصول المطولة في كتابه البخلاء لتصوير البخل واحتجاجات البخلاء وتعلاتهم في صور مختلفة، كل واحدة منها تمثل وجهاً من وجوهه، ولونا من ألوانه.

وهو هنا رجل سرى متنبل، وقد اتخذ بخله من هذا التنبل مادة للاحتجاج والمجادلة. ولم يشر الجاحظ في ذكره له إلى شيء يقرب إلى تعيين شخصه، من اسم أو كنية أو غيرها، فليس لنا إلا أن نلمسه تلمساً يقوم على الظن أو ما هو دونه.

غير أنا لا نشك - قبل كل شيء - في أن الحارثي هذا هو شخص آخر غير زياد بن عبيد الله الحارثي وإلى مكة والمدينة والطائف واليامة في أيام أبي جعفر المنصور، على الرغم من أنه يعد في البخلاء أصحاب النوادر في البخل، مما قد يشبه أنه هو. ففضلاً عن أن قصة الحارثي في البخلاء يبعد أن تنسب إلى مثل شخصية زياد الحارثي العربي الصريح، فإن حكايته عن موسى بن عمران وعلى الأسواري ومحمد بن يحيى البرمكي تدل على أنه من جيل غير حيل زياد، متأخر زمنه عنه. وإذن فمن عسى أن يكون حارثينا هذا؟

قد يكون ذلك الحارثي هو ذلك الذي هجاه على بن الجهم وأبو على البصير، وذكره أبو الفرج^(١) رواية عن ابن الجهم، قال: «كان الحارثي يحيى إلى حلوان وأنا أتولها

(١) الوزراء والكتاب للجيشياري. ص ٢٣٩، ط الحلبي، ١٩٢٨ م.

(٢) البيان والتبيين ٣ : ١٠٧، ط ١٩٣٢، عيون الأخبار ٢ : ١٢٨.

(٣) الحيوان ٢ : ٥٨ - ٥٩، ٥ : ١١٧ - ١١٨، وانظر أيضاً عيون الأخبار ٤ : ١٠٨.

(٤) البيان والتبيين ٢ : ١٦٨.

(٥) الأغاني ١٠ : ٢١٠ - ٢١١ ط دار الكتب المصرية.

- (وقد كان على بن الجهم على مظالمها) - فإذا وردها وقع الإرجاف ، فلم يزل متصلا حتى يخرج ، فإذا خرج سكن الإرجاف . فأتاني مرة وظهر كوكب الذنب في تلك الليلة ، فقلت :

لما بدا أيقنت بالعطب فسألت ربي خير منقلب
لم يطلع إلا لآبدة الحارثي وكوكب الذنب

ثم حكى أبو الفرج عن ابن المدبر قوله في صفة الحارثي : « وكان الحارثي أعور مقبح الوجه ، وفيه يقول أبو علي البصير :

يا معشر البصراء ! لا تتطرفوا جيشي ، ولا تتعرضوا لنكيرتي
ردوا على الحارثي ، فإنه أعمى يدلس نفسه في العور »

وكذلك يذكره المسعودي في سياق خبر رواه عن المبرد أنه كان في مجلس القاضي أبي إسحاق إسماعيل بن إسحاق ، وحضر جماعة سماهم ، منهم الحارثي . وأن الحارثي هذا أنشد لأبي تمام معاتبة أحسن فيها ، وأن المبرد استحي أن يستعيده^(١) .
أفيكون الحارثي هذا هو حارثينا المذكور في البخلاء ؟

٦ - الأخلاط (٣ : ٦)

ذكر الجاحظ تقويم الأخلاط في معنى تعديل الطباع ومعالجة الأخلاق . والأخلاط هي الأمزجة الأربعة ، وكانت أساس التشريح القديم ، ولكنهم كانوا - فوق ذلك - يصلون بينها وبين الأخلاق والحالات النفسية . فقد جاء ، مثلا ، في رسائل إخوان الصفاء ، في الرسالة التاسعة من الجسمانيات الطبيعيات أن الأخلاط الأربعة هي الصفراء والدم والبلغم والسوداء ، وأن هذه الأخلاط هي التي خلقت منها جواهر الجسم التسعة : العظام والمنخ والعصب والعروق والدم واللحم والجلد والظفر والشعر^(٢) .
وجاء في الرسالة التاسعة في الأخلاق والآداب أن أخلاق الناس وطبائعهم تختلف من أربعة وجوه : أحدها من جهة أخلاط أهم ودجسامزاج أخلاطها^(٣) .
وقد أشار الجاحظ إلى شيء من هذا ، وإلى أن صاحب هذا القول هو المعلم ،

(١) مروج الذهب ٧ : ١٥٣ - ١٥٤ ط باريس .

(٢) رسائل إخوان الصفا ٢ : ٣٢٠ إلخ ، ط العربية بمصر ، ١٩٢٨ م .

(٣) رسائل إخوان الصفا ١ : ٢٢٩ .

(ولعله يعنى أرسطو) ، حين قال فى رسالة التربيعة والتدوير : « ولم جعل (أى المعلم) الرعب للسوداء ، والحزن للبلغم ، والحرارة للصفراء ، والسرور للدم »^(١) .
وقد ذاعت هذه النظرية وترددت أصداؤها فى مختلف البيئات العلمية والأدبية والدينية ، منسوبة مرة إلى هذا أو ذلك من العلماء ، كما رأينا فى نص الجاحظ ، وأخرى إلى المصادر الدينية المختلفة ، كما يحكى عن وهب بن منبه أنه وجدها فى التوراة مفصلة^(٢) .

٧ - خباب (٤ : ٨)

هذا أحد ثلاثة من أصحاب المذاهب الغربية التى ظهرت فى أيام الجاحظ ، وذكرهم فى مقدمة البخلاء ، لينوه بأن ذلك مما اشتمل عليه كتابه « المسائل » جلياً واضحاً .
وخباب هذا هو - فيما يؤخذ من كلام الجاحظ - كان الناطق برأى المزدكية ، المستحجي لمذهبهم ، فيما يتعلق بالعلاقات الجنسية بين إطلاقها وتنظيمها . ولم أجد عنه فيما قرأت شيئاً ، إلا أن الأستاذ فان فلوتن ذكر فى الملاحظات والإيضاحات التى ألحقها بنشرته لكتاب البخلاء أن من المحتمل أن يكون اسمه « جناب » ، وأن يكون هو « جناب ابن الحشخاش القاضى » كما جاء فى المشتبه ص ١٣٨ ، وقد أسند إليه الجاحظ فى الحيوان بعض الملاحظات عن النساء .

٨ - الجهجاه (٤ : ١٥)

أما الجهجاه هذا فقد كان يذهب إلى نصره الكذب والدفاع عنه ، والانتصاف له ممن كانوا يتجنون عليه بتناسى مناقبه وتذكر مثالبه ، « وأن ليس كل صدق حسناً ، ولا كل كذب قبيحاً » .

وكما كان مذهب خباب من أصداء المزدكية الفارسية كما رأينا ، فإن مذهب الجهجاه هذا كان - فيما نحسب - من أصداء السوفسطائية اليونانية التى جعلت المعارف والمبادئ الأخلاقية موضع الجدل والإنكار ، فليس هناك حق وباطل ، كما أنه ليس هناك خير وشر .

(١) رسائل الجاحظ ص ٢٢٩ ، ط الرحمانية بمصر ، ١٩٣٣ م .

(٢) عيون الأخبار ٢ : ٦٢ ، ط دار الكتب المصرية ، ١٩٢٨ م .

وأما شخص الجهجاه فالأمر فيه غامض ، إذ كانت النصوص لم تواتنا بما يكشف عنه ويعينه . وقد ذكر الآبي رجلاً بهذا الاسم وصفه بأنه كان مجنوناً ، وأنه كان يدعى الخلافة ، ثم ذكر عنه في النص نفسه ما يؤخذ منه أنه كان مهتماً بالزندقة ؛ « قال له الرشيد : لأضربنك بالسياط حتى تقر بالزندقة » ، كما روى عنه أيضاً نادرة تشهد له بحضور البديهة ، والتمرس بأساليب المتكلمين في الجدل والمناظرة : « قال جعفر بن يحيى ، كالهزئ به : هذا أمير الضراطين يزعم أنه أمير المؤمنين . قال : لو كنت كذا كنت أوسع إمرة من صاحبك . إن الضراط عام والإيمان خاص »^(١) فترى هذا الجهجاه هو صاحبنا ؟ أنا لا أبعد ذلك . وليس يبعده أن تكون به لؤثة .

على أنا - مع هذا - لا ننسى اسماً آخر قريباً ، فربما كان هو صاحبنا ، هو أبو الجهجاه الذي لقبه الجاحظ في موضع آخر من « البخلاء » بالنوشرواني ، وذكر في موضع من الحيوان أن اسمه محمد بن مسعود^(٢) . كما جاء ذكره في مواضع أخرى مختلفة^(٣) ويؤخذ من هذه النصوص ، التي لم يذكر فيها إلا عرضاً ، أنه كان من أصحاب أبي عمرو المكفوف ، وأنه كان يتعاطى الكلام ، ويرى في الأعراض رأياً غريباً ، فإنه زعم أن القائم غير القاعد ، وأن العجين عبر الدقيق .

٩ - صحصح (٤ : ٢٠)

وهذا ثالث الثلاثة . وهو صاحب مذهب من هذه المذاهب التي تدل على مقدار ما وصلت إليه فوضى الآراء في ذلك العهد . فقد كان ينكر الحياة العقلية ، وينشد الكمال الجسدى ، ويفضل ما أدى إليه من النسيان والغباء والغفلة . ويظهر أن هذا الرأي كان من الآراء التي تقع عليها المناظرة . ولعل الجاحظ كان ينظر إليه حين قال في الحيوان : « ومن الناس من يقول إن العيش كله في كثرة المال ، وصحة البدن ، ونحول الذكر » ، ثم ذهب يناقش هذا القول مناقشة كلامية^(٤)

وقد كان صحصح هذا - كما يؤخذ من النص الوحيد الذي عثرنا به يذكره - متكلماً ذكره الجاحظ مع طائفة من المتكلمين في رد قول أبي إسحاق إن السباع والبهائم

(١) نثر الدرر ٣ : ٣٤٤ ، فتوغرافية دار الكتب المصرية .

(٢) الحيوان ٢ : ٣١١ ، ط الحلبي .

(٣) الحيوان ٣ : ٩ ، ٤ ، ٢٠ ، ٥ : ١٤ ط الحلبي .

(٤) الحيوان ٢ : ٩٦ - ١٠٠ ط الحلبي ، ١٩٣٨ م .

لا تدخل الجنة ، ولكن الله ينقل تلك الأرواح خالصة من تلك الآفات فيركبها في أي الصور الحسان أحب . قال : « وكان أبو كلدة ومعمرو وأبو الهذيل وصحصح يكرهون هذا الجواب ، ويقولون : سواء عند خواصنا وعوامنا أفلنا إن أرواح كلابنا تصير إلى الجنة ، أم قلنا إن كلابنا تدخل الجنة إلخ »^(١).

١٠ - كتاب المسائل (٤ : ٧)

ذكر الجاحظ هذا الكتاب هنا ليحيل عليه الراغب في الاستزادة من مثل تلك الآراء الثلاثة التي ذكرها ، فهي إذن تعتبر أنموذجاً منه ، ومثلاً مما تضمنه ، وقد ذكره في مقدمة الحيوان إلى جانب كتاب الجوابات^(٢) ، والكتابان يقترنان في الفهرست التي أوردتها ياقوت لكتب الجاحظ على هذه الصورة : « كتاب جوابات كتاب المعرفة ، كتاب مسائل كتاب المعرفة »^(٣) . وربما كان هذان الكتابان قد أفردا من كتاب المسائل الذي يذكره الجاحظ هنا ، إذ كانت « المعرفة » باباً من أبوابه .

ويتبين لنا من هنا هذا الكتاب - إلى جانب ما سبق - في هذه العبارة التي يختتم بها الجاحظ كتابه في « مناقب الترك وعمامة جند الخلافة » ، إذ يقول : « ولو كان هذا الكتاب من كتب المناقضات ، وكتب المسائل والجوابات ، وكان كل صنف من هذه الأصناف يريد الاستقصاء على صاحبه ويكون غايته إظهار فضل نفسه ، وإن لم يصل إلى ذلك إلا بإظهار نقص أخيه وولده ، لكان كتاباً كبيراً كثير الورق عظيماً إلخ »^(٤).

وكذلك بقيت لنا قطعة من كتاب المسائل والجوابات ، وهي في المعرفة ، في مختارات رسائل الجاحظ المحفوظة بالمتحف البريطاني برقم ١١٢٩ ملحق ، وتقع ما بين ورقتي ١٧٥ ، ١٨٦ .

١١ - عامر بن عبد قيس (٦ : ١)

هكذا يسميه الجاحظ ، واسمه - عند أبي نعيم - عامر بن عبد الله بن عبد قيس^(٥) ،

(١) الحيوان ٣ : ٣٩٥ ، ط مصطفى الباني الحلبي ، ١٩٣٨ م .

(٢) الحيوان ١ : ٩ ، ط مصطفى الباني الحلبي ، ١٩٣٨ م .

(٣) معجم الأدباء ١٦ : ١٠٧ ، ط دار المأمون .

(٤) مجموعة رسائل الجاحظ ص ٥٣ ، ط التقدم بالقاهرة .

(٥) حلية الأولياء ٢ : ٨٧ ، ط السعادة ، ١٩٣٢ م .

وهو أحد الرجال الذين يكثر الجاحظ من ذكرهم وترديد أسمائهم، من أهل الزهد والبيان من رجال البصرة .

وكان تميمياً من بني العنبر ، تلقى عن أبي موسى الأشعري ، وأظهر الزهد وإنكار المنكر ، ويذكر البلاذري عن أبي مخنف لوط بن يحيى أنه كان ينكر على عثمان أمره وسيرته ، فكتب حمران بن أبان مولى عثمان إلى عثمان يخبره ، فكتب عثمان إلى عبد الله بن عامر بن كريز في حمله فحمله ، فلما قدم عليه فرآه ، وقد أعظم الناس إشخاصه وإزعاجه عن بلده لعبادته وزهده ، أطفه وأكرمه ورده إلى البصرة^(١) . ويصف الجاحظ في بعض خبره عنه شيئاً مما كان بينه وبين عثمان في تلك اللقيا ، إذ يقول : « وخرج عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه من داره يوماً ، وقد جاء عامر بن عبد قيس ، فقعد في دهليزه ، فلما رأى شيخاً دميماً أشغى ثظاً في عباءه ، فأنكره وأنكر مكانه ، فقال : يا أعرابي ! أين ربك ؟ قال : بالمرصاد . ويقال إن عثمان بن عفان لم يفحمه أحد قط غير عامر بن عبد قيس »^(٢) .

ولم يطل به الأمر كثيراً في البصرة بعد عودته إليها ، فوقع بينه وبين واليها ما أدى إلى إخراجها إلى الشام ، وهناك أنكر في الشام ما أنكره في العراق من مظاهر اللهو والبعد عن حقائق الدين .

والجاحظ يورد له في ثنايا كتبه عبارات له تشهد برقة القلب وصفاء البصيرة وحضور البديهة ، كما تشهد له بالبيان وحسن الديباجة والقدرة على أن يصل ببيانه إلى أعماق القلوب ، وكذلك نجد طائفة من كلامه عند أبي نعيم في الفصل الذي كتبه عنه في حلية الأولياء ، وفي عيون الأخبار لابن قتيبة .

١٢ - صفوان بن محرز (٦ : ٢)

وهذا أيضاً ناسك زاهد من أهل البيان من الطبقة الأولى ، مات سنة ٧٤ ، كما ذكر ابن قتيبة^(٣) ، وهو كذلك بصرى تميمي ، من غسان تميم ، صحب أبا موسى الأشعري ، وتثقف عليه أيام ولايته البصرة ، وظل فيها إلى أن مات بها في ولاية بشر بن مروان .

(١) أنساب الأشراف ٥ : ٥٧ ط الجامعة العبرية ، القدس ، ١٩٣٦ م .

(٢) البيان والتبيين ١ : ٢٠٠ ط ١٩٣٢ م .

(٣) كتاب المعارف ص ٢٣٢ .

ويذكره الجاحظ دائماً في باب الزهاد والنسك من أهل البيان .
وقد ترجم له أبو نعيم في كتابه^(١) .

١٣ - أبو الحارث جمين (٧ : ١٦)

يذكر في مواضع كذلك ، وفي مواضع أخرى بالزاي بدلا من النون ، ويذكره المحدثون بالصورة الأولى كما يقول الفيروزبادي ، وهو يخطئهم في ذلك ، ويذكر أن صحة الاسم « جميز » بالزاي ، مستشهداً لذلك ببيت من الشعر لابن مقسم :

إن أبا الحارث جميزا قد أوقى الحكمة والميزا

وقد ذكره الجاحظ في عدة مواضع من « البخل »^(٢) أشار فيها إلى طائفة من نوادره على الطعام في خلال ما يورده من حديث من يتحدث بلسانهم .

وقد كان أبو الحارث من أولئك الذين كانوا يتجرون بالنادرة في العراق ، كأبي دلامة وابن دراج ومن إليهما : يدعوهم السراة إلى مجالسهم ، ويحضرونهم طعامهم ، وربما أجزلوا الجائزة لهم . وقد كانوا يعتبرونهم أداة من أدوات الترف ، ومظهراً من مظاهر السراوة ، لا غناء لهم عنه .

وكان أبو الحارث مديناً ، وكان ولاؤه لبيت حمزة بن عبد المطلب^(٣) . وفي المدينة نشأ هذا النوع من الترف ، حتى لتعتبر نوادر المدينين باباً على حدة في كتب الأخبار والمحاضرات ، فهناك أشعب والدلال والغازي إلى كثير غيرهم . وكان الحجاز يتفرد بهذا حين كانت الدولة في الشام ، وفي أهل الشام جفاء وغلظة . ثم صار أصحاب النوادر يفتدون على العراق يلتمسون هذه التجارة فيه كصاحبنا أبي الحارث . وقد جعلت هذه التجارة تروج وتنتشر ويعظم أثرها بازدياد مظاهر الترف ، حتى صارت بعد ذلك تلتبس التماساً بالتلقى والنعلم ، كما ذكر الحصري عن أبي العبر : « كنا نختلف ونحن أحداث إلى رجل يعلمنا الهزل »^(٤) ومن هنا نرى كيف كثر أصحاب النوادر وعظم شأنهم في أيام المتوكل .

(١) حلية الأولياء ٢ : ٢١٣ .

(٢) البخل ص ١٧ ، ٧٢ ، ٩٧ ، ١٩٧ .

(٣) الورقة ، ص ٣٨ ، ط دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٥٣ .

(٤) جمع الجواهر ص ٦٦ ط الرحمانية ، ١٣٥٣ هـ .

ويظهر أن أبا الحارث جميना كان أكبر صلته - كما يؤخذ من أخباره - بمحمد ابن يحيى البرمكى وعيسى بن جعفر ، وكانا يصلانه بالرشيد أحياناً .
أما نوادره فكثيرة جداً أورد الحصرى طائفة غير قليلة منها^(١) ، وكذلك نجد ابن قتيبة^(٢) والثعالبي^(٣) يؤديان إلينا بعض ما يؤثر عنه من تندرته على طعام محمد بن يحيى على النحو الذى جاء هنا فى كتاب البخلاء^(٤) ، كما أورد له الجاحظ فى البيان والتبيين فقرتين من كلامه^(٥) وذكر له المبرد نادرة مع امرأة كان يحبها^(٦) . وغير ذلك كثير فى الأغاني وغيره كثر الدرر للآبى .

١٤ - الهيثم بن مطهر (٦ : ١٦)

وهذا أيضاً من أصحاب النوادر . كما يؤخذ من كلام الجاحظ . ولكنه لم يرزق الخطوة التى رزقها أبو الحارث . فلم يؤثر عنه - فيما وقفنا عليه - إلا خبران ، أحدهما أورده الجاحظ فى كتاب القول فى البغال^(٧) . والآخر فى البيان والتبيين مرة . وفى كتاب القول فى البغال مرة أخرى^(٨) وأورده ابن قتيبة فى عيون الأخبار^(٩) . ويؤخذ من هذا الخبر أنه كان أعرج كالحكم بن عبدل . وأنه كان فى أيام المهدي . حين كانت الخيزران منبسطة تروح المواكب وتغدو إلى بابها . كما يقول ابن الطقطقى^(١٠) .

١٥ - مزبد (٧ : ١٧)

وأبو إسحاق مزبد هو - كأبى الحارث جمين - مدنى نشأ فى المدينة ، وتثقف بها تلك الثقافة العابثة اللاهية ، ثم انتقل منها إلى العراق ، وكان بها فى أيام المهدي . فقد

- (١) جمع الجواهر ص ٦٣ ، ٦٤ ، ١٧٤ ، ١٧٥ .
- (٢) عيون الأخبار ٣ : ٣٦٢ . ط دار الكتب المصرية ، ١٩٣٠ م .
- (٣) ثمار القلوب ص ٣٥ - ٣٦ ، ط الظاهر ، ١٩٠٨ م .
- (٤) البخلاء ص ١٧٩ .
- (٥) البيان والتبيين ٢ : ٥١ ، ٢٥٢ ط ١٩٢٢ م .
- (٦) الكامل للمبرد ٢ : ٢٣٠ ط الأزهرية ، ١٣٣٩ هـ .
- (٧) ص ٣١ ، رسائل الجاحظ ٢ : ٢٣٤ .
- (٨) البيان والتبيين ٢ : ١٤١ ، ط الفتوح الأدبية ، ١٣٣٢ هـ (٢ : ٢١٢ - ٢١٣ ط مصطفى محمد ، ١٩٣٢ م) . كتاب القول فى البغال ص ٣٧ - ٣٨ ، رسائل الجاحظ ٢ : ٢٤١ - ٢٤٢ .
- (٩) عيون الأخبار ١ : ١٦٠ ، ط دار الكتب المصرية ، ١٩٢٥ م .
- (١٠) الفخرى ص ١٤٢ ، ط الرحمانية ، ١٩٢٧ م .

روى الحصرى^(١) أن أبا حبيب مضحك المهدي كان يحفظ نوادر مزبد ، ويحكىها له . فقال له مزبد : بأبي أنت ! أنا أزرع وأنت تحصد .

ولم تكن المتاجرة بالنادرة عمله الوحيد الذي كان يصطنعه ويعرف به ، حين كان بالمدينة ، وإنما كان - إلى جانب ذلك - يعين على وسائل اللهو الأخرى . فنجده مرة يضبط وهو يعمل النبيذ ويتجر به . ومرة أخرى يضبط وقد جمع في بيته رجلاً وامرأة ، ويظهر أن هذه الظاهرة كانت عامة شائعة في أمثال مزبد من الملهين ، ومن كانوا يسمونهم بالحنثين ، وهي طبقة كبيرة متميزة بالمدينة لذلك العهد وقبله ، منهم النفاشي وزرجون والدلال وهنب وطويس وفند ، وكانوا جميعاً يصطنعون هذه الحياة ، حتى ما نكاد نخطئ ذلك في الأخبار المأثورة عن كل واحد منهم .

أما نوادر مزبد فقد أورد ابن شاكر الكتبي طائفة كبيرة منها^(٢) وكذلك الحصرى في جمع الجواهر^(٣) ، وفي عيون الأخبار ثلاث نوادر صغيرة^(٤) ، وأورد الثعالبي عنه خبرين طرفيين^(٥) وأما الجاحظ فقد روى له - غير ما رواه - نادرة أخرى في البيان والتبيين^(٦) .

١٦ - صالح بن حنين (٧ : ١٨)

يذكره هنا في سياق يدل على البغض والثقل ، ويذكره مرة ثانية في رسالة الجدل والهزل ، التي وجهها إلى محمد عبد الملك الزيات^(٧) ، مع جماعة نعرف الآن منهم « حاتم الريش » ، وكان نديماً من ندماء صالح بن الرشيد ، وسياق القول فيه يدل على أنه كان أدنى أن يكون مضحكاً من أن يكون نديماً^(٨) ، وكذلك يبدو أن هذا كان شأن صالح بن حنين : أي أنه كان مضحكاً سخيفاً بارد النادرة .

(١) جمع الجواهر ص ٢٥٤ .

(٢) فوات الوفيات ٢ : ٣٠٣ - ٣٠٥ .

(٣) جمع الجواهر ص ١٤٤ ، ١٥٧ ، ٢٥٤ ، ٣٠٠ .

(٤) عيون الأخبار ١ : ٣٩ ، ٢٦٣ و ٣ : ٢٧٧ .

(٥) ثمار القلوب ٣٧٢ ، ٥٢٢ .

(٦) البيان والتبيين ٢ : ٥١ ، ط الفتوح الأدبية ١٣٣٢ هـ (٢ : ٨٢ ، ط مصطفى محمد ،

١٩٣٢ م) .

(٧) مجموع رسائل الجاحظ ، ص ٦٥ ، ط لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٤٣ م .

(٨) الأغاني ٧ : ٢٠٤ ، ٢٠٥ ط دار الكتب المصرية ، ١٩٣٥ م .

١٧ - ابن النواء (٧ : ١٨)

لعله يقصد كثير بن إسماعيل النواء ، أحد زعماء الفرقة البترية من الرافضة . ولا نعرف عنه أكثر من هذا . وقد ورد اسمه في مقالات الإسلاميين للأشعري^(١) ، وفي كتاب الفرق بين الفرق للبغدادي .

١٨ - بكر بن عبد الله المزني (٨ : ١١)

صورة أخرى من صور الزهاد الأبيضاء من أهل البصرة ، غير تلك الصورة التي رأيناها في عامر ابى عبد قيس الذى ظل أعرابياً بدوياً ، أما هو فقد كان مديناً حضرياً ، على زهده ورقة قلبه .

وهو من أهل القرن الأول ، من أصحاب الحسن البصرى ، وقد كان الناس يقرونهما فيقولون : شيخ البصرة الحسن وفتاها بكر^(٢) . وقد جعله الزهد وطول التأمل نير البصيرة خبيراً بأدواء النفوس . فضى يخطب الناس ويعظهم ، وقد كان يرى عمله فى تهذيب النفوس وقمع غرائز الشر هو العمل الذى تهيات له نفسه . وكلامه فى عدم الحمل على النفس ، وأن خير الكلام ما كان عقب الحمام ، وأن طول الصمت حيسة ، وما إلى ذلك^(٣) ، مما يدل على الغاية التى يراها لنفسه ، والتى كان يؤثرها بحبه ، ويراها خير ما يقرب إلى الله . وقد حكى أبو نعيم عن معاوية بن عبد الكريم قال : سمعت بكر بن عبد الله المزني يقول يوم الجمعة ، وأهل المسجد أحفل ما كانوا قط : لو قيل لى خذ بيد خير أهل المسجد ، لقلت : دلونى على أنصحتهم لعامتهم ، فإذا قيل : هذا ، أخذت بيده ، وإذا قيل لى : خذ بيد شرهم ، لقلت : دلونى على أغشهم لعامتهم . ولو أن منادياً ينادى من السماء ألا يدخل الجنة منكم إلا رجل واحد ، لكان ينبغي لكل إنسان أن يلتمس أن يكون ذلك الواحد ، ولو أن منادياً ينادى من السماء ألا يدخل النار منكم إلا رجل واحد ، لكان ينبغي لكل إنسان أن يفرق أن يكون ذلك الواحد^(٤) .

(١) ص ٦٨ .

(٢) ص ٢٤ ، ط ١٩١٠ م .

(٣) البيان والتبيين ١ : ٩٧ ، ط ١٩٣٢ م .

(٤) انظر البيان والتبيين ١ : ١٥١ ط ١٣٣٢ هـ ، جمع الجواهر ص ١ .

(٥) حلية الأولياء ٢ : ٢٢٤ ، ط السعادة ١٩٣٣ م .

ولعل هذه الغاية التي وضع نفسه لها كانت من أول الأسباب التي جعلته يرفض ما عرضه عليه أمير البصرة في عهد عمر بن عبد العزيز ، وهو عدى بن أرطأة ، من ولاية القضاء ، ويقول في ذلك قولته المشهورة : « والله ما أحسن القضاء ، فإن كنت صادقاً فما يجلك أن توليني ، وإن كنت كاذباً لأنها لأحراهما »^(١) وكأتما كان يرى في ولاية القضاء إفساداً لما بينه وبين الناس ، وصدّاً عن عمله الذي اطمأنت إليه نفسه . وكان حريصاً على علاقته بالناس ، واسع الصدر لهم ، يرى ذلك أجدى عليه في هدايتهم ، والوصول إلى قلوبهم . وكان يقول : « إياكم وكل أمر إن أصبتم لم تؤجروا وإن أخطأتم أئتمتم ، قيل : ما هو؟ قال : سوء الظن بالناس ، فإنكم لو أصبتم لم تؤجروا ، وإن أخطأتم أئتمتم »^(٢) .

وقد كان ذلك أحد الأشياء التي يتميز بها عن غيره من الزهاد والخطباء . وقد يتميز ، أيضاً بعدم الحرص على الظهور بمظهر الفقراء ، فقد كان على زهده يتأنق في لباسه ولا يعبأ أن ينفق عليه أربعة آلاف درهم^(٣) . وذلك مما يدل — ولا ريب — على رحابة نفسه وسعة أفقه .

وقد ترجم له ترجمة صغيرة ابن قتيبة في المعارف . وفي البيان والتبيين وعيون الأخبار وحلية الأولياء شذرات من أخباره وكلامه تدل إلى أي حد كان الرجل جيد العبارة خبيراً بالدخائل النفسية .

١٩ — مؤرق العجلى (٨ : ١٢)

أبو معتمر بن مشمرج (أو ابن عبد الله) العجلى . وهو أيضاً أحد الزهاد الأبيناء من أهل البصرة ، في القرن الأول ، كما يعده الجاحظ في غير موضع في البيان والتبيين . ويظهر أنه كان منكمشاً في نفسه ، منظوياً على العبادة والنسك ، وعلى رواية الحديث الذي أخذته عن بعض الصحابة ، كعمر وسلمان وأبي ذر وأبي الدرداء وابن عباس . وأخباره قليلة ، وكذلك كلماته المأثورة . وله ترجمة في تهذيب التهذيب ، وأخرى في حلية الأولياء . وقد مات في أوائل القرن الثاني ، على خلاف في تعيين سنة موته .

(١) البيان والتبيين ١ : ٩٧ ، ط ١٩٣٢ م ، عيون الأخبار ١ : ٦٤ .

(٢) حلية الأولياء ٢ : ٢٢٦ .

(٣) المعارف لابن قتيبة ص ٢٣٢ ، حلية الأولياء ٢ : ٢٢٧ .

٢٠ - يزيد بن أبان الرقاشي (٨ : ١٢)

وهذا أيضاً أحد الزهاد الخطباء من أهل البصرة ، ممن يعدهم الجاحظ مرة بعد مرة ، ولكنه يختلف عن تقدم ذكره اختلافاً كبيراً . فعامر وصفوان وبكر ومثرق كانوا عرباً خالصي العروبة ، فأما يزيد هذا ففارسي الدم ، عريق في فارسيته . قال أبو عبيدة - وهو يتحدث عنه وعن أفراد أسرته - : « وكان أبوهم خطيباً وكذلك جدهم . وكانوا خطباء الأكاسرة ، فلما سبوا وولد لهم الأولاد في بلاد الإسلام وفي جزيرة العرب ، نزعهم ذلك العرق ، فقاموا في أهل هذه اللغة كقمامهم في أهل تلك اللغة . وفيهم شعر وخطب . وما زالوا كذلك حتى أصهر الغرباء إليهم ، ففسد ذلك العرق ، ودخله الخور » (١) .

فمن جهة آباءه وميراث البيان الذي ورثه عنهم صار يزيد خطيباً من خطباء المسلمين من الطراز الأول . وكذلك صار ابن أخيه الفضل بن عيسى ، وابنه عبد الصمد بن الفضل .

وهناك شيء آخر نحسب أنه أثر من آثار الوراثة الفارسية ، وهو القصص الذي عرف به ، فقد كان قاصاً مجيداً ، كما كان الفضل وعبد الصمد الرقاشيان . وما نحسب هذا الفن نشأ إلا حيث كان أمثال يزيد الرقاشي هذا ، من أبناء الفرس وورثة الروح الفارسية ، فكانت مجالسهم الدينية تتشقق عن أخبار الأمم الماضية ، وكان تأويلهم للقرآن يزخر بالأقاصيص المختلفة .

وكان يزيد - فيما يظهر - من أوائل الذين أدخلوا هذا النمط من الوعظ ، وهذه الوسيلة إلى تقوية العاطفة الدينية . فكان الناس يختلفون في تقديره ، فقد كان هنالك - إلى جانب المعجبين به - من كان يرى في أسلوبه هذا تكلفاً وتلفيقاً ، فكان يستقل حديثه ويبغض مجلسه . ويتحدث ابن أبي أمية عنه فيقول :

شهدت الرقاشي في مجلس وكان إلى بغيضاً مقبياً
فقال : اقترح كل ما تشهى فقلت : اقترحت عليك السكوتا (٢)

وقد كان المحدثون يعرضون عنه ويتهمون به . ذلك أن طبيعة القصص والرغبة في التأثير

(١) البيان والتبيين ١ : ٢٤٧ ، ط ١٩٣٢ م .

(٢) البيان والتبيين ١ : ٣٠٨ ، ط ١٩٣٢ م .

والقصد إليه لم تكن تتفق كثيراً مع التزمّت في الرواية ، فكانت تعدو به في كثير من الأحيان عن الدقة وتحرى الصحة ، وبذلك كثرت في رواية الحديث مأخذه ، كما كثر الطعن عليه . فكان شعبة يقول : « لأن أقطع الطريق أحب إلى من أروى عن عن يزيد » ؛ ويقول مرة أخرى : « لأن أزنى أحب إلى من أن أحدث عن يزيبا الرقاشي » . ويقول ابن حبان : « غفل عن حفظ الحديث شغلا بالعبادة »^(١) .

وقد كان يزيد الرقاشي رقيق العاطفة ، حاد الشعور ، كما يؤخذ من أحباره وكلماته . وفي البيان والتبيين وعيون الأخبار طائفة منها . وله فوق ذلك ترجمة في تهذيب التهذيب ، وأخرى في حلية الأولياء .

وقد مات في العشرة الثانية من القرن الثاني ، كما نقل صاحب تهذيب التهذيب عن البخاري .

٢١ - أبو كعب الصوفي (٨ : ٣)

وهذا قاص آخر من طراز آخر ، فقد أورد الجاحظ يزيد الرقاشي في معرض الكلام عن الزهد والموعظة ، وأورد أبا كعب هذا مع أبي نواس والحسين الخليع في نسق واحد . وهو يمثل طوراً آخر من أطوار القصص والقصاص ، حين صار هذا الفن صناعة من الصناعات الدنيا التي يلتبس بها العيش ، وصار القصاص من طبقة السؤال والمستجدين ، يمدون أعناقهم للجمعة ، انتظاراً للصلاة والعائدة ، كما يصفهم الجاحظ^(٢) . وأصبحوا يسلكون مع القرادين ومن إليهم في نظام واحد ، كالذي نجده فيما يرويه الجاحظ عن إبراهيم الموصلي ، في حديثه عن زلزل المغنى ، أنه كان يكايده « مكايده القصاص والقرادين »^(٣) .

وقد كانت لهم في سبيلهم هذه أشياء يتندر الناس بها ، ويتضحكون منها . كما كانوا يتخذون العبث وإضحاك الناس سبباً من أسبابهم ، ووسيلة يروجون بها لأنفسهم . ومن هذه الطبقة من القصاص كان - فيما يظهر - أبو كعب الصوفي هذا . وقد كان هو نفسه يحفظ نوادر هؤلاء القصاص ويتندر بها ويضحك منها . وقد حكى الجاحظ عنه

(١) تهذيب التهذيب ١١ : ٣٠٩ .

(٢) كتاب حجج النبوة ، من رسائل الجاحظ ، ص ١٢٩ ، ط الرحمانية ، ١٩٣٣ م .

(٣) كتاب التاج ص ٤٠ ، ط دار الكتب المصرية ، ١٩١٤ م .

نادرتين من هذا القبيل^(١). كما قص عنه قصة غاية في الطرافة، لأنها تصوره وتصور هذه الطائفة تصويراً طريفاً ، وإن كان إلى الهزل والفكاهة^(٢) ، وتبين إلى أى غاية من السخف صارت هذه الصناعة التي بدأت تتجه بمثل يزيد بن أبان الرقاشي اتجاهها من أسمى الاتجاهات ، وتنزح إلى غاية من أكرم الغايات .

٢٢ - رسالة سهل بن هارون (٩ : ١)

هذه الرسالة موجهة من سهل بن هرون إلى محمد بن زياد وإلى بني عمه من آل زياد ، حسيماً جاء في المخطوطة التي اعتمدنا عليها ، واعتمدت عليها النشرة الأولى من كتاب البخلاء ، وإن كانت تلك النشرة لم ترض هذه القراءة وأبت إلا أن تضع مكانها ما ظن الناشر أنه تصحيح لها ، اعتماداً على بعض النصوص أو المصادر غير المباشرة^(٣) ولم نجد نحن فيها ما يحملنا على تخطئتها ، وإحلال غيرها محلها . ولا سيما إذ كان احتمال التحريف غير قريب ، وإذ كان محمد بن زياد رجلاً معروف الصلة بسهل بن هرون ، وقد شاب هذه الصلة شيء ، ووقعت الخفوة وقتاً ما بين الرجلين ، ووقع محمد بن زياد في سهل بن هرون بلسانه^(٤) ، وليس يبعد أن يكون مما جعل يهجو به ، ويشنع به عليه ، مذهبه ذلك في البخل ، وأن فريقاً من قومه قد ظاهره ، فكتب سهل هذه الرسالة إليه وإليهم . وهكذا لا يكون هنالك ما يدعو إلى تغيير النص وقسره .

ونحن حين نقول إن سهلاً كتب هذه الرسالة فإنما نتجاوز في العبارة ، وبجاري ظاهر القول ، وإلا فالأمر عندنا موضع نظر ، وإن جرى الناس على القطع بنسبتها إليه ، حتى اعتبرت الأثر الباقي له^(٥) .

فن هو واضح هذه الرسالة في حقيقة الأمر؟ أهو سهل بن هارون أو الجاحظ؟ إن تحقيق هذا من أشد الأمور عسراً ، وأبعدها عن اليقين أو ما يقارب اليقين ، لأن وسائلنا إلى هذا التحقيق قاصرة ، إذ كان من أول هذه الوسائل توافر النصوص ، وليست كذلك .

(١) البيان والتبيين ٢ : ١٨٨ ، ٣ : ٢٥٠ ، ط ١٩٣٢ م .

(٢) الحيوان ٣ : ٢٤ - ٢٥ ، ط مصطفى البابي الحلبي .

(٣) معجم الأدباء لياقوت ١١ : ٢٦٧ ، ط دار المأمون ، القاهرة ، ١٩٣٦ م .

(٤) زهر الآداب ٢ : ٢٥٩ ، ط الرحمانية ، ١٩٢٥ م .

(٥) أمراء البيان لكردي على ١ : ٨٨١ ، ط لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٣٧ م .

إن لمن يذهب إلى صحة نسبتها إلى سهل بن هارون أن يحتج بأن هذا هو الأصل الذي لا ينبغي العدول عنه ، إلا أن يكون ثمة ما يمنع منه ، من دليل نصي لا جدال فيه ، أو فني يؤنس إليه ، ويرجح به . والنصوص هنا مظهرة لهذا الأصل ، لا مانعة منه . فهي تشهد أولاً بأن لسهل بن هارون مذهباً اقتصادياً ارتضاه لنفسه ، ودعا إليه ، وكتب في ترويجه والدفاع عنه . ذكر ذلك ياقوت^(١) وابن النديم^(٢) وأشار إليه الحصري^(٣) ، وقال الجاحظ في البخلاء . في خلال كلامه عن أبي عبد الرحمن الثوري : « وكان يحتج للبخل ، ويوصي به ، ويدعو إليه . وما علمت أن أحداً جرد في ذلك كتاباً إلا سهل بن هارون وأبو عبد الرحمن هذا » ، ثم هي تشهد ثانياً بأن لسهل رسالة في مدح البخل . ذكر ذلك ياقوت ، وذكر أنها هي هذه التي جاءت في « البخلاء » . هذا إلى أن هذه الرسالة قد استفاض القول أنها لسهل ، فكذلك نسبتها إليه ابن عبد ربه وشهاب الدين النويري .

أما أن الأصل في هذه الرسالة أنها صحيحة النسبة فمسألة فيها نظر، فتقرير هذا موقف على تقرير الأصل في الجاحظ . الأصل فيه أنه رواية ثقة أمين ، أم الأصل فيه أنه أديب مبدع متفنن ؟ . وقد لا نصل في هذا إلى جواب واحد ، فالجاحظ رواية ، لا شك في ذلك ، والجاحظ أديب منثني* لا شك في ذلك أيضاً . وقد يكون هذا كافياً لإسقاط الأصل المزعوم وتبقى المسألة بعد ذلك في وضع متساوي الطرفين . فلنضيق من دائرة السؤال قليلاً ، ولنحصر الجاحظ في كتاب البخلاء : ما هو الأصل فيه ؟ أهو كتاب آثار تظهر فيه سعة رواية الجاحظ وقوة حفظه وقدرته على استحضار الأشباه والنظائر ككتاب البيان والتبيين ، أم هو كتاب فن وأدب ومظهر لعبقرية الجاحظ الفنية التي لا نكران لها ، والتي تأتي إلا أن تولد وتبدع وتبتكر ؟

لا نحسب أن أحداً يجادل في أن كتاب البخلاء كتاب فن ، مرجع الأمر فيه إلى شخصية الجاحظ ، لا كتاب رواية يجمع شتى الشخصيات . وإذا كان لا يخلو من شيء من الرواية ، فهذا لا يبنى الأصل فيه ولا يبطله . على أن هذا القدر الروائي فيه قدر صغير نستطيع أن نضع أيدينا على معظمه في يسر .

وبهذا يسقط القول بأصالة صحة النسبة ، ويقوم في موضعه القول بأن الأصل في

(١) معجم الأدباء ١١ : ٢٦٧ .

(٢) الفهرست ص ١٧٤ . ط الرحمانية ، القاهرة .

(٣) زهر الآداب ٢ : ٢٥٨ .

هذه الرسالة أنها للجاحظ ، نحلها لسهل ، ووضعها عليه ، وتكلم فيها بلسانه ، كما يتكلم القصاص بلسان أبطالهم ، وأن موقفه فيها كهوقفه من رسالة القيان مثلا ، أو بعض الأحاديث الأخرى في كتاب البخلاء ، ودلائل نسبتها إليه قوية غالبه ظاهرة .

وفوق هذا فالنصوص التي يقع الاحتجاج بها لا تفيد شيئاً . وليس يجادل أحد في أن لسهل بن هارون مذهباً اقتصادياً كتب فيه ، ودعا إليه ، ودعمه بالحجج والنصوص . وهل وضع الجاحظ هذه الرسالة إلا بهدى مما كتب سهل ، وعلى ما ينبغي أن تكون طريقته ؟

ومع هذا فإن هذه النصوص مضطربة ، فابن النديم المتوفى سنة ٣٨٥ يقول : « وعمل للحسن بن سهل رسالة يمدح فيها البخل ويرغبه فيه ، ويستمنحه في خلال ذلك . فأجابه الحسن على ظهر رسالته : « وصلت رسالتك ، ووقفنا على نصيحتك ، وقد جعلنا المكافأة عنها قبول القول منك ، والتصديق لك ، والسلام » . فهل يمكن القول بأن هذه الرسالة التي كتبها إلى الحسن بن سهل هي هذه الرسالة التي وردت في كتاب البخلاء ؟ وأنى لنا هذا ولم يشر إلى رسالة « البخلاء » ، ولو كانت هي لكان في أغلب الظن قد ذكر ذلك .

فإذا جاء ياقوت الرومي في القرن السابع فقد نقل هذا وزاد عليه أن الجاحظ قد أورد هذه الرسالة في كتاب البخلاء ، فلتق بين ما ذكره ابن النديم وما جاء عن الجاحظ . وأما أن ابن عبد ربه والنويري^(١) قد أوردوا هذه الرسالة منسوبة إلى سهل بن هرون ، فهل نحن إلا حيث كنا ؟ فقد نقلها ابن عبد ربه عن الجاحظ كما نقل غيرها ، ثم نقلها النويري عن ابن عبد ربه . وابن عبد ربه حين نقلها اعتبر الجاحظ راوية صادقاً ، وبهذا الاعتبار جعلها في كتابه .

وهناك فرض آخر غير بعيد ، وهو أن يكون الوراقون قد اقتطعوا هذه الرسالة وكتبوها على حدة ، منسوبة — بطبيعة الأمر — إلى سهل بن هارون . وكانوا كثيراً ما يلدأون إلى هذا الأسلوب احتيالا على الكسب ، كما صنعوا بحديث خالد بن يزيد ، كما سنذكر ذلك بعد في موضعه . ومن هذه النسخة نقل ابن عبد ربه الرسالة في العقد الفريد . هذا ما نقوله في تحقيق نسبة الرسالة من ناحية النصوص ، ومن الممكن أن يقال عن أسلوبها ، وطريقة سوق الآثار والاستدلال بها والإسراف في إيرادها ، وما إلى ذلك

(١) انظر العقد الفريد ٦ : ٢٠٠ ط لجنة التأليف والترجمة والنشر . ١٩٤٩ م . ونهاية الأرب

في فنون الأدب ٣ : ٣٢٦ ط دار الكتب المصرية ، ١٩٢٤ م .

من لمحات ساخرة في بعض الأحيان ، إن هذا كله أشبه بأسلوب الجاحظ وطريقته .
 أما حياة سهل بن هارون فلعل فيما كتبه عنه الأستاذ محمد كرد علي في مجلة
 المقتطف^(١) ثم نشره في كتابه أمراء البيان ما يكفيننا الكلام عنه ، وإن كنا نرى مع
 ذلك أن نشير إلى بعض المصادر التي يمكن الرجوع في ترجمته إليها ، وتحقيق بعض
 المسائل في حياته العقلية والفنية ، ولا سيما المصادر التي لم تقصد إلى ترجمته قصداً ،
 وإنما ذكرته عرضاً .

فأما من ترجم له فابن النديم في الفهرست ، وياقوت في طبقاته ، وابن خلكان في
 وفياته ، وكلها تراجم قصيرة لا تفيد كثيراً من تفاصيل حياته . وقد ذكر ابن بدرون
 في أثناء حديثه عن نكبة البرامكة أنه كان عاملاً ليجي البرمكي ، ثم كان صاحب
 دواوين الرشيد بعده^(٢) . وكذلك ذكر الحصري خبراً عنه مع الرشيد^(٣) . وفي البيان
 والتبيين^(٤) والصدقة والصديق^(٥) وزهر الآداب^(٦) والعقد الفريد^(٧) وثمار القلوب
 للثعالبي^(٨) نبد كثيرة من كلامه والكلام عنه ، كما ذكر الجاحظ في الحيوان^(٩) قصة
 دعبل بن علي عن ديكه ، وبيتين من الشعر له عن الغيل^(١٠) وبيتاً آخر في مداعبة
 صديق له^(١١) . وذكر حاجي خليفة كتابه ثعلة وعفرة وترجمته إلى الفارسية في عهد
 أبي الحسن ناصر بن أحمد الساماني^(١٢) .

-
- (١) المقتطف سنة ١٩٢٧ (٧٠ : ١٩٠ ، ٢٩٣ ، ٤٣٥) .
 (٢) ابن بدرون ، نور العيون . شرح رسالة ابن زيدون .
 (٣) زهر الآداب ٢ : ٢٥٨ .
 (٤) انظر مثلاً ١ : ٣٠ ، ٣٣ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ١١٠ ، ١٣٤ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٨٠ ،
 ١٨٧ و ٢ : ٢١ ، ٣٦ ، ٥٢ ، ١٠٠ ، ١٠٠ و ٣ : ١٨٥ ط ١٣٣٢ .
 (٥) انظر ص ١٢١ .
 (٦) انظر ٢ : ٢٥٨ - ٢٥٩ و ٣ : ٢٤٥ .
 (٧) انظر مثلاً ٢ : ١٢٣ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ٢٠٧ - ٢٠٨ ، ٢٩٥ ، ٣٣٨ ، ط لجنة
 التأليف والترجمة والنشر و ٣ : ٢٦ ، ط ١٢٩٧ .
 (٨) انظر ص ١٣٤ - ١٣٥ .
 (٩) انظر ٢ : ٣٧٤ - ٣٧٥ ط مصطفى البابي الحلبي .
 (١٠) انظر ٧ : ٦١ ، ط التقدم . (٧ : ٢٠٢ ط الحلبي)
 (١١) انظر ٣ : ٦٦ .
 (١٢) كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ص ١٥٠٨ ، ط وكالة المعارف ، استنبول .

٢٣ - الحسن البصرى (١٠ : ١٣)

أبو سعيد ، الحسن بن أبي الحسن ، من أخطر الشخصيات الإسلامية في القرن الأول ، وأبعدها أثراً في نواحي الحياة المختلفة .

وهو عراقي الأصل ، فقد كان أبوه من ميسان ، وميسان إقليم البصرة كما كان يسمى قبل الإسلام ؛ فلما غزا العرب ذلك الإقليم في عهد أمير المؤمنين عمر ، وقع في الأسر ، كما وقعت زوجته في السباء . ثم كان الرجل من نصيب أحد الأنصار بالمدينة ، وكانت المرأة من نصيب أم سلمة إحدى زوجات الرسول ، صلى الله عليه وسلم (١) . وما ندرى شيئاً عن ذلك الرجل الذى يسمونه يسارا ، ولعله كان اسماً يطلقونه على هؤلاء الأسرى تيمناً ، فأطلق على أبي الحسن البصرى ، كما أطلق على أبي مسلم بن يسار ، وكان مولى ميمونة الهلالية وزوج الرسول أيضاً .

وفى بيت أم سلمة ولد الحسن سنة ٢٢ ، وفى تلك البيئة العربية الإسلامية نشأ وترعرع ، يتكلم لغتها ، ويحس أحاسيسها ، وتتأون طباعه بألوانها ، وما يعلم أنه ابن الميساني قدر ما يعلم أنه ابن هذه البيئة التى احتضنته طفلاً ، ورعته صبيّاً . ونحن نعلم أنه ظل هنالك فى المدينة حتى كانت سنة أربعة عشر عاماً ، حين قتل عثمان ، كما يحكى هو ذلك عن نفسه ، إذ يقول : « كنت فى المدينة يوم قتل عثمان ، وكنت ابن أربع عشرة سنة » .

وكان يخرج إلى وادى القرى يأخذ عن الأعراب ، ولعله كان يأخذ نفسه بالحياة البدوية الحشنة ، وقد تركت أثرها فى بنائه الجسمى ، فكان قوى البنية عظيم الأركان .

ويظهر أنه خرج بعد ذلك فيمن كان يخرج من الحجاز إلى العراق ، فكان فى البصرة ، وكان يجلس إلى ابن عباس فى مجلسه بالمسجد ، وهو يصفه فى ذلك المجلس بقوله : « كان والله مثجاً يسيل غرباً » (٢) ولا ريب أن الحسن إذ ذاك كان لا يزال شاباً فى مطالع شبابه ، وكانت صورة ابن عباس فى مسجد البصرة من أول الصور التى طبعت خياله بطابعها ، ولعله كان يتطلع إلى أن يأخذ ذلك المكان ، وأن يكون فيه كما كان ابن عباس « مثجاً يسيل غرباً » .

(١) المنية والأمل لابن المرتضى ص ١٢ ، ط الهند .

(٢) البيان والتبيين ١ : ٢٦٢ ، ط مصطلح محمد ، ١٩٣٢ م .

وفي سنة ٥١ اختار زياد بن أبيه الربيع بن زياد الحارثي لولاية خراسان ، فاختار الحسن كاتباً له ، ففضى معه . وقضى هنالك سنتين ، حتى قضى الربيع نحبه . ولعل الحسن عاد من بعد ذلك إلى البصرة ، وقد أصبح رجلاً ناضجاً جاوز الثلاثين ، بعد أن تقلبت عليه المشاهد المختلفة ، في هذه الفترة المضطربة ، في الحجاز والعراق وخراسان . وكأما أحسن بأنه عاد إلى وطنه ، فمن هذا الإقليم خرجت أسرته ، وفيه جعلت خيالات الشباب تراوده ، بمن شهد فيه من الأعلام كابن عباس ومن إليه .

ولا ندرى ماذا كان عمل الحسن حينئذ . ولعله كان يتولى بعض الأعمال إلى جانب تنقله بين حلقات المسجد . وكان يشهد ذلك المجتمع البصري الزاخر المضطرب ، وعوامل الفساد تعمل فيه ، وكان يشهد إلى جانب ذلك مجالس الجدل حول حرية الإرادة ، وهي مسألة فلسفية قديمة كان لها في ذلك الإقليم قبل الإسلام شأن عظيم ، وكان الجدل يدور حولها ، وكانت الكتب تؤلف فيها . وقد أيقظتها هذه الحالة الاجتماعية التي صار المسلمون إليها ، ودارت حولها المذاهب الإسلامية المختلفة .

ويظهر أن الدولة إذ ذاك كانت تجد في القول بحرية الإرادة ما يعرضها لانتقاض الناس عليها ، كما كانت تجد في الجبر ، على ما يشيعه من الفساد ، عاصماً يعصمها من الاعتراض عليها والانتقاد لأعمالها . وقد كان من أشد الناس إنكاراً عليها زعماء القدرية كغيلان الدمشقي الذي انتهى أمره بأن قتله الدولة في أيام هشام . على أن الدولة لم تكن تخشى جانب الشام كما كانت تخشى جانب العراق ، فالقول بالقدر كان جديراً أن يقلقها ويشغل بالها ، ولذلك كانت الدولة مناصبة للحسن شيئاً من العداوة . على أنه كان يصطنع شيئاً من التقية فيما كان يدعو إليه ، ونحن نستطيع أن ننتبين هذا في أسلوب كتابه الذي كتبه إلى الحجاج يحتج فيه لمذهبه ، ولا سيما إذا نحن قارناه بكتاب غيلان الدمشقي إلى عمر بن عبد العزيز . وقد أورد ابن المرتضى فقرات من الكتابين .

وقد كان عهد الحجاج من أسوأ العهود عند الحسن ، فقد عانى فيه كثيراً من الضر . وقد حفظ لنا الجاحظ فقرات مما قاله الحسن عندما بلغه خبر موته . قال : « اللهم أنت قتلتنا فاقطع عنا سنته ، فإنه أانا أخيفش أعيمش مقيتاً ، له جميمة يرحلها ، سعد المنبر ، فأخرج إلينا كفتاً قصيرة البنان ، ما عرف فيها عنان في سبيل الله ، فقال : يايعونا ، فبايعناه . يصعد إلى هذه الأعواد ، فينظر إلينا بالتصغير ، وننظر إليه بالتعظيم ، يأمرنا بالمعروف ويتجنبه ، وينهانا عن المنكر ويرتكبه » .

ثم لم يلبث الحسن أن استقام أمره عند الدولة شيئاً ما ، في عهد عمر بن عبد العزيز ،

فولاه قضاء البصرة ، وكان يصفه بأنه سيد التابعين ، كما يذكر ذلك ابن عبد ربه .
وقد ظل الحسن يحتل أرفع مكان في البصرة ، يرويه إمامهم وغاية مثلهم ، وقد كان عندهم — كما يقول الجاحظ — « في مستثنى الغاية . كان يقال : هو أزهد الناس إلا الحسن ، وأبين الناس إلا الحسن ، وأفقه الناس إلا الحسن . وقال أبو شعيب : الحسن خير لأهل البصرة من الجزر والمد ، والمد هو حياتهم : يأتهم فيقف على أبوابهم ، فإن شاءوا حججوه ، وإن شاءوا أذنوا له » (١) .

ويعتبر الحسن — إلى جانب ذلك — من الأعلام البارزة في تاريخ النثر الغربي ، إذ كان رأس الخطابة الدينية في القرن الأول ، يحتذى مثاله كل خطيب في عصره ، وكل خطيب جاء بعده . ولقد كانت خطبه من أول ما دون في الإسلام . وهذا يبين لنا مبلغ ما كان لهذه الخطب من الأثر في نفوس معاصريه ، حتى كان الحرص عليها ، يحملهم على تدوينها . وقد بقيت هذه المجموعة من خطبه يتدارسها المتأدبون ، ويحتذونها القائلون . ونرى مثالا من ذلك بعد وفاة الحسن بنصف قرن ، أي في سنة ١٥٨ ، حين مات المنصور وولى المهدي الخلافة ، ودخل الناس عليه يعزونه ، وكان من بينهم عبد الله بن الحسن العنبري ، قاضي البصرة وفقهها ، وكان — كما يقول أبو الحسن المدائني — أعد له كلاماً ، « فبلغه أن الناس أعجبهم كلامه . فقال لشبيب بن شيبه : إني والله ما التفت إلى هؤلاء ، ولكن سل لي عنها أبا عبيد الله الكاتب ، فسأله ، فقال : ما أحسن ما تكلم به ! على أنه أخذ مواعظ الحسن ورسائل غيلان ، فلقح بينهما كلاماً . فأخبره بذلك شبيب ، فقال لا والله ! إن أخطأ حرفاً واحداً » (٢) . وهكذا نرى أن أبا سعيد بقي مؤثراً بخطابته ، لا في حركة الخطابة فحسب ، بل في الكتابة أيضاً ، فإذا كان عبيد الله ابن الحسن قد صدر عنها في خطبته ، فإن أبا عبيد الله الكاتب كان قد أخذ نفسه — ولا ريب — بمدارسها ، والاستعانة في صناعته بها .

فأما في عصره فقد رأينا كيف كانت منزلته عند أهل البصرة ، وكان ذلك مما مكن له أشد التمكين أن يكون صاحب مدرسة خطيرة الأثر تخرج فيها كثير ممن عاصره وجاء بعده من رؤساء الطوائف المختلفة ، من أصحاب الكلام ورجال القصص وغيرهم ، كواصل بن عطاء ويزيد بن أبان ومن إليهما ، وكان مجلسه في مسجد البصرة يزخر بالثقافات المختلفة على نحو ما يصور لنا ذلك أبو حيان التوحيدي

(١) من مجموعة مختارات للجاحظ ، محفوظة في مكتبة برلين ، ورقة ٧٧ .

(٢) البيان والتبيين ١ : ٢٣٨ - ٢٣٩ ط ١٩٣٢ م .

في كتابه «تقريظ الجاحظ» في عبارته التي نحلها ثابت بن قرة ، وزعم أن أبا سعيد السيرافي حدثه بها . وذلك إذ يقول : « يجمع مجلسه ضروب الناس وأصناف اللباس ، لما يوسعهم من بيانه ويفيض عليهم من افتنائه ، هذا يأخذ عنه الحديث ، وهذا يلقن منه التأويل . وهذا يسمع الحلال والحرام ، وهذا يتتبع في كلامه العربية ، وهذا يجرد له المقالة ، وهذا يحكى الفتيا ، وهذا يتعلم الحكم والقضاء ، وهذا يسمع الموعدة » ، ثم يقول : « يجلس تحت كرسیه قتادة صاحب التفسير ، وعمرو وواصل صاحب الكلام ، وابن أبي إسحاق صاحب النحو ، وفرقد السبخي صاحب الرقائق » (١) .

وهكذا نرى إلى أي حد كان أبو سعيد بعيد الأثر في البصرة ، وفي إثارة الحركات العقلية بها ، وفي تهئية الجو الديني والأدبي فيها ، وإذا كان مرجع ذلك في بعض الأمور إلى شخصيته القوية الممتازة ، وعقله الكبير ، وأفقه الواسع الرحب ، فإنها ترجع ولا ريب أيضاً إلى قدرته الخطابية التي جمعت الناس حوله ، والتي انتزعت الشهادة له من ألد خصومه : الحجاج بن يوسف الثقفي ، وذلك حين يقول ، فيما يحكى الجاحظ : « أخطب الناس صاحب العمامة السوداء بين أخصاص البصرة » (٢) . هذا والحسن ليس عربي الأصل كما ذكرنا ، ولكنه كان فصيح اللهجة قوى العبارة ، لا يشك من يسمعه أنه عربي أصيل . وقد حكى الجاحظ أن أعرابيين شهداً مجلس الحسن ، وسمعا يزيد ابن أبان الرقاشي يتكلم ، ثم الحسن ، فقال أحدهما لصاحبه : كيف رأيت الرجلين ؟ قال أما الأول فقاص مجيد ، وأما الآخر فعربي محكك (٣) .

هذا وآثار الحسن مفرقة بين الكتب المختلفة كالبیان والتبيين والكمال وعيون الأخبار ، والعقد الفريد وزهر الآداب ، وما إلى ذلك من كتب المحاضرات . وقد عنى أبو الفرج ابن الجوزي بجمع طائفه من كلامه في كتاب صغير بوبه أبواباً (٤) . ولكن آثاره لا تزال تنتظر من يعنى بجمع شتاتها لتكون أساساً لدرس الرجل وتبين أثره في تطور العقل الإسلامي .

٢٤ - طلحة الفياض (١١ : ١٦)

أبو محمد ، طلحة بن عبيد الله التيمي ، من تيم قريش . وكان يلقب بابن الحضرمية أو ابن بنت الحضرمي (٥) . كان فيمن سبق إلى الإسلام ، وشهد المشاهد مع رسول الله

(١) معجم الأدباء ١٦ : ٩٧ ، ط دار المأمون .

(٢) البيان والتبيين ١ : ٢١٢ ، ط الفتوح الأدبية ، ١٣٣٢ هـ .

(٣) البيان والتبيين ١ : ١٧٦ ، ط مصطفى محمد ، ١٩٣٢ م .

(٤) كتاب الحسن البصري . ط الرجانية بمصر . ١٩٣١ م .

(٥) عيون الأخبار ٤ : ١٧ ، ط دار الكتب المصرية ، ١٩٣٠ م .

صلى الله عليه وسلم ، وكان ممن ثبت معه يوم أحد ، ودافع عنه . وكان رجلاً سرياً نبيلاً واسع الثروة ، ومما يذكر عنه أنه افتدى عشرة من أسارى بدر^(١) . كما كان رجلاً مزهواً شديد الاعتداد بنفسه . وقد وصفه بذلك عمر ، حين كان يعرض عليه من يستخلف^(٢) ، كما وصفه بذلك عليّ حين قدم البصرة ، فأرسل عبد الله بن عباس وقال له : « إيت الزبير ولا تأت طلحة ، فإن الزبير ألين ، وإنك تجد طلحة كالثور عاقصاً قرنه ، يركب الصعوبة ويقول : هي أسهل »^(٣) .

وقد كان أحد الستة أصحاب الثورى الذين سماهم عمر قبل موته ، ولعله كان يرجو أن يكون له الأمر بعده . وقد قالوا إنه كان غائباً في ماله بالسراة ، فلما قدم كان الأمر قد أمضى ، فأخذ يتوثب ويقول : « أعلى مثل يفتات » ، ولكنه هدأ وأثر الرضا والبقيا^(٤) وقد عرف له عثمان ذلك فلم يزل يكرمه ويتحنى به ، حتى قيل إنه أعطاه مائتي ألف دينار^(٥) . ولكن طبيعته المزهوة الشديدة الشكيمة جعلته يقف في صف المنكرين على عثمان ، حين أخذت الثورة سبيلها . حتى لقد كان عثمان يتهمه بأنه أحد الثلاثة الذين كانوا يؤلبون الناس عليه . وربما كان من أشدهم عنفاً ، إن صح ما يروى عنه في ذلك^(٦) ولما قتل عثمان كان في الذين خرجوا على علي مع عائشة إلى البصرة ، وشارك في معركة الجمل ، وقتل في هذه المعركة سنة ٣٦ . وكان الذي رماه فقتله - فيما يقولون - مروان ابن محمد . وقد قالوا : إنه قتله انتقاماً لعثمان^(٧) .

وكان طلحة يلقب بطلحة الفياض ، كما هنا ، وطلحة الخير ، وطلحة الطلحات ، لما عرف به من الكرم ، فلم يكن يدع عائلاً من بنى تيم إلا كفاه مؤونته ومؤونة عياله . وقد ترجم له ابن سعد في الطبقات الكبرى^(٨) وابن قتيبة في المعارف^(٩) وصاحب تهذيب التهذيب^(١٠) .

(١) عيون الأخبار ١ : ٣٣٢ ط دار الكتب المصرية ، ١٩٢٥ م .

(٢) أنساب الأشراف للبلاذرى ٥ : ١٦ ، ١٧ ، ط الجامعة العبرية ، القدس ، ١٩٣٦ م .

(٣) البيان والتبيين ٣ : ١٤٣ ، ط مصطفى محمد ١٩٣٢ م .

(٤) أنساب الأشراف ٥ : ١٨ وما بعدها .

(٥) أنساب الأشراف ٥ : ٧ .

(٦) أنساب الأشراف ٥ : ٤٦ ، ٩٠ .

(٧) أنساب الأشراف ٥ : ١٢٦ ، ١٣٥ .

(٨) ٣ : ١٥٢ .

(٩) ص ١٧٧ .

(١٠) ٥ : ٢٠ .

هو عويمر بن مالك بن قيس بن أمية الأنصاري ، خزرجي من بلحارث ، وكان قبل إسلامه يصطنع التجارة . ويروى عنه أنه قال : « كنت تاجراً قبل أن يبعث محمد صلى الله عليه وسلم ، فلما بعث محمد زاولت التجارة والعبادة ، فلم يجتمعا ، فأخذت في العبادة وتركت التجارة »^(١) .

ومن هنا نرى أن الرجل كان يتزع نزعة صوفية منذ أول أمره ، وقد لازمته هذه النزعة ، وكان لها مظهر بياني ، ولا سيما بعد أن مضى إلى الشام ، وولى القضاء في ولاية معاوية ، أيام خلافة عمر بن الخطاب ، إذ كان على قضاء دمشق . وقد قوى من هذه النزعة ما رآه هنالك من مظاهر الترف الذي كاد يودي بالنزعة الدينية عند الناس ، فاشتد على الدنيا كلهم ، كما يقول فيما يحكى الجاحظ عنه : « كان الناس ورقاً لا شوك فيه ، وهم اليوم شوك لا ورق فيه »^(٢) .

والرجل يعتبر بذلك من الخطباء الأولين الذين وضعوا أصول الخطابة الدينية في الأمصار الإسلامية ، وإن لم تصلنا - بطبيعة الأمر - خطبة من خطبه ، وإنما هي فقرات تدل على نزعته في الخطابة وعظته الناس . وقد عنى الجاحظ في البيان والتبيين بإبراز طائفة من هذه الفقرات . وأول ما يستبين لنا منها هي هذه النغمة الأسيفة التي يحاول أن ينفذ بها إلى قلوب الناس ليصرفهم عن هذا التعلق الشديد بالدنيا ، كقوله : « أضحكني ثلاث وأبكاني ثلاث : أضحكني مؤمل الدنيا والموت يطلبه ، وغافل لا يغفل عنه ، وضاحك ملء فيه : لا يدري أساخط ربه أم راض . وأبكاني هول المطلع ، وانقطاع العمل ، وموقف بين يدي الله : ولا يدري أيؤمر بي إلى الجنة أم إلى النار »^(٣) . ومما يدل على هذه النزعة وتأثيرها بما كان يشهد في هذه الدنيا الجديدة ما يروى له الجاحظ أيضاً : « نعم صومعة المؤمن منزل يكف فيه نفسه وبصره وفرجه . وإياكم والجلوس في هذه الأسواق فإنها تلغى وتلهي »^(٤) .

(١) حلية الأولياء ١ : ٢٠٩ ، ط السعادة ١٩٣٢ م .

(٢) البيان والتبيين ٣ : ٦٦ ، ط الفتوح الأدبية ، ١٣٣٢ هـ (٣ : ٨٦ ط مصطفى محمد ،

١٩٣٢ م) .

(٣) البيان والتبيين ٣ : ٧٨ ، ط الفتوح الأدبية ، ١٣٣٢ هـ (٣ : ١٠٠ - ١٠١ ط مصطفى

محمد ، ١٩٣٢ م) .

(٤) البيان والتبيين ٣ : ٦٨ ، ط الفتوح الأدبية ، ١٣٣٢ هـ (٣ : ٨٨ ط مصطفى محمد ،

١٩٣٢ م) .

ولقد كان أبو الدرداء يحس هذا المعنى الذى أشرنا إليه من أثر الفتوح التى فتحت على المسلمين ، فى إبعادهم عن حقائق الدين ، وإقبالهم على الدنيا إقبال النهم ، إحساساً قوياً ، حتى لم يكن يتحرج من التصريح بشؤم هذه الفتوح على الناس ، فكان يقول - فيما يحكى عنه أبو نعيم - : « ألا أخبركم بخير أعمالكم وأحبا إلى مليكمكم ، وأتمها فى درجاتكم ، خير من أن تغزوا عدوكم ، فيضربوا رقابكم وتضربوا رقابهم ، خير من إعطاء الدراهم والدنانير ؟ » ، قالوا : « وما هو يا أبا الدرداء ؟ » قال : « ذكر الله ، وذكر الله أكبر »^(٣). وهذا النص صريح فيما أحدثت هذه الفتوح من رد فعل شديد ، ثم ما كان لرد الفعل هذا من أثر فى نفوس أئمة الدين ، ثم ما كان لذلك من أثر فى توجيه الخطابة الدينية .

ولقد كان فتح قبرص كافياً لإثارة أحزان أبي الدرداء ، فجلس وحده يبكى . فقال له أحد أصحابه واسمه جبير : « يا أبا الدرداء ! ما يبكيك فى يوم أعز الله فيه الإسلام وأهله ؟ » ، قال : « ! ويحك يا جبير » ما أهون الخلق على الله إذا هم تركوا أمره ! بينا هى أمة قاهرة ظاهرة لهم الملك ، تركوا أمر الله فصاروا إلى ما ترى »^(٤).

٢٦ - زيد بن جبلة (١٤ : ٨)

أحد الشخصيات الكبيرة فى البصرة فى وقت تمصيرها . وهو يذكر فى الوفود التى كانت تفد على عمر ، فيذكر مرة مع هلال بن وكيع والأحنف بن قيس ، وتذكر له فى ذلك الموقف كلمة بليغة العبارة يقول فيها :

« يا أمير المؤمنين ! سود الشريف ، وأكرم الحسيب ، وأزرع عندنا من أياديك ما نسد به الحصاصة ، ونطرد به الفاقة ، فإننا بقف من الأرض ، يابس الأكناف ، مقشعر الذرورة ، لا شجر فيه ولا زرع . وإننا من العرب اليوم - إذ أتيناك - بمرأى ومسمع »^(١).
ويذكر مرة أخرى فى وفد من أهل البصرة وأهل الكوفة ، كما يذكر فى الوفد القادم على على فى الكوفة^(٢).

ويلاحظ فى أخباره ما كان بينه وبين الأحنف بن قيس من منافسة ، فهو فى ذلك

(١) حلية الأولياء ١ : ٢١٩ .

(٢) حلية الأولياء ١ : ٢١٧ .

(٣) البيان والتبيين ٢ : ١١٦ - ١١٧ ، ط ١٩٣٢ .

(٤) وقعة صفين لنصر بن مزاحم ، ط دار إحياء الكتب العربية ، ١٩٤٦ م .

الوفد ينفس على الأحنف كلمة إطراء وجهها عمر إليه ، فلم يملك لسانه من الوقوع فيه^(٣) يحاول أن يضع منه بأن أمه باهلية ، وفي موقف آخر نراهما يتواثبان ويتناصيان . فإذا قيل للأحنف : أين الحلم اليوم ، قال : لو كان مثلي أو دوني لم أفعل هذا به^(٤) .

٢٧ - محمد بن زياد (١٤ : ١٣)

هو يعنى - فى أكبر الظن - محمد بن زياد الزيادى الذى يحكى عنه الحصرى هذا الخبر :

« وجدت على سهل بن هرون فى بعض الأمر ، فهجوته ، فكتب لى : « أما بعد ، فالسلام على عهدك ، وداع ذى ظن بك ، فى غير مقلية لك ، ولا سلوة عنك ، بل استسلام للبلوى فى أمرك ، وإقرار بالمعجزة عن استعطافك ، لى أوان بينك ، أو يجعل الله دولة من رجعتك ، والسلام » . وكتب فى أسفل الكتاب :

إن تعف عن عبدك المسىء فى عفوك مأوى للفضل والمئن
أتيت ما أستحق من خطأ فجد بما تستحق من حسن^(١)
ويمكن أن يؤخذ من هذا أنه كان سرياً أديباً ، وكان صديقاً لسهل .
ولعله مما يؤدى إلينا فكرة عنه هذه الأبيات التى يهجوها بها أبو نواس :

جمحت ، أبا مسلم ، فاحبس وقصر من النظر الأشوس
ولا تغرر بركوب الكميت وما تستجيد من الملبس
ومشيك بالنخو وسط الرحاب وإن قيل ذا صاحب المجلس
وقول الفيوج : كتاب الأمير وختم القراطيس بالجرجس
فكم قد رأينا مطاعاً هنا ك صار المذلل فى المجلس^(٢)

ويذكر ابن حجر محدثاً اسمه « محمد بن زياد الزيادى » ، وهو بصرى يلقب

(١) المقدم الفريد ٢ : ٦٣ ط لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٤٠ م .

(٢) عيون الأخبار ١ : ٢٨٥ .

(٣) زهر الآداب ٢ : ٢٥٨ - ٢٥٩ ط الرحمانية ، ١٩٢٥ م .

(٤) ديوان أبي نواس ، ص ١٤٤ ط الحميدية ، ١٣٢٢ هـ .

بيثريو ، وليس به قطعاً . وقد ذكر أنه توفي في حدود الخمسين ومائتين^(١) .

٢٨ - الحضيض بن المنذر (١٥ : ٨)

أبو ساسان ، الحضيض بن المنذر بن الحارث بن وعلة 'قاشي' ، نسبة إلى رقاش ، وهي بطن من شيبان ، من بكر ، من ربيعة ، شاعر فارس سيد . من رؤساء أهل البصرة ، في القرن الأول . وتعد أسرته من أشرف الأسر الربيعية منذ الجاهلية . كان جده « الحارث بن وعلة »^(٢) رئيساً من رؤساء بكر ، انتجعه الأعشى ، وإن لم يحمه . وكذلك كان جده الثاني والثالث : وعلة ومجالد ، وقد ذكرهما الأعشى في سياق تعرضه بالحارث ، إذ يقول :

لعمرك ما أشبهت وعلة في النسدى شائله ، ولا أباه مجالداً^(٣)

وقد ورث الحضيض مجد أسرته ، كما ورث - فيما يبدو - البخل عن جده الحارث ، فكان مبخلاً كما يظهر من قصته مع أبي كلدة اليشكري الشاعر ، وهجاء أبي كلدة له ؛ وما يرويه الجاحظ أن امرأة تعرضت له فسألته : كيف سدت قومك وأنت بخيل وأنت لثيم ؟ قال : لأني سيد الرأي شديد الإقدام^(٤) . ومن ذلك جاء ذكره هنا ، واستشهد بأقواله في رسالة سهل .

وكذلك كان الحضيض من أكبر رؤساء بكر وأظهر رجالها في البصرة في إبان الفتن الأولى ، إلى جانب خالد بن المعمر وشقيق بن ثور الدوسيين ، حتى كان يوم صفين حامل لواء ربيعة في جيش علي . وقد أبلى فيه بلاءً حسناً . وكان له موقف مشهود حين جعل التخاذل يدب في صفوف أصحاب علي ، وارتفع صوت « دعاة الهزيمة » بعد خدعة الدعوة إلى التحكيم^(٥) .

ولكننا بعد ذلك لا نكاد نصيب الحضيض ، فقد صارت زعامة بكر إلى مالك بن مسمع وأشيم بن شقيق بن ثور ، في تلك الفتن التي اضطربت بها البصرة بين ربيعة

(١) تهذيب التهذيب ٩ : ١٦٨ .

(٢) هو غير الحارث بن وعلة الجرمي ، أحد شعراء الهامة .

(٣) الكامل للبريد ، ص ٤٣٦ ، ط لبيسج ١٨٦٤ م (٢ : ٢٤٨ ط الأزهرية ١٣٣٩ هـ) .

(٤) البيان والتبيين ، ٢ : ١٣٦ ، ط مصطفى محمد ١٩٣٢ م .

(٥) وقعة صفين لنصر بن مزاحم ، ص ٥٥٥ ، ط دار إحياء الكتب العربية ١٣٦٥ هـ .

ومضر . وكأنما اكتفى بأن يكون شاعراً يزجى المدح إلى رئيس قومه مالك بن مسمع^(١) ، وجعل يصطنع نوعاً من الحياة الأدبية التي كانت تتمثل في قول الشعر ، ورواية الأخبار ، والاستطراف من الآثار الأجنبية . وقد وضع نفسه بإزاء الشعراء مهاجمهم كالذي كان بينه وبين أبي كلدة الشكري . ولعلنا نستطيع أن نمثل شعره في القطعة التي أوردها أبو علي القالي له في ابنه غياظ^(٢) ، كما نستطيع أن نمثل شخصيته الأدبية فيما كان بينه وبين عبد الله بن مسلم – في مجلس أخيه قتيبة – من حوار ومناقضة^(٣) فيما يورده أبو العباس المبرد . فأما استطرافه من الآثار الأجنبية فشاهده ما يرويه عند مسلم العقيلي من بعض الخبر عن سابور الأكبر^(٤) ، ولعل كنيته «أبا ساسان» تشير إلى شيء من الصلة بين أسرته وبين الفرس .

٢٩ – مرو (٧ : ١)

هي كبرى مدن خراسان ، حتى لتعد قصبته . ومن ذلك كان يطلق عليها مرو الشاهجان ، نسبة إلى «الشاه» . وهي تقع على نهر صغير يقال له المرغاب ، كما تقع على طريق خراسان الذي يربطها ببغداد ، بعد أن يخترق بلاد الجبل ويسير شمال الصحراء الكبرى في قومس ، حتى يمر بنيسابور ومشهد وطوس ، إلى أن يصل إلى مرو ، كما يصلها شرقاً – إلى الشمال – ببخارى وبلاد الشاش (على نهر سيحون أو سرداريا) ، وإلى الجنوب ببلخ ثم كابل وغزنة وبلاد الهند . وهكذا نرى أن موقعها أتاح لها أن تكون إحدى المدن التجارية الكبرى في خراسان . وهذا إلى ازدهار صناعة النسيج بها ، فالثياب المروية كانت تعد من أجود أنواع الثياب .

ولعله من أجل هذا كان المرازمة موصوفين بدقة النظر ، ثم جاءهم من ذلك الحرص ، حتى وصفوا بالبخل ، كما نرى هنا في كلام الجاحظ ، وفي قطعة من الشعر أوردها الهمداني ، وهي :

مياسير مرو من وجود لضيغه بكرش فقد أمسى نظيراً لحاتم

(١) الاصابة ٣ : ٤٨٥ .

(٢) الأمالى ٢ : ١٩٨ ، ط دار الكتب المصرية ١٩٢٦ م .

(٣) الكامل للمبرد ، ص ٤٣٥ – ٤٣٦ ، ط ليتسج ١٨٦٤ م .

(٤) البيان والتبيين ٣ : ٢١٨ ، ط مصطفى محمد ١٩٣٢ م .

ومن رش باب الدار منهم بغرفة
 يسمون بطن الشاة طاوس عرسهم
 فلا قدس الرحمن أرضاً وبلدة
 طواويسهم فيها بطون البهائم
 فقد كملت فيه خصال المكارم
 وعند طبيخ اللحم ضرب الجماجم
 ومع ذلك فالهمذاني وياقوت يدفعان عن المرازقة تهمة البخل في حماسة وقوة^(١).

٣٠ - ابن أبي كريمة (١٧ : ٦)

النصوص عنه قليلة لا تكفي للتعريف به تعريفاً كافياً ، وكل ما يؤخذ منها أن اسمه أسود^(٢) ، وأنه مروزي الأصل^(٣) . ويذكر أبو علي القالي رجلاً بصرياً اسمه أبو كريمة ، يروى له بيتاً من الشعر في صفة الخمر متأثراً بمعاني المتكلمين^(٤) ، وهو يصفه بأنه بصري ، ولاندرى لعله أبوه أو لعله هو ، وصحة العبارة « لابن أبي كريمة » ، إذ كان هذا تحريفاً سهل الوقوع .

وابن أبي كريمة شاعر يقول الشعر ويرويه^(١) ، ولكن شعره متفاوت مختلف ، ويبدو أنه يصنع شعره صناعة على أساليب مختلفة ، ففنها ما يظهر فيه الطابع الفارسي ، كذلك القطعة التي أوردتها الجاحظ في موقف له مع غرمانه ، وقد ضمنها كلمات وعبارات فارسية ، أخرجتها عن أن تكون مفهومة . وربما كان قصد في وضعها هذا الوضع إلى نوع من المفاكهة^(٢) .

ومنها ما يظهر فيه الطابع البدوي الأعرابي . وقد كان ابن أبي كريمة متصلاً بأبي مالك عمرو بن كركرة وبمن كان ينزل عليه من الأعراب ، ولعله من هنا جاءت هذه النزعة البدوية^(٣) . وقد كان من إعجابه بما يصنع من ذلك ينحله بعض شعراء البادية ، كما صنع في قصيدة له في وصف الفأر ، نحلها يزيد بن ناجية السعدي ، « وكان لقي

(١) انظر الهمذاني والبعقري وياقوت و Le Strange .

(٢) البيان والتبيين ١ : ١٣٢ ، ١ : ١٤٩ ط ١٩٣٢ . وفي الحيوان ٢ : ٣٦٢ أن اسمه أحمد . وأكبر الظن أنه تصحيف .

(٣) البغلاء ص ١٣ .

(٤) ذيل الأمل ص ٧٢ ، ط دار الكتب المصرية .

(٥) البيان والتبيين ١ : ١٤٩ ط مصطفى محمد ١٩٣٢ م .

(٦) البيان والتبيين ١ : ١٣٢ .

(٧) الحيوان ٣ : ٥٢٥ - ٥٢٦ ط مصطفى الباني الحلبي .

من الفأر جهداً ، فدعاً عليهن بالسنانير » . وقد أورد الجاحظ هذه القصيدة ، ثم قال :
« ونحن نظن أن هذه القصيدة من توليد ابن أبي كريمة »^(١).

ومن هذا الشعر قصيدة طويلة بدأها بوصف كلب الصيد ثم وصف الفهود^(٢) .
ونمط آخر من الشعر يصطنع فيه الفكاهة ، ويحاكي فيه الحكم بن عبدل الأسدي ،
وله من هذا النمط فيما بين أيدينا قطعة يصف فيها « حشاً له ، كان هو وأصحابه يتأذون
بريحه »^(٣).

ثم نمط رابع يتزرع فيه إلى استنباط المعاني ، ومحاولة الإلغاز في الوصف ، كما نرى
في بيتين له قالمها في وصف القلم ، وأوردتها ابن قتيبة^(٤).

ويؤخذ من أخباره أنه كان من أصحاب الجاحظ الذين يزورهم ويروى بعض
تجارهم^(٥) . وهو معدود في البخلاء الذين يستشهد بأسمائهم ، كما في رسالة ابن التوأم .
وقد أورد له الطبري بيتين يدلان على صلته بالبرامكة ، قالمها بعد نكبة البرامكة^(٦).

٣١ - ماء البصرة (١٧ : ٦ - ٨)

قصة ابن أبي كريمة هذه ، وقصة أحد شيوخ المسجدين الذي كان يحتال الحيل
في تدبير الماء العذب^(٧) ، وغيرها في كتاب البخلاء ، تشير إلى أن البصرة كانت تعاني
حالة خاصة من أجل ماء الشرب .

والواقع أن مسألة ماء الشرب في البصرة كانت منذ الفتح من المسائل المهمة التي
عنى الولاة عناية خاصة بتدبيرها . ونجد صدى هذه الأزمة في خطبة الأحنف بن قيس
التي خطبها بين يدي عمر بن الخطاب ، ويقول فيها :

« يا أمير المؤمنين ! إن مفاتيح الخير بيد الله ، وقد أتتكم وفود أهل العراق ، وإن
إخواننا من أهل الكوفة والشام ومصر نزلوا منازل الأمم الخالية ، والملوك الجبابرة ، ومنازل

(١) الحيوان ٥ : ٣٣٤ - ٣٣٥ ط مصطفي الباي الحلبي .

(٢) الحيوان ٢ : ٣٦٨ - ٤٧٣ ، ٦ : ١٦٢ ، نهاية الأدب ٩ : ٢٦٦ - ٢٧٠ ط دار الكتب

المصرية .

(٣) الحيوان ١ : ٢٤٢ - ٢٤٣ .

(٤) عيون الأخبار ١ : ٤٩ .

(٥) الحيوان ٣ : ٣٤٩ - ٣٥٠ .

(٦) تاريخ الأمم والملوك ١٠ : ٨٨ ط الحسينية المصرية .

(٧) البخلاء ص ٢٩ .

كسرى وقيصر وبنى الأصفر . فهم من المياه العذبة والحنان المخصبة ، في مثل حوكلاء السلي وحدقة البعير ، تأتيهم ثمارهم غضة لم تتغير ، وإنا نزلنا أرضاً نشاشة ، طرف في فلاة ، وطرف في ملح أجاج ، جانب منها منابت القصب ، وجانب سبخة نشاشة ، لا يجف ترابها ، ولا ينبت مرعاها . تأتينا منافعنا في مثل مرئ النعامة . يخرج الرجل الضعيف منا يستعذب الماء من فرسخين ، وتخرج المرأة بمثل ذلك ، تربق ولدها تربيق العنز ، تخاف عليه العدو والسبع ، فإلا ترفع خسيستنا . . . وتأمراً لنا يحفر نهر نستعذب به الماء هلكتنا»^(١) . فكتب عمر إلى أبي موسى يأمره أن يحفر لهم نهراً ، فصنع من ذلك شيئاً لم يتمه ، إلى أن جاء عبد الله بن عامر في عهد عثمان ، واستخلف زياداً حين شخص إلى خراسان ، فأتم حفر النهر^(٢) .

ولكن يظهر أن هذا التدبير لم يفلح طويلاً ، إذ يقول البلاذري إنه « لما قدم عبد الله ابن عمر بن عبد العزيز عاملاً على العراق من قبل يزيد بن الوليد ، أتاه أهل البصرة ، فشكوا إليه ملوحة مائهم . وحملوا إليه قارورتين : في إحداهما ماء من ماء البصرة ، وفي الأخرى ماء من ماء البطيحة (والبطيحة أرض واسعة بين واسط والبصرة) ، فرأى بينهما فضلاً . فقالوا : إنك إن حفرت لنا نهراً شربنا من هذا العذب . فكتب بذلك إلى يزيد ، فكتب إليه يزيد : إن بلغت نفقة هذا النهر خراج العراق — ما كان في أيدينا — فأنفقه عليه . فحفر النهر الذي يعرف بنهر ابن عمر »^(٣) .

ومع هذا فإن الناس لم ينتفعوا كثيراً بهذا الصنيع ، وظلوا يستعذبون من الأبله ، على بعد الشقة ، إذ كان عملاً ناقصاً من بعض وجوهه . ذلك أن الماء الذي كان يجيء به نهر ابن عمر كان نزرأ قليلاً ، لأن معظم ماء البطيحة كان يذهب في نهر آخر اسمه نهر الدير . وظل أهل البصرة كذلك حتى قدم سليمان بن علي البصرة ، واتخذ المغيثة وعمل مسياتها على البطيحة ، فحجز الماء عن نهر الدير ، وصرفه إلى نهر ابن عمر . وأنفق على المغيثة ألف ألف درهم^(٤) .

وما زال أهل البصرة يشفقون على مائهم أن يحتاج أو ينتقص ، فإذا أراد المنصور أن يتخذ ضيعة بالبطيحة فزعوا وثاروا وهددوا بخلع طاعته . ومن هذا نفهم ما جاء في البخلاء من إشارات إلى المبالغة في تقدير الماء العذب ، والشح به ، والتدبير له .

(١) المقدم الفريد ٢ : ٦٢ - ٦٣ ط لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٤٠ م .

(٢) معجم البلدان ٨ : ٣٣٤ ط العادة ١٩٠٦ م .

(٣) فتوح البلدان للبلاذري ص ٣٦٣ ط المصرية ، ١٩٣٢ م .

(٤) فتوح البلدان للبلاذري ص ٣٦٤ .

٣٢ - عمرو بن نهوى (١٧ : ٩)

ذكره الجاحظ هنا وفي صفحة ٧٠ راوياً عنه بعض الحديث عن الكندى ، وكان عمرو من جلسائه وذكره في ص ٣٨ في سياق يؤخذ منه أنه كان مشتغلاً بالكلام ، وأنه كان من أصحاب النظام ، ولم أعر عنه بشيء غير ذلك إلا في كتاب «نشوار المحاضرة» للتوخى ، إذ ذكره في قصة يستفاد منها أنه كان من أهل السواد ، وأنه كان عاملاً للمأمون ، وأن المأمون نكبه^(١).

٣٣ - ثمامة بن أشرس (١٨ : ١)

شخصية من الشخصيات الخطيرة ، ذات الأثر الخالد في الحياة العقلية الإسلامية . وقد كان زعيماً من زعماء المعتزلة ، أودى في أيام الرشيد ، ولكنه استطاع في عهد المأمون أن يدير سياسة الدولة ، وأن يصيغها بصيغة اعتزالية ، وأن يكون صاحب الكلمة الأولى في القصر وسياسته . وأولية ثمامة غامضة ، ولكننا نستطيع القول بأنه نشأ في البصرة تلميذاً لأبي الهذيل العلاف ، كما يتبين ذلك من هذا النص : « وبلغ المأمون أنه لا يقوم لظاهر ابن الحسين ، ويقوم لأبي الهذيل ويأخذ ركابه حتى ينزل ، فسأله عن ذلك ، فقال : أبو الهذيل أستاذى منذ ثلاثين سنة »^(٢) أى أنه كان متلميذاً له منذ سنة ١٧٠ أو نحوها . وإلى جانب هذا نعرف أنه كان متصلاً بالبرامكة ، أو يجعفر بن يحيى بصفة خاصة ، وكان يصاحبه إلى بيت الحكمة^(٣) ، وكلمته التى يحكيها الجاحظ ، في وصف جعفر ابن يحيى مشهورة ، وهى تدلنا إلى أى حد كان معجباً به^(٤) . وكذلك كان متصلاً بالفضل بن سهل^(٥).

ثم نراه بعد ذلك متصلاً بالمأمون في خلافته ، وكان المأمون يحله ويرفع قدره ، وقد أرادته على أن يلى الوزارة فرفضها ، ولكنه كان هو الذى يشير عليه بمن يراه أهلاً لها ، فهو الذى أشار عليه بأحمد بن أبي خالد^(٦) ، كما أشار عليه بعد بيحيى بن أكرم .

(١) ١ : ٦٧ .

(٢) الفهرست لابن النديم ، ص ٣ ، ط الرحمانية ، ١٣٤٨ هـ .

(٣) العقد الفريد ٢ : ١٢٧ ط لجنة التأليف ، الفهرست ص ٣ .

(٤) البيان والتبيين ١ : ٦١ ط ١٣٣٢ هـ .

(٥) الوزراء والكتاب ص ٣١٤ - ٣١٥ ط مصطفى البابي الحلبي ١٩٣٨ م .

(٦) الفهرست ص ٢ .

فكيف نشأت هذه الصلة ؟ أكبر الظن أنها نشأت بواسطة الفضل بن سهل . ونحن نرجح أنه كان مع المأمون في بطانته وحاشيته في مرو ، وكأن حكايته عن ديكة مرو^(١) إنما هي مما لفت نظره هنالك في تلك الفترة .

ونحن نعرف بعد الدور الخطير الذي أداه في توجيه السياسة الدينية للدولة . وهو الذي أتاح الفرصة لبغداد أن تتمثل العقل البصرى إلى جانب العقل الكوفى . وقد أثار عليه خصومة رجال الحديث ، فذهبوا إلى أقصى حد في التشنيع به ، ومحاولة النيل منه ، ونرى مثلاً من ذلك عند ابن قتيبة^(٢) . ولا ريب أن كثيراً من الروايات التي تحكى عنه تصدر هذا المصدر .

٣٤ - قرية الأعراب (١٨ : ١٦)

يصفها الجاحظ هنا بأنها في طريق الكوفة . ويذكرها ابن رسته في الطريق من واسط إلى سوق الأهواز ، بين سماوة ونهر تيرين^(٣) .

٣٥ - موسى بن عمران (١٨ : ١٩)

هكذا جاء اسمه هنا ، وفي بعض النصوص « موسى بن عمران » . معتزلى من أصحاب النظام . ذكره المرتضى في الطبقة السادسة من طبقات المعتزلة^(٤) ، وقال إنه كان واسع العلم في الكلام ، والفيتيا . ولكنه مع ذلك لم يكن معتزلياً خالصاً ، فقد أشار الخياط^(٥) إلى خلافه في القول بالمنزلة بين المنزلتين . وكذلك ذكر الشهرستاني ذلك الخلاف ، كما ذكر خلافه في الوعد والوعيد^(٦) . وفي موضع آخر أشار إلى أنه من القائلين بمقالة أبي ثوبان المرجئ^(٧) . وكذلك ذكر المرتضى أنه كان يقول بالإرجاء .

وإذن فهذا الإرجاء الذى ينسب إليه هو من خلافه في الوعد والوعيد ، وفي المنزلة بين المنزلتين . وإنكارهما أساس مذهب المرجئة . فليس موسى أحق بأن ينسب إلى

(١) البخلاء ص ١٨ .

(٢) تأويل مختلف الحديث ، ص ٦٠ ، ط كردستان العلمية ، ١٣٢٦ .

(٣) الأعلام النفسية ص ١٨٧ ، ط بريل ، ١٨٩١ م .

(٤) المنية والأمل ص ٣٩ .

(٥) الانتصار ص ١٢٧ ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٢٥ .

(٦) الملل والنحل ص ٤١ .

(٧) الملل والنحل ص ١٠٥ .

المعتزلة منه بأن ينسب إلى المرجئة . بل لعله بانكاره هذين الأصلين ، وذهابه إلى أن وعيد الله على المعاصي قد يتخلف بخلاف وعده ، وأن صاحب الكبيرة لا يخرج من الإيمان بمجرد ارتكاب الكبيرة ، قد أصبح من ضميم المرجئة ، فهذا هو الإرجاء جميعه .

ولكنه مع ذلك كان يعتبر من المعتزلة ، وكان المعتزلة يعتبرونه منهم . فلما جاء ابن الراوندى ينكر نسبه إليهم ، مع طائفة منهم ، رد عليه أبو الحسين الخياط بأنه « ليس تفتقر المعتزلة إلى إضافتهم إلى أنفسهم ، ولا إلى إدخالهم في جملتهم » (١) فالظاهر أن هذه النسبة جاءت من أنه كان يخالط المعتزلة من أمثال النظام وأبي الهذيل والجاحظ ، ويكرمهم ويتحفي بهم ، لأن هذا كان مظهراً من مظاهر الترف . وكان — كما يؤخذ من أخباره القليلة — رجلاً مترفاً سمح النفس ، سهل الجانب ، كريماً ، فن الطبيعي ألا يكون من أصحاب اللدد في الخصومة ، والتعصب في المذهب .

وكما كان هذا أمره مع المعتزلة كان مع الشعراء من أمثال أبي نواس والحسين بن الضحاك ، فحين كان أبو نواس في السجن كان موسى يزوره لسؤاله عن أمره ، والتسليم عليه ، وقضاء بعض الحوائج له (٢) ؛ ويحكى الحسين بن الضحاك أنه استوهبه — وهو بالبصرة — جبة خز كان يلبسها ، فنزعها عنه وأعطاه إياها (٣) .

وأما صلته بالجاحظ فقديمة ، بل لعلها من أخطر صلوات الجاحظ ، ولعله كان صاحب الفضل في تسديده في تلك السبيل التي هيأت له أن يكون ذلك الرجل (٤) . وهو يردد اسمه كثيراً في كتاب الحيوان ، وما وصفه به أنه « كان هو والكذب لا يأخذان في طريق ، ولم يكن عليه في الصدق مؤونة ، لإيثاره له ، حتى كان يستوى عنده ما يضر وما ينفع » (٥) .

وحملة القول في موسى بن عمران أنه كان رجلاً سرياً نبيلاً ، بكل معاني السراوة والنبيل .

٣٦ - خاقان بن صبيح (١٩ : ١)

من أصحاب الجاحظ الذين يروى عنهم بعض المشاهدات (٦) وينقل عنهم بعض

(١) الانتصار ص ١٢٧ .

(٢) أخبار أبي نواس لابن منظور ١ : ٢٢٧ ، ط الاعتماد ، ١٩٢٤ م .

(٣) الأغاني ٧ : ١٨٣ - ١٨٤ ط دار الكتب المصرية ، ١٩٣٥ م .

(٤) المنية والأمل ص ٣٨ .

(٥) الحيوان ٥ : ٤٦٨ ط مصطفى البابي الحلبي ، ١٩٤٣ .

(٦) الحيوان ٤ : ٣١٧ ط مصطفى البابي الحلبي ، ١٩٤٥ .

العبارات^(١) والعبارة التي نقلها عنه الجاحظ هي في ذكر نبل الشتاء وفضله على الصيف . وقد وصفه في سياق رواية مشاهدته ، بأنه صادق لا يحتاج خبره إلى شاهد . ولم أعر عن شخصه بشيء سوى ذلك .

وينقل الحصرى عنه عبارة تدل على أن الرجل كان من المشتغلين بالمسائل النظرية ، إذ يقول : « لوحشة الشك التمسنا أنس اليقين . ومن ذل الجهل هربنا إلى عز المعرفة ، ولخوف الضلالة لزمنا الجادة »^(٢) وقد ورد اسمه في هذا النص « صبح » بدون ياء . ويؤخذ من نص البخلاء^(٣) أنه كان يعد من البخلاء مع سهل بن هارون وغيره .

٣٧ - مثنى بن بشير (٢٠ : ٤)

هكذا جاء اسمه هنا مجرداً من الألف واللام ، وفي موضع آخر محلى بهما . والنصوص عنه قليلة نزره لا تكاد تفيدنا شيئاً عنه . وقد كان من أصحاب خاقان بن صبيح المتقدم ذكره ، إذ يستشهد به في خبره الذي يذكره وأشرنا إليه . وقد روى عنه الجاحظ في صدد الكلام عن فضل الشمس قوله : « والحركة خير من الظل والسكون »^(٤) كما روى عنه نادرة لشيخ سندي أتى به ليشره على أنه طباطبا ، فاقتمته عين السندي وازدراه^(٥) . ويظهر أن مثل المثنى هذا - ممن يذكر الجاحظ - كان من طبقة التجار الملابس للعلماء .

٣٨ - السكباغ (٢٣ : ٩)

ذكر أدى شير في كتابه « الكلمات الفارسية المعربة » أن السكباغ مرق يعمل من اللحم والخل ، معرب « سكباً » وهو مركب من « سك » أى خل ، ومن « با » أى طعام . وقد جاء ذكره ووصف طريقة طهيته في كتاب عن الأطعمة مجهول المؤلف^(٦) ، وقد ذكره في باب الحوامض .

(١) الحيوان ٥ : ١٠٦ .

(٢) زهر الآداب ٣ : ٢٢٠ ط الرحمانية ، ١٩٢٥ م .

(٣) البخلاء ص ١٣٠ .

(٤) الحيوان ٥ : ١٥٠ ط مصطفى الباني الحلبي ، ١٩٤٣ م .

(٥) الحيوان ٦ : ١٦٦ ط التقدم ، القاهرة ، ١٩٠٧ م . (٦ : ٤٨٩ ، ط الحلبي ١٩٤٤) .

(٦) ص ٩-١٠ من هذا الكتاب، ومنه نسخة فتوغرافية في دار الكتب المصرية، برقم (٥١ علوم معاشية)

ولعله من أجل ذلك كان يسمى - كما يقول الراغب - الخلية والمخللة . ويؤخذ من بعض ما أورده عنها أن السذاب كان يدخل في أفوايهها ، كما أنها كانت تصبغ بالزعفران^(١)

٣٩ - الطبايح (٢٣ : ١٤)

ذكر أدى شير في كتابه أن فارسيته « تباهه » وأنه « طعام من بيض وبصل ولحم » وقد جاءت صفة طهيها في كتاب الأطعمة المتقدم ذكره ، في صفحتي ٢١ ، ٢٢٤ .
وذكر الشهاب الخفاجي في تفسيره أنه « الكباب » ثم قال : « والعرب تسميه الصفيف »^(٢) .

٤٠ - إبراهيم بن السندي (٢٤ : ٩)

من رجال الجاحظ الذين يكثر من ذكرهم والرواية عنهم في كثير من كتبه ، كالبخلاء والحيوان والبيان والتبيين والتاج . وهو من أسرة سنديّة خدمت الدولة منذ أول عهددها . وأبوه السندي بن شاهك السندي ، تولى القضاء^(٣) ، وكان والياً على الشام^(٤) ، وكان ممن غلب على الأمين مع محمد بن عيسى بن نهيك وسليمان بن أبي جعفر المنصور^(٥) ومن هذه الأسره إبراهيم بن عبد السلام ابن أخى السندي هذا ، ويذكره الطبري في أخبار المنصور^(٦) .

وقد وصف الجاحظ إبراهيم بن السندي بقوله : « وأما إبراهيم فإنه كان رجلاً لا نظير له ، وكان خطيباً ، وكان ناسياً ، وكان فقيهاً ، وكان نحوياً عروضيّاً ، وحافظاً للحديث ، راوية للشعر شاعراً . وكان فخم الألفاظ ، شريف المعاني . وكان كاتب القلم كاتب العمل . وكان يتكلم بكلام رؤبة ، ويعمل في الخراج يعمل زادان فروخ

(١) محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء البلغاء ٢ : ٢٩٢ ، ط الشرفية ، ١٣٢٦ هـ . وانظر أيضاً المضاف والمنسوب لثعالبي ، ص ٤٩٠ ، ط الظاهر ، ١٩٠٨ م ، في الفصل الذي عقده عن « مخ الأطعمة » .

(٢) شفاء الغليل ص ١٢٩ ، ط السعادة . مصر ، ١٣٢٥ هـ .

(٣) عيون الأخبار ١ : ٧٠ ، ط دار الكتب المصرية .

(٤) الحيوان ٥ : ٣٩٣ ، ط مصطفى الباني الحلبي .

(٥) التنبيه والإشراف ص ٣٠٢ ، ط الصاوي ، ١٩٣٨ م .

(٦) تاريخ الأمم والملوك ٩ : ٣٠٥ ، ط الحسينية المصرية .

الأعور ، وكان منجماً طبيباً . وكان من رؤساء المتكلمين ، وعالماً بالدولة ، وبرجال الدعوة . وكان أحفظ الناس لما سمع ، وأقلهم نوماً ، وأصبرهم على السهر»^(١) .

وذكره كذلك في رسالته التي كتبها في مناقب الترك ، فقال : « وكان عالماً بالدولة ، شديد الحب لأبناء الدعوة . وكان يحوط مواليه ، ويحفظ أيامهم ، ويدعو الناس إلى طاعتهم ، ويدرسهم مناقبهم . وكان فخم المعاني ، فخم الألفاظ ، لو قلت : لسانه كان أرد على هذا الملك من عشرة آلاف سيف شهير ، وسنان طرير ، لكان ذلك قولاً ومذهباً »^(٢) .

وفي موضع آخر ذكره فقال : إنه كان من فلاسفة المتكلمين ، باعتباره من الأطباء ، إذ الأطباء ، فلاسفة المتكلمين ، كما يقول الجاحظ^(٣) .

ومن مواقفه الكلامية ما ذكره الشهرستاني : « سأل أبا موسى عيسى بن صبيح المراد عن أهل الأرض ، فكفرهم ، فأقبل عليه إبراهيم ، فقال : الجنة التي عرضها السموات والأرض لا يدخلها إلا أنت وثلاثة وافقوك؟ فخرى ولم يخر جواباً »^(٤) .

ويؤخذ من خبر عنه ذكره ابن قتيبة والثعالبي أنه كان والياً على الكوفة وقتاً ما^(٥) .

٤١ - ربض الشاذوران (٢٤ : ٩)

هو - كما يؤخذ من السياق - موضع من مواضع بغداد . فأما الشاذوران فكلمة فارسية أوردها الخفاجي وفسرها بأنها جزء « من جدار البيت الحرام ، وهو الذي ترك من عرض الأساس خارجاً . ويسمى تأزيراً ، لأنه كالإزار للبيت »^(٦) ولم يفسرها بأكثر من هذا . وظاهر أنه غير المقصود بهذه الكلمة هنا .

وهناك معنى آخر أدنى إلى أن يكون المراد هنا ، وقد أغفلته كتب اللغة إغفالا تاماً . وإنما يمكن استخلاصه من كتب البلدان ، في خلال ما يذكرونه من عجائب الأمصار ، وفي أثناء كلامهم عن إقليم الأهواز ومدينة تستر . وذلك كما في قول ابن خردادبه : « ما بناء بالحصص والآجر أبيه من إيوان كسرى . . . ولا بناء بالحجارة أحكم ولا أبيه »

(١) البيان والتبيين ١ : ٢٦٦ ط مصطفى محمد ، ١٩٣٢ م .

(٢) مجموعة رسائل للجاحظ ص ٤٧ ، ط التقدم ، ١٣٢٤ هـ .

(٣) الحيوان ٢ : ١٤٠ .

(٤) الملل والنحل ١ : ٨٨ (هامش الفصل) .

(٥) عيون الأخبار ٣ : ١٢١ ، ثمار القلوب ص ٣٥٥ .

(٦) شفاء الغليل ص ١١٨ ، ط السعادة ، القاهرة ، ١٣٢٥ هـ .

من «شاذروان» تسر ، لأنه بالصخر وأعمدة الحديد وملاط الرصاص»^(١). وكقول الاصطخري في كلامه عن الأهواز : «وأما الخاصيات بها فإن عندهم بتسر "الشاذروان" الذى بناه سابور ، وهو من أعجب البناء وأحكمه . بلغنى أن امتداده يقرب من ميل . قد بنى بالحجارة كله ، حتى تراجع الماء وارتفع إلى باب تسر»^(٢). ومثل هذا ما نراه عند ياقوت في الفصل الذى كتبه عن تسر^(٣). ثم نجد عند البشارى بيان هذا الإجمال ، إذ يصف «الشاذروان» وصفاً أدق ، ويبين الغرض منه في صورة أوضح . فيقول في صفته إن الماء يتبخر عنده ، وإنه يرد «الماء ويفرقه ثلاثة أشهر ، تمد إلى ضياعهم ، وتسقى مزارعهم . وهم يقولون : لولا "الشاذروان" ما عمرت الأهواز ، ولا انتفع بأنهارها . وفي «الشاذروان» أبواب تفتح إذا كثر الماء لولاها لغرقت الأهواز . وتسمع للماء المنحدر صوتاً يمنع النوم أكثر السنة . وزيادته تكون في الشتاء ، لأنه من الأمطار لا من الثلوج»^(٤) ومن ذلك يتبين لنا أن هذه الكلمة تعنى عملاً من الأعمال الهندسية التى كان يقصد بها إلى تنظيم الري في هذا الإقليم ، فهو نوع من القناطر أو الخزانات يتيح للماء أن يجتمع وراءه ويرتفع ، حتى يمكن توزيعه على النحو المطلوب من ناحية : وحتى يمكن إيصاله إلى الأمكنة المرتفعة ، من ناحية أخرى .

وإذا كان الشاذروان أكثر ما يطلق على شاذروان تسر ، فليس هناك ما يمنع أنه كان يطلق على كل عمل هندسى من هذا القبيل . وسياق الكلام يدل على أن الشاذروان المقصود هنا إنما كان في بغداد . وأكبر الظن أن توزيع المياه فيها كان يحتاج إلى مثل هذا النوع من التدبير . فإذا صح هذا كان لنا أن نذهب إلى القول بأن «ربض الشاذروان» المذكور هنا هو أحد الأرباض الكثيرة التى يذكر يعقوبى طائفة منها في الفصل القيم الذى كتبه عن بغداد^(٥)، وإن لم يذكره بينها . وأنه كان يقع إلى جانب شاذروان هناك ، فنسب إليه .

(١) المسالك والممالك ، ص ١٦٢ ، ط بريل ، ١٨٨٩ م .

(٢) مسالك الممالك ، ص ٩٢ ، ط بريل ، ١٨٧٠ م ، وانظر أيضاً ص ١٩ .

(٣) معجم البلدان ٢ : ٣٨٧ ، ط السعادة ، ١٩٠٦ م .

(٤) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، ص ٤١١ ، ط بريل ، ١٩٠٦ م .

(٥) كتاب البلدان ، المجلد السابع من المكتبة الجغرافية العربية : ص ٢٣٣ - ٢٥٤ ، ط بريل ،

٤٢ - الجرذقة (٢٤ : ١٣)

قال أدى شير : « ومن كرده معرب أيضاً الجردق والجرذقة والجرذق ، وهو الرغيف » ، وقد قيده الخفاجي بأنه الرغيف الغليظ (١) ، وكذلك ذكر الجواليقي أنه الخبز الغليظ (٢) . وقد وردت في شعر أبي النجم ، في قوله :

« كان بصيراً بالرغيف الجردق »

٤٣ - « المغبون لا محمود ولا مأجور » (٢٥ : ٣)

هذا مثل من الأمثال التي كانت تجرى على لسان العامة ، وتصور نتيجة من نتائج التعقد الاقتصادي في ذلك العهد . وقد عرض له الجاحظ في موضع آخر فقال : « والعامة تضع هذا وما أشبهه في غير موضعه . وإنما هو شيء ألقاه الشيطان في قلوبهم وأجراه على ألسنتهم . حتى قالوا في نحو من هذا في البائع والمشتري : " المغبون لا محمود ولا مأجور " فحملوا الجهلة على المنازعة للباعة ، والمشاغمة للسفلة والسوقة ، والمقاذفة للرعاع والوضعاء ، والنظر في قيمة حبة ، والاطلاع في لسان الميزان . وأخذ المعايير بالأيدى ، وبالجرى أن يكون المغبون محموداً ومأجوراً ، إلا أن يكون قال : اغبني . بل لو قالها كانت أكرامة وفضيلة ، وفعلة جميلة ، تدل على كرم عنصر القائل وطيب مركبه » (٣) . وقد جاء هذا المثل مرة ثالثة في كتاب البخلاء ، في رسالة ابن التوأم (٤) .

٤٤ - محمد بن يسير (٢٦ : ٣)

هو أبو جعفر محمد بن يسير الرياشي ، مولى بني رياش (٥) ، شاعر من شعراء البصرة المعاصرين للجاحظ ، يكثر من ذكره ورواية شعره ، على أنه ليس من شعراء الطبقة الأولى ، ولكنه كان في شعره يصور النوازع الاجتماعية المختلفة إلى حد ما ، فرة

(١) شفاء الغليل ص ٥٨ ط السعادة .

(٢) المعرب ص ٩٥ ، ١١٥ ط دار الكتب المصرية .

(٣) التاج ص ١٠٢ ، ط الأميرية ، ١٩١٤ م .

(٤) البخلاء ص ١٨٧ .

(٥) اللؤلؤ ، ص ١٠٤ ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٣٦ م .

هو ماجن في شعره^(١) ، ومرة زاهد متنسك^(٢) وقد أورد له الجاحظ قطعتين من الشعر ، يتحدث فيهما عن العلم وقراءة الكتب^(٣) ، وهما يدلان على أنه كان مأخوذاً بالنزعة العلمية في البصرة . نزاعاً إلى أنواع المعرفة وصنوف الكتب ، وأنه كان يجد في ذلك حظاً من اللذة ، وأنه اتخذ من الكتب مفرجاً يفزع إليه حين يضيق بالناس والحياة ، وإحدى هاتين القطعتين ، وهي التي يبدوها بقوله :

أقبلت أهرب لا آلو مباعدة في الأرض منهم فلم يحصني الحرب

من أحسن ما قيل في وصف الكتب ، وما تحدثه للنفس الضيقة من أنس . وقد كان ابن يسير من الشعراء الدارسين المتعطشين للمعرفة ، استجابة لروح العصر ، والتماساً للروح النفسى . وفي بعض آثاره الأدبية التي وصلت إلينا ما يشير إلى هذه الدراسة ؛ إذ أصيب في ألواح الأبنوس التي كان يستخدمها في دراسته ، فبكأها ببعض الشعر^(٤) ، كما أن في قصيدته التي أشرنا إليها ما يدل على الأصل الذي كانت تصدر عنه هذه النزعة ، وهو التماس الروح النفسى لقاء متاع الحياة ، فلم يكن يتخذ هذه المعرفة وسيلة إلى غاية دنيوية ، أو سبباً إلى الجدل والمساماة وإرضاء هذه النزعة التي كانت شائعة في البصرة . فقد كان يبغض هذا الأسلوب ، ويبغض من أجله المتكلمين ، كما عبر عن ذلك في قطعة من الشعر يقول فيها^(٥) .

يا سائلي عن مقالة الشيع وعن صنوف الأهواء والبدع
دع عنك ذكر الأهواء ناحية فليس فيمن شهدت ذو ورع
كل أناس بديتهم حسن ثم يصيرون بعد للشنع
أكثر ما فيه أن يقال له لم يك في قوله بمنقطع

فقد كان ابن يسير إذن رجلاً وادع النفس ، لا يذهب به الطموح ، ولا يستبد

(١) البيان والتبيين ٣ : ١٢٧ - ١٢٨ ، ط الفتوح العربية ، ١٣٣٢ هـ ، الأغاني ١٢ : ١٢٨ ط التقدم .

(٢) البيان والتبيين ٣ : ٨٧ ، الكامل للمبرد ، ٢ : ١٣ - ١٤ ، ط الأزهري ، الأغاني ١٢ : ١٣١ .

(٣) الحيوان ١ : ٥٩ ، ٩٤ - ٩٦ ، ط مصطفي الباني الحلبي .

(٤) الأغاني ١٢ : ١٣٣ - ١٣٤ . ط التقدم .

(٥) تأويل مختلف الحديث ، ص ٧٤ - ٧٥ ، ط كردستان العلمية ، ١٣٢٦ هـ ، الأغاني ١٢ :

به القلق . وتلك إحدى ظواهر هذا الخلق . وأخرى نجدتها في شعره الذي يعبر عن روح الرضا ويوصي بالصبر ، كقوله^(١) :

ماذا يكلفك الروحات والدلجا البر طوراً وطوراً تركب اللججا
كم من فتي قصرت في الرزق خطوته ألفتته بسهام الرزق قد فلجا

وكقوله في هذين البيتين الذين يعبران عن فلسفة النفس الوادعة المطمئنة^(٢) :

تخطى النفوس مع العيان وقد تصيب مع المظنة
كم من مضيق في الفضاء ومخرج بين الأسنة

ويظهر أن خلقه هذا قد أحمله نوعاً ما . فيقال إنه بقي في البصرة طيلة حياته لم يغادرها ، وقد اكتفى من هذه الحياة بالقراءة والسماع ، وبقول الشعر ، يجد به حيناً ويهزل أحياناً ، وبشرب النبيذ ، « يشربه عند إخوانه ويستسقيه منهم » ، دون أن يعنى نفسه بنبذ وعلاجه . ولعله من هذا جاءت شهرته بالبخل ، وذكره بين البخلاء ، كما تحجى الإشارة إلى ذلك في رسالة ابن التوام^(٣) . ولم يكد يتصل في البصرة إلا بآل جعفر بن سليمان ، ثم لا نكاد نجد له شعراً في المديح ، فقد كان إنما يقول الشعر لنفسه الوادعة .

٤٥ - أحمد بن هشام (٢٧ : ٧)

سرى من سراة بغداد ، عرف بالترف والأريحية ، من أسرة الهشاميين التي تعرف منها على بن هشام والحليل وشيبة . وقد كان من أبرز مظاهر الترف عنده مخالطته لرجال الفن في ذلك العهد . ومن ذلك كانت بينه وبين إسحاق بن إبراهيم الموصلي صداقة يشيد كل منهما بها ، وقد ارتفعت معها الكلفة ، حتى كان إسحاق يعابته أحياناً^(٤) . ولعل من مظاهر ترفه أيضاً أنه كان يصنع الشعر في بعض الأحيان ، فقد روى له أبو الفرج بيتين بعث بهما إلى إسحاق مع زعفران رطب أهدها إليه^(٥) .

(١) الأغاني ١٢ : ١٣٢ ، ط التقديم .

(٢) الأغاني ١٢ : ١٣٣ .

(٣) كتاب البخلاء ص ١٨١ .

(٤) الكامل للمبرد ٣ : ١٦ ، ط الأزهرية .

(٥) الأغاني ٥ : ٣٠١ ، ط دار الكتب المصرية .

٤٦ - أبو سعيد سجادة (٢٨ : ٥)

لم يتح لنا أن نعرف على وجه التحقيق من هو المقصود بأبي سعيد هذا ، على أنا نذكر أن من بين الذين امتحنوا في خلق القرآن رجلاً يدعى بسجادة ، وفيه يقول المأمون في كتابه إلى إسحاق بن إبراهيم : « وأما المعروف بسجادة ، وإنكاره أن يكون سمع ممن كان يجالس من أهل الحديث وأهل الفقه القول بأن القرآن مخلوق ، فأعلمه أنه في شغله بإعداد النوى ، وحكاه ؛ لإصلاح سجادته ، وبالودائع التي دفعها إليه على بن يحيى وغيره ؛ ما أذهله عن التوحيد وألهاه »^(١).

ومن هذا نرى كيف جاء هذا اللقب « سجادة » ، من هذا الأثر الذي كان يسمى « سجادة » . وفي هذه الفقرة ما يدلنا كيف كان المرءون يصنعون هذا الأثر . وكذلك يذكر الحصرى أنهم كانوا يصنعونه بذلك ما بين أعينهم بنواة وثوم ، ثم يعصبون الثوم وينامون^(٢) . وقد أورد في هذا الموضع نادرتين طريفتين تتصلان بذلك .

وقد وردت هذه الكلمة « سجادة » في شعر أبي نواس في أبياته التي كتب بها إلى الفضل بن الربيع ، وقال فيها :

فادع بي ، لا عدمت تقويم مثلي فتأمل بعينك السجادة
لو رأها بعض المرائين يوماً لاشرأها يعدها للشهادة^(٣)

٤٧ - المسجديون (٢٩ : ١)

هم - فيما نحسب ، وفيما تفيدنا إياه النصوص القليلة - قوم اتخذوا المسجد منتدى لهم ، وطال غشيانهم له ، فعرفوا به ، ونسبوا إليه . ولم يكونوا - فيما يبدو - من صنف واحد ، بل كانوا خليطاً من الناس ، منهم الشعراء ومنهم الرواة ومنهم مصطنعو الحكمة ، وقد كانوا يستطرفون من هذه الثقافات التي يزخر بها مسجد البصرة ، فكانوا لا يفرقون في فن ، ولا يتقيدون بنوع من العلم ، وإنما يصيبون من هذا وذاك ، ثم يجلس بعضهم إلى بعض ، يتحدثون شتى الأحاديث ، ويتجادبون أطراف الرأي في مختلف المسائل .

(١) تاريخ الأمم والملوك للطبري ١٠ : ٢٩١ ، ط الحسينية المصرية .

(٢) جمع الجواهر ص ١٣٢ ، ط الرجانية ، ١٣٥٣ هـ .

(٣) ديوان أبي نواس ص ٨٧ ط الحميدية ، تاريخ الطبري ١٠ : ٢٢٦ .

ويظهر أن هؤلاء المسجدين كان لهم أثر غير قليل في التوجيه الأدبي لكثير من أدباء ذلك العهد ، ففي أخبار أبي نواس أنه لما شب وكبر صحب أهل المسجد والمجان^(١) ، وأكبر الضن أن المقصود بأهل المسجد هم المسجديون . وكذلك الجاحظ كان مجلسه في أول أمره إلى هؤلاء المسجدين^(٢) .

وقد كان بعض الشعراء يوصف بأنه مسجدي ، كما يقول المرزباني عن أبي عمران موسى بن محمد السلمى أنه « بصرى مسجدي متوكلي »^(٣) وهذا يدلنا على طابع خاص كان يعرف به الشعراء المسجديون . ومثل هذا نجده في الرواية ، فقد ذكر الآمدي فيما يستكره من أشعار العرب هذا الشطر :

وسنا كسنيق سناءً وسنا

ثم قال : « ولم يعرف الأصمعي هذا . وقال أبو عمرو : وهو بيت مسجدي ، أي من عمل أهل المسجد »^(٤) ومن هذا نرى بعض الاتجاه الذي كان يتجهه المسجديون .

٤٨ - الموكوك والدرهم والقيراط والحبة (٣٠ : ١٢ - ٣١ : ٧)

الموكوك معيار يكال به ، وهو - كما يقول صاحب القاموس - مكيال يسع صاعاً ونصفاً ، أو نصف رطل إلى ثمان أواق ، أو نصف الويبة ، إلخ التقديرات التي ترجع في اختلافها إلى اختلاف الزمان والمكان . والأصل في كلمة الموكوك أنها طاش يشرب به . وأما الدرهم فعرب كما يقول الجواليقي . وقد تكلمت به العرب قديماً ، إذ لم يعرفوا غيره . قال الشاعر :

وفي كل أسواق العراق إتاوة وفي كل ما باع امرؤ مكس درهم^(٥)

وقد ذهب الأب أنستاس مازي الكرملي إلى أنه معرب عن « دراخمي » اليونانية^(٦) وقد ذكر المقر يزي أن الدرهم كان أول أمره نوعين : كبير وصغير ، وقد كان

(١) أخبار أبي نواس لابن منظور ١ : ٦ ، ط الاعتاد ، ١٩٢٤ م .

(٢) البيان والتبيين ٣ : ١١٢ ، ط مصطفى محمد ، ١٩٣٢ .

(٣) معجم الشعراء للمرزباني ص ٣٧٩ ، ط القدس ، ١٣٥٤ هـ .

(٤) الموازنة بين الفنايين ص ١١٦ .

(٥) العرب ص ١٤٨ ط دار الكتب المصرية . والشاعر هو جابر بن حنى الثعلبي ، أحد شعراء المفضليات .

(٦) النقود العربية وعلم النميات ، ص ٢٤ ، المطبعة العصرية ، ١٩٣٩ .

الكبير يسمى الدرهم البغلي ، وهو فارسي ، والصغير هو الدرهم الطبري . وقال إن الناس كانوا قبل عبد الملك يؤدون زكاة أموالهم شطرين من الكبار والصغار ، فعمد إلى إصلاح هذه الحال ، فوزن الكبير فإذا هو ثمانية دوانق ، ووزن الصغير فإذا هو أربعة ، فوحدتهما ، وجعل الدرهم ستة دوانق^(١) . وذلك الوضع الأخير للدرهم هو الذي ذكره صاحب القاموس في مادة (م ك ك) .

وأما القيراط فهو نصف الدانق ، أو هو جزء من اثني عشر جزءاً من الدرهم .
وأما الحبة فهي ربع قيراط ، أو هي جزء من ثمانية وأربعين جزءاً من الدرهم .
وقد ذكر القريري أن الدانق ثمان حبات وخمسة حبة من حبات الشعير المتوسطة التي لم تقشر ، وقد قطع من طرفها ما امتد ، ثم ذكر مرة ثانية أن زنة الحبة مائة من حب الخردل البري المعتدل .

٤٩ - الفانيد (٣١ : ٩)

الفانيد - كما في القاموس - ضرب من الحلواء معروف ، معرب بانيد . ولم يذكره الجواليقي ولا الخفاجي ، وذكره أدي شير فقال : « الفانيد معرب بانيد ، وهو نوع من الحلواء ، يصنع من السكر ودقيق الشعير والترنجبين » ؛ ثم قال عن الترنجبين إنه تعريب ترنجبين « طال حاو أكثر ما يسقط بخراسان وما وراء النهر ، ويجمع كالمز » . ويقول العلامة لسترنج في فصله عن مكران إن أهم غلاتها هو قصب السكر ونوع خاص من السكر الأبيض يعرف عند العرب بالفانيد (من الكلمة الفارسية : بانيد)^(٢) .

٥٠ - النشاستج (٣١ : ١٠)

النشاستج هو النشا ، كما قال الجوهري ، « فارسي معرب حذف شطره تخفيفاً ، كما قالوا للمنازل منا »^(٤) وقال أدي شير في تفسير هذه الكلمة : « ما يستخرج من الخنطة إذا نعتت حتى تلين ومرست حتى تخالط الماء وصفت في مناخل وجفت .

(١) النقود الإسلامية ص ٣ ، ٩ ، ١٠ ط الجوانب .

(٢) انظر - فوق هذا - البحث الذي كتبه M.H. Sauvare في المجلة الآسيوية *Journal Asiatique*

(سنة ١٨٨٤ جزء ٣) تحت عنوان : *Numismatique et Métrologie Musulmanes* .

(٣) *The Lands of the Eastern Caliphate*, P. 329. Cambridge, 1905.

(٤) شفاء النليل ص ١٩٩ .

فارسيته "نشاسته". والكردى "نشا" ولعل الكلمة آرامية الأصل .
وقد ذكر الجاحظ كلمة النشاستج في سياق الكلام عن فضل الكتب ومؤثر المتقدمين
فقال : « ولهم صب الزردج ، واستخراج النشاستج »^(١).

٥١ - المرقشيثا (٣٢ : ٩)

هو الاسم الذى كان يطلقه علماء الكيمياء في القرون الوسطى على بعض المعادن
الكبريتية التى تقدح النار . ويقابله في اليونانية كلمة (بوريطس pyrites) وهى تعنى
حجر النار .

وقد ذكر الأب أنستاس مارى الكرملى أنها « أرمية الأصل (كيماقا شيثا) أى الحجر
القاسى أو الصلب أو الصلب ثم أقحمت الراء بين الميم والقاف لتسهيل النطق بها (والراء
من حروف الذلاقة) فصارت إلى ما ترى »^(٢) .

وقد جاء ذكره في كتاب الأحجار لأرسططاليس ترجمة لوقا بن إسرافيون بما يلي :
« حجر مرقشيثا : المرقشيثا ألوان كثيرة ، منها الذهبية ، والفضية ، والنحاسية .
هذه ألوانه . فإذا كلس وحرق حتى يصير مثل الدقيق دخل في الصنعة ، وإن ألقى مع يسير
من الكبريت في البوظة خلص الذهب . وإذا حك الحديد المسقى بالمرقشيثا قدح النار »^(٣)

٥٢ - زبيدة حميد (٣٥ : ١)

صيرفى بصرى كبير ، يملك مائة ألف دينار ، ويستخدم العديد من الغلمان .
كما يؤخذ من حديث الجاحظ عنه هنا . وقد عرض له مرة أخرى في سياق الحديث عن
تفاوت الناس في التأثر بالحر فقال : « وكان عقل زبيدة بن حميد إذا شرب عشرة
أرطال ، وبين عقله إذا ابتداء الشرب مقدار صالح »^(٤).

ولعله ابن « حميد بن القاسم الصيرفى » ، وكان صيرفياً تاجر رقيق في أيام المنصور .

(١) الحيوان ١ : ٨٢ .

(٢) مجلة لغة العرب ٥ : ١٠٤ - ١٠٥ .

(٣) كتاب الأحجار لأرسططاليس ترجمة لوقا بن إسرافيون ص ١١٢ ط هيدلبرج ١٩١٢ م .

وانظر كتاب الجامع لمفردات الأدوية والأغذية لابن البيطار ٤ : ١٥٢ ط مصر ١٢٩١ هـ .

(٤) الحيوان ٢ : ٢٢٧ ، ط مصطفى البابي الحلبي .

كما يؤخذ مما ذكره الجهشيارى^(١) ، وكذلك كان زبيدة - فيما يبدو - صيرفياً تاجر رقيق . وقد جاء ذكره أيضاً في حوادث سنة ١٥٧ ، فيما يقول الطبرى : « وفيها عقد المنصور الجسر على باب الشعير ، وجرى ذلك على يد حميد بن القاسم الصيرفى »^(٢) .

٥٣ - أبو الأصبغ بن ربيعى (٣٥ : ١٠)

هكذا جاء هنا بالغين المعجبة ، وفي النصوص الأخرى التى بين أيدينا باللعين المهملة^(٣) وقد سمي بهذا وذلك .

كان من أصحاب الجاحظ الذين يروى عنهم ، وأحسب أنه من بنى ربيعى الذين يذكرهم الجاحظ في سياق يدل على أنه كان يعتاد منزلهم^(٤) . واسمه « ذؤيب » على ما جاء في أخبار أبى نواس . وهو هذلى بصرى . وقد كان - فيما يظهر من أخباره القليلة - من فتيان البصرة الظرفاء الخلاء . وفي الخبر الذى أورده ابن منظور عنه وعن أصحابه ما يدل على ذلك . ومن أصحابه صباح بن خاقان المنقرى ، ويحيى الأرقط ، وعيسى ابن غصين ، وابن الكهل مولى بنى تميم ، وعبيد العاشقين . وقد ذكره أبو نواس في قصيدة مدح بها هؤلاء فقال :

وابن ربيعى الفتى السمع الجواد الراحين^(٥)

٥٤ - الجوارشن (٣٥ : ١٣)

تجىء هذه الكلمة بالتون كما هنا ، وخالية منها ، كما ذكرها أدي شير في كتابه ، وقال إنها عند الأطباء نوع من الأدوية ، تعريب كجوارش ومعناه المضام . وهذا الذى ذكره أدي شير يوافق ما ذكره التهانوى في كشف اصطلاحات الفنون^(٦) ، كما يساير سياق الحديث في هذا الموضوع من البخلاء^(٦)

(١) الكتاب والوزراء ص ٦٨ ط الصاوى .

(٢) تاريخ الأمم والملوك ٩ : ٢٨٨ ، ط الحسينية المصرية .

(٣) البيان والتبيين ٣ : ١٩٣ ط ١٣٣٢ هـ ، الحيوان ٣ : ١٠٩ ، ٢٥٦ ، أخبار أبى نواس

لابن منظور ص ٤٩ .

(٤) الحيوان ٢ : ٢١ .

(٥) ديوان أبى نواس ص ١٥٦ ط الحميدية ١٣٢٣ هـ .

(٦) ١ : ٣٢٠ ط كلكتا . الهند .

ولكن هذه الكلمة تعرضت ، فيما بعد ، لنوع من التوسع اللغوي . فنسى فيها هذا المعنى ، ولم يلحظ فيها إلا بعض الصفات الظاهرة لما تطلق عليه . فأصبحت تطلق في القرون المتأخرة على ما عبر عنه داود الأنطاكي ، في القرن العاشر ، بقوله : « والجوارشات هنا عبارة عن الدواء الذي لم يحكم سحته ، ولم يطرح على النار ، بشرط تقطيعه رقاقاً »^(١) . وبذلك صرنا نرى هذه الكلمة تطلق على أنواع من الأدوية ، منها الهاضوم وغيره .

٥٥ - البرنكان (٣٦ : ٨)

فسره صاحب القاموس بأنه الكساء الأسود ، ونقل الجواليقي عن ابن دريد أنه الكساء مطلقاً ، وأنه بالفارسية^(٢) . وقد جاءت الكلمة في الشعر ، فيما أنشد الجاحظ^(٣) .
إني ، وإن كان إزارى خلقاً وبرنكاني سملاً قد أخلقاً ،
قد جعل الله لساني مطلقاً

وقد كتب عنه العلامة دوزي Dozy فصلاً في كتابه « معجم الملابس »^(٤) . ولكن معظم كلامه عنه كما كان مستعملاً في العصور المتأخرة ، في بلاد المغرب ، اعتماداً على كلام الرحالين ، أمثال Diego de Haedo ، وهو يصفه بأنه كساء كبير ، يلف الجسم كله ، يستعمله الرجال والنساء . وغالب الظن أن شكله العام لم يتغير كثيراً عن هذه الصورة البدوية ، إلا أن تكون الحياة المتحضرة في البصرة حورته قليلاً .

٥٦ - ليلي الناعطية (٣٧ : ١)

ذكرها الجاحظ في البيان على أنها من نساء الغالية^(٥) ، كما جاء ذكرها في قصيدة صفوان الأنصاري في الرد على بشار ، فيقول^(٦) :

أتجعل ليلي الناعطية نحلة وكل عريق في التناسخ والرد

(١) تذكرة ذوى الألباب ١ : ١٦٠ ط بولاق .

(٢) المغرب من الكلام الأعجمي ص ٥٦ ، ط دار الكتب المصرية ، ١٣٦١ هـ .

(٣) البيان والتبيين ١ : ١٤٤ ط مصطفى محمد ، ١٩٣٢ م .

(٤) *Dictionnaire détaillé des noms des vêtements chez les Arabes*, p. 68-71.

(٥) ١ : ١٩٥ ط الفتوح الأدبية ، ١٣٢٢ هـ .

(٦) البيان والتبيين ١ : ١٧ .

وأما « ناعط » التي تنسب إليها ، فهي — كما ذكر ياقوت^(١) — حصن في رأس جبل بناحية اليمن ، قديم ، كان لبعض الأذواء . وقد ورد في شعر امرئ القيس وأبي نواس . وقد ذكره الهمداني بين ما ذكر من بقايا مآثر اليمن وقصورها ، وقال إنه أفضلها ، ووصفه بأنه مصنعة بيضاء مدورة منقطة في رأس جبل تلين ، وهو أحد جبال البون ، ثم مضى في صفته وفي ذكر قصور ناعط وما جاء فيها^(٢) .

ولست أدري — على التحقيق — وجه هذه النسبة . وليس يبعد أن تكون يمنية الأصل ؛ فالتشيع غالب على اليمنية ، وقد كان الناعطيون من أصحاب علي في الكوفة ، وطائفة من طوائف جيشه بصفين .

٥٧ - جبل العمى (٣٨ : ١٦)

يقول فان فلوتن في التعليق على هذا الموضع إنه ربما كان الشخص الذي ذكره أبو نواس في شعره، على ما جاء في الديوان (ط القاهرة ، ١٨٩٨) ص ١٨٤ : « ثقيل يقال له روح العمى (الغمر) ويلقب بالجلبل . بصرى »^(٣) .
وليس يبعد هذا عندي . والديوان يثبت لأبي نواس في هجاء « الجبل » هذا ، خمس قطع . ومن بين هذه القطع ما يدل على أنه كان يتعاطى صناعة الغناء ، وأنه كان يغني لأبي نواس وصحبه في لهوم ومجالس أنسهم .

٥٨ - حكاية الكلام الملحون (٤٠ : ١ - ٤)

يقول الجاحظ هنا : « وإن وجدتم في هذا الكتاب لحناً أو كلاماً غير معرب ، ولفظاً معدولاً عن جهته ، فاعلموا أنا إنما تركنا ذلك لأن الإعراب ييغض هذا الباب ، ويخرجه من حده ، إلا أن أحكى كلاماً من كلام متعاقلي البخلاء وأشحاء العلماء ، كسهل بن هارون وأشبايهه » . وهذا مذهب للجاحظ لعله كان أول من اصطنعه واجترأ

(١) معجم البلدان ٨ : ٢٣٩ ، ط السعادة ، ١٩٠٦ م . وانظر الفصل القيم الذي كتبه أبو محمد الحسن بن أحمد الهمداني في كتابه الإكليل عن ناعط (٨ : ٤١ - ٤٦ ، ط السريان الكاثوليكية ، بغداد ، ١٩٣١ م) .

(٢) الإكليل لأبي محمد الهمداني ٨ : ٤١ - ٥٢ ط السريان الكاثوليكية ، بغداد ، ١٩٣١ .

(٣) البخلاء (ط ليدن ص IX) ، Notes et éclaircissements ،

(٤) ديوان أبي نواس ، ص ١٥٥ - ١٥٦ ط الحميدية ١٣٢٢ هـ .

عليه في كتبه ، دون أن يبالي في ذلك لأئمة المتحرجين وتنطس المتنطسين ، فقد كانت تحمله عليه نزعته الأدبية القوية التي اتخذت من حياة الشعب مادة لها ، تصور ألوانها المختلفة ، وتعبر عن اتجاهاتها ومناحيها ، والتي لم تكن تعبأ في سبيل دقة التصوير وبلاغة التعبير بتلك القيود الشكلية إذا كان فيها ما يمنع من ذلك .

وقد عبر عن هذا المذهب في غير موضع ، فيقول مثلاً : « . . . وكذلك إذا سمعت بنادرة من نوادر العوام ، وملحة من ملح الحشوة والطعام ، فاياك وأن تستعمل فيها الإعراب ، أو أن تتخير لها لفظاً حسناً ، أو تجعل لها من فيك مخرجاً سرياً ، فإن ذلك يفسد الإمتاع بها ، ويخرجها من صورتها ، ومن الذي أردت له ، ويذهب استطابهم إياها ، واستملاحهم لها »^(١) . ويقول في موضع آخر : « إن الإعراب يفسد نوادر المولدين ، كما أن اللحن يفسد كلام الأعراب . لأن سامع ذلك الكلام إنما أعجبه تلك الصورة ، وذلك المخرج ، وتلك اللغة ، وتلك العادة . فإذا أدخلت على هذا الأمر - الذي إنما أضحك بسخفه وبعض كلام العجمية التي فيه - حروف الإعراب والتحقيق والتثقيب ، وحولته إلى صورة ألفاظ الأعراب الفصحاء ، وأهل المروءة والنجابة ، انقلب المعنى مع انقلاب نظمه ، وتبدلت صورته »^(٢) . ويتحدث في موضع ثالث عن التجاوب الضروري بين اللفظ والمعنى ، وما يتصل منه بهذا الباب ، فيقول : « ولكل ضرب من الحديث ضرب من اللفظ ، ولكل نوع من المعاني نوع من الأسماء ، فالسخيف للسخيف ، والخفيف للخفيف ، والجزل للجزل ، والإفصاح في موضع الإفصاح ، والكناية في موضع الكناية ، والاسترسال في موضع الاسترسال ، وإذا كان موضع الحديث على أنه مضحك ومله ، وداخل في باب المزاح والطيب ، فاستعملت فيه الإعراب ، انقلب عن جهته . وإن كان في لفظه سخف ، وأبدلت السخافة بالجزالة صار الحديث الذي وضع على أن يسر النفوس يكرها ويأخذ بأكظامها »^(٣) .

فبالإضافة إلى ذلك كان يرى إذن أن الكلام هو الصورة النفسية المسموعة بكل ما فيها من ألفاظ معينة ، وهيئة في الأداء خاصة . فالتحريف فيها إنما هو مسخ لهذه الصورة ، وإخراجها عن أصل وضعها . ويظهر هذا في النادرة أكثر ، ولهذا كان أكثر كلامه عنها . لأن النادرة غايتها الإضحاح ، وهو يعتمد على الشكل والهيئة إلى حد كبير .

(١) البيان والتبيين ١ : ٨١ .

(٢) الحيوان ١ : ٢٨٢ .

(٣) الحيوان ٣ : ٣٩ .

وقد تبع ابن قتيبة الجاحظ في هذا المذهب فقال في مقدمة عيون الأخبار : « وكذلك اللحن إن مر بك في حديث من النوادر ، فلا يذهبن عليك أنا تعمدها وأردنا منك أن تتعمده ، لأن الإعراب ربما سلب بعض الحديث حسنه ، وشاطر النادرة حلاوتها » .
 وشتان ما بين الجاحظ وابن قتيبة في التقرير والتعليل .

٥٩ - أحمد بن خلف (٤١ : ١)

هو - كما يبدو من سياق الكلام في هذا الفصل - أحد أصدقاء الجاحظ . وإذا كانت هذه الصداقة لم تجعله يتحرج في وصفه بما وصفه به ، بعد أن عينه وسماه ، فلعله كان هو الذى يعنيه ، في مقدمة هذا الكتاب : البخلاء ، بقوله : « ولربما سمينا الصاحب إذا كان ممن يمازح بهذا كثيراً ، ورأيناه ينتظر به . ويجعل ذلك الظرف سلباً إلى منع شينه » .

وقد ورد هذا الاسم في رسالة الترييع والتدوير ، إذ يقول الجاحظ ، مخاطباً أحمد ابن عبد الوهاب : « والله لئن رميتني ببجيلة ، لأرمينك بكنانة ، ولئن نهضت بصالح بن على ، لأنهمضن بأحمد بن خلف وبإسماعيل بن على »^(١) ، فأكبر الظن أنه هو المعنى هنا .

٦٠ - المثلثة (٤١ : ٣)

ليس في قواميس اللغة تفسير لمعنى هذه الكلمة يتفق مع السياق الذى جاءت فيه هنا . وهذا السياق يدل على أنها كانت تطلق على نوع من الحساء ، والحساء - كما يعرف به صاحب اللسان - طبيخ يتخذ من دقيق وماء ودهن ، وقد يحلى ، ويكون رقيقاً يحسى . ويقول الأستاذ داود الحلبي في التعليق على هذا الموضوع من مقالاته : « تصحيح أغلاط كتاب البخلاء » إن كلمة « المثلثة » تطلق الآن في العراق على الحنطة بعد أن تدق ثلثي الدق الكامل بدون أن تسلق . وقد أورد بعض الأطعمة التى تتخذ منها كالكشكا ووصف طرائق صنعها^(٢) . ولكن ما هنا شيء آخر ، فلعل المراد حساء هذه المثلثة .

(١) مجموعة رسائل للجاحظ ص ١٢٦ ط التقدم .

(٢) مجلة المجمع العلمى العربى الجزء الثالث والرابع من المجلد العشرين (آذارونيسان ١٩٤٥)

٦١ - الجرار المذارية (٤٥ : ١)

نوع من الجرار وصفه هنا بأنه يرشح الماء ، وجاء في قطعة من شعر البحترى ما يدل على أن الجرار المذارية هي من الجرار الخضر ، وذلك حيث يقول في رجل يكنيه بأبي الحسن ، يعيره بها وبولايته على المذار :

ليس المذار يجالب لك سؤددا غير الجرار الخضر والكيزان
ولئن وليت فبالمصانعة التي قدمتها ، وشفيحك العريان^(١)

وأما المذار التي تنسب إليها هذه الجرار فهي - كما يقول ياقوت - قصبه ميسان ، بين واسط والبصرة ، وبينها وبين البصرة أربعة أيام . وكانت معروفة بجزارها^(٢) .

٦٢ - حديث خالد بن يزيد (٤٦ : ١)

خالد بن يزيد هذا هو أحد المكدين الذين مارسوا التكدية حياتهم ، ثم نزل البصرة ، فأجرى الجاحظ هذا الحديث على لسانه ، ليرسم به صورة عجيبة من حياة هذه الطائفة . وليست التكدية عندهم مجرد السؤال والاستجداء ، كما قد تفيده هذه الكلمة بمعناها اللغوي الساذج^(٣) ، فقد أخذت معنى اصطلاحياً معقداً متعدد الوجوه ، كثير الدلالة . فأصبحت تتضمن معنى الاحتيال للمال بمختلف الوسائل والأساليب غير المشروعة ، من استخدام القوة والاستلاب بالعنف والغلبة ، إلى استغلال غفلة الجماهير وغرائز الرحمة والرفقة .

وقد وجد الجاحظ في هذا النوع في الحياة العجيبة موضوعاً أدبياً طريفاً ، يثير دهشة القارئ ، فأجلس هذا الرجل ، خالد بن يزيد ، في أحد مجالس البصرة ، وأمر عليه سائلاً يسأله ، فغلط بدرهم أعطاه له ، ثم فطن فاسترده ، وأعطاه فلساً بدله . فأنكر جلساؤه عليه ذلك .

وهنا أوجد الجاحظ المناسبة التي جعلته يتكلم عن نفسه ، وساق المقدمة التي تمهد

(١) ديوان البحترى ٢ : ٣١٦ ، ط هندية ، القاهرة ١٩١١ م .

(٢) معجم البلدان ٧ : ٤٣٣ ط السعادة ، القاهرة ١٩٠٦ م .

(٣) انظر شفاء الغليل للخفاجي ص ١٨٠ - ١٨١ .

لوصف حياة هذه الجماعة ، فجعل الرجل يتكلم ويقول : إن هذا السائل من مساكين الفلوس لا مساكين الدراهم ، وأنه يعرفه حق المعرفة بالفراسة ، وكيف لا يعرفه وقد كان وكان . . . وهكذا يأخذ في الحديث عن نفسه وعن صور حياته ، وما كان له من الزعامة في طائفته .

فإذا انتهى الجاحظ من التعريف به هذا التعريف الأولى ، انتقل بالحديث ناحية أخرى ، فأورد وصيته لابنه ، يوصيه فيها بحفظ المال والقيام عليه ، ويقص عليه ما قاساه في جمعه من السفر الطويل ، ومعاناة المحن ، وملابسة الخدع ، وتعاطى أنواع الثقافة المختلفة ، والبطش ساعة البطش ، والحيلة ساعة الحيلة ، والصبر على ضروب التنكيل والتعذيب ، من الجلد والحبس والقيود . ويذكر له مشاركته للعصابات المختلفة من الثوار وقطاع الطرق ، ويمضى في هذا الحديث الذى يصور حياة هذه الطائفة تصويراً دقيقاً جميلاً ، كما يصور من ناحية أخرى صورة من الفساد الاجتماعى الذى أصاب كل شيء ، حتى أصاب ذم الوكلاء وضمانر القضاة .

فإذا فرغ من إيراد هذه الوصية أخذ في منحى آخر يزيد الصورة تفصيلاً وتجلية ، فأخذ يفسر ما جاء في هذا الحديث من كلمات اصطلاحية أطلقت على بعض أنواع الاحتيال التى تجيدها هذه الطائفة .

ويجدر بنا أن ننبه هنا إلى أن الجاحظ لم يقتصر على هذا الحديث فى تصوير هذه الطائفة ، بل قد تناوله فى موضع آخر ، فى فصل نقله عنه البيهقى^(١) . يذكر فيه محاسن التكديفة ، وقد ساقه على لسان أحد المكدين ، كما أورد فصلاً آخر عدد فيه أصناف المكدين ، مشتملاً على بعض ما جاء فى البخلاء^(٢) .

ويتبين من حديث الجاحظ هذا أنه يتحدث عن طائفة متحدة فى روحها ، وفى نزعتها ، وفى أساليب حياتها ، وفى أنها رحالة دائمة الرحلة والمهاجرة ، حتى ما يكاد القارئ يملك نفسه من تذكر تلك الطائفة التى يسميها البعض « النور » ، كما تسمى بالعجر والبوهيميين والجليتان^(٣) ، وغير ذلك من الأسماء التى تختلف باختلاف منازلهم التى ينزلونها . وكذلك نجد هذه الطائفة التى عقد لها الجاحظ هذا الحديث ، وسميها بالمكدين ، تختلف أسماءها . فتسمى هنا بالزط ، وهناك بالزواقيل ، إلى غير ذلك من

(١) المحسن والمساوى ص ٦٢٢ - ٦٢٤ .

(٢) المحسن والمساوى ص ٦٢٤ - ٦٢٧ .

(٣) gitane أو gitano تطلق فى الإسبانية على البوهيميين ، ويلاحظ كأن هناك صلة بين هذه

الكلمة وبين كلمة زط التى هى كلمة جت الهندية .

الأسماء ، كما أطلق عليها بعد ذلك اسم الساسانيين أو بنى ساسان .
 فإذا افترضنا أن هذه الفرقة هي طائفة من النور المنتشرين في أنحاء الأرض ، وجدنا
 هذا الفرض قريباً ، ووجدنا الأدلة والقرائن متظاهرة على تأييده . فأول ما يعرف به
 النور هو الرحلة الدائمة ، والسعى المستمر في مناكب الأرض ، وهؤلاء كذلك كما يؤخذ
 من كلام الجاحظ هنا ، وفيما نقله البيهقي ، ومن صفات الساسانيين في الآثار الأدبية
 الأخرى ، وسنشير إليها بعد . كما أن وسائلهم في الحياة هي وسائل النور من المخادعة ،
 والحيلة في اجتلاب المال واستلابه ، غير متحرجين .

ويصفهم الجاحظ بأنهم عرفوا « خدع الكاهن ، وتدسيس العراف ، وإلى ما يذهب
 الحطاط والعياف ، وما يقول أصحاب الأكتاف ، وعرفوا التنجيم والزجر والطرق والفكر »
 وكذلك نعرف عن النور أن هذا أمر شائع بينهم ، وأن هذه الثقافة الخاصة بالغيبيات
 من التنجيم والزجر وما إليه من أخص ثقافتهم .

وبعد هذا كله لا يكاد الجاحظ يذكر شيئاً عن هؤلاء المكدين ثم لا نجد فيما
 نعرف من أخلاق الغجر أو البوهيميين ومذاهبهم في الحياة ، مع مراعاة اختلاف الزمان
 والمكان ، وما توحى به الظروف المختلفة والملابسات المتفاوتة .

على أن هناك شاهداً آخر يؤيد هذا الفرض الذي نفترضه ، وهو يرجع إلى الموطن
 الأصلي للنور ، فقد ذهب كثير من الباحثين إلى أنهم أخلاط من القبائل الآرية المنتشرة
 بين الهند وإيران ، وقد لاحظ بلاس Pallas — كما ذكر الأب أنستاس ماري الكرملي
 فيما كتب عن النور^(١) — أن اللغة التي يتكلمها النور تضاهي كل المضاهاة لغة هنود
 المولتان ، وقد اتفق له أن يتصل بجماعة منهم في استراخان ، ويتعرف إليهم . ونحن من
 جانبنا نرجح إلى حد كبير أن هذا الأصل هو أصل طائفة المكدين التي ذكرها الجاحظ .
 فقد ذكر منهم الزط ، وهي — كما نعرف — تحريف كلمة « جت » اسم لاحدى
 القبائل النازلة على حدود الهند ، كما ذكر منهم القفص ، وهم من جبال كرمان ،
 كما ذكر البشاري^(٢) . وكثير من البلاد التي ذكرت في سياق حديث الجاحظ على أنها
 من مجالتهم من هذه المنطقة التي قالوا إنها موطن النور ، كالمولتان التي أشار إليها بلاس ،
 وقيقان ، وهي على حدود الهند ، وقطر ، وهي بين شيراز وكرمان .

وعبارة أخرى جاءت في حديث خالد بن يزيد تشير إلى هذا الأصل الهندي . وهي

(١) مجلة المشرق ، سنة ١٩٠٢ ص ٩٦٩ .

(٢) أحسن التقاسيم ص ٤٧٠ - ٤٧١ ط بريل ، ١٩٠٦ م .

قوله : « ولو كنت عندى مأموناً على نفسك لأجريت الأرواح فى الأجساد وأنت تبصر ... »
فهذه عبارة أشبه بالعقلية الهندية المتعلقة بأسرار الحياة ، وغوامض الأرواح ، ومساطر
الوجود .

نتقل بعد هذا إلى دليل آخر أقطع فى الدلالة على الصلة بين هؤلاء المكدين ، وبين
طائفة النور ، وهو دليل يقدمه إلينا الأصل المخطوط الذى اعتمدنا عليه فى هذه النشرة ،
فى هذه العبارة : « قالوا : وإنك لتعرف المكدين ؟ قال : وكيف لا أعرفهم وأنا كنت
كاجار فى حدائثه سنى ؟ » ؛ والدليل هو فى كلمة « كاجار » التى جاءت هكذا فى الأصل
فجعلها « فان فلوتن » فى نشرته « كاخان » على غير هدى . وما كلمة « كاجار »
هنا إلا صورة من كلمة « عجر » التى تطلق الآن على النور كاسم من أسماءهم الكثيرة ،
كما ذكر ذلك عرضاً الأب أنستاس مارى الكرملى فى بحثه الذى تقدمت الإشارة إليه ،
وكما نعرض لذلك فى هذه التعليقات بعد قليل .

وإذن فنحن بهذه الشواهد المتعددة نستطيع أن نصحح هذا الفرض الذى افترضناه
عن طائفة المكدين ، ونستطيع أن ندرسها على هذا الأساس درساً يمكن أن يكشف لنا
عن كثير منها .

وقد ذكر ياقوت فى معجمة خالد بن يزيد هذا ، كأنه شخصية تاريخية ، وترجم
له ترجمة أخذها عن هذا الفصل الذى كتبه الجاحظ فى البخلاء ، ولم يزد شيئاً ،
ولم يغير فى العبارة تغييراً كبيراً . ثم قال : « ومن لطائفه وصيته لابنه عند موته ، وفيها
لطائف وغرائب » . ثم أورد طرفاً من هذه الوصية ، كما جاءت فى البخلاء ، وقال إنها
مجتمعة فى كراسة^(١) .

وعندى أن هذا من صنيع الوراقين ، تحايلاً على الكسب . فاقتطعوا هذا الحديث من
كتاب البخلاء ، ونسخوه على حدة فى كراسة لطيفة الحجم ، ليكون أرواح لها . وقد
رأها ياقوت ، فاعتبرها بهذا الاعتبار ، ولم يعرف أنها قطعة من آثار الجاحظ الأدبية
التى مثل فيها هذه الناحية الغريبة من الحياة تمثيلاً دقيقاً ، فافتتن بها الناس . واستغل
الوارقون ذلك ، فأخذوا فى انتساخها وتقديمها على أنها من حديث شيخ المكدين نفسه ،
زعماً منهم أن ذلك يكون أروع لها ، وأشد فى افتتان الجمهور بها ، وإقباله عليها .

على أنه يظهر أن تعقد الحياة فى القرن الرابع ، وشيوع المذاهب المختلفة فيه ، والغفلة
التى أطبقت على العامة من ناحية الدين فى ذلك العهد ، كما يصورها كتاب ككتاب

(١) معجم الأدباء ١ : ٤٢ - ٤٧ .

نشوار المحاضرة للتوخى ، قد مكن لهذه الطائفة أن يمتد نفوذها ، ويقوى سلطانها ، وتوسع ميادينها . وقد سميت فى ذلك العهد اسما اصطلاحياً جديداً ، هو « الساسانيون » . وقد ظهر ذلك فى الآثار الأدبية فى القرن الرابع وما بعده ظهوراً بيتاً ، وحسبنا ما نراه فى مقامات بديع الزمان والحريرى .

وقد كتبت مؤلفات أخرى تناولت هذه الناحية . بل لقد أصبحت حيل الساسانيين من موضوعات العلم ، وقد كتب حاجى خليفة فصلاً تحت عنوان : « علم الحيل الساسانية » قال فيه :

« ذكره أبو الخير من فروع علم السحر ، وقال : علم يعرف به طريق الاحتيال فى جلب المنافع ، وتحصيل الأموال . والذي يباشره يتزيا فى كل بلدة بزى يناسب تلك البلدة . بأن يعتقد أهلها فى أصحاب ذلك الزى . فتارة يختارون زى الفقهاء وتارة يختارون زى الوعاظ ، إلى غير ذلك . ثم إنهم يختالون فى خداع العوام بأمور تعجز العقول عن ضبطها » (١) .

ثم ذكر بعد ذلك حيلة من حيلهم فى هذا . وهناك غير هذه الآثار الثرية آثار شعرية . وقد ذكر بعضها الثعالبي ، منها القصيدة الساسانية لأبى دلف الخزاعى (٢) ، وقد جاء فى هذه القصيدة كثير من الكلمات الاصطلاحية التى ذكرها الجاحظ .

وقد نهج على هذا النمط بعض الشعراء المتأخرين الذين جعلوا المعارضة باباً من أبواب الفن كصنى الدين الحلى ، فإن له أيضاً قصيدة سماها « القصيدة الساسانية » . وهى محفوظة فى دار الكتب المصرية (٣) .

٦٣ - كاجار (٤٦ : ٨)

هكذا اقترحنا هذه الكلمة تصحيحاً لكلمة « كاجار » التى جاءت فى المخطوطة ، وافترض فان فلوتن فى نشرته أنها محرفة عن كلمة « كاخان » التى وضعها موضعها ، وقد طرد هذا الفرض ، فحول كلمة « كاغان » فى ص ٥٢ س ١٩ فجعلها « كاخان » ،

(١) كشف الظنون ١ : ٤٥٥ - ٤٥٦ ، ط إستانبول ١٣١١ هـ .

(٢) اليتيمة ٣ : ٣٢٣ ، ط الصاوى .

(٣) ٣٢٨٧ أدب ، ٦٦٨ مجاميع .

إذ لم يستقيم له أن تكون محرفة عن «كاغانى» القريبة منها ، لما ساق الجاحظ في تفسيرها ، مما يخالف تفسير كلمة «كاغان»^(١).

وأساس هذا الفرض هو مجرد الاستحسان الصادر عن شكل الحروف ، وبالجمع بين الكلمتين : «كاچار» و «كاغان» في صورة واحدة . وإن كنا لا نجد معنى لكلمة «كاخان» التي افترضها ، يدل على هذا الفرض أو يرجحه . والمعنى الذى ذكره الجاحظ لكلمة «كاغان» التي جعلت «كاخان» غير متعين .

فأما الصورة التي اقترحناها فهي أقرب صورة ممكنة من الصورة الخطية ، إذ ليس بين الصورتين إلا الإعجام الذى كثيراً ما يغفله النساخ . وهذا إلى أن كلمة «كاجار» هي الكلمة التي تلائم موضعها في سياق الكلام كل الملازمة . فهي كلمة كانت تطلق على بعض القبائل التركية الرحالة الضاربة في الأرض ، من المصدر التركى «قاجمق» بمعنى الحرب ، وقد دخلت هذه الكلمة في اللغة الفارسية ، وصنع منها المصدر الفارسي «قچانیدن» . وقد سبق أن قلنا إن كلمة «عجر» ليست إلا صورة منها .

٦٤ - المستعرض (٤٦ : ١١)

كلمة من الكلمات الاصطلاحية لطائفة المكيدين . وهذه الكلمات لا تنسب إلى لغة واحدة أو لهجة معينة ، بطبيعة الحياة المتنقلة التي تحياها هذه الطائفة . والذى يبلو من وضع هذه الكلمة وبنائها أنها عربية بل هي عربية بدوية ، ففيها نعرف من استعمالاتها ، نجد أنها مستعملة عند طائفتين : الخوارج واللصوص ، وكلتا الطائفتين خرجت من البادية . فن استعمالها عند الخوارج ما جاء في ذكر قطرى بن الفجاءة ، أحد خطباء الأزارقة وفرسانهم ورؤسائهم أنه «كان يدين بالاستعراض والسباء وقتل الأطفال»^(٢) وكذلك أورد المبرد مثل هذا في حكاية مذهب نافع بن الأزرق «في البراءة والاستعراض واستحلال الأمانة وقتل الأطفال» ، وفي قول أبي بيهس : «الدار دار كفر ، والاستعراض فيها جائز . وإن أصيب من الأطفال فلا حرج»^(٣) . وقد عرض أبو على القالى لتأويل هذه الكلمة بقوله : «ويقال خرجوا يضربون الناس عن عرض ، يريدون عن شق وناحية .

(١) البخلاء ص ٥٢ .

(٢) البيان والتبيين ٣ : ١٣٤ .

(٣) الكامل للمبرد ٣ ، ١٧٣ .

لا يبألون من ضربوا ، ومنه استعراض الخوارج الناس ، إذا لم يبألوا من قتلوا» (١) .
 فذلك هو الاستعراض في لغة الخوارج ، وأما في لغة اللصوص فيختلف قليلا عن
 هذا ، كما نرى في قصة السمهرى ، أنه خرج مع بعض أصحابه من اللصوص ،
 فلقوا عون بن جعدة بين نخل والمدينة ، فقالوا له : العراضة . أى : مر لنا بشيء . فقال :
 يا غلام ! جفن لهم ؛ فقالوا : لا والله ! ما الطعام نريد . فقال : عرضهم (٢) .
 فعمل هذا هو الأصل القريب في كلمة « المستعرض » أى « طالب العراضة » ،
 ولا سيما إذ كانت من لغة اللصوص . ومن هذه السبيل دخلت في لغة المكدين ، وليس
 يمنع من هذا أن يتغير مدلول الكلمة شيئا ما . لأن هذا هو شأن الكلمات . وقد قال
 الجاحظ في تفسير المستعرض إنه « الذى يعارضك وهو ذو هيئة ، وفي ثياب صالحة ،
 وكأنه قد هاب من الحياء ، ويخاف أن يراه معرفة . ثم يعترضك اعتراضاً ، ويكلمك
 خفياً » (٣) .

وقد ذكر المستعرض في قصيدة أبى دلف . في قوله :

ومن يكحل من مستعرض دمعته تجرى

وقال الثعالبي في تفسيره : « ومن يكحل : هو الذى معه قطنة مغموسة في الزيت
 يمرها على عينيه لتدمع ، ويأخذ في شكاية حاله ، واستعراض الناس في مسألته وذكر
 قصته . وأنه قطع عليه الطريق . أو غضب على ماله . والمستعرضون أمهر القوم » .
 فإذا صح الأصل الذى رأيناه لكلمة المستعرض ، فإنه يكون قد غاب عن الجاحظ
 والثعالبي ، فذكروا هذا الاشتقاق ، والتكلف ظاهر عليه (٤) .

٦٥ - الكاغاني (٤٦ : ١٢)

ذكره الجاحظ في الحيوان بقوله : « والكاغاني ، وهو الذى يتجنن ويتفالج فالج
 الرعدة والارتعاش ، فإنه يحكى من صرع الشيطان ، ومن الإزديباد والنفضة ، ما ليس عندهما ،

(١) الأماي ١ : ١١٩ .

(٢) الأغانى ٢١ : ٧٥ .

(٣) البخلاء ص ٥٣ .

(٤) وما يستطرف هنا مما لا بأس بذكره ما ذهب إليه الأستاذان الناشران لبيحلاء بوزارة شعرف ،
 حين أخطأ القراءة ، فذهب في تأويل المستعرض مذهباً جديداً ، « وهو الذى ينظر إلى أافية الناس » ، وبفك
 جعل استعراض الأافية نوعاً من الفياقة يلجأ إليه هذا الرجل ليتعرف حال الناس .

وربما جمعهما في نقاب واحد ، فأراك الله تعالى مجنوناً مفلوجاً يجمع الحركتين جميعاً ، بما لا يجيء من طباع المحبون والإنسان العاقل «^(١)» وتفسيره له في البخلاء قريب من هذا . وكذلك جاء ذكره في القصيدة الساسانية مخففاً «الكاغ» ، وقد فسره الثعالبي بالمتجانن^(٢) .

٦٦ - الأسطيل (٤٦ : ١٣)

فسر الجاحظ الأسطيل بالمتعاض ، وقد وردت هذه الكلمة في بعض ما ذكره ياقوت في ترجمة أبي العلاء المعري ، مع بيان أنها تدل على الأعمى في لغة أهل الشام ، إذ يقول : «ونقلت من بعض الكتب أن ابا العلاء لما ورد إلى بغداد قصد أبا الحسن علي بن عيسى الربيعي ليقرأ عليه ، فلما دخل إليه قال علي بن عيسى : ليصعد الأسطيل (وقد جاءت مصحفة : الاضطيل) ، فخرج مغضباً ولم يعد إليه . والأسطيل في لغة أهل الشام الأعمى ، ولعلها معربة»^(٣) .

٦٧ - الزكوري (٤٦ : ١٣)

فسر الجاحظ هذه الكلمة بأن المراد بها خبز الصدقة^(٤) وقد جاءت في القصيدة الساسانية لأبي دلف الخزرجي على هذا الوجه :

ومن زكر ، والقوم الـ زكوريون في الصدر

ثم قال الثعالبي في شرح هذا البيت : «زكر : كدى على الأبواب ، وهو من أجلائهم»^(٥) والأصل في هذا كله هو كلمة «زكور» الفارسية ، وهي تعني معينين : الشحيح واللص^(٦) .

(١) ٦ : ١٥٨ - ١٥٩ ط التقدّم ، القاهرة .

(٢) يتيمة الدهر ٣ : ٣٢٥ ط الصاوي .

(٣) معجم الأدباء ٣ : ١٢٣ ط دار المأمون .

(٤) انظر صفحة ٤٦ في هذه النشرة لكتاب البخلاء .

(٥) يتيمة الدهر ٣ : ٣٣٢ ط الصاوي ١٩٣٤ م .

(٦) انظر مثلاً معجم استنجاس Steingass, Persian-English Dictionary

٦٨ - إسحاق (٣٩ : ١٥)

أحد زعماء المكديين ، ولعله محرف عن سحاق^(١) أو سملق^(٢) على فرض أنه هو الذى كان قائماً بأمر الرط الذين غلبوا على طريق البصرة ، وعاثوا فيها .

٦٩ - عبيد بن شرية الجرهيمى (٤٠ : ١٠)

ذكره الجاحظ فى الرواة والنسابين والعلماء من أهل الجاهلية^(٣) ، ثم ذكره مرة أخرى من القدماء فى الحكمة والخطابة والرياسة^(٤) ، وقد ترجم له ابن النديم ، وذكر أنه أدرك النبى ولم يسمع منه ، وأنه وفد على معاوية « فسأله عن الأخبار المتقدمة ، وملوك العرب والعجم ، وسبب تبلبل الألسنة ، وأمر افتراق الناس فى البلاد ، وكان استحضره من صنعاء اليمن ، فأجابه إلى ما أمر ، فأمر معاوية أن يدون وينسب إلى عبيد بن شرية^(٥) وحكى ياقوت قولاً ينكر وفوده عليه ، ويذكر أنه إنما لقيه بالخير ، لما توجه معاوية إلى العراق^(٦) ، ثم يورد حديثاً طويلاً جرى بينه وبينه ، يسأله فيه معاوية فيجيبه ، وفى آخر هذا الحديث قصة فيها أبيات من الشعر نجدتها فى عيون الأخبار كذلك^(٧) . ويبدو على هذا الحديث وتلك القصة أمارات الصنعة ، وسمات الوضع . ويظهر أن شخصية عبيد بن شرية هذا قد تعرضت لكثير من مهارة أخيلة الرواة وصناع الأحاديث ، سواء فى ذلك ما يلصق به من الأخبار ، وما يسند إليه من الآثار .

٧٠ - تميم الدارى (٤٧ : ١٢)

هو تميم بن أوس بن خارجة ، من بنى عبد الدار ، بطن من بطون لحم . وكان مقامه

(١) كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر لابن خلدون ٣ : ٢٥٧ ، ط بولاق .

(٢) تاريخ الأمم والملوك للطبرى ١٠ : ٣٠٦ حوادث سنة ٢١٩ .

(٣) البيان والتبيين ١ : ٢٨١ ط ١٩٣٢ م ، وانظر الحيوان ٣ : ٢١٠ .

(٤) البيان والتبيين ١ : ٢٨٢ .

(٥) الفهرست ص ١٣٢ ط الرحمانية ، القاهرة .

(٦) معجم الأدباء ١٢ : ٧٢ - ٧٨ .

(٧) عيون الأخبار ٢ : ٣٠٥ .

مع قبيلته في الشام ، في ناحية فلسطين ، ثم وفد على النبي ، صلى الله عليه وسلم ، بعد منصرفه من غزوة تبوك ، سنة ٩ ، وأسلم وسكن المدينة ، وقد ظل بها مدة خلافة أبي بكر وعمر وعثمان ، وبعد مقتل عثمان عاد إلى وطنه ، ولم يلبث أن مات في آخر خلافة علي ، سنة ٤٠ ، وقد بقيت أسرته هنالك ، باسم « الدارين » مدة طويلة . وقد رأى بقية هذه الأسرة هناك ابن فضل الله العمري ، كما ذكر في كتابه^(١).

وتتصل بتميم الداري قصة من القصص الشعبية تنسب إليه ، وقد شاعت هذه القصة شيوفاً كبيراً . وزمن هذه الأسطورة هو خلافة عمر بن الخطاب ، وأما مكانها فالعالم المجهولة التي حمله إليها أحد الجن فطوف به ما طوف ، وأراه الدجال والجناس في أثناء هذه الرحلة ، إلى أن عاد إلى المدينة ، وكانت امرأته أنكرت غيبته ، وظنت موته ، فاستبدلت به . وهنا تبرز شخصية علي بن أبي طالب ، فيحل هذه العقدة .

ويظهر أن هذه الأسطورة ليست إلا تطوراً لأسطورة أخرى ، جاءت في صورة حديث ، يسند إلى فاطمة بنت قيس ، أخت الضحاك بن قيس ، وفيه أن تميماً « ركب البحر في سفينة بحرية مع ثلاثين رجلاً من لحم وجذام ، فلعب بهم الموج شهراً ، ثم أرفوا إلى جزيرة في البحر ، فلما دخلوها رأوا الجناس في صورة دابة أهدب كثير الشعر ، لا يدرون ما قبله من دبره من كثرة الشعر . ثم دلتهم على الدجال ، فأروه وحديثه » ، إلى آخر هذه القصة التي تذكر في كتب الحديث^(٢).

وهكذا اتخذ القصص من تميم الداري شخصية يديرون حولها ما ينسجونه من أساطير .

٧١ - دعيميص (٤٧ : ١٢)

ذكره الميداني في شرح المثل : « أدل من دعيميص الرمل » فقال : « هو اسم رجل كان دليلاً خريفاً داهياً يضرب به المثل ، فيقال : هو دعيميص هذا الأمر ، أي عالم به »^(٣).

(١) مسالك الأبصار ١ : ١٧٢ ، وانظر : مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة للدكتور محمد حميد الله الحيدر آبادي ، ص ٤٣ - ٤٧ ، ط لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٤١ م . وانظر أيضاً : رسالة تق الدين المقرئ المسماة (ضوء الساري لمعرفة خبر تميم الداري) ، وهي منشورة في : *The Journal of the Palestine Oriental Society*, vol XIX, No. 3-4 (1941)

(٢) صحيح مسلم بشرح الإمام النووي ٥ : ٤٢٠ - ٤٢٢ ط الكستلية ١٢٨٣ .

(٣) مجمع الأشغال ١ : ٢٨٤ . ط ١٣٥٢ هـ .

٧٢ - رافع المخش (٤٧ : ١٣)

هو رافع بن عمير الطائي ، وكان دليلاً خريماً في زمان عمر بن الخطاب ، ومن أشهر ما يعرف به أنه دل خالد بن الوليد حين خرج إلى الشام والياً عليها مكان أبي عبيدة بن الجراح ، ففوز به بين قراقر وسوى . ولعل هذا الحادث كان من أكبر ما خلد ذكر هذا الرجل ، وقد قال فيه راجز المسلمين كما يقول ابن قتيبة^(١) :

لله در رافع ! أنى اهتدى فوز من قراقر إلى سوى
أرضاً إذا سار بها الجيش بكى ما سارها قبلك من إنس أرى

٧٣ - الغول والسعلاة (٤٧ : ١٣)

نكتفي هنا بإحالة القارئ إلى بعض المراجع التي يمكنه بالرجوع إليها تحقيق مدركات العرب والمسلمين عن هذه الكائنات . ومراجع هذه المسائل كثيرة ، ولكننا نكتفي بالتقريب منها .

يمكن أن يراجع عن الغول ما كتب المسعودي في مروج الذهب^(٢) ، وعن السعلاة ما كتب الجاحظ في الحيوان^(٣) ، وعن الخاتف ما كتبه المسعودي أيضاً في الباب الخمسين من كتابه ذلك^(٤) ، تحت عنوان : « ذكر قول العرب في الخواتف والجان » ، وكذلك يمكن أن يراجع عن الجن والجن ، وعن الشق والنساس ، ما كتبه الجاحظ في الحيوان^(٥) وما جاء أيضاً في مروج الذهب^(٦) . وأما الكهانة والعرافة ففي الباب الثاني والخمسين من المروج قدر كاف^(٧) .

ومن المراجع التي لا بد من مراجعتها في مثل هذه المعارف شرح الجاحظ لقصيدته

(١) عيون الأخبار ١ : ١٤٢ - ١٤٣ .

(٢) ٣ : ٣١٤ ط أوروبا .

(٣) ١ : ١٨٥ - ١٨٧ ط مصطفى الباني الحلبي .

(٤) ٣ : ٢٢٣ .

(٥) ١ : ٢٩١ - ٢٩٢ ، ١٨٩ .

(٦) ٣ : ٣٢٤ - ٣٢٥ .

(٧) ٣ : ٣٤٧ .

الحكم بن عمرو البهراني ، ثم ما استطرد إليه بعد ذلك^(١).

٧٤ - أصحاب الأكتاف (٤٧ : ١٦)

طائفة من أهل الفراسة ، يصطنعون في ذلك النظر في الأكتاف ، كما يصطنع غيرهم النظر في أسرار الكف وهي خطوطها ، إلى غير ذلك . وقد أشار الجاحظ في غير موضع إلى هذا الفن من فنون الفراسة ، كقوله في رسالة التبريع والتدوير : « وما تقول في أسرار الكف ؟ وما تقول في النظر في الأكتاف ؟ »^(٢) ، وكقوله في الحيوان ، وقد ذكر طائفة أخرى من فنون الفراسة : « . . . وياب آخر يدعونه للفأر ، وهو الذي ينظر فيه أصحاب الفراسة ، في قرص الفأر ، كما ينظر بعضهم في الخيلان ، وفي الأكتاف ، وفي أسرار الكف »^(٣) وقد جاء مثل هذا في موضع آخر منه ، إذ يقول : « وليس الباب الذي يدعيه هؤلاء من جنس العيافة والزجر والخطوط ، والنظر في أسرار الكف ، وفي مواضع قرص الفأر ، وفي الخيلان في الجسد ، وفي النظر في الأكتاف ، والقضاء بالنجوم »^(٤) وكذلك أشار المسعودي إلى هذا الفن في سياق كلامه عن معارف العرب في القيافة والزجر والعيافة ، إذ يقول : « . . . فيكون الزجر والفأل شاملا لبعض العرب وغيرها من خواص الأمم ، كوجود النقط للبربر ، وكالنظر في الكتف وغير ذلك ، مما خص به كل جنس من الناس »^(٥) ويؤخذ من هذا أن النظر في الأكتاف ليس من المعارف العربية ، وإذا كان لم ينص على نسبه ، فقد ذكر محمد بن أبي طالب المعروف بشيخ الربوة ، من علماء القرن السابع والثامن ، أنه من المعارف الخاصة بالترك .

وقد تحدث شيخ الربوة عن هذا الفن بما يزيل شيئا من الغموض حوله ، فأشار إليه في مقدمة كتابه عن الفراسة بقوله : « ومنها النظر في أكتاف الضأن . والمعرفة به قد توجد إذا قوبلت بشعاع الشمس خطوط مخصوصة وأشكال مخصوصة يستدل بها المتفرسون على أحوال كثيرة من أحوال العالم . وهي الحروب الواقعة بين الملوك ، وأحوال الخصب والجذب .

(١) الحيوان ٦ : ٢٤ - ٩١ ط التقدم ، القاهرة . (٦ : ٨٠ - ٢٨٢ ط الحلبي)

(٢) مجموعة رسائل للجاحظ ص ١٠٥ ط التقدم ، القاهرة .

(٣) الحيوان ٥ : ٣٠٣ ، ط الحلبي .

(٤) الحيوان ٦ : ٦٣ ، ط الحلبي .

(٥) مروج الذهب ٣ : ٣٣٦ ، ط باريس .

وقل أن يستدلوا به على الأحوال الجزئية للإنسان المعين»^(١).

٧٥ - «وعرفت التنجيم والزجر والطرق والفكر» (٤٧ : ١٦)

وردت كلمة «الفكر» في مثل هذا السياق ، في موضع آخر من كلام الجاحظ ، إذ يقول بعد إيراده طرفاً مما يتعلق بكهان العرب وعرفاهم : «وليس الباب الذي يدعيه هؤلاء من جنس العيافة والزجر والخطوط والنظر في أسرار الكف ، وفي مواضع قرص الفأر ، وفي الخيلان في الجسد ، وفي النظر في الأكتاف ، والقضاء بالنجوم ، والعلاج بالفكر»^(٢) ولعل المقارنة بين كلمة «الفكر» هنا وهنا مما عسى أن يشير - بعض الشيء - إلى المراد بها.

٧٦ - الرأس والأكسير (٤٧ : ١٩)

الإكسير في الاصطلاح الكيميائي القديم هو المادة الفعالة في الصناعة ، أى تحويل المعادن الخسيسة إلى الذهب والفضة ، وهم يعتبرون أن «حد علم الصنعة هو العلم بالإكسير»^(٣) وليس بنا الآن أن نتكلف شرح نظرية الإكسير ، فقد أدى ذلك خير أداء العلامة المرحوم باول كروس Paul Kraus في الفصل القيم الذي كتبه عن الأكسير^(٤) وهو يعطينا فكرة واضحة شاملة مستقيمة عنه . والميراث العربي عن الصنعة والأكسير مراث كبير ، وقد بقيت منه طائفة غير قليلة ، ومن الكتب التي تعرضت للإكسير من غير كتب الصنعة كتاب مفاتيح العلوم للخوارزمي^(٥) ومقدمة ابن خلدون^(٦) . وأما الرأس فلست على يقين من معناها ، ولعلها من باب الإكسير ، فقد جاء في ابن النديم مقترنين بعد ذكر جماعة من الذين كتبوا في الصنعة ، قال : «هؤلاء المذكورون بعمل الرأس والإكسير التام»^(٧).

(١) كتاب السياسة في علم الفراسة ، ص ٥ ، ط الوطن ، القاهرة ، ١٨٨٢ . وانظر بعض التفصيلات الأخرى في الكتاب نفسه ص ٤٧ .

(٢) الحيوان ٦ : ٢٠٥ ط الحلبي .

(٣) مختار رسائل جابر بن حيان ، ص ١٠٦ ط الخانجي ، ١٣٥٤ هـ .

(٤) Jâbir ibn Hayyan, II, 1-8, *Mémoires de l'Institut d' Egypte*, t. XLV.

(٥) ص ١٥٠ ، ط ١٣٤٢ هـ ، القاهرة .

(٦) ٥٩٢ - ٦٠٣ ط الشرفية ١٣٢٧ هـ .

(٧) الفهرست ص ٤٩٧ ط الرحمانية .

على أنا نجد في ابن النديم في الفصل الذي عقده لوصف « مذاهب الخرنائية الكلدانيين » قصة عجيبة وضعها تحت هذا العنوان : « حكاية في الرأس » حكاها عن أبي يوسف إيشع القطيعي النصراني في كتابه في الكشف من مذاهب الخرنانيين . ولعل هذه القصة تهدينا بعض الشيء إلى المقصود من كلمة الرأس هنا قال :

« إنه رأس إنسان صورته عطاردية ، على ما يعتقدونه في صور الكواكب . يؤخذ ذلك الإنسان ، إذا وجد على الصورة التي يزعمون أنها عطاردية ، بجيلة وغيلة ، فيفعل به أشياء كثيرة ، منها : يقعد في الزيت والبورق ، مدة طويلة ، حتى تسترخي مفاصله ، وتصير في حال إذا جذب رأسه انجذب من غير ذبح فيها أرى (ولذلك يقال : فلان في الزيت ، مثل قديم . هذا إذا كان في شدة) . يفعلون ذلك في كل سنة إذا كان عطارد في شرفه ، ويزعمون أن نفس ذلك الإنسان تتردد من عطارد إلى هذا الرأس ، وينطق على لسانه ، ويخبر بما حدث ، ويحيب عما يسأل عنه ، لأنهم يزعمون أن طبيعة الإنسان أليق وأشبه بطبيعة عطارد من سائر الحيوان ، وأقرب إليه بالنطق والتمييز ، وغير ذلك مما يعتقدونه فيه »^(١).

٧٧ - خاتون (٤٨ : ٢)

غالب الظن أنه يقصد « خاتون » ملكة بخارى حتى سنة ثلاث وخمسين ، ويذكرها البلاذري في فتوح البلدان^(٢) .

٧٨ - السيوف القلعية (٤٨ : ٧)

جاء ذكر هذه السيوف في كتاب أبي دلف ، مسعر بن مهلهل ، فيما ينقل عنه ياقوت ، قال : « ثم رجعت من الصين إلى كله ، وهي أول بلاد الهند من جهة الصين ، وإليها تنهى المراكب ، ثم لا تتجاوزها ، وفيها قلعة عظيمة فيها معدن الرصاص القلعي ، لا يكون إلا في قلعتها ، وفي هذه القلعة تضرب السيوف القلعية ، وهي الهندية العتيقة »^(٣).

(١) الفهرست ص ٤٤٦ - ٤٤٧ .

(٢) ص ٤٠١ ، وقد نقل ياقوت في معجم البلدان كلام البلاذري في هذا الموضع (٢ : ٨٤) ،

ويلاحظ من مقارنة النصين أن في عبارة النسخة المطبوعة من البلاذري في مصر سقطا .

(٣) معجم البلدان ٧ : ١٤٨ .

وقد عد الجاحظ السيوف القلعية من مآثر الهند ومفاخرهم في رسالته « فخر السودان » فقال: « ولهم (أى الهند) السيوف القلعية ، وهم ألب الناس بها ، وأحذقهم ضرباً بها » (١) كما جاء ذكرها في شعر الفرزدق ، في قوله (٢):

مقلدى قلعية وصوارم هندية وقديمة والآثار

وإذن فالسيوف القلعية سيوف هندية قديمة ، وكانت صنعها - فيما يظهر - سراً من الأسرار التي يفخر خالد بن يزيد بمعرفتها . وليس يبعد عندنا أن تكون هذه الأسرار قد اتخذت صورة أسرار الصنعة والإكسير ، ولا سيما إذ كان علماء الصنعة قد تناولوا بكلامهم الرصاص القلعي الذي هو عندهم رنحو الظاهر يابس الباطن ، وكيف يمكن أن يبطن ظاهره ويظهر باطنه (٣) .

٧٩ - الفرعوني (٤٨ : ٧)

لم نستطيع أن نتبين على وجه الدقة المراد بهذه الكلمة هنا . إلا أننا نلاحظ من سياق الكلام أن « الفرعوني » شيء يصنع صناعة ، وأن صناعته تنطوي على طائفة من الأسرار ثم نلاحظ من ناحية أخرى أن نوعاً من الزجاج أو البلور كان يوصف في عصر الجاحظ بالفرعوني ، إذ نجد في رسالة « التبصر بالتجارة » للجاحظ هذه العبارة : « وخير الزجاج البلورى الصافى الأبيض النقى ، والفرعوني الفائق » (٤) وكذلك نجد هذا الوصف في الحيوان ، إذ يقول : « والرزبق أشبه بالفضة المائعة من الرمل بالزجاج الفرعوني » (٥) .

فأكبر الظن أن المراد بالفرعوني في هذا الموضع من البخلاء هو ذلك النوع من الزجاج ، وهو نوع خاص يحتاج في صنعه إلى معرفة خاصة . أشار إليها الشيخ داود الأنطاكي ، ثم قال : « فيأتى فصوصاً بيضاء شفافة ، وهو من أسرار الأحجار القديمة » (٦) .

(١) مجموعة رسائل الجاحظ ص ٨٠ ط التقدم .

(٢) ديوان الفرزدق ص ٢٧٩ ط الصاوى .

(٣) مختار رسائل جابر بن حيان ص ٤٦٧ . وانظر في الكلام عن الرصاص القلعي ووصفه كتاب

الإشارة إلى محاسن التجارة لأبي الفضل جعفر بن علي الدمشقي ، ص ٢٩ ط المؤيد ، ١٣١٨ هـ .

(٤) ص ١٥ - ١٦ ط الحانجي ، القاهرة .

(٥) ٣ : ٣٧٤ ط مصطفى الباني الحلبي .

(٦) تذكرة ذوى الألباب ١ : ٢٤٧ ط الوجيبة . (٣) الحيوان ١ : ٦ .

ويظهر أن مثل هذا النوع من الزجاج كان مغشى بطائفة من الأسرار التي تكاد تلتحق بأسرار الكيمياء وغوامض الصناعة ، كما يظهر من سياق الفصل الذي كتبه داود عن الزجاج ، وقد ذكر فيه من الأنواع ما وصفه بقوله : « واعلم أن فيه سرّاً عجيباً ومعنى غريباً ، وقد أشاروا إليه بالرموز ، ويعرف عندهم بالملوح به والمطوى » .

٨٠ - صنعة التلطيف (٤٨ : ٧)

يظهر أنه اصطلاح كيميائي ، كما يؤخذ من سياق ذكره في هذا النص الجاحظي : « وعبتي بكتاب المعادن ، والقول في جواهر الأرض ، وفي اختلاف أجناس الفلز . . . وما القول في الأكسير والتلطيف »^(١) وربما كان في مثل هذا النص الصنعوي ما يشير إلى معنى التلطيف : « فأما ما في الأجساد من التداير فإن العلماء رحمهم الله انقسموا في الأجساد قسمين : وذلك أن منهم من قال : يكلس الجسد حتى يلفظ ويصير هباء لا يحى ولا يرجع إلى سنخه الذي بدأ منه وعنه ، والطائفة الثانية قالت : بلى يلفظ ويهبي ويكون فيه بقية ، فيكون الجسد بمعنى المنحل لا الهالك »^(٢).

٨١ - صعاليك الجبل (٤٩ : ٢٠)

يطلق اسم الجبل أو الجبال على المنطقة الجبلية التي كان اليونان القدماء يطلقون عليها اسم ميديا Medie والتي كانت قصبها « إكباتانا Ecbatane » كما كان يكتبها اليونان ، أو « هجماتانا » كما كان يكتبها الفرس القدماء ، أو « همدان » كما ينطقها العرب^(٣). وهي المنطقة الواقعة بين العراق غرباً وصحراء إيران الكبرى شرقاً ، وبين أذربيجان في الشمال والأهواز وفارس في الجنوب .

وهو إقليم عريق واسع ، وقد خصه الهمداني بقسم كبير من كتابه عرض فيه لوصف أجزائه المختلفة كقرماسين (وهي ما يسمى الآن كرمانشاه) وحمدان وأصهبان والري^(٤) . ولعل من خير ما عني بإبرازه وصف الآثار المنحوتة فيه ، كتمثال شبدليز

(١) الحيوان ١ : ٦ .

(٢) مختار رسائل جابر بن حيان ص ٦٨ ، ط الخانجي ، ١٣٥٤ هـ .

(٣) G. Le Strange, *The Lands of the Eastern Caliphate*, p. 194. The University Press, Cambridge, 1905.

(٤) مختصر كتاب البلدان ص ٢٠٩ - ٢٧٩ ، ط بريل ، ١٨٨٥ م .

وأسد همدان ، وما جاء في ذلك من الشعر .

أما الصعاليك الذين يشير- إليهم الجاحظ هنا فلعله يقصد بهم هؤلاء الذين يذكرهم الهمذاني في حديثه عن « سيسر » (أحد رساتيق همدان الذى يقوم مكانه الآن قصبة كردستان الفارسية ، كما يقول لوسترنج) ، وذلك حيث يقول (١) :

« ولم تزل سيسر وما والاها مراعى لمواشى الأكراد وغيرهم ، وإن المهدي أمير المؤمنين بعث إليها مولى له يقال له سليمان بن قيراط ، صاحب صحراء قيراط ، بمدينة السلام ، وشريك معه يقال له : سلام الطينفورى . (وكان طينفور مولى المنصور) . فلما كثر الصعاليك والدغار وانتشروا في الجبل ، في خلافة المهدي ، جعلوا هذه الناحية ملجأ لهم ، فكانوا يقطعون ويأوون إليها ، فلا يطلبون ، لأنها من حد همدان والدينور وأذربيجان . فكتب سليمان وشريكه إلى المهدي بذلك ، فوجه إليهما جيشاً عظيماً . وكتب إليهما يأمرهما ببناء مدينة بأويان إليها مع أغنامهما ورعاتهما ، ويحصنان فيها الدواب والأغنام ممن خافاه عليها . فبنا مدينة « سيسر » وحصنها وأسكنها الناس . . . ثم إن الصعاليك كثروا في خلافة الرشيد ، وشعثوا سيسر ، فأمر ببنائها وتحصينها ، ورتب فيها ألف رجل من أصحاب خاقان الحارثي الصغدئ (وفيها اليوم قوم من أولادهم) . »

٨٢ - الزواويل (٤٩ : ٢٠)

فسر الفيروزبادى الزواويل باللصوص ، ويبدو أنه الاسم الذى كان يطلق على هذه الطائفة في الشام ، كما كان يطلق عليهم اسم « الزط » في البصرة وما حولها ، إلى غير ذلك من الأسماء .

وكذلك نجد الطبرى يذكر « الزواويل » في حوادث سنة ١٩٦ ، إذ يقول : « فقدم عليه (أى على عبد الملك بن صالح في الرقة) أهل الشام : الزواويل والأعراب من كل فج » ، ثم يذكر بعد ذلك ما كان من معركة بين الأبناء والزواويل ، كما يذكر أنه كان على الزواويل مضر بن شيث وعمر السلمى والعباس بن زفر (٢) .

(١) مختصر كتاب البلدان ، ص ٢٣٩ - ٢٤٠ .

(٢) تاريخ الأمم والملوك ١٠ : ١٦١ ، ط الحسينية المصرية .

أشرنا فيما سبق إلى أن كلمة « زط » تحريف كلمة « جت » الهندية ، وأن الزط يرجعون إلى أصل هندي . وذلك هو ما كان متعارفاً عنهم ، وقد ذكر ذلك البلاذري ، وهو أقرب المؤرخين عهداً بهم ، وقد تحدث عنهم في كتابه ، فذكر أولية أمرهم ، وشيئاً من تاريخهم ، فقال : « إنهم كانوا في جند الفرس ، ممن سبوه ورفضوا له ، من أهل السند ، ومن كان سبياً من أولى الغزاة ، فلما سمعوا بما كان من أمر الأساورة أسلموا وأتوا أبا موسى ، فأنزلهم البصرة ، كما أنزل الأساورة^(١) » .

وقال في موضع آخر يذكر نزولهم البصرة فقال ، رواية عن أبي الحسن المدائني : « أراد شيرويه الأسواري أن ينزل في بكر بن وائل ، مع خالد بن المعمر وبنى سدوس ، فأبى سياه ذلك ، فتركوا في بني تميم ، ولم يكن يومئذ الأزدي بالبصرة ولا عبد شمس . قال : فانضم إلى الأساورة السياجية . وكانوا قبل الإسلام بالسواحل ، وكذلك الزط ، وكانوا بالطفوف ، يتبعون الكلا . فلما اجتمعت الأساورة والزط والسياجية تنازعهم تميم ، فرغبوا فيهم ، فصارت الأساورة في بني سعد ، والزط والسياجية في بني حنظلة . فأقاموا معهم يقاتلون المشركين ، وخرجوا مع ابن عامر إلى خراسان ، ولم يشهدوا معهم الجمل ولا صفين ولا شيئاً من حروبهم ، حتى كان يوم مسعود . ثم شهدوا بعد يوم مسعود الربرة ، وشهدوا أمراً من الأشعث معه . فأضربهم الحجاج ، فهدم دورهم ، وحط أعطيائهم ، وأجلى بعضهم ، وقال : كان في شرطكم ألا تعينوا بعضنا على بعض^(٢) » .

وهكذا نرى أن الزط لم يلبثوا أن أحسوا في هذه البلاد بشخصيتهم ، وأخذوا يشاركون في الحياة السياسية ، مراعاة للدولة ، وما كان بهم أن يشاركوا في الحياة السياسية ، ولكنهم وجدوا فيها مجالاً يظهرون فيه غرائزهم التي جبلوا عليها ، والتي لم تلبث أن ظهرت ، فيما بعد ذلك ، ظهوراً واضحاً ، على نحو ما نرى في موضع آخر من هذا الفصل الذي عقده البلاذري لهم ، إذ يقول :

« وحدثنى روح بن عبد المؤمن ، قال : حدثني يعقوب بن الحضرمي ، عن سلام .

(١) فتوح البلدان ص ٣٦٨ .

(٢) فتوح البلدان ص ٣٦٦ - ٣٦٧ .

قال : أتى الحجاج بخلق من زط السند ، وأصناف ممن بها من الأمم ، معهم أهلهم وأولادهم وجواميسهم ، فأسكنهم بأسافل كسكر . قال روح : فغلبوا على البطيحة وتناسلوا بها . ثم إنه ضوى إليهم قوم من أباق العبيد ، وموالى باهله ، وخولة محمد بن سليمان بن علي ، وغيرهم . فشجعوهم على قطع الطريق ، ومبارزة السلطان بالمعصية . وإنما كانت غايتهم قبل ذلك أن يسألوا الشيء الطفيف ، ويصيبوا غرة من أهل السفينة ، فيتناولوا منها ما أمكنهم اختلاسه .

وكان الناس في بعض أيام المأمون قد تحاموا الاجتياز بهم . وانقطع عن بغداد جميع ما كان يحمل إليها من البصرة في السفن . فلما استخلف المعتصم بالله تجرد لهم ، وولى محاربتهم رجلاً من أهل خراسان يقال له عجيف بن عنبسة ، وضم إليه من القواد والجنود خلقاً ، ولم يمنعه شيئاً طلبه من الأموال . فرتب بين البطائح ومدينة السلام خيلاً مضمرة مهلوبة الأذنان . وكانت أخبار الزط تأتيه بمدينة السلام في ساعات من النهار أو أول الليل ، وأمر عجيفاً فسكّر عنهم الماء بالمؤن العظام ، حتى أخذوا فلم يشد منهم أحد . وقدم بهم إلى مدينة السلام في الزوارق ، فجعل بعضهم بخانقين ، وفرق سائرهم في عين زرية والثغور^(١) .

وبذلك نرى أن الزط استطاعوا أن يكونوا وحدة مستقلة ، وأن يجردوا في البطيحة موطناً خاصاً بهم ، ومكاناً ملائماً كل الملازمة لوجوه نشاطهم . وقد كانت البطيحة هذه أرضاً واسعة بين البصرة وواسط ، وقد طغى عليها ماء دجلة ، فصارت منطقة من المستنقعات الواسعة ، وكثرت بها الأدغال ، واشتبهت فيها ، فأصبحت من أصلح الأماكن لأمثال هؤلاء الزط الذين كلغوا الدولة كثيراً على ما رأينا .

وقد ذكرهم ابن خلدون فقال : « الزط قوم من أخلاط الناس ، غلبوا على طريق البصرة ، وعاثوا فيها ، وأفسدوا البلاد ، ولولا عليهم رجلا منهم اسمه محمد بن عثمان ، وقام بأمره آخر منهم اسمه سحاق^(٢) .

وذكر ابن الأثير أنهم كانوا أيضاً بالبحرين . قال : « إن الزط والسيابجة كانوا بالخط من أرض البحرين . وفي سنة ٢٥٠ ولى المأمون محاربتهم عيسى بن يزيد الجلودى ،

(١) البلدان فتوح ص ٣٦٨ - ٣٦٩ .

(٢) العبرو ديوان المبتدأ والخبر ٣ : ٢٥٧ . ط بولاق ، ١٢٨٤ هـ .

ثم داود بن ماسحور سنة ٢٠٦ هـ؛ ثم ذكر محاربة عجييف بن عنبسة لهم سنة ٢١٩ هـ^(١).

٨٤ - نهر بط (٥٠ : ١)

ذكر ياقوت أنه نهر بالأهواز ، ولم يزد على ذلك إلا الاستشهاد بهذين البيتين :
لا ترجعن إلى الأخواز ثانية قعيعان الذى فى جانب السوق
ونهر بط الذى أمسى يؤرقى فيه البعوض بلسب غير تشفيق^(٢)
والأهواز هى خوزستان . بين البصرة وفارس .

٨٥ - القفص (٥٠ : ١)

تطلق هذه الكلمة على جبل فى كرمان ، ثم أطلقت على أهل ذلك الجبل ، وهم طائفة من الناس يسلكون مع الزط ومن إليهم فى نظام واحد ، وكذلك قال الراجز ، كما يروى ياقوت :

وكم قطعنا من عدو شرس زط وأكراد وقمس قفس

وقد كتب ياقوت فى معجمه فصلاً عنهم^(٣) ، اعتمد فيه على مصدرين : الرهنى والبشارى ، فأما الرهنى فأحسب أنه أبو الحسن محمد بن بحر الرهنى ، من أهل القرن الثالث . وكان من قرية « رهنة » إحدى قرى كرمان^(٤) ، فلا جرم كان وصفه لهم عن خبرة ومعرفة ، وأما البشارى فقد كتب ما كتبه أيضاً عن مشاهدة .

وقد اتفق المصدران فى ذكر ما يزعمه هؤلاء القوم من أنهم من العرب اليمنية ، وقد فصل الرهنى هذا الزعم ، فذكر أنهم من ولد سليمة بن مالك بن فهم الأزدي الذى فر بولده ، من إخوته ، من ساحل العرب إلى ساحل العجم ، مما يلي مكران ، منذ قتل أباه مالكاً . وهكذا نجد العروبة لم تضل عن هؤلاء أيضاً . وكذلك يتفق المصدران فى التنويه بشراستهم وقسوة طباعهم ، وإن كانا يسلكان مسلكين مختلفين ، فالبشارى

(١) الكامل لابن الأثير ١ : ١٤٢ .

(٢) معجم البلدان ٨ : ٣٣٨ .

(٣) معجم البلدان ٧ : ١٣٤ - ١٣٧ .

(٤) معجم البلدان ٤ : ٣٤٣ .

يصف ، والرهنى يتفلسف . يقول البشارى فى وصف الطرق من " طبس " إلى " فارس " : « وكلها مخيفة من قوم يقال لهم القفص ، يسرون إليها من جبال لهم بكرمان . وهم قوم لاخلاق لهم . وجوههم وحشة ، وقلوبهم قاسية ، وفيهم بأس وجلادة . لا يبقون على أحد ، ولا يقنعون بأخذ المال حتى يقتلوا صاحبه . وكل من ظفروا به يقتلونه بالأحجار ، كما تقتل الحيات . يمسكون رأس الرجل ويضعونه على بلاطة ، ويضربونه بالحجارة حتى يتفدغ . وسألهم : لم تفعلون ذلك ، فقالوا : حتى لا تفسد سيوفنا ، فلا يفلت منهم أحد إلا نادراً . ولم يكن مكانهم وجبال يمتنعون بها . وقتالهم بالنشاب ، ومعهم سيوف » . وأما الرهنى فيتحدث عن الرحمة وشيوعها ، وحتى « كأنها فى الإنسان صفة لازمة » ثم يقول : « فلم أجد فى القفص منها قليلاً ولا كثيراً ، فلو أخرجناهم بذلك من حد من حدود الإنسان لكان جائزاً . الخ » وهو ينكر عليهم اتخاذ ديانة من الديانات . وإن كان يذكر أنهم يعظمون من بين جميع الناس على بن أبى طالب « لا لعقد ديانة ، ولكن لأمر غلب على فطرتهم تعظيم قدره ، واستبشارهم عند وصفه » .

٨٦ - القيقانية والقطرية (٥٠ : ٢)

لعل المراد بالقيقانية هنا لصوص « قيقان » ، وهى من بلاد السند مما يلى خراسان ، كما يقول ياقوت^(١) ووقعت بين أهلها وبين المسلمين وقائع عدة منذ زمن على ، وقد فصلها البلاذرى^(٢) ، وبما يعيننا ذكره فى هذا الموضع عنها ما وصفها به حكيم بن جبلة العبدى ، فنوه فى وصفه بلصوصها ، إذ يقول : « ماؤها وشل ، وثمرها دقل ، ولصها بطل » . وأما القطرية فنسبة إلى قطر ، « فى أعراض البحرين على سيف الخط بين عمان والعقير » ، كما يقول ياقوت ، نقلاً عن أبى منصور^(٣) ، ومن المحتمل عند فانفلوتن أن يكون هؤلاء القطرية قراصنة^(٤) .

٨٧ - الديماس (٥٠ : ٦)

« فكم من ديماس قد نقبته ، وكم من مطبق قد أفضيته ، وكم من سجن قد كابدته » .

(٢) فتوح البلدان ص ٤٢٠ وما بعدها .

(١) معجم البلدان ٧ : ١٩٨ .

(٣) معجم البلدان ٧ : ١٢٣ .

(٤) البخلاء (ط ليدن) ص IX. Notes et éclaircissements

هكذا جاءت العبارة ، فهل هي صناعة لفظية لا أكثر ، وإنما يريد أنه خرج من كل سجن . أم أن كل كلمة من هذه الكلمات كانت تدل على نوع من السجن معين ؟ والديماس هو سجن الحجاج بواسطة ، والمطبق هو سجن العباسيين ببغداد . فهل يمكن القول بأنه يريد أنه كابد السجن في واسط وفي بغداد وفي غيرها ؟

٨٨ - سندان (٥٠ : ٧)

يقول ياقوت إنها « مدينة في ملاصقة السند ، بينها وبين الديبل والمنصورة نحو عشر مراحل ، وبينها وبين البحر نحو نصف فرسخ (والفرسخ ثلاثة أميال) وبينها وبين صيمور نحو خمس عشرة مرحلة »^(١).

والديبل التي يشير إليها هذا النص هي فرضة على بحر فارس ، عند مصب نهر مهران أو نهر السند أو ما يسمى الآن نهر الأندس^(٢) ، وأما المنصورة فهي ما يسميه الهنود « برهمن آباد » ، وهي تقع على دلتا ذلك النهر على نحو ٤٠ ميلا إلى الشمال الشرقي من حيدر آباد^(٣) .

٨٩ - المولتان (٥٠ : ٨)

ذكرها ياقوت في معجمه ، فقال : « بلد في بلاد الهند على سمت غزنة . قال الاصطخرى : وأما الملتان فهي مدينة نحو نصف المنصورة ، وتسمى فرج بيت الذهب ، وبها صنم تعظمه الهند وتحج إليه من أقصى بلدانها . وقد فتحها ابن القاسم ابن أبي عقيل في أيام الوليد بن عبد الملك »^(٤) . وقد وصف المسعودي موقعها في أثناء كلامه عن الأهار التي تصب في البحر الحبشي ، إذ يقول : « ومنها نهر مهران السند ، ومخرجه من الإقليم الخامس ، من عيون في أعلى السند وجبالها من أرض قنوج ، من مملكة بووره ، وأرض قشمر والقندهار والطاقن ، حتى ينتهي إلى مدينة المولتان . وتفسر " المولتان " فرج الذهب »^(٥).

(١) معجم البلدان ٥ : ١٥١ ط السعادة .

(٢) معجم البلدان ٣ : ١١٨ ، ٨ : ٢٠٩ .

(٣) *The Lands of the Eastern Caliphate*, p. 331, Cambridge, The University Press, 1905.

(٤) معجم البلدان ٨ : ٢١٠ ، ط السعادة ، وانظر وصف طوقها الدينية في الأعلام النفيسة

ص ١٣٥ - ١٣٧ ، ط بريل .

(٥) التنبيه والأشرف ص ٥٥ .

وأما حرب المولتان فلعله يعنى ثورة قامت بها ، لم نر التاريخ ذكرها .

٩٠ - الكتيفية والخليدية والحربية والبلالية (٥٠ : ٨ - ٩)

ذكر الجاحظ هذه الطوائف الأربعة فى رسالته التى كتبها للفتح بن خاقان ، فى فضائل الأتراك ، على لسان أحد الأبناء ، فقال : « ولنا المواجهة فى الأزقة ، والصبر على قتال أهل السجون ، فسل عن ذلك الخليدية والكتيفية والبلالية والحربية »^(١) . فيظهر من هذا أنهم جماعات من الغوغاء الذين يبرزون فى المدن وقت الفتن ، على نحو ما حدث فى فتنة الأمين والمأمون ، فى بغداد ، مما وصفه الطبرى وصفاً ممتعاً .

وقد كتب فان فلوتن فى ملاحظاته تعليقات صغيرة عن هذه الطوائف الأربعة^(٢) ، فقال عن الخليدية إن مما يحتمل أن يكون المراد بهم جماعة المسجونين الذين حكم عليهم بالسجن « المؤبد » ، كما تشير إلى ذلك كلمة الخلد ، بمعنى التخليد فى السجن ، وفى بعض النصوص « الخلدية » ، بدلا من الخليدية . وعلى هذا تكون « الكتيفية » الذين شد كنفهم . ويبدو على هذا التفسير عندنا شئ من التكلف . ولدينا نص عن الثعالبي^(٣) يشير إلى أن الخلدية جماعة من « المكدين » والساسانيين . فهو يقول عن ابن حجاج : « ولم ير كافتدارة على ما يريد من المعانى التى تقع فى طرزه ، مع سلاسة الألفاظ وعذوبتها ، وانتظامها فى سلك الملاحه والبلاغة ، وإن كانت مفصحة عن السخافة ، مشوبة بلغة الخلديين والمكدين وأهل الشطارة » .

أما تأويل هذه التسمية فلا سبيل إلى القطع به ، وإن كان يحتمل لدينا - احتمالا أقرب من احتمال فان فلوتن - أنها نسبة إلى « محلة الخلد » فى بغداد ، وهى التى حول قصر الخلد ، الذى بناه المنصور سنة ١٤٥^(٤) ، كما نسبت الحربية إلى ذلك الحى فيها . وأما البلالية فقد أشار فان فلوتن إلى أنها طائفة من المقاتلة بالبصرة منذ بدء ثورة الزنج فيها ، كما يؤخذ من الطبرى والمسعودى .

وأما الحربية فقد قال عنها إنها طائفة من الشيعة كانت تشتهر بأنها لا تحقر السرقة

(١) مجموعة رسائل الجاحظ ص ١٦ (رسالة فضائل الترك) .

(٢) الخلاء (ط ليدن) ص IX-X. Notes et éclaircissements

(٣) يتيمة الدرر ٣ : ٢٥ ، ط الصاوى ، ١٩٤٣ م .

(٤) معجم البلدان ٣ : ٤٥٤ .

والنهب . وقد أحال في ذلك إلى مقالة له بعنوان : "Worgeis in Irak" « وقد نشرت في :
Feestbundel aangeboden aan prof .Veth .p.61.

٩١ - مقلّاس (١٠ : ٥٠)

ذكر هذا الاسم في سياق يدل على أنه زعيم من زعماء العصابات . والذي نلاحظه أن هذا الاسم يذكر في قصة إنشاء بغداد ، حيث تقول الأسطورة إن الذي بينها ملك يقال له « مقلّاس » ، فقال المنصور : « إن أمه كانت تلقبه مقلّاساً »^(١) .
ويذكر دي جويه أن أحد اللصوص في عهد الأمويين كان يسمى مقلّاصاً^(٢) .
وذكر الجاحظ في الحيوان هذا الاسم على أنه مما يطلقه القرادون والمتكسبون الطوافون على بعض السباع المتولدة بين السباع المختلفة الأعضاء ، المتشابهة الأرحام^(٣) .
والذي نستطيع أن نستنتجه من هذا كله أن هذا الاسم يمكن اعتباره من الأسماء القومية القديمة في العراق .

٩٢ - الشاهسبرم (١٣ : ٥٠)

نوع من الرياحين ، وقد يسمى شاهسفرم وشاهسبرغم ، يقال له الريحان السلطاني^(٤) .
أو سلطان الرياحين^(٥) ، أو ريحان الملك^(٦) . وقد وصفه داود الأنطاكي بأنه « الأخضر الضارب إلى الصفرة ، الدقيق الورق . يغرس في البيوت ... إذا رش عليه الماء اشتدت رائحته » .
وقد ذكر الحفاجي أنه مما عرب قديماً . لوقوعه في شعر الأعشى . ومما جاء فيه قوله :
شاهسبرم والياسمين ونرجس يصبحنا في كل دجن تغسما

٩٣ - دم الأخوين (٨ : ٥٢)

نوع من العقاقير . وقد يسمى القاطر ، والأيدع ، ودم الثنين ، ودم الثعبان^(٧) ،
وقد ذكره ابن البيطار ناقلاً عن أبي حنيفة الدينوري أنه « صمغ شجرة يؤتى به من سقطرى ،

(١) تاريخ بغداد ١ : ٦٦ .
(٢) البخله (ط ليدن) ص . XI (في الهامش) .
(٣) ٦ : ٩ ط التقدم . (٦ : ٢٨ ؛ ط الحبي)
(٤) شفاء الغليل ص ١١٩ .
(٥) تذكرة ذوى الألباب لداود الأنطاكي ١ : ٢٩٠ ط الوهبة . وانظر وصف ابن البيطار ٣ : ٥٠ .
(٦) لسان العرب ١٥ : ٢٢١ .
(٧) نهاية الأرب للنوري ١٠ : ٣١٧ .

تداوى به الجراحات^(١) كما ذكره أيضاً الأنطاكي والرشيدي^(٢) .
وقد جاء في شعر أبي نواس في قطعة يهجو فيها جعفر بن يحيى ، ويصفه فيها
بالعريضة على الشراب ، ويقول :
لا تشربن وجعفرأ في مجلس أبداً ولا تحمل دم الأخوين^(٣)

٩٤ - ريح السبل (٥٣ : ٤)

ذكره صاحب اللسان بأنه داء يصيب في العين ، ثم نقل عن الجوهري أن « السبل »
داء في العين شبه غشاوة كأنها نسيج العنكبوت بعروق حمراء^(٤) . على أنه يؤخذ مما جاء
في كتاب العشر مقالات في العين المنسوب لحنين بن إسحاق أن « ريح السبل » هو
ضرب من ضروب « السبل » وأنه أخف هذه الضروب وطأة . وقد عرض له في الفصل
الذي عقده للأمراض التي تصيب الملتحم ، فقال^(٥) : « وأما السبل فإنه عروق تمتليء
دماً غليظاً وتنتو وتحمار ، وأكثر ذلك يكون معها سيلان وحمرة وحكة وحرقة ، ويقال
له باليونانية (قيرسوفثالميا)^(٦) . ولا يكاد صاحبه يبرأ إلا بلقطه ، ولقطة عسر . . . والسبل
مركب من ثلاث طبقات إذا كثرت انتفاخه وأزمن . وما كان منها على ثلاث طبقات فهو
أشدّها وأبطؤها برءاً ، وما كان من السبل على طبقتين ، فهو أسرع برءاً مما كان على ثلاثة
وأما السبل الذي إنما هو طبقة واحدة ، فإنه يبرأ بالأدوية ، ولا ينبغي أن يمسه حديد .
ويقال لذلك ريح السبل » .

وقد ذكر الجاحظ في سياق الكلام عن العقارب شيئاً مما كان يستعمل في علاج ريح
السبل ، وذلك إذ يقول : « والعقارب يأكلها مشوية من بعينة ريح السبل ، فيجدها صالحة .
ويرمى بها في الزيت ، حتى إذا تفسخت وامتنص ما فيها من قواها ، فطلوا بذلك الدهن
الجفن الذي فيه النفخ ، فرق تلك الريح ، حتى تخمض الجلدة ويذهب الوجع . فإذا

(١) مفردات ابن البيطار ٢ : ٩٦ - ٩٧ .

(٢) تذكرة داود ١ : ٢١٧ ط الوهبة ، المادة الطبية للرشيدي ١ : ٣٩٧ .

(٣) ديوان أبي نواس ص ١٦٠ ط الحميدية . ولابن يسير بيت يتفق مع هذا البيت في الشطرة الأخيرة
قاله في يوسف بن جعفر بن سليمان (الأغاني ١٢ : ١٢٨ ، ط التقدم) .

(٤) لسان العرب ١٣ : ٣٤٣ .

(٥) كتاب العشر مقالات في العين المنسوب لحنين بن إسحاق ، ص ١٣٠ ط الأميرية ١٩٢٨ .

(٦) Kirsophthalmia كما يرى ذلك الأستاذ مايرهوف ، وهي تقابل ما يطلق عليه الآن : Pannus

سمعت بدهن العقارب وإنما يعنون هذا الدهن»^(١).

٩٥ - قطرب (٥ : ٥٤)

أبو علي ، محمد بن المستنير ، نحوي لغوي ، من أهل البصرة ، في القرن الثاني ، وقد عاش إلى سنة ٢٠٦ . أخذ النحو عن سيبويه ، واتصل برجال عصره ، وتأثر بالروح الاعترالية الشائعة في البصرة ، وكان لصلته بالنظام أثر كبير في تلون عقليته بهذا اللون ، وقد ظهر - كما يقال - في تفسيره للقرآن .

ويذكره الجاحظ في المعلمين^(٢) . فقد كان معلماً لولد أبي دلف .

وقد ترجم له ياقوت في معجمه ، وابن النديم في فهرسته ، والسيوطي في بغية الوعاة . ونشرت له مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق كتاب الأزمئة^(٣) .

٩٦ - خلنجية كيمائية (٧ : ٥٤)

جاءت هذه الكلمات في وصف الغضار ، أي آنية الطعام ، يعني أنها مصنوعة من الخلنج ، « وهو شجر تتخذ من خشبه الأواني » كما يقول صاحب اللسان . وقد جاء ذلك في شعر عبيد الله بن قيس الرقيات ، في قصيدته الجيمية التي يمدح بها مصعب بن الزبير ، إذ يقول :

ملك يطعم الطعام ويسقي لبن البخت في عساس الخلنج^(٤)

أما صفة هذا الخشب فيشير إليها البيروني في كلامه عن « الجزع » المسمى بالخلنج ، إذ يقول : « ولفظة خلنج لا يختص بها الجزع ، بل يقع على كل مخطوط بألوان وأشكال ، فيوصف به السنابير والثعالب والزباد والزرافات وأمثالها ، بل هو بالخشب التي تكون كذلك أخص ، ومنها تنحت الموائد والقعاب والمشارب وأمثالها بأرض الترك »^(٥) . وهذا الذي ذكره البيروني يتفق مع ما ذكره الأب أدى شير في كلمة الخلنج ، وأن أصل معناها : « المتنوع الألوان » .

(١) الحيوان ٥ : ٤٠٠ - ٤٠١ ط الخلي . وكلمة « الجفن » في هذا النص هي ما نقترحه تصحيحاً

لكلمة « الخصى » ولا موضع لها .

(٢) البيان والتبيين ١ : ٢٠٩ ط ١٩٣٢ .

(٣) سنة ١٩٢٢ ، المجلد الثاني .

(٤) الأغاني ١٧ : ١٦٧ ط ١٣٢٣ هـ .

(٥) الجماهر في معرفة الجواهر ، ص ١٧٥ ط حيدر آباد .

وكلام البيروني يدل على أن هذه الصناعة صناعة تركية ، وكذلك تدلنا على ذلك هذه النسبة « كيميائية » ، إذ هي نسبة إلى « كيمياء » ، وهي - كما يقول ياقوت - « ولاية واسعة في حدود الصين ، وأهلها ترك »^(١).

٩٧ - المكي (٥٤ : ١٦)

يكثر الجاحظ من ذكره في البخلاء والحيوان والبيان والتبيين . وعلى ما جاء فيها تعتمد في تصويره والتعريف به . وقد جاء في الحيوان أن كنيته أبو إسحاق^(٢) . نشأ في مكة . ويظهر أنه أخذ فيها برواية الشعر ، ثم هاجر إلى العراق ، وهو يحكي عن نفسه أمر هجرته في خبر طريف رواه الجاحظ^(٣) . ويظهر أنه اتخذ البصرة موطناً ، واتصل فيها بالبيئات المختلفة ، ولا سيما المعتزلة ومن كان يداخلهم ، كالنظام وأبي الهذيل والجاحظ ومحمد بن الجهم واسماعيل بن غزوان ، وقد سلك مسلكهم من الاتساع في المعرفة . وقد ولاه محمد بن الجهم موضعاً من مواضع كسكر : ويقول الجاحظ في سياق ذلك : « وكان المكي لا يحسن أن يسمى ذلك المكان ، ولا يتهجاه ولا يكتبه ، وكان اسم ذلك المكان شامثنا »^(٤) . ويظهر أن ذلك كان لنشأته العربية بعيداً عن العراق . وقد روى الجاحظ طرفاً مما كان يجرى بينه وبين محمد بن الجهم ، مما يدل على نزعته الكلامية^(٥).

وقد حكى عنه الجاحظ في مواضع مختلفة ما يدل على أنه كان رجلاً ظريفاً حلو النادرة حاضر البديهة^(٦) ، ومما قال في وصفه : « وكان المكي طبيباً طيب الحجج ، ظريف الحيل ، عجيب العلل . وكان يدعى كل شيء على غاية الاحكام ، ولم يحكم شيئاً قط لا من الجليل ولا من الدقيق ، وإذ قد جرى ذكره فسأحدثك ببعض أحاديثه ، وأخبرك عن بعض عله ، لتلهي بها ساعة » ، ثم ذكر طائفة من أحاديثه الظريفة^(٧).

(١) معجم البلدان ٧ : ٣٠٧ .

(٢) ٤ : ٢١٧ .

(٣) البخلاء ص ١١٠ - ١١١ .

(٤) البيان والتبيين ٢ : ١٦٨ ط ١٩٣٢ .

(٥) انظر مثلاً البيان والتبيين ٢ : ١٨٣ ، الحيوان ٦ : ١٠ - ١١ .

(٦) انظر مثلاً : الحيوان ٥ : ٣١٣ ، ٤٦٧ - ٤٦٨ .

(٧) الحيوان ٣ : ٣٢٥ - ٣٢٧ .

٩٨ - عبد الله العروضي (٥٦ : ٥)

الأخبار عنه قليلة . وما جاء عنه في « البخلاء » يدل على أنه كان من أصحاب الجاحظ الذين يتحدث إليهم ، ويروى عنهم ، كما كان معدوداً في البخلاء ، وكذلك كان من أصحاب أبي عبد الرحمن الثوري ، أحد من عقد الجاحظ لهم الفصول المطولة . وقد تحدث الجاحظ عن جفاء كان بينه وبين أبي إسحاق النظام ، فقال : « وكان سبب عداوة العروضي لإبراهيم النظام أنه كان يسميه : الأخضر البطن ، والأسود البطن . فكان يكشف بطنه للناس ، يريد تكذيب أبي إسحاق ، حتى قال له إسماعيل بن غزوان : إنما يريد أنك من أبناء الخاكة ؛ فعاداه لذلك »^(١).

٩٩ - أحمد بن المثني (٥٦ : ١٢)

الأخبار عنه قليلة أيضاً لا تكاد تصور منه شيئاً . وقد حكى الجاحظ عنه مرتين في كتاب الحيوان^(٢) ويستفاد من هذين الخبرين أنه كان على شيء من المعرفة بالحيوان ، وأنه كان يرجع في معرفته هذه إلى الكتب .

١٠٠ - علي الأسواري (٥٦ : ٢٠)

هو علي بن خالد الأسواري ، كما جاء اسمه في رسالة التربيع والتدوير^(٣) . وقد يذكر في بعض النصوص باسم « أبي علي الأسواري » ، كما جاء في طبقات المعتزلة من كتاب المنية والأمل^(٤) . وهذا عندنا خلط ينبغي أن ننبه عليه .

فأبو علي هذا شخص آخر ، كان يصطنع القصص ، وكان من كبا القصاص ، واسمه كما ذكر الجاحظ عمرو بن فائد^(٥) لا علي بن خالد ، وإذن فالشخصان مختلفان اسماً وعملاً .

فأبو علي - كما رأينا - كان قاصّاً ، وأما علي - صاحبنا - فكان متكلماً من

(١) الحيوان ٣ : ٢٤٨ .

(٢) ٢ : ٢٢٧ - ٢١٨ ، ٤ : ١١٦ .

(٣) مجموعة رسائل للجاحظ . ص ١٣٧ ط التقدم .

(٤) ص ٤٠ .

(٥) البيان والتبيين ١ : ١٩٦ ط ١٣٣٢ هـ .

متكلمي المعتزلة . وقد عدّه المرتضى في الطبقة السابعة منهم ، وقال في ترجمته : « كان من أصحاب أبي الهذيل وأعلمهم ، فانتقل إلى النظام . وروى أنه صعد بغداد لفاقة لحقته ، فقال النظام : ما جاء بك ؟ فقال : الحاجة ، فأعطاه ألف دينار ، وقال له : ارجع من ساعتك ، فقيل : إنه خاف أن يراه الناس فيفضل عليه » (١) .

وقد أكثر الحسين الخياط من ترديد اسمه في كتابه ، في أئمة المعتزلة ، كأن يقول : « وهل على الأرض أحد رد على أهل الدهر الزاعمن بأن الجسم لم يزل متحركاً ، وحركانه محدثه ، سوى المعتزلة ، كإبراهيم وأبي الهذيل ومعمر والأسوارى وأشباههم » (٢) . كما ذكر أنه كان بينه وبين علي بن ميمم الرافضي مجالس دارت المناظرة فيها في الإمامة . « فأخزاه الأسوارى فيها ، وقطعه أوحش قطع » (٣) .

وقد روى عنه الجاحظ في البيان والتبيين عبارة تدل على روح المعتزلة في عدم التحرج من نقد الصحابة . قال : « عمر بن الخطاب معلق بشعره . قلت : وما صبره إلى ذلك ؟ قال : لما صنع بنصر بن سيار . يريد نصر بن الحجاج بن علاط » . وقد أورد الجاحظ هذا الخبر في سياق الكلام عن الخلط بين الأسماء (٤) .

هذه صورة من حياة على الأسوارى العلمية . وهي - كما نرى - صورة متزنة وقور . أما حياته الخاصة فشيء آخر مختلف كل الاختلاف . وقد رسم الجاحظ صورة منها في كتاب البخلاء ، فصوره أكلوا شرهاً نهما « إذا أكل ذهب عقله ، وجحظت عينه ، وسكر وسدر ، وانهر ، وتربد وجهه ، وعصب ، ولم يسمع ولم يبصر » . ولا تناقض عندى بين الصورتين ، فلكل مجال . ولا بأس أن يكون الرجل عالماً جيد النظر حسن المجادلة ، فإذا كان على الطعام كان شرهاً سى المؤاكلة .

١٠١ - أبو الحسن المدائني (٥٧ : ١٥)

هو علي بن محمد بن عبد الله ، نسب إلى المدائني ، وإن كان بصري المولد والمنشأ ، إلا أنه سار إلى المدائني ، ثم انتقل من المدائني إلى بغداد ، فعرف فيها بالمدائني ، وهو عالم أخباري ، عني بتصوير الحياة الإسلامية وتسجيل أخبارها ، وقد أورد ابن النديم

(١) المنية والأمل ص ٤٠ .

(٢) الانتصار ص ١٧ .

(٣) الانتصار ص ٩٩ .

(٤) البيان والتبيين ٢ : ٢٠٥ ط ١٩٣٢ م .

فهرست كتبه مصنفه أصنافاً . وقد وقعت في نحو خمس صفحات ، تشهد له بسعة العلم والاحاطة . وقد كانوا يضعونه بإزاء أبي عبيدة ، على نحو ما كان يقول أحمد بن يحيى النحوى : « من أراد أخبار الجاهلية فعليه بكتب أبي عبيدة ، ومن أراد أخبار الاسلام فعليه بكتب المدائني » .

وإلى جانب هذه الصفة الاخبارية ذكر أبو بكر بن الإخشيد أنه كان متكلماً من غلمان معمر بن الأشعث ، وإن كنا لا نجد أثر هذا في فهرست كتبه ، ولا فيما وقع تحت أيدينا من أقواله المأثورة .

وكان أكبر اتصاله ، وهو في بغداد ، بأبي محمد إسحاق بن إبراهيم الموصلى ، وكان يكرمه ويتحنى به ويحسن تقديره ، وقد مات في بيته ، سنة ٢٢٤ أو ٢٢٥ على ما يحكى ابن النديم والخطيب البغدادي ، في ترجمتهما له^(١) ، وذكر الطبرى موته في حوادث سنة ٢٢٨^(٢) .

١٠٢ - مالك بن المنذر (٥٧ : ١٥)

هو مالك بن المنذر بن الجارود العبدى ، وكان أبوه صحابياً جليلاً ، ممن شهد الحمل مع على ، وقد نشأ مالك بالبصرة ، ولى أحداثها في أيام خالد بن عبد الله القسرى . وقد كان فيما يبدو معتزلاً بمكانه فهو ابن المنذر بن الجارود ، وأمه بحرية بنت مالك بن مسمع . وقد حدث شربينه وبين عمر بن يزيد الأسدى فضربه - متجنياً عليه ، مستشهداً عليه ناساً من تميم - كما يقول ابن سلام^(٣) ، حتى قتله تحت السياط . وللفرزدق شعر في هذا الحادث ، فيقول في مالك :

لعمري لئن كان ابن عمرة مالك تنهك ظلماً سادراً غير مقصر
لتنكشفن عنه ضباية فسوه لضغمة رثبال من الأسد مخدر
إذا علققت أسبابه القرن غادرت به أثراً كالجسول المتفجر^(٤)
إلى غير ذلك في التحريض عليه ، والتشنيع به مما أعان على قتله^(٥) .

(١) الفهرست ص ١٤٧ - ١٥٢ ط الرجانية ، تاريخ بغداد ١٢ : ٥٤ - ٥٥ .

(٢) تاريخ الأمم والملوك ١١ : ٩ .

(٣) طبقات الشعراء ، ص ١٢٣ - ١٢٥ ، ط السعادة (طبقات فحول الشعراء ، ٢٩٩ ، ط دار المعارف ، ١٩٥٢) .

(٤) ديوان الفرزدق ، ص ٢٨١ ط الصاوى .

(٥) ديوان الفرزدق ، ص ١٢٦ ، ١٣٨ .

وقد ثار الخليفة لعمر بن يزيد من مالك ، فألقى في السجن ، وقد مرض وبه بطن ، فمات فيه .

١٠٣ - الكساء القومسي (٥٩ : ٥)

لم تفسر القواميس العربية كلمة « الكساء » إلا بأنه ثوب معروف ، فلم تبين شكله ، ولم تعرفه بما يميزه عن غيره . وقد حاول العلامة دوزي أن يستكمل هذا النقص ، فذهب يصف الكساء الأسباني باعتبار أن كلمة : alquicel هي كلمة « الكساء » العربية . ولعل ما يصف هذه يصف تلك . وجسلة ما يستخلص من النصوص التي نقلها هو أن هذه الكلمة تقع على رداء كبير من الصوف ، يلف به الجسم ، أشبه بملاءة السرير^(١) . وأحسب أنه ليس علينا من بأس في أن نفهم كلمة « الكساء » هنا على هذه الصورة . وقد جاء في سياق الكلام ما يدل على أنه من الصوف .

على أنه قد وقفنا كلمة « المبطنة » التي استعملها الخراساني موضع كلمة « الكساء » ، إذ يقول للجاحظ في إنكاره عليه لبس الكساء في ذلك الفصل : « إن كان ذلك كذلك فاجعل بدل هذه المبطنة جبة محشوة ، فإنها تقوم هذا المقام » . فهل كلمة « المبطنة » هذه وصف للكساء ، فيدل ذلك على أنه كان يصنع بحيث تكون له بطانة ، أو أنه اسم آخر له ؟ وهنا لانملك أنفسنا من ذكر ما علق به العلامة دوزي ، حين أورد نصاً أسبانياً عن مرمول Marmol جاء فيه ذلك الفعل الإسباني batanar ، إذ يقول : « إن هذا الفعل الذي لم تفسره المعاجم الإسبانية التي رجعت إليها - قديمة وحديثة - تفسيراً يتفق مع ما هنا ، يعنى ارتدى s'envelopper ، وقد جاء من « بطن » العربية التي يبدو أن عرب إسبانيا استعملوها في هذا المعنى » .

فهل هناك صلة بين كلمة « المبطنة » هنا . وبين هذا الذي يذكره العلامة دوزي ؟ أما وصف الكساء بأنه قومسي فذلك نسبة إلى قومس . وهي -- كما يقول ياقوت -- « كورة كبيرة واسعة ، تشتمل على مدن وقرى ومزارع ، وهي في ذيل جبال طبرستان »^(٢) . وقد ذكر الجاحظ الرداء القومسي في موضع آخر^(٣) بما يدل على أنه رداء عادي ،

(١) Dictionnaire détaillé des noms des vêtements chez les Arabes. p. 383-385. (١)

(٢) معجم البلدان ٧ : ١٨٥ .

(٣) الحيوان ٣ : ٢٧ .

من صنف غير جيد ، وذلك في حكاية لقول المروزي : « قلت لأحمد بن رباح الجوهري اشتريت كساء أبيض طبرياً بأربعمائة درهم ، وهو عند الناس - فيما ترى عيونهم - قومسي يساوي مائة درهم » . ولعل هذا يعيننا على فهم الصورة التي أراد الجاحظ أداءها هنا في البخلاء فهماً أدق .

١٠٤ - نحوامزكه (٦٢ : ٤)

لم أستطع أن أجد من المعاني المحتملة لهذه الكلمة - فيما أتيج لي من المعاجم الفارسية - ما يتفق مع سياقها . غير أنه يبدو أن هناك صلة بين هذه الكلمة وبين كلمة « خاميز » التي نص صاحب العين - كما ينقل عنه ابن منظور في مادة « أمص » - أنها فارسية الأصل . ومعناها - كما جاء في سياق مادة « عمص » - هو : « أن يشرح اللحم رقيقاً ، ويؤكل غير مطبوخ ولا مشوي ، يفعله السكاري » ، وزاد في مادة « أمص » أنه ربما يلفح لفة النار .

أما المعنى الذي أورده صاحب القاموس في تفسير « الخاميز » من أنه « مرق السكباج المبرد المصق من الدهن » فأحسبه بعيداً مما نحن فيه .

١٠٥ - البستندود (٦٣ : ٦)

شرحها فان فلوتن في « الملاحظات والإيضاحات » بأنها تدل في الفارسية على ذلك النوع من الفطائر المشوية : [Pâté] emduit de farine^(١) .

١٠٦ - جداء كسكر (٦٣ : ١٧)

أكثر ما تعرف به كسكر ، من هذا القبيل ، هو دجاجها . وقد ذكر الجاحظ الدجاج الكسكري غير مرة^(٢) ، وكذلك يذكره المسعودي في المضاف والمنسوب ، ويقول : إنه « موصوف بالجودة والسمن ، ومذكور في أطايب الأطعمة . وربما بلغت الواحدة منها وزن الجدي أو الحمل »^(٣) . ويقول ياقوت في الكلام عن كسكر : إنها « كورة واسعة ينسب إليها الفراريج الكسكرية ، لأنها تكثر بها جداً »^(٤) وأما أبو المطهر

(١) البخلاء (ط ليدن) ص XII .

(١) انظر مثلاً الحيوان ٢ : ٢٤٨ ، ٣٤٠ ، ط مصطفي الباني الحلبي .

(٢) ثمار القلوب ص ٤٢٦ ط الظاهر ، ١٩٠٨ م .

(٣) معجم البلدان ٧ : ٢٥١ ط السعادة . وانظر مثلاً الأغاني ١١ : ٣٣٦ ، ط دار الكتب المصرية .

الأزدى فينسب إليها ، على لسان أبي القاسم البغدادي ، البط^(١) . وإن كان ياقوت يقول إنه يجلب إليها من بعض أعمالها .

فأما نسبة الجداء إليها فلا تكاد نجد لها إلا عند الجاحظ ، كما نرى هنا ، وكما تجيء في سياق كلامه عن فضل الماعز ، إذ يقول : « ويقولون جداء البصرة وجداء كسكر »^(٢) . وكما في العبارة التي يحكيها المسعودي ، في الموضوع الذي أشرنا إليه ، وينسبها إليه ، إذ يقول : « وما ينسب إلى كسكر الجداء والسملك والصحناء » .

وقد كان للجدى مكان ممتاز في نظام المائدة في عهد الجاحظ . وقد أشار إلى ذلك في بعض كلامه على لسان محمد بن أبي المؤمل ، إذ يقول : « . . . وكانوا يعلمون أن إحضار الجدى إنما هو شيء من آيين الموائد الرفيعة ، وإنما جعل كالعاقبة والخاتمة ، وكالعلامة لليسر وللفراغ »^(٣) . كما عرض لهذه الناحية في جملة كلامه في « باب الماعز » فقال : « والجدى أطيب من الحمل وأكرم . وربما قدموا على المائدة الحمل المقطوع الألية من أصل الذنب ليوهبوا أنه جدى . . . وملوكنا تحمل معهم في أسفارهم البعيدة الصفايا الحوامل المعروفات أزمان الحمل والوضع ليكون لهم في كل منزلة جداء معدة » .

وأما كسكر فهي تطلق على الإقليم وعلى المدينة ، فأما الإقليم فهو الواقع بين دجلة والفرات وبين البصرة وبغداد ، ويذكر ياقوت أن قصبته واسط منذ بناها الحجاج ، وكانت قبل ذلك « خسرو سابور » ، وهو إقليم غني ينقل ياقوت عن الهيثم ابن عدى أن خواجه كان يبلغ اثني عشر ألف ألف مثقال ، وإن كانت البطائح تقع في أسفله ، منذ أيام كسرى أبرويز .

وأما المدينة فيؤخذ من كلام ابن رسته عن نهر الفرات أنها تقع عند مصبه في البطائح^(٤)

١٠٧ - فاكهة الجبل (٦٣ : ١٧)

قدمنا في موضع آخر التعريف بإقليم الجبل^(٥) . وقد كان هذا الإقليم مشهوراً بفاكهته الممتازة أو السرية على حد تعبير ابن الفقيه الهمداني . وقد أورد في غير

(١) حكاية أبي القاسم البغدادي ، ص ٣٩ ، ط كرل ونتر ، هيدلبرج ، ١٩٠٢ م .

(٢) الحيوان ٥ : ٤٨٢ .

(٣) البخله ، ص ٩٧ .

(٤) الاعلاق النفيسة ، ص ٩٤ ، ط بريل ، ١٨٩١ م .

(٥) انظر التعليق رقم ٨١ : « صغاليك الجبل » ، ص ٣١٩ - ٣٢٠ .

موضع من الفصل القيم الذي كتبه عن هذا الإقليم ما يدل على هذه الشهرة ويؤكددها . ففي تصنيف البلاد الإيرانية المنسوب إلى قباد بن فيروز أن « أسرى فواكه لإقليمه سبعة مواضع : المدائن وسابور وأرجان والرى ونهاوند وماسبذان وحلوان الجبل »^(١) ومن هذه المدن السبعة واحدة في العراق وهي المدائن ، واثنان في فارس وهما سابور وأرجان ، والأربعة الباقية في الجبل .

أما أنواع الفاكهة التي يشتهر بها الجبل فقد أشار في غير هذا الموضع إلى بعضها، وهي : الكمثرى النهاوندى والصيني ، والتفاح الشيرى ، والعنب ، والرمان ، والجوز ، واللوز^(٢) ،

١٠٨ - خالد القسرى (٦٦ : ١)

هو خالد بن عبد الله بن يزيد بن أسد البجلي القسرى ، أحد سادة العصر الأموى . ولى العراق في عهد هشام بن عبد الملك سنة ١٠٦ ، وظل عليه إلى أن عزل عنه سنة ١٢٠ ، وقد ولى مكانه يوسف بن عمر الثقفى . وقد ذكر الجهشيارى بعض الأقايسى التي كانت تقص عن الكيد لخالد وملايسات عزله وتولية يوسف بن عمر^(٣) ، وقد أخذه يوسف بضروب من التنكيل ، وجسه ، وظل في حبسه إلى أن قتله في الحيرة سنة ١٢٦ . وقد كان خالد سيداً شريفاً جواداً ، كما تشهد بذلك بعض أخباره وآثاره^(٤) . وقد عده ابن عبد ربه في الأجداد . ولكن الجاحظ يروى هنا عن أبي عبيدة خيراً يرميه فيه بالبخل على الطعام ، وبأن ذلك كان متعارفاً بين الناس عنه ، ولنا أن نتشكك في هذا الخبر المروى عن أبي عبيدة .

لقد كان خالد القسرى ، في ولايته على العراق ، عرضة لكثير من الأعاصير السياسية والتبيلية وغيرها ، عرضته لألسنة الشعراء والمتقولين ، فوجد في ذلك دعاة الشعوبية ومن إليهم من دعاة الدولة ، مادة يصوغون منها حملتهم الشديدة على سادة ذلك العصر وأشرفه . وبذلك كان خالد - فيما نحسب - موضع حملة منكرة من هؤلاء وأولئك ، فتعقبوه في كل شيء ، حتى لم يسلم له نسبه . فقال أبو عبيدة إن جده كرز بن عامر

(١) مختصر كتاب البلدان ، ص ٢١١ ، ط بريل ، ليدن ، ١٨٨٥ م .

(٢) مختصر كتاب البلدان ، ص ٢٣٥ ، ٢٣٦ .

(٣) الوزراء والكتاب ص ٦١ وما بعدها .

(٤) انظر مثلاً الكامل للمبرد ٢ : ١٣٢ ، زهر الآداب ٣ : ٢٥٩ ، المقدم الفريد ١ : ٢٦٤ ،

كان مولى من موالى عبد القيس في هجر ، وأصله من يهود تيماء ، فأبق ، فتلقتته عبد شمس ، ثم وهبوه لقوم من طهية ، فأصاب فيهم امرأة بغيا ، فولدت له أسداً . فأما أسد هذا فالتحق ببجيله ، وفيها نشأ ابنه يزيد ، من غير أن ينال شرف الاستلحاق .
 ويزيد هذا - وهو الجد الأول لخالد - يقول عنه أبو عبيدة إنه كان يلقب بخطيب الشيطان، وكان أكذب الناس في كل شيء، معروفاً بذلك. ثم نشأ ابنه عبد الله فسلك منهاجه في الكذب ، ثم نشأ خالد ، ففاق الجماعة ، إلا أن رياسة ووسخاء فيه ستر ذلك من أمره .
 وأما أم خالد فكانت رومية نصرانية^(١) ، وليس في هذا بأس ، ولا عليه في ذلك ، ولكنه بنى لها كنيسة في ظهر قبلة الجامع ، كما يقول المدائني .

وأما خالد نفسه فإلى أنه كان أكذب الناس وأجبنهم وأبخلهم على الطعام كان قد نشأ نشأة سافلة عاهرة ، لا تتفق مع هذه السيادة التي يدعيها ، ولا تلك الولاية التي وليها . فيقول الهيثم بن عدى إنه كان غلاماً مؤثماً ، يصحب المغنين ، ويرسل بين عمر بن أبي ربيعة والنساء . ثم يأخذ الهيثم في وضع الأخبار في تفسير شعر لعمر ، ليضع فيها خالداً الموضع الذي وصفه^(٢) .

وهكذا يصورون ذلك الرجل الذي كان من سادات عصره ، ويبالغون في تشويهه وإلحاق كل مثلبة به ، وذلك وحده كاف ليشككنا في ذلك كله ، ويجعلنا نفكر في الملابس المختلفة التي لابسته في عصره ، ثم لابست ذكراه في نشوء الدولة العباسية . وما نكاد نشك في أن هذا الخبر الذي رواه الجاحظ إنما جاء من هذه السبيل .

١٠٩ - خالد بن نضلة الفقعسي (٦٦ : ١٣)

سيد بني أسد في عصر المنذر بن ماء السماء . وقد ذكره أبو الفرج فقال : إنه أحد رجلين من بني أسد كانا ينادمان المنذر ، فأغضباه في بعض الحديث ، على الشراب ، فأمر بقتلهما^(٣) .

وفي ترجمة عبيد بن الأبرص ذكر هذه القصة عن خالد بن المضلل ، فوضعه موضع خالد بن نضلة^(٤) ، وإذن يكون خالد بن المضلل الذي جاء في بيت الأسود بن يعفر هو خالد بن نضلة ، ويكون خالد المهزول ، هو خالد الآخر ، عميد بني جحوان .

(١) انظر الكامل للمبرد ٣ : ٤٠ .

(٢) الأغاني ١٩ : ٥٢ وما بعدها .

(٣) الأغاني ٥ : ٢٩ ط بولاق .

(٤) الأغاني ١٩ : ٨٦ .

أما قصة مقتله فهي مذكورة أيضاً في النوادر لأبي علي القالي^(١) .
 وكان خالد بن نضلة يقول الشعر ، إلى جانب كونه فارساً من فرسان عصره . وقد
 روى له الجاحظ في الحيوان الأبيات المشهورة التي أولها :
 لعمرى لرهط المرء خير بقيّة عليه ولو عالوا به كل مركب^(٢)

١١٠ - الأسود بن يعفر (٦٦ : ١٤)

شاعر من شعراء الجاهلية ، تسمى دارى ، جيد العبارة . ينزع في شعره إلى الحكمة ،
 ليس بالمكثر ، كما يقول أبو الفرج في ترجمته له^(٣) . وقد ذكر في هذه الترجمة أن ابن
 سلام جعله في الطبقة الثامنة ، وليس كذلك في نسخة الطبقات التي بين أيدينا ، فهو
 معدود فيها في الطبقة الخامسة ، وقال : إنه كان شاعراً فحلاً ، يكثر التنقل في العرب ،
 يجاورهم فيدم ويحمد .

وقد كان شاعراً من شعراء المناذرة ، كما يؤخذ من شعره . وقد عمى في آخر حياته ،
 وهو أحد الأعشىين : أعشى بنى نهشل ، وقد جمع ناشر ديوان الأعشى شعره في ذيل
 هذا الديوان^(٤) ، كما نجد مجموعة شعره في شعراء النصرانية^(٥) ، وقد ترجم له غير أبي
 الفرج ابن قتيبة والآمدي^(٦) .

١١١ - البارجين (٦٨ : ٢)

يظهر أن هذه الكلمة مأخوذة من المصدر الفارسي « برجيند » ومعناه الالتقاط ،
 ويلاحظ أن مادة الفعل « برجين » . ويؤخذ من سياق ذكرها هنا أنها أداة من أدوات
 الأكل ، ولعلها كانت شيئاً قريباً من الشوكة المستعملة الآن .

١١٢ - الزمزمة (٦٨ : ٣)

الزمزمة ، في القاموس ، « تراطن العلوج على أكلهم وهم صموت ، لا يستعملون

(١) ص ١٩٥ . (٢) ٣ : ١٠٣ ط الحلبي .

(٣) الأغاني ١١ : ١٣٤ .

(٤) ص ٢٩٣ - ٣١٠ . (٥) ٢ : ٤٧٥ - ٤٨٥ .

(٦) الشعر والشعراء ص ١٣٤ ، المؤلف والمختلف ص ١٦ - ١٧ .

لساناً ولا شفة . لكنه صوت تديره في خياشيمها وحلوقها ، فيفهم بعضها عن بعض » .
وقد ذكرها الجاحظ في سياق الكلام عن المخارج وأنها لا تحصى ، ولا يوقف عليها ،
ولا يستطيع تصويرها ، إذ يقول : « فن يستطيع أن يصور كثيراً من حروف الزمزمة ،
والحروف التي تظهر من فم المحبوس إذا ترك الافصاح عن معانيه ، وأخذ في باب الكناية ،
وهو على الطعام » (١) .

كما ذكرها في موضع آخر في سياق الحديث عن مطاعمة الملوك ، وأنه لا ينبغي أن
يحدث على طعامهم ، فقال : « ولأمر ما كانت ملوك آل ساسان إذا قدموا موائدهم
زمزموا عليها ، فلم ينطق ناطق بحرف حتى ترفع . فإن اضطروا إلى كلام كان مكانه
إشارة وإيماء يدل على الغرض الذي أرادوا ، والمعنى الذي قصدوا . وكانوا يقولون : إن
هذه الأطعمة بها حياة هذا العالم ، فينبغي للإنسان أن يجعل ذهنه في مطعمه ، ويشغل
روحه وجوارحه فيه ، لأن تأخذ كل جارحة قسطها من الطعام ، فيتغذى بها البدن والروح
الحيوانية التي في القلب ، والطبيعة التي في الكبد ، اغتذاء تاماً ، وتقبله الطبيعة قبولاً
جامعاً » (٢) .

١١٣ - الجردبيل (٦٨ : ٤)

لقب من الألقاب المطلقة على سبء المؤاكلة . وهي فارسية الأصل ، ولكن التحريف
لعب بها ، فأصلها : « كردبان » أي حافظ الرغيف . ثم أطلق الجردبان والجرديبل على
الذي يضع يده على الطعام لئلا يتناوله غيره ، أو الذي يأكل بيمينيه ويمنع بشماله .
وقد أخذت هذه الكلمة سبيل العربية ، فاشتق منها الفعل والفاعل ، فقد ذكر ابن
سيده عن أبي عبيده أنه يقال : « جردبت على الطعام وجرذمت » ، وعن ابن دريد :
« رجل مجردب نهم » (٣) .

١١٤ - عيسى بن سليمان بن علي (٦٩ : ٩)

أحد أبناء سليمان بن علي ، عم أبي العباس السفاح . وكان أبو العباس قد ولاه على
البصرة وأعمالها ، فأقام فيها هو وأولاده ، وبنوا فيها دورهم ، وقد كان لهذه الدور - فيما

(١) البيان والتبيين ١ : ٤٤ ط لجنة التأليف والترجمة والنشر .

(٢) التاج ص ١٨ - ١٩ ، وانظر مروج الذهب ٢ : ١٠٨ - ١٠٩ ط باريس .

(٣) المخصص ٥ : ٣٠ .

يبدو - أثر غير قليل في نشاط الحياة العقلية والأدبية بالبصرة .

والأخبار قليلة عن عيسى هذا . وما نعرف عنه أنه تعرض لهجاء أبي عبد الله بن أبي عيينة المهلهبي ، لتزوجه امرأة من آلِه ، يقال لها فاطمة بنت عمرو بن حفص . وقد أورد المبرد هذه القصيدة ، على أنها من شعر ابن أبي عيينة المستحسن (١) . ولا بأس في أن نورد من هذه القصيدة ما لعله يصور لنا شيئاً ما بعض ما كان يقال عن عيسى بن سليمان هذا :

إذا ما بنو العباس يوماً تبادروا
عرا المجد وابتاعوا كرام الفضائل
رأيت أبا العباس يسمو بنفسه
إلى بيع يباحاته والمباقل
يرخم بيض العام تحت دجاجة
ليخرج بيضاً من فراريج قابل

١١٥ - الجارود بن أبي سبرة (٧١ : ٧)

شخصية من الشخصيات الكبيرة في العراق ، في القرن الأول ، وأوائل الثاني . ذكره الجاحظ فأجمل صفته في قوله : « الجارود بن أبي سبرة - ويكنى أبا نوفل - من أبين الناس وأحسنهم حديثاً . وكان راوية علامة شاعراً مفلحاً ، وكان من رجال الشيعة . ولما استنطقه الحجاج قال : ما ظننت أن بالعراق مثل هذا . وكان يقول : ما أمكنني وال قط من أذنه إلا غلبت عليه ، ما خلا هذا اليهودي ، يعني : بلال بن أبي بردة . وكان عليه متحاملاً . فلما بلغه أنه دهق ، حتى دقت ساقه ، وجعل الوتر في خصيه ، أنشأ يقول :

لقد قر عيني أن ساقيه دقتا
وأن قوى الأوتار في الخصية اليسرى
بخلت وراجعت الخيانه والحناء
فيسرك الله المقدس للعسرى
فما جذع سوء خرب السوس جوفه
يعالجه النجار يبرى كما تبرى (٢)

وذكر الجاحظ في موضع آخر أنه كان من جلساء عبد الأعلى بن عبد الله بن عامر ، وهو من يصفه الجاحظ بأنه من أبين الناس وأفصحهم ، حتى كان مسلمة بن عبد الملك يقول : إني لأنحى كور العمامة عن أذني لأسمع كلام عبد الأعلى بن عبد الله . وقد أورد في هذا الموضع فقرات من كلام الجارود : « سوء الخلق يفسد العمل ، كما يفسد الخلق

(١) الكامل للمبرد ٢ : ٢٩ - ٣٠ .

(٢) البيان والتبيين ١ : ١٧٩ ط ١٣٣٢ هـ .

العسل» ، وقال : « عليكم بالمربد ، فإنه يطرد الفكر ، ويجلو البصر ، ويجلب الخبر ، ويجمع بين ربيعة ومضر »^(١).

أما شعره فقد روى الجاحظ قطعة أخرى له ، يظهر فيها الشماتة بموت مالك بن عمرة^(٢)

١١٦ - سلم بن قتيبة (٧١ : ١٤)

هو سلم بن قتيبة بن مسلم الباهلي . كان أبوه من أمراء الدولة المروانية وكبار الفاتحين فيها ، وتولى هو البصرة في أواخر عهدها . وفي عهد العباسيين ولاة أبو جعفر المنصور عليها فترة من الزمن ثم عزله عنها ، وجعلها لمحمد بن سليمان بن علي . وكان سلم - فيما يظهر - نشأ في بادية الكوفة ، نشأة أقرب إلى النشأة البدوية^(٣) ، وقد كان لهذا أثره في لغته ، فلم يكن في لغته فضول ، حتى كان يزيد بن عمر بن هبيرة يقول : « احذفوا الكلام كما يحذفه سلم بن قتيبة »^(٤) ، وكان يعرف الغريب أو يتباصر به ، كما قال يشار عنه ، حين مدحه بقصيدة أكثر فيها من الغريب فسل عنها ، فقال : « بلغني أن سلماً يتباصر بالغريب ، فأحببت أن أورد عليه ما لا يعرفه »^(٥)

١١٧ - تسنيم بن الحواري (٧١ : ١٥)

هو تسنيم بن الحواري بن زياد بن عمرو بن الأشرف ، كما نسبه الطبري في روايته عن حفيده سعيد بن الحسن بن تسنيم^(٦) وكان من أهل البصرة ، ويبدو من كلام الجاحظ أنه كان من سراتها . ولا نعرف من أخباره إلا أنه كان صديقاً لبشار^(٧) وإلا أن ابنه الحسن بن تسنيم كان والياً على عمان سنة ١٦٩^(٨).

(١) البيان والتبيين ١ : ١٨٦ .

(٢) الحيوان ١ : ٢٢٤ ط الحلبي .

(٣) انظر عيون الأخبار ١ : ١٤٥ .

(٤) البيان والتبيين ١ : ١٥٥ ط ١٩٣٢ .

(٥) الأغاني ٣ : ١٩٠ ط دار الكتب المصرية .

(٦) تاريخ الأمم والملوك ٩ : ٤٨ .

(٧) الأغاني ٣ : ١٧٣ .

(٨) تاريخ الأمم والملوك ١٠ : ٣٢ .

١١٨ - أبو شعيب القلال (٧١ : ١٩)

هكذا جاء اسمه هنا ، وفي جميع المواضع التي ذكر فيها ، في الحيوان ، والبيان والتبيين ، وأخبار أبي نواس لابن منظور . وقد جاء في جمع الجواهر للحصري على هذه الصورة : « شعيب القلال » . وأكبر الظن أنه تحريف .

وهو صغدى الأصل ^(١) ، وقد جاءه هذا الوصف « القلال » من أنه كان يعمل الجرار ، وقد حكى الجاحظ نادرة لطيفة له ، حين دعي إلى القصر ليراه الرشيد وهو يعمل القلال . وهذه النادرة تدل على عقل وبدية حاضرة ^(٢) . والواقع أنه كان يصحب العلماء والشعراء ويجالسهم ، حتى جاز للجاحظ أن يقول عنه في صدد أبيات أبي نواس : « ودار ندامى عطلوها وأدبلوها » : « أنشدت هذه الأبيات أبا شعيب القلال ، وكان عالماً شاعراً ، فقال : هذا شعر لو نقر لظن . فقلت له ويلك ! ما تفارق الجرار والحزف حيث كنت » ^(٣) ، وحتى ليحكى بعض المعارف عن رهبان الزدناقة ، وما يصنعونه ويتميزون به ^(٤) .

١١٩ - محمد بن يحيى (٧٢ : ٦)

هو أحد أبناء يحيى بن خالد البرمكي : الفضل وجعفر وموسى ومحمد ، وقد كان - فيما يبدو - أقلهم شهرة وأضعفهم نفوذاً ، فلم يل - فيما نعلم - شيئاً من الولايات ، إلا ما كان من توليه الكتابة لمحمد بن الرشيد ^(٥) . ولما وقعت النكبة بالبرامكة ، وقتل جعفر بن يحيى ، كان محمد فيمن أصابه الحبس ، وكان محبسه بالرقعة . وقد ظل سجيناً إلى أن ولي الأمين الخلافة ، فأطلقه هو وأخاه موسى ^(٦) . ولكنه لم يلبث عند ما حوصر الأمين أن مضى نحو المأمون ^(٧) ، ثم لا ندرى ماذا كان من أمره بعد . وكان محمد بن يحيى مبخلاً . وقد ذكر الجهشيارى قصته مع الختم الراسبي الشاعر

(١) الحيوان ٤ : ٤٥٧ .

(٢) البيان والتبيين ٢ : ١٣٧ ط ١٣٣٢ هـ ، جمع الجواهر للحصري ص ٧ - ٨ .

(٣) أخبار أبي نواس ١ : ٤١ .

(٤) الحيوان ٤ : ٤٥٧ وما بعدها .

(٥) الوزراء والكتاب للجهشيارى ص ١٩٣ ط مصطلح البابي الحلبي .

(٦) الوزراء والكتاب للجهشيارى ص ٢٩٧ .

(٧) الوزراء والكتاب للجهشيارى ص ٢٩٨ .

وشعره فيه ، ثم أورد قول أبي الحارث جمين ووصفه له^(١) . وقد حكى أيضاً أنه وجد لديه بعد نكبة البرامكة سبعمائة ألف درهم . ويظهر أن محمد بن يحيى كان - على العكس من إخوته - يحيا حياة مقصورة نوعاً ما ، فلم يكن يعاباً بالناس ، أو يلتمس حسن رأيهم . ولعل من خير ما يمثله وإخوته ما قاله إبراهيم الموصلي ، حين طلب إليه أبو النجم القائد ، أجد الدعاة ، أن يصف له ولد يحيى بن خالد ، فقال : « أما الفضل فيرضيك بفعله ، وأما جعفر فيرضيك بقوله ، وأما محمد فيفعل بحسب ما يجد ، وأما موسى فيفعل مالا يجد »^(٢) .

١٢٠ : إسماعيل بن نبيخت (٧٢ : ١١)

هو إسماعيل بن أبي سهل بن نوبخت ، كما يذكر اسمه ابن منظور^(٣) وابن أبي أصيبعة^(٤) . وقد كان آل نوبخت من سراة البصرة ، ومن أكبر الأسر التي كانت مألفاً للشعراء والأدباء فيها . ولعل أول ما رفع من شأن هذه الأسرة هو التحاق أبي سهل ابن نوبخت بخدمة المنصور ، وكان رجلاً مثقفاً بثقافة قومه من التطيب والتنجيم ، وقد كان صديقاً لأبي اللجلاج متطبب المنصور ، فأفاد من ذلك مالا ومكاناً ، فنشأ أبناؤه في البصرة نشأة مرفهة ، ونعرف منهم إسماعيل هذا ، وإسحاق بن أبي سهل^(٥) ، وسليمان^(٦) ، وعبيد الله^(٧) ، ثم الحسين بن إسماعيل^(٨) .

ومن أشهر الشعراء الذين كانوا يألفون آل نوبخت أبو نواس^(٩) ، وقد احتفظ لنا ديوانه بقدر من شعره فيهم ، وأكثره هجاء لهم ، ومساجلات بينه وبينهم . وما ندرى لعل ذلك كان من قبيل المعابثة .

(١) الوزراء والكتاب للجيشياري ص ٢٤١ - ٢٤٢ .

(٢) الوزراء والكتاب للجيشياري ص ١٩٨ .

(٣) أخبار أبي نواس ص ١٤٢ .

(٤) عيون الأبناء في طبقات الأطباء ١ : ١٥٢ .

(٥) لسان الميزان ١ : ٤٢٤ .

(٦) ديوان أبي نواس ص ١٤٢ ، أخبار أبي نواس ص ١٤٢ .

(٧) أخبار أبي نواس ص ١٩٩ .

(٨) ديوان أبي نواس ص ١٠٥ .

(٩) أخبار أبي نواس ص ١٤٢ .

وكان إسماعيل بن نوبخت هذا من جلساء المأمون ، كما يؤخذ من كلام طيفور^(١) .
وينبغي أن نشير هنا إلى أن إسماعيل بن نبيخت هذا ليس هو إسماعيل بن نبيخت
المتكلم المعتزلي الشيعي الذي ذكره صاحب لسان الميزان ، فهو متأخر من أبناء إسحاق
المتقدم ذكره^(٢) .

وفي كتاب أعيان الشيعة للعاملی فصل كبير قيم عن آل نوبخت^(٣) .

١٢١ - أبو الشمقمق (٧٢ : ١٦)

لقب الشاعر المغمور « مروان بن محمد » ، من أعظم شعراء عصره تعبيراً عن الفقر
وتسجيلاً لصور الجماعات الدنيا ، وخروجاً على التقاليد الشعرية التي ظلت باسطة
سلطانها في العصر الأموي ، في المعنى والأسلوب .

وهو من موالى مروان بن محمد ، آخر خلفاء الأمويين . وقد نشأ في البصرة ، بالبخرية
رهى - كما يقول ياقوت - سكة فيها ، أسكنها عبيد الله بن زياد أهل بخارى الذين نقلهم
من بخارى إلى البصرة ، وبني لهم فيها هذه السكة فعرفت بهم . ونقل المبرد عن أبي عبيدة
أنه - هو ومنصور بن زياد ويحيى بن سليم الكاتب - من أهل خراسان ، من بخارية
عبيد الله بن زياد^(٤) ، فيكون خراساني الأصل .

وكان قبيح الشكل ، وصف المرزباني خلقه فقال : «إنه كان عظيم الأنف ،
أهرت الشدقين ، منكر المنظر»^(٥) . ووصف ابن عبد ربه شيئاً من خلقه فقال : « وكان
أديباً ظريفاً محارفاً . وكان صعلوكاً متبرماً بالناس ، وقد لزم بيته في أطمار مسحوقه .
وكان إذا استفتح عليه أحد بابه خرج ، فينظر من فروج الباب ، فإن أعجبه الواقف
فتح ، وإلا سكت عنه»^(٦) .

وشعره - بالقدر الذي وصل إلينا - صورة صادقة من هذا الخلق ، ومن إحساسه
بالفقر . وقد وصف مظاهر فقره وصفاً رائعاً ، منه الساخر ومنه الحزين . فن الأول تلك

(١) تاريخ بغداد لطيفور ص ٢٩٩ .

(٢) لسان الميزان ١ : ٤٢٤ .

(٣) ٥ : ٣٩ - ٤٩ .

(٤) الكامل للمبرد ٢ : ٢٤٢ ط الأزهرية .

(٥) معجم الشعراء للمرزباني ص ٣٩٧ .

(٦) العقد الفريد ٣ : ٣٤٣ ط ١٢٩٣ ، ٥ : ٦ : ٢١٥ ط لجنة التأليف ، ١٩٤٩ م .

القطع الأربعة الجميلة التي أوردتها الجاحظ ، وقد وصف فيها بيته . وأخذ يواسى سنوره مواساة ظريفة لخلوه من الفيран ، إلى غير ذلك من الصور الطريفة التي أداها تأديفة لطيفة^(١) ومن ذلك أيضاً ما أوردته ابن عبد ربه بعد ذلك الحديث الذي قدمنا طرفاً منه في وصف خلقه . ومن شعره الحزين قطعة صغيرة أوردتها الجاحظ ، ويظهر أنه نفث بها وهو بالأهواز ، ملتصقاً سبباً من أسباب العيش ، ولعله قالها في تلك المرة التي قصد فيها الأهواز ، حين كان بها عمر بن مساور الكاتب متقلداً بعض أعمالها ، فرده - فيما يظهر - خائباً ، وقد هجاه بأبيات أوردتها الجاهشياري^(٢) .

وأما تبرمه بالناس فيظهر في كثرة أهاجيه للأمرء والشعراء . وقد أورد الجاحظ وغيره قدرًا صالحاً من هذا في مواضع مختلفة^(٣) .

والميزة الواضحة التي يمتاز بها شعر أبي الشمقمق هي شعبيته ، وقد كان ينافس بشاراً في هذا . بل إن في القصة التي يوردها أبو الفرج ، من مطالبته بشاراً بالعتاء ، وتهديده بالهجاء ، على ذلك النحو الخاص الذي ورد في تلك القصة ، ما يدل على تقدير بشار للناحية « الشعبية » في شعره^(٤) .

وإذ كان هذا الشعر قوى التجاوب مع أحاسيس الشعب ، فقد تحفى الشعب به ، ولعل فيما يذكره الجاحظ عن ديوانه ، واحتفال بعض الناس به ، ما يدل على هذا الاتجاه^(٥) .

أما شعر أبي الشمقمق الذي أوردته الجاحظ هنا في « البخلاء » فقد ورد فيه نص عن الجاحظ ، في كتاب البخلاء للخطيب البغدادي : « قال أحمد بن منصور المرووذى : قال لى الجاحظ - وأنا أقرأ عليه كتابه في البخلاء ، وتذاكرنا ما دقق الشعراء فيه من ذم البخلاء - : لا أعرف شيئاً أبلغ في الهجاء بالبخل من قول أبي الشمقمق . وذكر البيت : « وما روحتنا . . إلخ » ، وبيتاً آخر له » ، ثم قال الخطيب : « وقد روى هذا الشعر لغير أبي الشمقمق »^(٦) .

(١) الحيوان ٥ : ٢٦٤ - ٢٦٩ ط الحلبي .

(٢) الوزراء والكتاب ص ٢٣٢ ط الحلبي .

(٣) انظر مثلاً : الكامل للمبرد ٢ : ٢٤٢ - ٢٤٤ ، الحيوان ١ : ٢٦٣ - ٢٦٤ ، ٣٥٥ ،

٤ : ٤٥٤ ، ثمار القلوب ص ٤٣٥ .

(٤) الأغاني ٣ : ١٩٤ .

(٥) الحيوان ١ : ٦١ .

(٦) انظر المحاسن والمسائى لليحيى ص ٧٧ .

١٢٢ - الجواز (٧٣ : ٣)

هو أبو عبد الله محمد بن عمرو ، ما جن من أصحاب النادرة بالبصرة ، من أسرة سلم بن عمرو الحاسر ، وهم تميمون بالولاء ، وإن « كانوا يزعمون أنهم من حمير صليبية ، نالهم سباء في خلافة أبي بكر ، فهم مواليه »^(١) وقد نشأ في البصرة رفيقاً لأبي نواس ، وإن كان أكبر سنّاً منه^(٢) ، وكانا يجلسان معاً إلى أبي عبيدة ، وقد دخل بغداد في أيام الرشيد ولم يستوطنها ولم يعد إليها إلا في أيام المتوكل ، وقد كانت سوق النادرة ائجة عنده ، ولكن الجواز كان قد أسن ، فلم يعيش بعد ذلك إلا قليلاً .

ويصفه المرزباني بأنه صاحب مقطعات ، ولم يكن له إطالة ، وكان ماجناً خبيث اللسان^(٣) . ومن مقطعاته القصيرة هذه قطعة في أبي العتاهية يعرض فيها بزهدياته ، وأخرى في هجاء إبراهيم الزيادي ، وثالثة في هجاء الجاحظ ومعايشته ، وله مقطوعات ماجنة أوردتها الجاحظ في الحيوان ، وابن الشجري في حماسته^(٤) . أما نوادره فقد عني الحصري بجمع طائفة غير قليلة منها^(٥) .

١٢٣ - يوسف بن عمر (٧٤ : ٤)

أحد ولاية بني أمية الذين عرفوا بالعنف والعتو والقسوة . وهو يوسف بن عمر بن محمد بن الحكم بن أبي عقيل الثقفي ، ابن ابن عم الحجاج بن يوسف ، يجتمعان في الحكم ، كما كانا يجتمعان في أسلوب الحكم . فكانت أيام ولايته الكوفة تذكر الناس بأيام الحجاج . وكان من الأقوال السائرة قولهم : « ما أشبه زمان يوسف بن عمر بزمان الحجاج »^(٦) . ويقول ابن خلكان : « وكان يوسف يسلك طرائق ابن عم أبيه الحجاج ابن يوسف في الصرامة والشدة في الأمور ، وأخذ الناس بالمشاق . ولم يزل على ذلك إلى حين عزله »^(٧) ومن أجل ذلك « كان يضرب به المثل في التيه والحقق . ذكر ذلك حمزة

(١) جمع الجواهر للحصري ص ٩٤ .

(٢) تاريخ بغداد للخطيب ٣ : ١٢٥ .

(٣) معجم الشعراء ص ٤٣١ .

(٤) الأغاني ٤ : ٧٦ ، معجم الأدباء ١ : ١٦٠ ، ثمار القلوب ٣٢٢ ، الحيوان ١ : ١٧٥ ،

حماسة ابن الشجري ص ٢٧٥ .

(٥) انظر مثلاً الصفحات : ٧ ، ٢٢ ، ٩٣ - ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٧ ، ٢٠٢ .

(٦) البيان والتبيين ٣ : ١٨٠ .

(٧) وفيات الأعيان ٢ : ٤٧٨ ط بولاق ١٢٩٩ .

الأصبهاني في كتاب الأمثال ، فقال : قولم أتية من أحمتك ثقيف ، هو يوسف بن عمر .
كان أتية وأحمتك عربي أمر ونهى في دولة الإسلام» (١).

وكان قبل ولايته العراق والياً على اليمن في أيام هشام بن عبد الملك ، وأبلى بلاء حسناً
في حرب عباد الرعيبي الخارجي (٢). فكان ذلك مما رفع من شأنه عند الخليفة ، فما إن
غضب على خالد القسري ، وعزله عن العراق سنة ١٢٠ ، حتى كتب إليه بتوليته عليها ،
فضى إليها واصطنع العنف فيها . وجعل يتعقب أسرة سلفه ، فحبس خالد بن عبد الله
مع أخيه إسماعيل بن عبد الله ، وابنه يزيد بن خالد ، وابن أخيه المنذر بن أسد بن
خالد ، كما أودع السجن بعض عمال خالد كبلال بن أبي بردة ، وقد مات في
سجنه ، كما مات خالد . «وتبى يوسف والياً على العراق إلى أن بويع يزيد بن الوليد سنة
ست وعشرين ومائة ، فاستعمل منصور بن جمهور على العراق . فلما سمع ذلك يوسف
هرب إلى الشام ، فظفر به هناك فسجن . فلما مات يزيد واضطرب أمر مروانية بطش
يزيد بن خالد القسري بيوسف بن عمر ، فقتله في السجن ، وأدرك بثأر أبيه منه» (٣).

١٢٤ - عوف بن القعقاع (٧٤ : ١١)

هو عوف بن القعقاع بن معبد بن زرارة بن عدس ، تسمى دارى ، عداده في
أعراب البصرة ، ويعد في الصحابة ، لأنه وفد مع أبيه على النبي صلى الله عليه وسلم (٤)

١٢٥ - طفيل (٧٨ : ١٤)

ذكره الثعالبي فقال : « طفيل العرائس ، ويقال له طفيل الأعراس . وهو من غطفان ،
ويقال إنه من موالى عثمان بن عفان ، رضى الله تعالى عنه . وكان يتبع الأعراس فيأتيها
من غير أن يدعى إليها . وهو أول من فعل ذلك ، وإليه ينسب الطفيليون . وكان يقول :
وددت أن الكوفة بركة مصهرجة ، فلا يخفى على من أعراسها شيء » (٥).

(١) المصدر نفسه ٢ : ٤٧٩ .

(٢) تاريخ الطبرى حوادث سنة ١٠٧ .

(٣) التنبيه لأبي بكرى ص ١٠٣ ط دار الكتب المصرية .

(٤) أسد الغابة ٤ : ١٥٦ ط جمعية المعارف المصرية ، ١٢٨٦ هـ .

(٥) ثمار القلوب ص ٨٤ . وقارن هذا النص بما ذكره ابن السكيت في إصلاح المنطق ٣٥٥ - ٣٥٦

وقد أورد ابن قتيبة وصيته التي يوصى بها أصحابه ، وهي : « إذا دخلت عرساً فلا تتلفت تلفت المريب ، وتخير المجالس ، وأجد ثيابك ، واعمل على أنها العقدة التي تستغل . وإن كان العرس كثير الزحام فر وانه ، ولا تنظر في عيون أهل المرأة ، ولا عيون أهل الرجل ، فيظن هؤلاء أنك من هؤلاء ، وهؤلاء أنك من هؤلاء . وإن كان البواب غليظاً وقاحاً ، فابدأ به ، ومره وانبه ، من غير أن تعنف عليه . وعليك بكلام بين النصيحة والإدلال »^(١).

وقد كتب الجاحظ في « الطفيليين » كتاباً ذكره ياقوت في فهرست كتبه ، ولم يصل إلينا . ومن بعده صنف الخطيب البغدادي كتاباً في « التطفل وحكايات الطفيليين وأخبارهم » ، وقد أورد فيه تاريخ هذا النوع من الحياة ، كما سرد طائفة مما قيل فيه من الطرائف . وقد ذكر فيه طفيلاً هذا . وروى عن أبي عبيدة أنه كان من بني هلال ، وأنه كان ينزل حفر أبي موسى (وهي على جادة البصرة إلى مكة ، كما يقول ياقوت) ، واسمه طفيل بن زلال ، فكان هو أول من طفل ، وأبوه أول من زل .

١٢٦ - أبو اليقظان (٧٨ : ١٧)

هو سحيم بن حفص ، راوية أخباري ، عالم بالأخبار والأنساب والمآثر والمثالب ، ثقة فيما يرويه ، كما يقول ابن النديم ، وقد عاش إلى سنة ١٩٠ ، وهو أستاذ المدائني . وكان يطلق عليه ، فيما يحكى هو عن نفسه ، عدة أسماء ، فيسميه أبا اليقظان ، وسحيم ابن حفص ، وعامر بن حفص ، وعامر بن أبي محمد ، وعامر بن الأسود ، وسحيم بن الأسود ، وعبيد الله بن حفص ، وأبا إسحاق^(٢) . وقد روى عنه الجاحظ قطعة من الرجز ، في وصف الخطيب الذي تعرض له النحنحة والسعلة^(٣) .

١٢٧ - معبد (٨٢ : ١)

لعل معبدا هذا الذي كان ينزل دار الكندي ، والذي يحكى عنه الجاحظ قصته هنا ، هو معبد المتكلم الذي يشير إليه في سياق المناظرة بين صاحب الديك وصاحب

(١) عيون الأخبار ٣ : ٢٢٢ .

(٢) الفهرست ص ١٣٨ .

(٣) البيان والتبيين ١ : ٤٨ ط ١٩٣٢ م .

الكلب ، ويصفه هو والنظام بأتهما من عليه المتكلمين ، ومن الجلة المتقدمين ، وأنهما من جلة المعتزلة ، وهم أشرف أهل الحكمة^(١) .

١٢٨ - « وكان في ذلك يتنزل عليهم » (٨٢ : ٥)

التنزل بالمعنى الذى يمكن أن يفيدته السياق هنا - وهو قول الجاحظ عن الكندى إنه كان يتنزل على السكان فيما يأخذ منهم - لم يقع لى فى المعاجم . على أن هذه الكلمة وردت فى كلام البلاذرى ، فى أثناء كلامه عن يوم الربذة ، مقرونة بما يعين المعنى ، إذ يقول : « وكانوا يتنزلون على الناس ، ولا يعطون لشيء ثمناً »^(٢) .

١٢٩ - آبار الزدو (٨٣ : ٢)

المقصود بها هنا الحفائر التى يحفرها الصبيان فى لعبة « الزدو » ، وتسمى الحفيرة التى تحفر لذلك « المرداة » ، وهى التى يلتقى فيها بالجوز الذى يلعب به .

وتسمى هذه اللعبة أيضاً « خسا زكا » ، إذ كان هذان اللفظان هما الكلمتان الاصطلاحيتان فى هذه اللعبة ، ومعناها فرد وزوج . وأساس اللعبة هو إخفاء الجوز أو الحصا والسؤال عنه : خسا أم زكا ، كأنما هى نوع من لعب المقامرة عند الصبيان . وبهذا الاسم ذكرها الشاعر فى قوله :

وشر أصناف الشيوخ ذو الريا أخصس يحنو ظهره إذا مشى
الزور أو مال اليتيم عنده لعب الصبي بالحصى « خسازكا »
كما اشتق منه فقيل : هو يخسى ويزكى ، أى يلعب هذه اللعبة ، وخاساه أى لاعبه
إياها^(٣) .

١٣٠ - المنحاز (٨٤ : ١٠)

هكذا جاءت الكلمة فى الأصل ، مع نقطة تحت الحاء ، فجعلها « فان فلوتن »

(١) انظر الحيوان ١ : ٣٥٦ ، ٢٠٠ ، ٢١٦ ط الخلبى .

(٢) أنساب الأشراف ٥ : ١٥١ .

(٣) انظر فى هذا مثلا لسان العرب فى مادة زدا وسدا وزكا وخسا . وانظر أيضاً ما كتبه الدكتور

داود الجلبى عن هذه اللعبة فى مجلة المجمع العلمى العربى ، ٢٠ : ٥ - ٦ (أيار وحزيران ١٩٤٥) ص ٢٥٦ .

المنجان ، تحكما ، ولا معنى لها ، وجعلتها طبعة وزارة المعارف « الميجان » ، وتكلفت لها . وهذا كله إغراب ، والقريب الصحيح هو المنحاز ، كما أثبتنا . وقد قال أبو علي : « والهرس والوهس دقك الشيء وبينه وبين الأرض وقاية ، ومثله نحزت أنحز نحزاً ، ومنه المنحاز ، وهو الهاون »^(١) وكذلك نقل السيوطي عن الجمهرة أن الهاون يسمى المنحاز والمهراس^(٢) .

١٣١ - الخشكار (٩٦ : ٦)

يقول أدى شير في كتابه « الألفاظ الفارسية المعربة » : « الخشكر ما خشن من الدقيق ، فارسيته خشكار وهو القصرى . والقصرى ، كبشرى ، ما بقى في المنخل بعد الانتخال ، أى ما نسميه بالنخالة .

١٣٢ - النفاطات والقيارات (٩٨ : ٨ - ٩)

هى الأمكنة التى يكون فيها النفط والقير ، كما يقال ملاحه لموضع الملح ، وزراعة لموضع الزرع . والنفط والقير معدنان كثيرا الوجود بالعراق ، كما هو معروف ، وهما معروفان هنالك منذ القدم . حتى إنه ليقال إن كلمة « نفط » سامية قديمة ، ولفظها قريب في العبرية والسريانية والعربية ، ومن هذا الأصل جاءت الكلمة اليونانية وقد جاءت كلمة « النفط » في شعر بشار ، إذ يقول :

وما كلمتى دارها ، إذ سألتها وفى كبدى كالنفط شبت به النار^(٣)

وقد أشار ابن جبير فى رحلته إلى قيابة بين البصرة والكوفة . ولعل هناك صلة بين ذلك المكان وبين المكان الذى كان يسمى بذى قار .

ويظهر أن ولاية النفاطات كان عملا من أعمال الدولة . فقد روى البيهقي أن عبد الصمد بن المعتدل كتب إلى صديق له ولى النفاطات ، فأظهر تها :

لعمري لقد أظهرت تها كأنما توليت للفضل بن مروان منسبرا

(١) الأمالى ٢ : ٢٧ .

(٢) الزهر ص ١٦٦ .

(٣) الأغاني ٦ : ٢٤٦ .

وما كنت أخشى لو وليت مكانه على - أبا العباس - أن تتغيرا
 بحفظ عيون النفط أظهرت نخوة فكيف به لو كان مسكاً وعنبراً
 دع الكبر واستبق التواضع ، إنه قبيح بوالى النفط أن يتكبيرا^(١)

ونستطيع أن نعرف وصف هذه القيارات ، والوجوه التي كانت تستعمل فيها ، من مراجعة مثل ما كتبه ابن فضل الله العمري عن دير القيارة مثلاً ، وما كتبه ياقوت عن هذا المكان^(٢).

١٣٣ - قيس بن زهير (٩٩ : ٣)

شخصية من شخصيات الجاهلية التي تمثل أخبارها صفات البطولة العربية ، وكان كأكثر أبطال ذلك العهد يعيش في الفترة التي انتهت بظهور الإسلام ، وأبوه زهير بن جذيمة العبسي ، أمير عبس ، وسيد العرب وهوازن خاصة ، وكانت « هوازن بن منصور لا ترى زهير بن جذيمة إلا ربا » ، كما يقول أبو عبيدة^(٣) . ولكنه لم يلبث أن قتله خالد ابن جعفر بن كلاب . وكثير من أخبار قيس بن زهير تدور حول الثأر لأبيه ، وهو بطل يوم داحس والغبراء^(٤) . وينهى ابن الأثير حياته بأنه « تاب إلى ربه ، فتنصر وساح في الأرض حتى انتهى إلى عمان ، فهرب بها زماناً ، فلقبه حوج بن مالك العبدي ، وقال : لا رحمى الله إن رحمتك » .

وقد حكى الميداني طرفاً مما يؤثر عنه من العبارات الحكيمة^(٥) .

١٣٤ - خازم بن خزيمة (٩٩ : ٣)

يذكره الخطيب في الكلام عن دار خازم ، إذ يقول : « وأما دار خازم ، فهو خازم بن خزيمة النهشلي . وهو أحد الجبابرة ، قتل في وقعة سبعين ألفاً ، وأسر بضعة

(١) المحاسن والمساوى ص ١٨٢ .

(٢) مسالك الأبصار ١ : ٣٠١ ، معجم البلدان ٤ : ١٦٦ .

(٣) الأغاني ١١ : ٨٢ .

(٤) القنائص بين جرير والفرزدق ١ : ٧٦ ، الكامل لابن الأثير ١ : ٣٤٣ .

(٥) مجمع الأمثال ١ : ٢٨٤ - ٢٨٥ .

عشر ألفاً ، فضرب أعناقهم وذلك بخراسان» (١) .

أما قسوته هذه فتتفق مع العصر الذي كان فيه ، وهو عصر تأسيس الدولة العباسية وتوطيدها ، وكان ذلك محتاجاً لهذه القسوة التي غمرت مظاهرها تلك الفترة كلها . ويعتبر خازم بن خزيمة من القواد الذين شاركوا مشاركة قوية فعالة في إخماد الثورات التي كانت تثور ضد الدولة هنا وهنا . فهذه ثورة بالمدائن يقوم بها بسام بن إبراهيم بن بسام ، وهذه أخرى بعمان يثيرها شيبان الخارجي ، وهذه ثالثة بالجزيرة عند الموصل يثيرها خارجي آخر يقال له الملبد ، وها هم أولاء الراوندية يحاولون أن يثاروا لأبي مسلم الخراساني في مقر الخلافة نفسه ، وها هي ذى خراسان تضطرب ويكاد أمر الدولة يفسد فيها ، منذ ثار عبد الجبار بن عبد الرحمن . ثم ها هو ذا الأصهبذ بطبرستان يرى الفرصة سانحة لينقض عهد المسلمين ، فيأخذ في حرب الدولة . كل هذه الثورات التي جعلت تثور متوالية كان خزيمة بن خازم صاحب الفضل الأكبر في إخمادها (٢) .

وقد خلف خازم بن خزيمة أبناء له ، سلكوا مسلكه ، فكانوا من قواد الرشيد ، منهم خزيمة ، وقد عاش - كما يقول الخطيب - إلى أيام الأمين (٣) ؛ ومنهم إبراهيم ، وقد فتك به الوليد الشاري بنصيبين (٤) .

١٣٥ - هرثمة بن أعين (٩٩ : ٤)

قائد من قواد الرشيد والأمين ، وهو خراساني ، وقد كان في أيام أبي جعفر من أنصار عيسى بن موسى ، فحمل من خراسان إلى بغداد في السلاسل ، من أجل ذلك (٥) وقد بقى - فيما يظهر - مغموراً مدة المنصور والمهدى والهادي ، فما يكاد يذكر . فإذا كانت أيام الرشيد وجدناه عاملاً له على فلسطين ، ثم رأيناه متجهاً إلى مصر ، يقمع فتنة قام بها أهل الحوف من قيس وقضاة ، وقد نجح في قمعها ، فولى مصر نحواً من شهر ، ثم تحول عنها ليطفيء فتنة قامت في أفريقية ، وكذلك ولها ، ثم عزل عنها ، وتولى حرس جعفر بن يحيى .

(١) تاريخ بغداد ١ : ٨٩ .

(٢) انظر تاريخ الطبري وخاصة الجزء التاسع ، في عهد السفاح وأبي جعفر .

(٣) تاريخ بغداد ١ : ٩٢ .

(٤) تاريخ الطبري ١٠ : ٦٢ .

(٥) تاريخ الطبري ٩ : ٢٨٤ .

ولعل المهمة الكبرى التي قام بها هرثمة هي انضمامه إلى المأمون ، وقيادته الجيوش له في الزحف إلى بغداد ، وحصارها ، وقد أبلى في ذلك بلاءً مذكوراً ، كما أبلى بعد ذلك في حرب أبي السرايا ، وتصفية الجو للمأمون .

وقد حدث بينه وبين الفضل بن سهل شيء فدبر له حتى حبسه ، ثم دس عليه فقتل في محبسة سنة ٢٠٠ (١) .

١٣٦ - الشبوط (١٠٠ : ١٥)

نوع من السمك وصفه صاحب القاموس بأنه « دقيق الذنب ، عريض الوسط ، لين المس ، صغير الرأس ، كأنه بربط » ، كما ذكره الفريق أمين المعلوف بهذه الصفة تقريباً ، وقال إنه كثير في دجلة . وقد وضع بإزاء كلمة شبوط وسبوط هاتين الكلمتين Carpi, Cyprinus (٢) :

وقد ذكره الجاحظ غير مرة . فذكره في سياق القول بالخلق المركب . وفي الرد على من زعم أنه ولد الزجر من البني ، وذكر بعض خواصه فقال : إنه جنس كثير الذكور قليل الإناث ، وإنه أكثر سمك نهر « رامهرمز » ، وإنه لا يترتب في البحار ، ولا يسكن إلا في الأودية والأنهار ، ويكره الماء المالح ، ويطلب الأعذب فالأعذب ، ويكون في الماء الجارى ، ولا يكون في الساكن (٣) .

ووصفه مرة أخرى فقال : « وأطيب ما في الأنهار من السمك : وأحسنها قدوداً وخرطاً ، وأسبغها سبوطاً ، وأرفعها ثمناً ، وأكثرها تصرفاً في المالح والطرى ، وفي القريس والنبوط الشبوط » (٤)

١٣٧ - السدرى (١٠٠ : ١٩)

أحد الشعراء المغمورين في عصر الجاحظ . وقد ترجم له المرزباني ترجمة قصيرة فقال : « السدرى ، أبو نبقة ، محمد بن هشام بن أبي خميسة . مولى لبني عوال . فاشترى المتوكل ولاءه بثلاثين ألف درهم . وكان يصحب الجماز وعبد الصمد بن المعدل والجاحظ وأدباء

(١) راجع الطبرى في حوادث خلافة الرشيد ثم الفتنة ثم سنة ٢٠٠ .

(٢) معجم الحيوان ، ص ٥٢ ، ط المقتطف ١٩٣٢ .

(٣) الحيوان ١ : ١٥١ .

(٤) الحيوان ١ : ٢٣٣ - ٢٣٤ .

البصرة» ، ثم ذكر له مقطوعتين قصيرتين من الشعر الساخط : إحداهما في رجل من الوجوه قصده ، فأبطأ إذنه ، والأخرى في هجاء الزياديين (١) .

وذكره القالي في أثناء الحديث عن المفضليات ، فوصفه بأنه بصرى من أصحاب الأصمعي ، مع أبي العالية الأنطاكي ، وعافية بن شبيب (٢) . وكذلك نجد أبا الفرج يسند إليه حديثاً عن الأصمعي في شعر أبي العتاهية (٣) .

أما الجاحظ فيروى عنه بيتاً من الشعر يقول إنه أنشده إياه (٤) .

١٣٨ - الخيش (١٠٢ : ٧)

يقول الجاحظ في حديث أسد بن جاني : إنه كان إذا جاء الصيف ، وجر عليه البيت ، أثار الأرض بالمسحاة ، ثم غمره بالماء ووطأه . فلا يزال البيت بارداً ما دام ندياً . ثم يحكي عنه أنه كان يقول عن ذلك : « خيشي أرض وماء خيشي من بئري » . والعبارة غامضة غير مفهومة ، حتى يعرف المراد بالخيشة هنا .

وقد وردت كلمة الخيش في بعض النصوص مشيرة إلى أن المراد بها نوع من الجواسق يجلس فيه صيفاً . فقد حكى الصولي أن العباس بن رستم قال : « دخلت مع أبان بن عبد الحميد على عنان جارية الناطقي ، وهي في خيش ، فقال لها : « العيش في الصيف خيش » ، فقالت بسرعة : « إذ لاقتال وجيش » (٥) .

ومن ذلك أيضاً ما ذكره الجاحظ في البخلاء (٦) : « لو كانوا إذ جلسوا في الخيوش ، واتخذوا الحمامات في الدور ، وأقاموا وظائف الثلج والريحان إلخ » ، وكذلك ما ذكره في رسالته « صناعات القواد » بين الأبيات التي أوردها على لسان محمد بن داود الطوسي الفرائش ، إذ يقول :

(١) معجم الشعراء ص ٤٣١ .

(٢) ذيل النوادر ص ١٣٠ .

(٣) الأغاني ٤ : ٣٩ - ٤٠ .

(٤) الحيوان ٣ : ١١١ .

وانظر فوق هذا قصته مع عبد الصمد بن المنذر في الأغاني ١٢ : ٦٥ - ٦٦ ، وبعض أخباره مع

أبي شراة الشاعر في الأغاني أيضاً ٢٠ : ٣٦ - ٣٧ .

(٥) الأوراق للصولي قسم أخبار الشعراء ، ص ٢٣ ، ط الصاوي .

(٦) البخلاء ص ٢٠٥ .

حين هيات بيت خيش من الوص ل لأبوابه ستور البهاء^(١)
فكلمة « الخيش » في مثل هذه النصوص لا تدل إلا على ذلك النوع من الخواصق^(٢)
ولكن هذا المعنى لا نحسب أنه مراد هنا في كلام أسد بن جاني ، إذ لا يستقيم الكلام به .
ويغلب على الظن أن تكون كلمة « خيش » مأخوذة من كلمة « كاشان » الفارسية ، ومعناها
« بيت الصيف » ، كما ذكر ادى شير^(٣) لا من الخيش بمعنى القماش الغليظ المتخلخل .
على أنا نحسب أن لكلمة « خيش » استعمالاً آخر غير هذا الاستعمال
هو المقصود هنا ، وهو الذى يعنيه الجاحظ في قوله : « ولم صب الزردج ، واستخراج
النشاستج ، وتعليق الخيش »^(٤) كما جاءت في بعض شعر الشعراء في القرن الرابع ،
كذلك الشاعر الذى يسخر من شعر الصولى بقوله :

دارى بلا خيش ، ولكنى عقدت من خيشى طاقين
دار متى ما اشتد بي حرها أنشدت للصولى بيتين^(٥)

وكما يقول الشاعر البغدادي ابن سكره ، محمد بن عبد الله الهاشمي^(٦) :

يا سائلى عن ليلة لى مضت وطيبها عند أبى الخيش
وكيف غنت « خمرة » ، لا تسل غنت فأغنتنا عن الخيش
فالمقصود بالخيش هنا ، وفي مثل ما دار بين ابن فارس وأبى الفتح ابن العميد ، مما
ذكره ياقوت في معجمه^(٧) ، إنما هو مروحة الخيش التى قال الشريشى في شرحها :
« هذه المروحة تستعمل ببلاد العراق ، تكون شبه الشراع للسفينة ، وتعلق من سقف
البيت ، ويشد بها حبل ، ويدار بها ، وتبل بالماء وترش بماء الورد . فإذا أراد الرجل في
القائلة أو الليل أن ينام يجذبها بجبلها ، فتذهب بطول البيت وتجيء . فهب على الرجل منها
نسيم طيب الريح بارد »^(٨) .

(١) رسائل الجاحظ (مجموعة السندوني) ص ٢٦٥ .

(٢) انظر ما ذكره الطبرى في أخبار المصور (٩ : ٣٠٦) من اتخاذ الخيش ينصب له على قبة .

(٣) الألفاظ الفارسية المعربة ص ١٣٦ .

(٤) الحيوان ١ : ٨٢ .

(٥) والبيتين رواية أخرى في كتاب نثر النظم وحل العقد للشعالي (ص ١١٨ ط مصر ١٣١٧) دلى

عليها الأستاذ ناجي محفوظ بكاطمية بغداد .

(٦) أليتيمة ٣ : ١٢ .

(٧) معجم الأدباء ١٤ : ٢٠١ .

(٨) شرح مقامات الحريري ٢ : ٢٨٨ .

وبهذا المعنى يستقيم كلام أسد بن جاني ، فهو يشبه أرضه المنداة بماء البئر ، بتلك المروحة ، دون أن يتكلف في ذلك ما تكلفه هذه المروحة .

١٣٩ - أبو عبد الرحمن الثوري (١٠٣ : ٢)

لم أجد أبا عبد الرحمن الثوري هذا في غير كتاب البخلاء ، على كثرة ما التمسته . على أنا ينبغي أن نشير هنا إلى شخصية أخرى بهذا الاسم ، وهي شخصية المبارك الثوري ، أبي عبد الرحمن ، أخي أبي عبد الله سفيان الثوري^(١) . وليس به قطعاً .
وما يجب أن نشير إليه ما ارتكبه دار الكتب من خطأ شنيع ، في الفهرست الذي وضعته لكتاب عيون الأخبار ، إذ خلطت بين أبي عبد الله الثوري . وأبي عبد الرحمن المذكور في كتاب البخلاء .

وبعد ، فإن أبا عبد الرحمن هذا كان - كما يؤخذ من كلام الجاحظ عنه - سرياً من سراة البصرة ، يملك خمسمائة جريب من أكرم الأرض ، وكان يصطنع التجارة ، وكان ينزل بغداد عند مسجد ابن رغبان ، وكان رجلاً شديد العارضة غضب اللسان ، وقد جرد في الانتصار للبخل والمدافعة عنه كتاباً ، كما صنع سهل بن هارون ، وكان - فيما يظهر - رجلاً متأدباً يروي الآثار المختلفة مثقفاً بثقافة عصره^(٢) .

١٤٠ - نهر مرة (١٠٣ : ٣)

هو نهر بالبصرة إلى ناحية نهر الأبله ، منسوب إلى مرة بن أبي عثمان ، مولى عبد الرحمن بن أبي بكر ، إما لأنه ولي حفرة ، فنسب إليه ، وإما لأن الأراضى التي كانت عليه ، كانت قطيعة له^(٣) .

١٤١ - « فان النوى تعقد الشحم في البطن » (١٠٣ : ٩)

لعل هذا متأثر بعادة كلدانية قديمة ذكرها لنورمان Lenormant في كتابه « التاريخ

(١) تاريخ بغداد ١٣ : ٢١٨ .

(٢) يحسن أن نشير هنا إلى أن القول الذي ينسب الجاحظ إليه في إشار الرويس ، نرى نظيراً له في كتاب البخلاء للخطيب البغدادي (ورقة ٢٢) ، منسوباً إلى مروان بن أبي حفصة .

(٣) فتوح البلدان للبلاذري ص ٣٥٤ ، ٣٥٥ ، معجم البلدان ٨ : ٣٤٥ .

القديم للشرق » ، إذ ينتقل بعض ما حكاه بلين pline وتيوفريست Théophraste وسترابون Strabon عن وجوه الانتفاع بالنخيل عند الشعب الكلداني ، ومنها أن نوى التمر كان يذوق وينقع ، ويتخذ طعاماً للأبقار والحراف فيسمنها^(١) .

١٤٢ - النعال السندية (١٠٤ : ٥)

صنف خاص من النعال ذكره الجاحظ في رسالة التربيع والتدوير ، بما يؤخذ منه أنها نعال ثخينة ، لها صرير عند المشي بها . قال : « وقد اختلفوا علينا في النعال السندية ، فزعم قوم أن صاحب كتاب الباه كان قصيراً منكراً ، وكان بالنساء مستهتراً ، وأنه احتال بها بلجسمه ، حتى وصلها برجله ، ليكون ثخنها زائداً في طوله . فلما طالت الأيام ومضت الدهور ، ظن من لا علم له أنها اتخذت للزينة ، أو لضرب من المرفق . وقال آخرون : بل اتخذت للعقارب ليلا وللطين نهاراً ، فلما طال عليها الدهر نسي السبب ، وذلك أن أكثر الرداغ لا تستغرق ثخنها ، وإبرة العقرب لا تكاد تجاوزها . وقال آخرون : بل إنما اتخذتها ملوكها لمكان أصواتها وصريرها ، استئذاناً على أزواجها وأمهات أولادها ، وعلى جميع محارمها ، لحالات تكن عليها ، وأمور تكن فيها . فصار صريرها تديناً واستئذاناً^(٢) .

وكذلك نرى هذه النعال وصفت بأنها صرارة في قصيدة لأبان اللاحق ، إذ يقول :

ونعال سندية صرارة^(٣)

كما يؤخذ من نص « البخلاء » أن هذه النعال كانت - فوق هذا - غير مشرقة .

١٤٣ - سوق الأهواز (١٠٤ : ١٦)

هو أحد المواضع الوبئة التي كان يضرب بها المثل في فساد الهواء واعتلال الصحة . وهو قصبه بلاد الأهواز أو « خوزستان » أو ما يسمى الآن « عربستان »^(٤) . وقد يجترأ

(١) Histoire ancienne de l'Orient, vol. 4, p. 7.

(٢) رسائل الجاحظ (مجموعة السندوي) ص ٢٣٠ .

(٣) كتاب الأوراق للصفوي ، قسم أخبار الشعراء ، ص ٢٧ .

(٤) I.e Strange, The Lands of the Eastern Caliphate, p. 232, Cambridge, 1905.

عن « سوق الأهواز » فيقال « الأهواز » ، كما كان يكتب بإطلاق كلمة « السوق » وحدها عليه ، كما في شعر عبد الله بن الزبير الأسدي :

فأضحى ولو كانت خراسان دونه رآها . وكان السوق أو هي أقرباً^(١)

وهي تقع على نهر دجيل الأهواز ، أو ما يسمى الآن نهر قارون ، وبينها وبين البصرة ٣٦ فرسخاً^(٢) وقد عرض لها الجاحظ في باب (القول في الحيات) ، عند كلامه عن تأثير البيئة في الطباع . قال :

« فأما قسبة الأهواز فإنها قلبت كل من نزلها من بني هاشم إلى كثير من طباعهم وشمالهم . ولا بد للهاشمي ، قبيح الوجه كان أم حسناً ، أو دميماً كان أو بارعاً رائعاً ، من أن يكون لوجهه وشماله طبائع يبين بها من جميع قريش وجميع العرب . فقد كادت البلدة أن تنقل ذلك فتبدله ، ولقد تحيفته وأدخلت الضيم عليه ، وبيئت أثرها فيه . فما ظنك بصنيعها في سائر الأجناس .

ولفساد عقولهم ولؤم طبع بلادهم لا تراهم مع تلك الأموال الكثيرة والضياع الفاشية يحبون من البنين والبنات ما يحبه أوساط أهل الأمصار ، على الثروة واليسار ، وإن طال ذلك . والمال منبهة كما يقولون . وقد يكتسب الرجل ، من غيرهم ، المويل اليسير ، فلا يرضى لولده حتى يفرض له المؤذنين ، ولا يرضى لنسائه مثل الذي كان يرضاه قبل ذلك . وليس في الأرض صناعة مذكورة ، ولا أدب شريف ، ولا مذهب محمود ، لهم في شيء منه نصيب وإن خس . ولم أر بها وجنة حمراء لصبي ولا صبوية ، ولا دماً طاهراً ولا قريباً من ذلك . وهي قتالة للغرباء . وعلى أن حماها خاصة ليست للغريب بأسرع منها إلى القريب . ووباؤها وحماها في وقت انكشاف الوباء ونزوع الحمى عن جميع البلدان .

وكل محموم في الأرض فإن حماه لا تنزع عنه ولا تفارقه وفي بدنه منها بقية ، فإذا نزعته عنه فقد أخذ منها عند نفسه البراءة ، إلى أن يعود إلى الخلط وأن يجمع في جوفه الفساد . وليست كذلك الأهواز لأنها تعاود من نزعته عنه من غير حدث كما تعاود أصحاب الحدث ، لأنهم ليسوا يؤتون من قبل النهم ومن قبل الخلط والإكثار ، وإنما يؤتون من عين البلدة .

(١) من قطعة أوردها المبرد في الكامل ص ٦٦٦ ، لبيتسج ١٨٦٤ م .

(٢) المسالك والممالك لابن خردادبة ، ص ١٩٤ ، ط بريل ١٨٨١ م ، وانظر أيضاً في تعيين موقعها

ما حولها : الأعلام النفيسة لابن رسته ، ص ١٨٨ ، ١٨٩ ، ط بريل ١٨٩٢ م .

وكذلك جمعت سوق الأهواز الأفاعي في جبلها الطاعن في مناظرها ، المثل عليها ،
والجرات في بيوتها ومقابرها ومنابرها . ولو كان في العالم شيء هو شر من الأفاعي والجرارة
لما قصرت قصة الأهواز عن توليده وتلقيحه . وبلبيتها أنها من ورائها سبخ ومناقع مياه
غليظة ، وفيها أنهار تشقها مسابيل كنفهم ومياه أمطارهم ومتوضأهم ، فإذا طلعت الشمس
فطال مقامها وطالت مقابلتها لذلك الجبل ، قبل - بالصخرية التي فيه - تلك الجرات ،
فإذا امتلأت ييبساً وحرارة ، وعادت جمره واحدة ، قذفت ما قبلت من ذلك عليهم .
وقد تحدث تلك السبخ وتلك الأنهار بخاراً فاسداً ، فإذا التى عليهم ما تحدث
السبخ ، وما قذفه ذلك الجبل فسد الهواء . وبفساد الهواء يفسد كل شيء يشتمل عليه ذلك الهواء .
وحدثني إبراهيم بن عباس بن محمد بن منصور عن مشيخة من أهل الأهواز عن
القوابل ، أنهم ربما قبلن الطفل المولود فيجدنه في تلك الساعة محموماً . يعرفن ذلك
ويتحدثن به « (١) » .

١٤٤ - نطاة خيبر (١٠٤ : ١٧)

وهذا موضع آخر من المواضع الوثبة . وهو قسم من أقسام خيبر ، كل منها يتسمى
باسم الحصن القائم فيه ، وقد عد ياقوت أسماء هذه الحصون ، ومنها حصن النطاة . ولعل
هذا القسم كان أشهر أقسام خيبر بالوباء . وقد كانت خيبر مشهورة بالحمى ،
كما نرى شواهد هذا كثيرة في الشعر والأمثال . وقد أورد ياقوت طائفة من هذا الشعر (٢)
وقال الهمداني : « والناس يقولون : حمى خيبر ، وطواعين الشام ، ودماميل الجزيرة
وجرب الزنج ، وطحال البحرين » (٣) .

١٤٥ - وادي الجحفة (١٠٤ : ١٧)

هو كذلك موضع من المواضع المشهورة بالوباء ، نظراً لموقعه . فهو يقع في غور
تهامة قريباً من البحر ، على الطريق بين مكة والمدينة . وهو ، كما يقول ياقوت ، خراب

(١) الحيوان ٤ : ١٤٠ - ١٤٣ ط مصطفى البابي الحلبي ، ١٩٤٠ م ، وانظر أيضاً : المسالك
ونمالك لابن خرداذبة ص ١٧٠ ، ومعجم البلدان لياقوت ١ : ٣٨٢ ، ط السعادة ، ١٩٠٦ ، ومختصر
كتاب البلدان لابن الفقيه الهمداني ، ص ٧٥ ، ١١٦ ، ط بريل ١٨٨٥ م .
(٢) معجم البلدان ٣ : ٤٩٥ ، ط السعادة ، ١٩٠٦ م .
(٣) مختصر كتاب البلدان ، ص ١١٨ ، وانظر لسان العرب : في كلمة « نطاة » .

لا ساكن به^(١) وإن كان اليعقوبى يقول إن به قوماً من سليم^(٢) . وقد جاءت الإشارة إلى وبائه في بعض ما يؤثر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، في مقدمه إلى المدينة ، إذ يقول : « اللهم حجب إلينا المدينة ، كما حبيت إلينا مكة أو أشد ، وبارك لنا في صاعها ومدها ، وانقل حماها إلى الجحفة » .

١٤٦ - الصينيات والصلاحيات (١٠٥ : ١٤)

فسرفان فلوتن الصينيات هنا بالمعنى المتبادر الذى نفهمه منها ، ونطلقها الآن عليه . وفسر الصلاحيات بأنها نوع منها ، وقد تكررت هذه العبارة مرة أخرى في البخلاء في سياق كهذا السياق . ويرى فان فلوتن أن حاجة أصحاب الصينيات لهذه الخرق إنما هي من أجل دعكها ، كما هو واضح^(٣) . واستعمال الصينيات بهذا المعنى ، في ذلك الوقت ، صحيح ، فإننا نجد لها ، متعينة له في الأغاني في أخبار مقيم الهاشمية ، في حديث الهشامى إذ أرسلت إليه مع خادمها « صينية فيها نبق »^(٤) .

كما جاءت بصيغة الجمع (الصوانى) في شعر مسلم بن الوليد ، كما يروى ابن المعتز :

ولا ترى ضاحكاً بشيء أحسن من ضحكة القناني
إذا تبسمن عن مدام كأنه ماء زعفران
فيحسر الليل عن دجاء وتطلع الشمس في الصوانى^(٥)

١٤٧ - مسجد ابن رغبان (١٠٥ : ١٨)

أحد مساجد بغداد ، وقد ذكره الخطيب في ذكر نواحي الجانب الغربى من بغداد ، وقال : إنه منسوب إلى عبد الرحمن بن رغبان ، مولى حبيب بن مسلمة^(٦) . وأما الجهشيارى فيسميه : حبيب بن عبد الله بن رغبان ، وذكر عنه أنه كاتب شاعر ، وأنه كان يتقلد ديوان العطاء لأبى جعفر المنصور^(٧) . كما ذكره العلامة Lestrangs في الفصل الذى كتبه عن حى باب البصرة^(٨) .

(١) معجم البلدان ٣ : ٦٢ ، ط السعادة ١٩٠٦ م . (٢) البلدان ، ص ٣١٤ (المجلد السابع من المكتبة الجغرافية) ، ط بريل ١٨٩٢ م . (٣) البخلاء (طليدن) ص XV. Notes et éclaircissements (٤) الأغاني ٧ : ٢٩٩ ط دار الكتب المصرية . وانظر معنى كلمة « صلاحية » عند دوزى ، إذ يقول أنها صحن كبير واسع من أعلاه ضيق من أسفله (١ : 842) (٥) فصول التماثيل ، ص ٥٣ ، المطبعة العربية ، القاهرة ، ١٩٢٥ م . (٦) تاريخ بغداد ١ : ٩١ . (٧) الوزراء والكتاب ص ١٠٢ . وحاء في الحيوان (٢ : ١٥٦) « مسجد محمد بن رغبان » واكبر الظن أن كلمة محمد هنا مقحمة . ولا سيما إذ كانت ساقطة في بعض المخطوطات . (٨) Bagdad, p. 95 .

وقد وصف ياقوت مسجد ابن رغبان بقوله : « وكان مشهوراً باجتماع أهل العلم والفضل فيه »^(١) . .

ويظهر أن أهل البصرة كانوا يفضلون النزول بجوار ذلك المسجد . يستنتج هذا من ذلك النص الذي جاء في البخلاء^(٢) عن الثوري ، وهو : « . . . وأما زهده في رءوس مسجد ابن رغبان فإن البصريين يختارون لحم الماعز الخصى على الضأن كله . ورءوس الضأن أشحم وألحم ، وأرخص رخصاً ، وأطيب . ورأس التيس أكثر لحمياً من رأس الخصى » ، فهذا الاحتجاج لرغبته عن رءوس مسجد ابن رغبان برغبته عن رأس الماعز الخصى ، وأن البصريين يفضلون لحم الماعز الخصى ، يدل على أن ناحيه مسجد ابن رغبان كانت حى البصريين ، ومن أجل ذلك كانت ذبائح هذا الحى من الماعز الخصى^(٣) .

١٤٨ - جعفر بن سعيد (١٠٥ : ١٩)

أحد الذين يحكى الجاحظ عنهم ، كما أنه أحد البخلاء أصحاب أبي عبد الرحمن الثوري . ويؤخذ مما ذكر الجاحظ عنه أنه كان رضيع أيوب بن جعفر ، كما كان حاجباً له ، وأنه كان متصلاً بعمر بن مسعدة وزير المأمون^(٤) . وهكذا نرى مبلغ صلته ببيت الخلافة .

وقد حكى الجاحظ عنه حديثاً طويلاً ، يطرى فيه الديك لإطراء عجيباً ، ويوازن فيه بينه وبين الطاوس ، في أسلوب يبين لنا مبلغ ما كان هؤلاء القوم من براعة في توليد المعاني^(٥) . كما حكى عنه في موضع آخر خبراً عن كسرى ، ساقه - كما يقول الجاحظ - على سبيل التمليح^(٦) . ويظهر أن جعفر بن سعيد كان فكاهة الروح إلى حد ما . يدل على ذلك هذا الخبر الذي رواه عن كسرى ، كما يدل عليه ملاحظة طريفة أوردتها له الجاحظ يقول فيها : إن « الخلاف موكل بكل شيء ، حتى القذاة في الماء في رأس

(١) معجم البلدان ٤ : ٢٦٥ .

(٢) البخلاء ص ١١١ .

(٣) انظر أيضاً ، من قبيل الاستئناس ، الحيوان ٢ : ١٥٦ .

(٤) البيهقي والتبيين ١ : ١٠٠ - ١٠١ ط ١٩٣٢ م . (١) : ١٠٦ ط (الجبلي) .

(٥) الحيوان ٢ : ٢٤٣ - ٢٤٧ .

(٦) الحيوان ٤ : ١٩٤ .

الكوز ، فإن أردت أن تشرب الماء جاءت إلى فيك ، وإن أردت أن تصب من رأس الكوز لتخرج رجعت»^(١).

ومن هذا القبيل أبيات له - رواها الجاحظ - يشكو فيها براغيث البصرة^(٢).

١٤٩ - أبو يعقوب الأعور (١٠٥ : ٢٠)

هو أبو يعقوب ، إسحاق بن حسان بن قوهى الحریمی ، كما نسبه محمد بن داود بن الجراح وشارح القاموس . وروى الحصرى عن المبرد أنه قال : « كان يعقوب جيد الشعر مقبولاً عند الكتاب ، وله كلام قوى ومذهب متوسط . وكان يرجع إلى نسب كريم فى الصغد . وكان له ولاء فى غطفان . وكان اتصاله بمولاه أبى عثمان المرى الذى يقال له خريم الناعم . وكان أبى عثمان هذا قائداً جليلاً وسيداً جليلاً»^(٣) وبنو خريم هؤلاء هم من آل سنان بن أبى حارثة ، كما يقول الجاحظ ، وقد أورد له بيتين فى مدحهم^(٤) وقد لقبه الجاحظ هنا بالأعور ، كما كان يلقب بالأعمى . وقد ذكر عماء فى أبيات صادقة رواها الجاحظ^(٥) . وقد عمى - كما يقول محمد بن داود الجراح - فى آخر عمره . وقد نشأ الحریمی فى مجلس حماد الراوية وحماد عجرد . واتصل فى أول نشأته بهذه الجماعة من الشعراء التى كانت تضم مطيع بن إياس ويحيى بن زياد^(٦) . ولعل هذه الصلة كان لها أثرها فى الوجهة الشعرية التى توجهها .

كما اتصل بعد ذلك بكثير من سادة عصره كالفضل وجعفر البرمكيين^(٧) ، ولكن لعل أصدق صلاته كان بالحسن بن بجراح البلخى ، وهو كاتب الفضل بن يحيى ، وكان شاعراً أديباً كما يقول الجهشيارى^(٨) ، ومما يدلنا على نوع هذه الصلة قصيدة

(١) الحيوان ٣ : ٤٦٩ .

(٢) الحيوان ٥ : ٤٠٨ .

(٣) زهر الآداب ٤ : ٢٠١ . واسم مولاه عثمان بن عمارة بن خريم لا أبو عثمان ، فإنا هنا تحريف .

انظر : الورقة ، ص ١٠٣ .

(٤) الحيوان ٣ : ٩٤ .

(٥) الحيوان ٣ : ١١٣ .

(٦) الأغاني ٦ : ٨٤ .

(٧) الوزراء والكتاب ص ٢٣٩ ط الحلبي .

(٨) الوزراء والكتاب ص ١٩٤ .

رواها الحصرى ، وكان قد بعثها إليه ، حين تقلد مصر فى أيام موسى الهادى (١) . فأما الصلة التى بقيت عالقة به ، وهى صلته بعثمان بن خريم الناعم ، فيشير إليها ياقوت بقوله : « وكان صحب عثمان بن خريم القائد ، وكان يلى أرمينية ، فسار خاقان الخزر إلى حربته ، وعسكر ابن خريم إزاءه ، وعقد لأبى يعقوب على الصحابة وأشراف من معه ، فكروهوا ذلك » ، وفى هذه المناسبة قال الخريمى شعره الذى يفخر فيه بالصغد (٢) ، والذى نسب من أجله إلى الشعوبية . وقد ظل الخريمى وفياً لعثمان بن خريم ، وظل يذكر عهده ويتحسر عليه ، كما نرى فى تلك الأبيات المبتثثة التى قالها فيه ، فى القصيدة التى قالها يعاتب بها الوليد بن أبان (٣) .

وإلى جانب هذه الصداقات التى كان صداها يتردد فى شعره ، كان الخريمى يكابد بعض الخصومات ، فكان يخاصم أبا دلف ويهجوه ، وقد حكى الجاحظ طرفاً من هجائه له (٤) . كما كان يخاصم على بن الهيثم المعروف بجونقا ، وقد أغرى بهجائه - كما يقول ياقوت فى ترجمته له - وهجاؤه له ساخر سخريه لاذعة ، ونجد شيئاً منه فى البيان والتبيين ، والأغانى ، ومعجم الأدباء ، وكتاب الورقة (٥) .

وقد عاش الخريمى إلى أن شهد الفتنة التى كانت بين المأمون والأمين ، وتعرضت بغداد فيها لكثير من ضروب الاضطراب والفساد ، وله فى وصف ذلك قصيدة طويلة من أروع الشعر التصويرى (٦) وكذلك أورد الطبرى بيتين له فيما كان بين محمد بن سليمان القائد ومحمد بن حماد البربرى ، من قواد الأمين ، وبين أصحاب طاهر بن الحسين ، ولعلهما من قصيدة ضاعت (٧) .

هذا وفى مختصر تاريخ ابن عساكر ترجمة له (٨) .

-
- (١) زهر الآداب ٤ : ٢٠٢ .
 (٢) معجم البلدان ٥ : ٣٦٣ .
 (٣) زهر الآداب ٤ : ٢٠٠ .
 (٤) البيان والتبيين ٢ : ١٩٠ .
 (٥) البيان ١ : ٧٣ ، الأغانى ١١ : ٣٤٤ ، معجم الأدباء ١٥ : ١٤٠ ، الورقة ، ص ١٠٥ .
 (٦) تاريخ الأمم والملوك ١٠ : ١٨٦ - ١٨١ ، ط الحسينية المصرية . (٧ : ٥٢ - ٥٧ ط الاستقامة ١٩٣٩)
 (٧) تاريخ الأمم والملوك ١٠ : ١٦٩ .
 (٨) ٢ : ٤٣٤ .

١٥٠ - عبد الأعلى القاصص (١٠٦ : ١٤)

أحد القصاص الذين كانوا يحترفون القصص في عهد الجاحظ ، وقد وصفه بقوله :
إنه « كان لغلبة السلامة عليه يتوهم عليه الغفلة »^(١) ثم أورد بعد ذلك طرفاً من طرائفه

١٥١ - السلوقي (١٠٦ : ١٥)

الكلب السلوقي هونوع خاص من الكلاب ، معروف بذلك الاسم من قبل هذا
العهد بكثير . وقد ورد في شعر القطامي ، إذ يقول :
معهم ضوار من سلوق كأنها حصن تجول تجرر الأرسانا

ويقول ياقوت إن سلوق هذه قرية بأرض اليمن ، ثم ينقل عن ابن الفقيه أنها مدينة
اللان (وهي بأطراف أرمينية) . وفي كلامه عن « سلوقية » التي على الساحل عند أنطاكية
يقول : « قلت أنا : ولعل السيوف السلوقية والكلاب السلوقية منسوبة إليها »^(٢).

وذكر القزويني في كلامه عن الحيوانات المركبة ما يتولد بين الذئب والكلب ،
ويقال له : الديسم ، ثم قال : « قيل إن الكلاب تسفدها الذئاب في أرض سلوق باليمن ،
فيتولد منها الكلاب السلوقية »^(٣).

وقد عرض الجاحظ للكلاب السلوقية حين أخذ في الكلام عن أصناف الكلاب ،
فقال : « والكلاب أصناف لا يحيط بها إلا من أطال الكلام ، وجملة ذلك أن ما كان
منها للصيد فهي الضراء ، وواحدتها ضروة ، وهي الجوارح والكواسب ، ونحن لا نعرفها
إلا السلوقية ، وهي من أحرار الكلاب وعتاقها . . . وقد تصيد الكلاب غير السلوقية ،
ولكنها تقصر عن السلوقية بعيداً »^(٤).

وإذا كانت السلوقية عند الجاحظ هي خير كلاب الصيد ، فإننا نستطيع أن
نعتبر فيها الصفات التي ذكرها في الفصل الذي عقده ، في « صفة ما يستدل به على

(١) الحيوان ١ : ١٠٧ ، وأنظر طرفاً آخر من طرائفه في ٥ : ٢٢٥ - ٢٢٦ .

(٢) معجم البلدان ٥ : ١١٥ .

(٣) عجائب المخلوقات (هامش حياة الحيوان للدميري) ٢ : ٣٢٧ .

(٤) الحيوان ١ : ٣١١ - ٣١٢ .

فراهية الكلاب وشياتها»^(١).

وقد جاء ذكر الكلاب السلوقية في الحيوان ، في موضع آخر ، في سياق الحديث عن أحاجيب بعض الحيوان : « وزعم صاحب المنطق أن الكلاب السلوقية كلما دخلت في السن كان أقوى لها على المعاظلة ، وهذا غريب جداً »^(٢).

فإذا صح هذا النص كان ذلك خاصة فريدة من خواص الكلاب السلوقية . ولكن صاحب المنطق لم يقل شيئاً عن الكلاب السلوقية ، وإنما قال هذا أو قريباً منه عن كلاب لقونة Laconie في بلاد البلوبونيز ونص عبارته كما جاء في ترجمة سنتيلير Siant-Hilaire : « والكلاب لقونة صفة خاصة ، وهي أنها حين يرهقها التعب تكون أقوى على المعاظلة من تلك التي لم تعمل شيئاً »^(٣). فهناك إذن شيء من الخلاف ، ولكن الذي يعيننا هنا هو أن «لقونة» عند أرسطو صارت في الحيوان الذي بين أيدينا «السلوقية» ، ولا ندرى أهو تحريف النساخ أم خطأ المترجمين .

١٥٢ - المزملة (١١٣ : ٤)

المزملة كمعظمة هي - كما جاء في القاموس - التي يبرد فيها الماء . وقد جاء ذكرها في مقامات الحريري ، في المقامة النجرانية ، وتعرض الشريشي لها ، فوصفها بقوله : « آنية يبرد فيها الماء شبه الخابية ، تستعمل بأرض العراق ، وتوضع عليها لفائف ثياب خشنة ، وتغشى بجلد أو ثوب مزين حسن لنظر العين . . . وهم يجعلون تحته مرفعاً من عود أو حديد ترتفع به عن الأرض »^(٤).

وكذلك وصفها أبو الفتح المطرزي وصفاً يختلف في بعض التفاصيل ، فقال : « المزملة عند البغداديين بجرة أو خابية خضراء ، في وسطها ثقب مركب فيه قصبه فضة أو رصاص يشرب منها ، سميت بذلك لأنها تزمل ، أي تلف بشيء من الخيش أو غيره ، ويجعل فيما بينه وبين خزفها التبن ، تكون في دورهم أيام الصيف ، يبرد الماء

(١) الحيوان ٢ : ٤٥ - ٤٨ .

(٢) الحيوان ٣ : ٥٣٣ .

(٣) 2 : 360 .

ويمكن أن يراجع عن الكلاب السلوقية عند علماء الحيوان اليوم ما عرض له من ذلك أحمد تيمور باشا في كتابه « أبو العلاء المعري » ص ٣٦ ط لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٠م .

(٤) شرح مقامات الحريري ٢ : ٢٩١ .

ليلاً بالبرادات ، ثم يصب في هذه المزملة فيبقى بارداً»^(١).

١٥٣ - عتاب بن أسيد (١١٤ : ١٢)

هو عتاب بن أبي العيص بن أمية . صحابي أموي ، أسلم يوم فتح مكة ، فاستعمله رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، على مكة ، وظل والياً عليها ، إلى خلافة أبي بكر ، فأقره « فماتا جميعاً لم يعلم واحد منهما بموت صاحبه » . وقد كان في ولايته متحرجاً ، روى عنه أنه قال : « ما أصبت من عملي إلا ثوبين معقدين كسوتها غلامى كيسان »^(٢).

١٥٤ - المحلول (١١٩ : ١٢)

يذكرهنا أنه مولى تمام بن جعفر ، وقد جاء ذكره في الحيوان وفي البيان والتبيين^(٣) بما لا طائل فيه . ولعله - كما قد يؤخذ من خبر البيان والتبيين - كان صيرفياً .

١٥٥ - الجواف (١٢٠ : ١٣)

نوع من السمك ، ذكره الجاحظ في الحيوان في عداد قواطع السمك ، كالاسبور والترستوج : « فإن هذه الأنواع تجئ دجلة البصرة من أقصى البحار ، تستعذب الماء في ذلك الإبان ، كأنما تتحمض بمحلاوة الماء وعذوبته ، بعد ملوحة البحر » . وهي تقبل مرتين في السنة في أشهر معروفة ، لكل صنف منها إبانته^(٤).

١٥٦ - الخريبة والباطنة (١٢١ : ٨)

حيان من أحياء البصرة . أما الخريبة فكانت قبل تمصير البصرة مسلحة للأعاجم ، فكان سويد ابن قطبة (أو قطبة بن قتادة) يغير في ناحيتها ، إلى أن فتحها خالد بن

(١) الإيضاح في شرح مقامات الحريري ، مخطوط في مكتبة بلدية الإسكندرية ، برقم ٤٧٥ ج .

(٢) أنساب الأشراف للبلاذري ، القسم الثاني من الجزء الرابع ، ص ١٥٠ ، ط الجامعة العبرية ، القدس .

(٣) البيان ٣ : ١٩٦-١٩٧ ط ١٩٣٢ (٤ : ٢٥ - ٢٦ ط لجنة التأليف) ، الحيوان ١ : ٢٤٣ .

(٤) الحيوان ٣ : ٢٩٥ ، ٤ : ١٠١ .

الوليد ، وأحلاها من الأعاجم الذين كانوا فيها ، ثم نزل المسلمون بعد ذلك موضع البصرة (١) . وهي جزء كبير من البصرة ، فقد ذكر البلاذري أنها كانت تكون دسكرتين من السبع الدساكر التي كانت البصرة مؤلفة منها . وقال حمزة : إن موضع الخريبة كان مدينة عتيقة من مدن الفرس ، وكانت تسمى وهشتاباذردشير فخرها المثنى بن حارثة الشيباني بشن الغارات عليها ، فلما قدمت العرب البصرة سموها « الخريبة » (٢) .

وقد جاءت كلمة « الخريبة » في نشرة فان فلوتن وما تابعها من الطبقات مصحفة إلى « الخريبة » ، وهذا تصحيف قريب ، ولكنه من أشد التصحيفات إيغالات في الخطأ . فالخريبة في البصرة ، والخريبة في بغداد ، ولم تكن بغداد أسست بعد في زمن هذه القصة التي حدثت لابن المقفع ، وقد قتل سنة ١٤٢ .

وأما الباطنة فلم يذكرها ياقوت ولا غيره من كتب البلدان التي وقعت لنا . ولكن جاء في لسان العرب قوله : « والباطنة من البصرة والكوفة مجتمع الدور والأسواق في قصبها ، والضاحية ما تنحى عن المساكن وكان بارزاً » .

١٥٧ - المازح والمدير (١٢٢ : ١٢)

موضعان قرب الرقة ، أنزل بهما معاوية حين كان والياً على الشام والجزيرة من قبل عثمان - أخلاطاً من قيس وأسد ، تنفيذاً للقاعدة التي وضعها عثمان ، على ما جاء في معجم البلدان ، وهي أن ينزل العرب مواضع نائية عن المدن والقرى ، ويؤذن لهم في أعمار الأرضين التي لا حق لأحد فيها . والذي في معجم البلدان « المازحين » لا « المازح » ولعل في الأمر تحريفاً أو تخفيفاً (٣) .

١٥٨ - الخشكان (١٢٢ : ١٢)

اكتفى الجواليقي بأن قال : إن العرب قد تكلمت بها ، واستشهد لهذا بيت من الرجز :
يا حبذا الكعك بلحم مثروود وخبشكان وسويق مقنوداً (٤)

(١) فتوح البلدان ص ٣٣٥ - ٣٣٦ .

(٢) معجم البلدان ٣ : ٤٢٦ ، وانظر : Christensen, *Iran sous les Sassanides*, p. 91.

(٣) معجم البلدان ٧ : ٣٦٢ .

(٤) المغرب من الكلام الأعجمي ص ١٣٤ .

وكذلك صنع الخفاجي ، قال : إنه معروف ، تكلمت به العرب قديماً^(١) ، والذي يؤخذ من السياق هنا أنه نوع من الكعك يحشى بالجزوز والسكر . وكذلك يفسر دوزي الكلمة : « خشكناج » فيقول : إنه نوع من الخبز المصنوع بالزبد والسكر والجزوز والفسق ، ويكون على هيئة الهلال^(٢) .

١٥٩ - أبو القمقام (١٢٤ : ٨)

ذكره المبرد ، فقال إنه أبو القمقام بن بحر السقاء^(٣) ، كما ذكره الحصري كذلك بهذا الوصف^(٤) ويظهر أن كنيته هذه جاءت من ناحية السقاية التي كان يمتنها . والقمقام جمع قمقم ، وهو نوع من الجرار . كما رأينا - فيما سبق - في السدري أنه كان يكنى بأبي نبقة ، لأنه كان يمتن طحن السدر وبيعه ، وهو ورق النبق . والنوادر التي ذكرت عنه في الكامل وجمع الجواهر هي من قبيل ما ذكر عنه هنا ، كأنه كان مشهوراً بهذا النوع . وذكر الجاحظ في البيان والتبيين نادرة أشبه بأن تكون لأبي القمقام هذا ، ولكن اسم صاحبها أبو القمقام^(٥) ، فلعله هو .

١٦٠ - الأبله (١٢٥ : ٦)

مدينة قديمة من مدن الخليج الفارسي ، وكانت من المدن التي عني بتحسينها كما ذكرنا مثل ذلك في الخريبة . وهي تقع - كما يقول ياقوت - على شاطئ دجلة البصرة في زاوية الخليج . ويخرج منها نهر - يسمى نهر الأبله - يضرب إلى البصرة . ولعل هذا النهر هو الذي يقصده الجاحظ هنا بأنه كان يمد ويجزر . وقد كان هذا النهر من أجمل المنازه المشهورة ، حتى كان الأصمعي يقول : جنان الدنيا ثلاثة : غوطة دمشق ،

(١) شفاء الغليل ، ص ٧٦ .

(٢) Supplément aux Dictionnaires Arabes 1:373.

(٣) الكامل ٢ : ٢٢٩ .

(٤) جمع الجواهر ، ص ١٦٠ .

(٥) ٣ : ١٩٣ . (٤ : ١٩ ، ط لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٥٠) .

ونهر بلخ ، ونهر الأبله^(١) . وقد كانت تحف به القصور والحدائق ، كما نرى صورة من ذلك في شعر التنوخي^(٢) .

أما أهل الأبله فقد صورهم الجاحظ هنا تصويراً طيباً ، في بخلهم وتقديرهم المبالغ فيه للثروة .

١٦١ - أحمد بن الخاركي (١٢٥ : ١٨)

هو أحمد بن إسحاق ، ترجم له محمد بن داود بن الجراح ، فقال عنه : « بصري شاعر كثير الشعر هاجى الفضل الرقاشي هجاء كثيراً » ، ثم أورد طائفة من مقطوعاته الشعرية ، بعضها في الهجاء ، وبعضها في صفة الخمر^(٣) . وهو منسوب إلى خارك : « جزيرة من جزر البحر الفارسي ، يقابلها في البر جنانية ، ومهروبان ، تنظر هذه من هذه للجيد النظر »^(٤) ويقول النويري إنها عامرة آهلة ، وبها مغاص للؤلؤ^(٥) .

وابن الخاركي هذا شاعر من شعراء عصر المأمون ، كما يقول ياقوت عنه ، وقد ذكره الجاحظ في غير موضع^(٦) ، وليس فيها إلا ما يدل على أنه كان رجلاً تافهاً ضيق الأفق ، سريع التصديق ، ضعيف النظر .

١٦٢ - إبراهيم بن هانيء (١٢٦ : ١٦)

الأخبار التي لدينا عنه لا تكاد تؤدي إلينا إلا وجهاً واحداً من وجوه صورته ، ومهما يكن من أمر فيظهر أن هذا الوجه كان أبرز هذه الوجوه ، وهو أنه كان رجلاً معروفاً بالحجون والعبث في الحديث ، وقد وصفه الجاحظ بهذا في سياق عبارة رواها عنه ، وقد ساقها مساق الهزل ، عن الصفات التي اقترنت في أذهان الناس عن الزامرة والقاص والمغني والخمار ، حتى كأنها أصبحت من تمام آلتهم ، فقال الجاحظ عنه : « وكان ماجناً

(١) انظر معجم البلدان في : الأبله ، البصرة ، سندان ، نهر الاجانة ، وانظر فتوح البلدان ص ٣٥١ .

(٢) نهاية الأرب للنويري ١١ : ٢٦٠ ، ط دار الكتب المصرية ، وانظر أيضاً في صفة الأبله ثمار

القلوب في المصانف والمنسوب ، ص ٤١٧ ط الظاهرة ، ١٩٠٨ م .

(٣) الورقة ، ص ٥٨ - ٦٠ ط دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٥٣ .

(٤) معجم البلدان ٣ : ٣٨٧ .

(٥) نهاية الأرب ١ :

(٦) الحيوان ٢ : ١٩٣ ، ٥ : ١٧٨ ، ٦ : ١٤٧ ط الحلبي .

خليعاً كثير العبث متمرداً»^(١) كما روى عنه في موضع آخر عبارة عقبها بقوله : « وهذا مما يعد في مجون ابن هاني »^(٢) . وهكذا نرى مبلغ شهرته بهذه الناحية .

وقد حكى الجاحظ حديثاً طريفاً جرى بينه وبين أبي إسحاق النظام ، تظهر فيه هذه الناحية ، قال : « وكان إبراهيم لا يقيم شعراً . . . وكان يدعى بحضرة أبي إسحاق علم الحساب والكلام والهندسة واللحون ، وأنه يقول الشعر ، فقال أبو إسحاق : نحن لم نمتحنك في هذه الأمور ، فلك أن تدعيها عندنا . كيف صرت تدعى قول الشعر ، وأنت إذا رويته لغيرك كسرته ؟ قال : فإني هكذا طبعت ! أن أقيمه إذا قلت ، وأكسره إذا أنشدت . قال أبو إسحاق : ما بعد هذا الكلام كلام »^(٣) .

والذي يخيل إلينا أن إبراهيم بن هاني كان كاتباً . وقد أورد له صاحب العقد فقرات في وصف التفاح ، هي أشبه بأسلوب الكتاب^(٤) .

وهناك في المحدثين من يسمى إبراهيم بن هاني ، ولكننا نراه شخصاً آخر^(٥) .

١٦٣ - الدراياجة (١٢٩ : ١١)

هذه إحدى الكلمات التي لم تعن المعاجم بتدوينها . وقد شرحها السيد سليمان فيضي الموصلي نزيل البصرة ، في كتاب كتبه إلى صديقه الدكتور داود الحلبي ، وقد نشر خلاصته ، ونقل هنا ما يتعلق بهذه الكلمة . قال : « استفادة من وجود المد والجزر في البصرة يفصل صيادو السمك قسماً صغيراً من الماء مما يلي الشاطئ بالقصب أو بجريد النخل ، على هيئة قوس طرفه الأسفل متصل باليايسة ، وطرفه الأعلى منفصل عنها بمقدار قليل ، ليتمكن السمك من الدخول مع الماء أثناء المد . ويعبرون عن ركز القصب أو الجريد ، بهذه الصورة ، بالتسكير ، بمعنى السد ، ويسمون القسم المحصور بين السكر والشاطئ دراياجة ، وهي البحيرة بالفارسية »^(٦) .

وهذا الشرح يتفق مع سياق الكلمة في النص . أما تفسيره للشلابي بذلك النوع من

(١) البيان والتبيين ١ : ٥٢ ط ١٣٣٢ هـ . (١ : ٩٣ - ٩٤ ، ط لجنة التأليف ، ١٩٤٨) .

(٢) الحيوان ٤ : ١٥٣ ط الحلبي .

(٣) الحيوان ٣ : ١١٠ .

(٤) العقد الفريد ٤ : ٢٩١ ط ١٣٣٢ هـ .

(٥) انظر تاريخ بغداد ٦ : ٢٠٤ ، لسان الميزان ١ : ١١٨ .

(٦) مجلة المجمع العلمي العربي ٢٠ : ٧ - ٨ (تموز وآب ١٩٤٥) ص ٣٥١ .

الشباك ، وافترض كلمة «الرمان» محرفة عن «الأوهار» وهو نوع آخر من الشباك ، فلا حاجة إليه ، إذ كان السياق يرجح أن المراد بالشلابي والرمان نوعان من السمك ، وقد ذكرهما المقدسي في كتابه بين أنواع السمك الدجلية بالبصرة، وهي - كما يقول - أربعة وعشرون ، غير أن الكلمة التي تناظر في نص المقدسي كلمة «الرمان» جاءت بهذه الصورة : «الرامين» ، فلعل إحداهما محرفة عن الأخرى^(١).

١٦٤ - محمد بن الجهم (١٣٥ : ١٨)

هو محمد بن الجهم البرمكي . ولعل هذه النسبة جاءت من أنه كان قد تربى في ظلهم . وقد اتصل بالخليفة المأمون ، وكان يحضر مجالسه ، ويجادل الزنادقة في حضرته^(٢) . وقد ولاه بعض الولايات .

وكان من المنصرفين إلى الثقافة اليونانية الممثلين لها . يقول عنه ابن قتيبة : «تم نصير إلى محمد بن الجهم البرمكي ، فنجد مصحفه كتب أرسططاليس في الكون والفساد والكيان وحدود المنطق بها يقطع عمره»^(٣) . والجاحظ يعده في الأطباء من فلاسفة المتكلمين ، كمعمر وإبراهيم بن السندی^(٤) ويذكره صاعد الأندلسي فيمن اشتهر بعلم النجوم الطبيعي^(٥) ، كما يشير الجاحظ إلى معرفته بالهندسة وكتاب اقليدس ، وقد روى عنه في هذا الموضوع كثيراً مما يدل على نهمه في القراءة ، وحرصه على المعرفة^(٦) . وقد كان متصلاً - فيما يظهر - بأبي يوسف يعقوب بن اسحاق الكندي ، وقد كتب الكندي له بعض الرسائل^(٧) .

ثم هو بعد هذا محدود في البخلاء، من صنف سهل بن هارون ، وكان كز العاطفة ، أناني المذهب . يصفه ثمامة بن الأشرس بقوله : «لم يطمع أحداً في ماله، إلا ليشغله بالطمع فيه عن غيره . ولا شفع لصديق ، ولا تكلم في حاجة متحرم به ، إلا ليلقن

(١) أحسن التقاسيم ص ١٣١ ط بريل ١٠٦ .

(٢) الحيوان ٤ : ٤٤٢ ط الحلبي .

(٣) تأويل مختلف الحديث ، ص ٦٠ .

(٤) الحيوان ٢ : ١٤٠ .

(٥) طبقات الأمم ص ٦٩ .

(٦) الحيوان ١ : ٥٣ - ٥٤ .

(٧) عيون الأنبياء في طبقات الأطباء ١ : ٢١٢ .

المسؤول حجة منع ، وليفتح على السائل باب حرمان (١) .
ويؤثر عنه في الحرص والمغالاة في المال أقوال كثيرة ، أورد بعضها ابن قتيبة في
عيون الأخبار (٢) والحصري في زهر الآداب (٣) ، والشريشي في شرح مقامات الحريري (٤) .
وقال ابن قتيبة في تأويل مختلف الحديث : « وذكر رجل من أصحاب الكلام عنه أنه
أوصى عند وفاته ، فقال : إن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، قال : الثلث والثلث
كثير ، وأنا أقول : إن ثلث الثلث كثير . والمساكين حقوقهم في بيت المال ، إن طلبوه
طلب الرجال أخذوه ، وإن قعدوا عنه قعود النساء حرموه ، فلا رحم الله من يرحمهم » (٥)
وقد تكون هذه العبارة من تحامل ابن قتيبة عليه ، ولكنها - فيما أحسب - تشبهه .

١٦٥ - المعينون (١٣٧ : ٢)

يصف الجاحظ أبا سعيد المدائني بأنه كان من كبار « المعينين » ومياسيرهم ،
وأنه كانت له حلقة يقعد فيها أصحاب « العينة » . وقد جاءت كلمة « المعينين » مهملة ،
كما جاءت كلمة « العينة » مصحفة ، على الوجه الذي بيناه في النص ،
فقرأها فان فلوتن « المعتنين » و « الغنية » ، على نيوها واضطراب السياق وروح المعنى بهما .
واقترحنا في موضعهما ما أثبتناه في النص ، مما يسائر روح القصة مسيطرة تامة .

والعينة تطلق على نوع من المعاملات المالية ، فهي تطلق إطلاقاً عاماً على الربا - كما
في اللسان - يقال : عين التاجر ، أخذ بالعينة أو أعطى بها ، كما تطلق على السلف ،
يقال : تعين عينة وعينه إياها . وتطلق إطلاقاً أخص من هذا ، وهو - كما شرحه مجد
الدين ابن الأثير - أن يبيع الرجل سلعة بثمن معلوم ، إلى أجل مسمى ، ثم يشتريها
منه بأقل من الثمن الذي باعها به . فإن اشترى ، بحضره طالب العينة ، سلعة من آخر
بثمن معلوم ، وقبضها ، ثم باعها المشتري من البائع الأول بالنقد ، بأقل من الثمن ، فهذه

(١) عيون الأخبار ٣ : ١٣٨ .

(٢) ٢ : ٤ ، ٣٤ ، ٣ : ١٧١ .

(٣) ٣ : ٢٤٦ .

(٤) ٢ : ٣٢٤ .

(٥) ص ٦١ .

وانظر الفصول التي نشرناها من آثار الجاحظ في مجلة الكاتب المصري ، المجلد الخامس ، ص ٥٥ - ٦٢

(فبراير سنة ١٩٤٧) .

أيضاً عينة . وهى أهون من الأولى . وسميت عينة لحصول النقد لصاحب العينة ، لأن العين هو المال الحاضر من النقد ، والمشتري إنما يشتريها لبيعها بعين حاضرة ، تصل إليه معجلة^(١) .

وهذا النوع من المعاملات المالية كان معروفاً في البصرة منذ القرن الأول . وقد ذكر الميداني قول المهلب بن أبي صفرة : « إياك والعينة ، فإنها لعينة » ، ثم حكى عن المهلب أنه قال : « ولقد تعينت مرة أربعين درهماً ، فلم أتخلص منها إلا بولاية البصرة »^(٢) .
وأما المعينون « فهم الذين اتخذوا "العينة" حرفة لهم ، كأبي سعيد المدائني هذا . وقد جاء في اللسان : « وعين التاجر أخذ بالعينة أو أعطى بها » .

١٦٦ - ثوب بن شحمة العنبري (١٣٧ : ٨)

شخصية جاهلية ، عاصر حاتم الطائي ، ويذكر الجاحظ في موضع آخر أنه أسره ، وظل عنده زماناً ، ويصفه في هذا الموضع بقوله : « وكان ثوب هذا أكرم نفساً عندهم من أن يطعم طعاماً خبيثاً ، ولو مات عندهم جوعاً »^(٣) ، ويذكر في موضع غير هذا أنه كان يلقب بمجير الطير^(٤) . ويفسر الثعالبي هذا بقوله : إنه كان « سيداً شريفاً قد أجار الطير فكان لا يثار ، ولا يصاد بأرضه ، فسمى مجير الطير »^(٥) .

١٦٧ - رافع بن هريرم (١٣٧ : ١٤)

شاعر جاهلي قديم ، لا نكاد نعرف عنه إلا ما ذكره عنه أبو عبيد البكري ، إذ يقول : « هو رافع بن هريرم بن سعد ، يربوعى ، شاعر قديم . قال أبو زيد في نوادره :

(١) النهاية في غريب الحديث ، ٣ : ١٦٤ ، ط الخيرية .

(٢) مجمع الأمثال للميداني ، ١ : ٩٢ ، ط ١٣٥٢ هـ .

(٣) البخله ص ٢٣٦ وانظر الحيوان ١ : ٢٦٩ ، ٣٨٣ .

(٤) البخله ص ٢٣٠ .

(٥) ثمار القلوب ص ٣٥٥ ، وقد جاء الاسم مصحفاً فيه إلى « ثور » . وانظر قاموس الفيروزبادي

أدرك الإسلام» (١) كما لا نعرف من شعره إلا هذه الأبيات التي رواها له أبو علي :
 وصاحب السوء كالداء الغميض إذا يرفض في الجوف يجرى هاهنا وهنا
 يبدي ويظهر من عورات صاحبه وما رأى من فعال صالح دفنا
 كمهر سوء إذا سكنت سيرته رام الجماح ، وإن رفعته سكننا
 إن عاش ذلك فأبعد عنك منزله أو مات ذلك فلا تقرب له جتنا (٢)

١٦٨ - اشكنج (١٤٣ : ٤)

الإشكنج هو - كما يشير السياق - قطع الطوب والآجر المكسر . وقد كتب إلى أحد أفاضل العراقيين من أهل بغداد أن الكلمة لا تزال مستعملة بهذا المعنى هنالك ، وأن لفظها هو بالكاف الفارسية إشكنتك .

١٦٩ - الكلاء (١٤٥ : ٨)

تطلق كلمة « الكلاء » أولاً على مرفأ السفن ، ثم أصبحت تطلق على أحد مواضع البصرة القريبة من البحر ، والتي كان موقعها هذا يتيح لها أن تكون سوقاً بحرياً . وقد ذكرها ياقوت بقوله : « اسم محلة مشهورة وسوق بالبصرة أيضاً » (٣) . كما جاء ذكرها في حديث أنس ، وذكر البصرة : « إياك وسباخها وكلاءها » (٤) . وجاءت أيضاً في قصيدة مسلم بن الوليد التي قالها في البصرة ، وذكر فيها طائفة من محلاتها ومواضعها كالخرية والعتيك والمربد . قال :

ضللت في فرضه الكلاء مكتئباً أبكى عليها بعين دمعها سرباً (٥)

وعندنا أنها هي المقصودة في هذا البيت الذي يورده صاحب اللسان في مادة « بدا » :

بحضرى شاقه بدائه لم تلهه السوق ولا كلاؤه (٦)

(١) النكاح ص ٨٠٠ .

(٢) الأمل ٢ : ١٨٢ .

(٣) معجم البلدان ٧ : ٢٦٨ ط السعادة ، ١٩٠٦ .

(٤) النهاية في غريب الحديث ٤ : ٣٢ ط الخيرية ، ١٣٢٢ .

(٥) ديوان مسلم بن الوليد ص ١٧٧ ط بريل ١٨٧٥ .

(٦) لسان العرب ١٨ : ٧٤ ، وينبغي أن تضبط « كلاؤه » بتشديد اللام .

١٧٠ - الأنفاق وزيت الماء (١٤٧ : ٣)

نوعان من الزيت . فأما الأنفاق فقد ذكره ابن البيطار ، فقال : إنه « الزيت المعتصر من الزيتون الفج الذي لم يكمل نضجه »^(١) ثم أعاد ذكره في موضع آخر ، بذكر خصائصه^(٢) . وقد ذكر الأب أنستاس الكرملي أن كلمة « أنفاق » تنظر إلى الكلمة اليونانية : Ομφάχιον^(٣) .

وقد عرض له صاحب اللسان في مادة (ف و ق) فقال : « والفاق البان ، وقيل الزيت المطبوخ . قال الشماخ يصف شعر امرأة :

قامت تريك أثيث البنت منسدلا مثل الأسود قد مسح بالفاق

قال بعضهم : أراد الأنفاق ، وهو الغض من الزيت » :

وأما زيت الماء فلم أجد فيه نصاً صريحاً ، ولعل المراد به ما دخل الماء في صناعته ، أو ما خلط بالماء . وقد روى ابن قتيبة عن عمر بن الخطاب قوله : « عليكم بالزيت ، فإن خفتم ضرره فأئخنوه بالماء ، فإنه يصير كالسمن »^(٤) .

١٧١ - أسد بن عبد الله (١٤٧ : ٧)

هو أخو خالد بن عبد الله القسري ، الذي سبق الكلام عليه . وقد ولي خراسان في عهد ولاية أخيه على العراق ، أيام هشام بن عبد الملك . واستطاع أثناء هذه الولاية أن يمحمد ثورات قام الترك بها^(٥) ، ولكن أبرز ما حدث في عهده هو ابتداء الدعوة العباسية ، وكان شديداً على الدعاة ، قاسياً في الأخذ على أيديهم ، حتى لم يكن القول أن الدعوة لم تظفر بالعمل المطلق إلا بعد موته سنة ١٢٠ ، وكان موته في بلخ .

١٧٢ - نخالد بن صفوان (١٤٧ : ١٦)

خطيب من الطراز الأول ، من خطباء العصر الأموي ، وعاش إلى أن أدرك أبا

(١) مفردات ابن البيطار ١ : ٦٦ .

(٢) ١ : ١٧٥ .

(٣) كتاب نشوء اللغة ، ص ٤٨ . وانظر اللسان في مادة « فوق » ، ١٢ : ١٩٧ .

(٤) عيون الأخبار ٣ : ٢٩٩ .

(٥) فتوح البلدان للبلاذري . ص ٤١٧ .

أبا العباس السفاح ، ومات في عهده .

وهو من أسرة تميمية بصرية ، من بني منقر^(١) ، عرفت بالخطابة وبرزت فيها . فكان جده عبد الله بن الأهمم خطيباً ، وكذلك أبوه صفوان بن عبد الله . وقد عد الجاحظ من هذه الأسرة أكثر من عشر شخصيات كان لهم في الخطابة مكان ملحوظ^(٢) منهم شبيب بن شيبه ، صديق خالد وزميله في المحافل . والجاحظ يجمع بينهما فيقول : « وما علمت أنه كان في الخطباء أحد أجود خطباً من خالد ابن صفوان وشبيب بن شيبه ، للذي يحفظ الناس ، ويدور على ألسنتهم ، من كلامهما . وما علمنا أن أحداً ولد لهما حرفاً واحداً »^(٣) .

والجاحظ يظهر إعجابه بخالد بن صفوان في مناسبات كثيرة ، وهو يصنفه بأنه من الخطباء المشهورين في العوام والمقدمين عند الخواص ، ويورد له كلاماً عرض فيه بأهل اليمن في مجلس أمير المؤمنين أبي العباس ، ثم عقب عليه بقوله : « فلئن كان خالد قد فكر وتدبر هذا الكلام ، إنه للراوية الحافظ والمؤلف المجيد ، ولئن كان هذا شيئاً حضره حين حرك وبسط ، فما له نظير في الدنيا . فتأمل هذا الكلام ، فإنك ستجده مليحاً مقبولاً ، وعظيم القدر جليلاً ، ولو خطب اليماني بلسان سبحان بن وائل حولاً كريتاً ، ثم صلك بهذه الفقرة ما قامت له قائمة »^(٤) .

ومهما يكن من أمر فالذي يبدو لنا أن خالد بن صفوان يمثل الخطابة حين صارت صناعة تلتبس لما الأسباب ، وكان أعظم أسبابها في ذلك الوقت الرواية والدراسة ، وكان خالد ممن يتدارسون الأخبار والآثار والأشعار^(٥) ، كما كان يأخذ نفسه بالرواية ، فكان يروى خطب الخطباء المشهورين قبله ، ومن هؤلاء الذين كان يروى خطبهم جده عبد الله بن الأهمم^(٦) . ويدل على ذلك عنده ما يتحدث به هو عن نفسه ، في عقب خطبة من خطب الصلح ، تكلم بها أعرابي « في بت » ، فأجاد فيها ، فقال لرجل من منقر أنك أن يبذ هذا الأعرابي خالداً : « كيف نجاريهم ، وإنما نحكيهم ، وكيف

(١) انظر ما كان يقال في أصل آل الأهمم أنه من الحيرة ، وأنهم أشابة دخلت في منقر من الروم

(الكامل للمبرد ٣ : ١٩٩) .

(٢) البيان والتبيين ١ : ٢٧٨ - ٢٧٩ .

(٣) ١ : ٢٥٣ .

(٤) ١ : ٢٦٨ - ٢٦٩ .

(٥) ١ : ١٥١ .

(٦) ٢ : ٩٥ .

نسابقهم ، وإنما نجري على ما سبق إلينا من أعراقهم»^(١) وبذلك كان خالد يلحن على بلاغته . وقد عده الجاحظ في اللحانين البلغاء^(٢) .

وللمدائني كتاب يذكر في فهرست كتبه اسمه « كتاب خالد بن صفوان »^(٣) لعله جمع فيه أخباره وآثاره . وكذلك لأبي أحمد عبد العزيز بن يحيى الجلودي^(٤) .

١٧٣ - زياد بن جرير (١٤٩ : ٣)

جاء في نشرة « فان فلوتن » زياد بن جديد ، تصحيحاً لما في الأصل : « جدين » ، ولا نعرف أحداً بهذا الاسم ، وإنما هو زياد بن جرير بن عبد الله البجلي . وقد ذكره الطبري بأنه كان أعور^(٥) ، ولعل هذا هو أصل الإشارة في كلام المغيرة الثقفي ، كما ذكره في حوادث سنة ٨٧ ، ٨٩ ، ٩٠ : أنه كان على حرب الكوفة من قبل الحجاج ابن يوسف .

١٧٤ - زياد بن عبيد الله الحارثي (١٤٩ : ٧)

هو زياد بن عبيد الله بن عبد الله المدان الحارثي ، كما نسبه الطبري ، وهو خال الخليفة أبي العباس السفاح ، إذ كانت أمه ريطة بنت عبيد الله الحارثي .

وقد ولاه أبو العباس على المدينة ومكة والطائف واليمامة ، عقب موت داود بن علي أميرها ، كما ولي ابن عمه محمد بن يزيد بن عبد الله الحارثي على اليمن . وبذلك اجتمعت جزيرة العرب لأحوال الخليفة من الحارثيين .

وقد بدأ زياد عمله بأن أرسل أبا حماد الأبرص إلى اليمامة ، لقتال المثني بن يزيد بن عمر بن هبيرة ، وكان بها هو وأصحابه ، فقتل وقتلوا . وبذلك استطاع أن يشارك مشاركة ما في تصفية الجو للدولة الجديدة ، وتثبيت أركانها .

وقد بقي زياد في هذه الولاية من سنة ١٣٣ إلى سنة ١٤١ ، فعزل عنها ، وقد عزله

(١) ١ : ١٥٤ .

(٢) ٢ : ١٧٤ .

(٣) الفهرست لابن النديم ص ١٥١ .

(٤) ص ١٦٧ .

(٥) تاريخ الأمم والملوك ٢ : ١١٣٧ ط أوربا .

أبو جعفر المنصور بسبب من فتنة محمد وإبراهيم ابني عبيد الله بن حسن^(١).

١٧٥ - أشعب (١٤٩ : ٨)

هو أبو العلاء ، أشعب بن جبير ، مدني من أصحاب النوادر . أدرك عثمان ، ويقال إنه كان مولاة . ويروي الهيثم بن عدى عنه أنه قال : « كنت ألتقط السهام في دار عثمان إذ حصر . قال : فلما جرد مماليكه السيوف ليقاتلوا ، فقال عثمان من أغمد سيفه فهو حر ، قال أشعب : فما هو والله إلا أن وقعت في أذني فكنت أول من أغمد سيفه ، فأعتقت » .

وقد أجمل أبو عبيد وصفه في قوله : « وكان أشعب أزرق أحول أكشف أقرع ألثغ ، وكان لا يبين الرء ولا اللام ، يجعلهما ياء . وكانت فيه خلال حميدة : كان حسن الصوت بالقرآن ، وربما صلى بهم ، وكان أطيب أهل زمانه عشرة ، وأكثرهم نادرة ، وأحسن الناس أداء لغناء سمعه . وأقوم أهل دهره بحجج المعتزلة ، وكان امراً منهم »^(٢).

وقد كان سراة المدينة يستطيبونه لنوادره وحسن غنائه ، كمصعب بن الزبير ، وعبد الله ابن مصعب .

ووفد في آخر حياته إلى بغداد ، روى الخطيب عن الأصمعي أنه قال : « حدثني جعفر بن سليمان ، قال : قدم أشعب أيام أبي جعفر بغداد ، فأطاف به فتیان بنی هاشم ، فغناهم فإذا ألقاه طرية ، وحلقه على حاله . وقال : أخذت الغناء عن معبد ، وكنت أخذ عنه اللحن ، فإذا سئل عنه قال : عليكم بأشعب فإنه أحسن تأدية له مني »^(٣).

وذكر أبو عبيد أنه بقي في بغداد إلى أيام المهدي ، وأن الفضل بن الربيع قال : « كان أشعب عند أبي سنة أربع وخمسين ومائة ، ثم خرج إلى المدينة فلم يلبث أن جاء نعيه . »

(١) راجع الطبري في حوادث سنة ١٣٣ ، ١٤١ ، ١٤٤ .

(٢) اللآلئ ص ٩٥٨ .

(٣) تاريخ بغداد ٦ : ٣٧ .

وهو كما قلنا صاحب نوادر ، وقد عرف بأشعب الطامع ، لأنه - فيما يظهر - كان يفتن في نوادر الطمع ، وقد أورد الخطيب في ترجمته له طائفة كبيرة من نوادره ، كما نجد ذلك في العقد لابن عبدربه ، وثمار القلوب للثعالبي ، وجمع الجواهر للحصرى ، والأمالى لأبي علي^(١) .
وقد ترجم له أيضاً صاحب الأغاني ، وصاحب لسان الميزان^(٢) .

١٧٦ - صعصعة بن صوحان (١٥٠ : ١)

خطيب من الخطباء الذين يشيد الجاحظ بهم ، وهو ممن نشأ في صدر الإسلام ، واختص بأمر المؤمنين علي بن أبي طالب . وهو من عبد القيس ، من أسرة معروفة بالخطابة ، منهم زيد بن صوحان ، وشيخان بن صوحان . ويظهر من كلام الجاحظ أنه من عمان^(٣) . وكان علي يكبره ويقول له : « والله ما علمتك إلا كثير المعونة قليل المؤونة ، فجزاك الله خيراً »^(٤) . وكان أكبر غنائه عند علي - فيما يبدو - في الرد على الخوارج ، ومغالبتهم في الخطابة^(٥) .

١٧٧ - حويطب بن عبد العزى (١٥٠ : ١٠)

هو حويطب بن عبد العزى بن أبي قبيس ، من عامر بن لؤى . وكان من سراة قريش ورءوسهم وسفرائهم إلى الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، بعد الهجرة^(٦) وقد أسلم عام الفتح ، ويعتبره المؤرخون من المؤلفة قلوبهم . مات في آخر خلافة معاوية وهو ابن مائة وعشرين سنة .
وقد ترجم له صاحب أسد الغابة^(٧) .

(١) العقد ٣ : ٤٤٢ ط ١٢٩٧ هو وثمار القلوب ص ١١٨ ، ٣٠٢ وجمع الجواهر ص ٥٤ - ٥٦ و ١٦٦ والأمال ٣ : ١٨٩ ، ٢١٦ .

(٢) الأغاني ١٧ : ٨٣ ط بولات ، لسان الميزان ١ : ٤٥٠ - ٤٥٤ .

(٣) البيان والتبيين ١ : ٩٤ ط ١٩٣٢ م .

(٤) البيان والتبيين ٣ : ٢٧٨ .

(٥) البيان والتبيين ١ : ١٧٧ ط ١٣٣٢ .

(٦) تاريخ الأمم والملوك للطبري ، حوادث السنة السادسة .

(٧) ١ : ٧٥ .

١٧٨ - بلال بن أبي بردة (١٥٠ : ١٦)

هو بلال بن عامر بن أبي موسى الأشعري ، أحد الأمراء القضاة الذين ولوا إمارة البصرة وقضاءها منذ سنة ١٠٩ إلى سنة ١٢٥ ، ولها في عهد خالد بن عبد الله القسري . وقد حكى أبو العباس المبرد أنه « كان يقال إن أول من أظهر الجور من القضاة في الحكم بلال بن أبي بردة . . . وكان بلال يقول : إن الرجلين ليتقدما إلى ، فأجد أحدهما على قلبي أخف ، فأقضي له »^(١) . وقد أثارت ولايته طائفة من الخصومات يتردد صداها في كتب الأدب .

ويصفه المبرد بأنه كان داهية لقناً أديباً ، وأنه كان ذا نظر في الشعر ومعرفة به^(٢) وكانت داره في البصرة تنتجعها الشعراء والرواة ، كذى الرمة وحماد الراوية . وقد ظل على إمارة البصرة إلى أن قدم العراق يوسف بن عمر الثقفي ، فعزله عن الإمارة ، وأودعه السجن ، ونكل به ، حتى مات في حبسه .

١٧٩ - عمر بن يزيد الأسدي (١٥١ : ٤)

هذا الخبير الذي يذكره الجاحظ هنا ، يورده أبو الفرج في الفصل الذي كتبه عن الحكم بن عبدل منسوباً إلى عمر بن يزيد الأسدي هذا ، ومن هذا الخبير نعلم أنه كان على شرطة الحجاج^(٣) . وقد تعرض لهجاء الحكم بن عبدل بسبب بخله^(٤) . ويظهر من هذا أنه كان من أهل الكوفة .

١٨٠ - عبد الرحمن بن أبي بكرة (١٥٢ : ١٦)

هو عبد الرحمن بن نفيح بن الحارث بن كلدة الثقفي ، وهو تابعي ، بصري ، وقد ولاه زياد بن أبيه بعض أعمال البصرة . ولم يدرك القرن الثاني .

(١) الكامل للمبرد ٢ : ٤٦ .

(٢) ٢ : ٤٧ .

(٣) الأغاني ٢ : ٤٢٣ .

(٤) الأغاني ٢ : ٤١٤ .

١٨١ - أبو العاصم بن عبد الوهاب الثقفي (١٥٤ : ١)

سرى من سراة البصرة ، ومن أعرق أسرها ، وقد ورد اسمه في أخبار أبي نواس ، في عدة أبناء عبد الوهاب الثقفي ، من بانه بنت أبي العاصم^(١) ، وهو أخو عبد المجيد الثقفي ، صاحب ابن منذر الشاعر الذي رثاه بعد موته بقوله :

إن عبد المجيد يوم تولى هـد ركنا ما كان بالمهدود^(٢)

وأبوه عبد الوهاب بن عبد المجيد الثقفي ، وقد وصفه النظام ، فيما حكى عنه الجاحظ بأنه أحلى من أمن بعد خوف ، ومن خصب بعد جذب ، وغنى بعد فقر . ومن طاعة المحبوب ، وفرج المكروب^(٣) . وذكره ابن قتيبة في أصحاب الحديث ، وقال إنه ولد سنة ١٠٨ ، وتوفي بالبصرة سنة ١٩٤^(٤) .

ويرجع نسبه إلى الحكم بن أبي العاصم الثقفي ، من أوائل من نزل البصرة وأقام بها ، في ولاية عبيد الله بن عامر ، من قبل عثمان بن عفان . وقد أقام بها هو وإخوته : عثمان وحفص وأميمة والمغيرة . وإلى أخيه عثمان ينسب شط عثمان بالبصرة^(٥) .

١٨٢ - كعب بن مامه (١٥٨ : ١)

يشير الجاحظ في هذا الموضوع إلى قصة ذكرها في موضع آخر ، ونقلها عنه الثعالبي ، قال : « قال الجاحظ : العامة تحكم بأن حاتم الطائي أجود العرب ، ولو قدمته على هرم في الجود لما اعترض عليهم . ولكن الذي يحدث به عن حاتم لا يبلغ مقدار ما رووه عن كعب . لأن كعباً بذل النفس حتى أعطبه الكرم ، وبذل المجهود في المال ، فساوى حاتمًا من هذا الوجه . وبأبائه ببذل المهجة . ومن حديثه : أنه خرج في ركب فيهم رجل من النمر بن قاسط في شهر ناجر ، فضلوا وعطشوا ، فتصافنوا ماءهم - والتصافن

(١) أخبار أبي نواس لابن منظور ، ص ١٨٤ .

(٢) الأغاني ١٧ : ١٤ ، ط التقدم .

(٣) زهر الآداب (هامش العقد الفريد) ٢ : ١٠٠ .

(٤) المعارف ، ص ٢٥٧ .

(٥) معجم البلدان ٢ : ٢٠٠ .

أن تطرح حصاة في القعب - والتفت كعب ، فأبصر النمرى يحدق النظر إليه ، فأثره بمائه ، وقال للساقى : اسق أحاك النمرى . فشرب النمرى نصيب كعب في ذلك اليوم . ثم نزل المنزل الآخر ، فتصافنوا ببقية مائهم ، ونظر النمرى إلى كعب كنظر أمسه ، فقال كقول أمسه . وارتحل القوم ، وقالوا : ارتحل يا كعب ، فلم يكن به قوة للهوض ، وكانوا قد قربوا من الماء ، فقيل له : رد يا كعب ! إنك وراذ ! فعجز عن الجواب ، ثم فاضت نفسه النفيسة»^(١).

وجاءت هذه القصة أيضاً في المحاسن والأضداد^(٢) ، بعبارة أوجز . كما أورد الثعالبي في ثمار القلوب طرفاً من أخبار جوده .

١٨٣ - جد بن قيس (١٦٢ : ١٨)

هو جد بن قيس بن صخر ، من كعب بن سلمة ، وقد كان سيد بني سلمة . صحابي أنصاري ، ويقال إنه كان منافقاً ، كما يقال إنه تخلف يوم الحديبية عن البيعة . وقد ذكر قتادة أن قوله تعالى : « خلطوا عملاً صالحاً ، وآخر سيئاً . عسى الله أن يتوب عليهم » نزلت في نفر ممن تخلف في تبوك ، منهم الجند بن قيس . وقد عاش إلى خلافة عثمان^(٣).

وقد ذكر الخطيب البغدادي هذا الحديث المروى هنا بطرقه المختلفة ، ثم قال عن محمد بن مسعر : « لما حدثت ابن عيينة بحديث جد بن قيس أنشدنا لحسان بن ثابت :

وسال رسول الله ، والحق لازم
فقلت له : جد بن قيس ، على الذى
لمن سال منا : من تسمون سيدا ؟
نبخله فينا ، وقد نال سوددا
فقال : وأى الداء أدوى من التى
رمىم بها جداً وأغلى بها يدا

إلى آخر الأبيات ، وبقاها في بشر بن البراء^(٤).

(١) ثمار القلوب ، ص ٩٨ - ٩٩ .

(٢) ص ٥٤ .

(٣) أسد الغابة ١ : ٢٧٤ ، الإصابة في تمييز الصحابة ١ : ٢٢٨ .

(٤) كتاب البخل للخطيب ، ورقة ٨ مخطوطة المتحف البريطاني .

١٨٤ - قيس بن عاصم (١٦٣ : ٨)

أبو علي ، قيس بن عاصم بن سنان بن خالد بن منقر . قدم في وفد تميم بعد الفتح فأسلم ، ووصفه النبي ، صلى الله عليه وسلم ، بأنه سيد أهل الوبر^(١) . وكان فارساً شاعراً معروفاً بالحلم ، مشهوراً بالركانة . وقد أورد له أبو تمام قطعة من الشعر ، يتحدث فيها عن خلقه ، ويفخر بنبل قومه^(٢) .

١٨٥ - النمر بن تولب (١٦٣ : ١١)

شاعر مخضرم ، أدرك الإسلام وعاش إلى أيام عمر ، فيما يبدو ، وقد بلغ سنّاً عالية . ويقال إنه هاجر إلى البصرة ودخل المريد . وهو يمثل الشعراء المترفين الذين لم يصطنعوا الشعر لمدح أو هجاء ، كما يمد أيضاً من الشعراء المتقلين . ولكنه مع إقلاله كان - كما يقول حماد الرواية عنه - كثير البيت السائر والبيت المتمثل به . كما كان أبو عمرو بن العلاء يسميه الكيس بلجودة شعره وحسنه ، وكذلك كان يشبه شعره بشعر حاتم الطائي . وكانا يشتركان في الجود وإتلاف الأموال وأريحية الطبع والتغنى بذلك في الشعر .

وجزه كبير من شعره جاء في زوجته جمرة بنت نوفل الأسدية . وكانت سبية سبها أخوه الحارث بن تولب في غارة له على بني أسد ، ثم وهبها له ، ففركته ، فحبسها حتى استقرت ، وولدت له أولادها ، ولكنها كانت ما تزال تحن إلى أهلها ، وما زالت به حتى أزارها قومها ، بعد أن واثقها . ولكنها مضت فلم تعد إليه ، فقال فيها أشعاراً كثيرة أورد الأصماني طرفاً منها^(٣) .

وأما سائر شعره غير ما جاء في ترجمته في الأغاني وفي الشعر والشعراء لابن قتيبة ، ففترق في كتب الأدب . وقد عنى الجاحظ برواية طرف منه^(٤) .

وقد نقل صاحب الإصابة عن ابن حزم أنه فرق في الجمهرة بين النمر بن تولب

(١) المعارف لابن قتيبة ، ص ٩٧ ، الإصابة .

(٢) ديوان الحماسة ٢ : ٢٥٠ .

(٣) الأغاني ١٩ : ١٥٧ - ١٦٢ ط التقدم .

(٤) انظر مثلاً : البيان والتبيين ١ : ٢٦ ، ١٦٢ ، ٢٣٢ ، ٣١٠ ، الحيوان ١ : ٨ ، ٣ :

٣٧ ، ٤٣ ، وانظر أيضاً الكامل للمبرد ١ : ١٤٩ .

العكلى ، فساق نسبه وأثبت صحبته ، وبين النمر بن تولب الشاعر ، فنسبه فى النمر بن قاسط ، وقال إنه الذى عاش حتى خرف .

١٨٦ - تميم بن مقبل (١٦٥ : ٤)

هو تميم بن أبى بن مقبل ، من بنى العجلان بن عبد الله بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة^(١) . من الشعراء المخضرمين ، أدرك النبى ، صلى الله عليه وسلم ، ولم يره . وقد عاش إلى أيام عمر بن الخطاب ، ووقع بينه وبين النجاشى الشاعر شر ، فهجاه النجاشى بقطعة موجعة يقول فيها :

إذا الله جازى أهل لؤم ودقة فجازى بنى العجلان رهط ابن مقبل
قبيلة لا يغدرون بذمة ولا يظلمون الناس حبة خردل

فاستعدى عمر بن الخطاب عليه ، فحاكمه إلى حسان بن ثابت ، وحجسه . ولم يصل إلينا من شعره إلا القليل مفرقاً^(٢) . ومن هذا الشعر نعرف أنه شاعر بدوى الديباجة والصور . وقد ذكره ابن النديم فى الشعراء الذين عمل أبو سعيد السكرى أخبارهم ، ثم ذكر أن ممن عمل شعره أيضاً أبا عمرو والأصعمى والطوسى وابن السكيت^(٣) .

١٨٧ - أبو ذر الغفارى (١٦٥ : ٦)

هو جندب بن جنادة بن عبید الغفارى ، صحابى من أوائل من أسلم ، وفى حلية الأولياء قصة تنسب إليه ، تحكى أوليته ، وملابسات إسلامه^(٤) . وكانت له - فيما يبدو - نزعة تميل به إلى الزهد، وقد هاجر بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم إلى الشام . وكان يقدم إلى الحجاز حاجاً ، فكان ينكر على عثمان ، وكذلك كان أمره فى الشام .

(١) انظر فى تحقيق اسمه (تميم بن مقبل ، تميم بن أبى مقبل ، تميم بن أبى بن مقبل) معجم البلدان ٢ : ٩١ ، خزائن الأدب للبغدادى ١ : ٢١٤ ، ط السلفية ، الإصابة ص ٨٥٨ .
(٢) انظر مثلاً : الأمل لأبى على ١ : ١٥ ، ٢٢٩ واللكل ص ٦٦ - ٦٧ ومعجم البلدان ٢ : ٩١ ، ٦ : ٩٢ ، ٨ : ٢٣ الخ . جمهرة أشعار العرب ص ١٦٠ - ١٦٣ ط بولاق .
(٣) الفهرست ص ٢٢٤ . وانظر أيضاً فى ترجمته الشعر والشعراء لابن قتيبة ، فيها طائفة من شعره (١ : ٤٢٤ - ٤٢٨ ط دار إحياء الكتب العربية) .
(٤) حلية الأولياء لأبى نعم الأصبهانى ١ : ١٥٧ - ١٥٨ ط السعادة .

كان ينكر على معاوية ، ويقول : « والله لقد حدثت أعمال ما أعرفها . والله ما هي في كتاب الله ولا سنة نبيه . والله إنى لأرى حقاً يظفأ . وباطلاً يحيا ، وصادقاً يكذب ، وأثرة بغير تقي ، وصالحاً مستأثراً عليه » . فخشي معاوية أن يفسد عليه الشام ، فكتب بأمره إلى عثمان ، فبعث عثمان أن يحمله إليه . فلما كان عنده سيره إلى الربذة . فأتاها وبقى بها إلى أن مات فيها^(١) .

وفي نهج البلاغة المنسوب إلى علي بن أبي طالب كلام قيل إن علياً وجهه إلى أبي ذر وهو خارج إلى الربذة^(٢) ، ويشبه أن يكون صحيحاً . وقد حكى البلاذري أن علياً شيع أبا ذر ، فأراد عثمان ومروان أن يمنعه ، حتى جرى بينهما وبين علي كلام ، تغالظ الفريقان فيه .

وقد كان أمر أبي ذر من الأمور التي أنكرت على عثمان ، وكانت تتردد في الثورة عليه .

١٨٨ - عبيد الله بن عكراش (١٦٧ : ٨)

تميمى من أهل البصرة ، في القرن الأول . وأبوه هو عكراش بن ذؤيب ، صحابي كان رسول قومه ، بنى نزال بن مرة ، إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بصدقات أموالهم . وكان ممن شهد الجمل مع عائشة^(٣) .

أما عبيد الله ابنه فيذكره ابن قتيبة في ترجمة أبيه ، ويذكر عنه أنه هو الذى يقول فيه أبو النضر مولى عبد الأعلى :

قل لسوار إذا ما جتته وابن علاته
زاد في الصبح عبيد ال له أوتاداً ثلاثة

وقدروى له هذه الفقرة ، كما روى له في موضع آخر هذين البيتين :

وإنى لأرثى للكريم إذا غدا على طمع عند اللثيم يطالبه
وأرثى له فى مجلس عند بابيه كمرثيتي للطرف والعلاج راكبه^(٤)

(١) أنساب الأشراف للبلاذري ٥ : ٥٢ - ٥٦ ط الجامعة العبرية ، بيت المقدس .

(٢) نهج البلاغة ١ : ٢٦٦ ط العمومية ١٣٢١ هـ .

(٣) المعارف ص ١٠٥ ط الشرفية ، ١٣٠٠ هـ .

(٤) عيون الأخبار ١ : ٨٩ .

١٨٩ - ابن التوأم (١ : ١٦٩)

ورد اسمه في البيان والتبيين في غير موضع^(١) ، كما ورد في عيون الأخبار^(٢) ، وذلك في رواية بعض العبارات عنه . ثم لم نعثر بعد ذلك بشيء من أخباره ، يجلي بعض الشيء عنه .

والذي ينبغي أن نقرره هنا أن قطعة من رسالة ابن التوأم هذه قد أوردها ابن قتيبة في عيون الأخبار منسوبة إليه ، دون أن يذكر اسم الجاحظ في روايته ، كما فعل فيما نقل من وصية أبي عبد الرحمن الثوري . وقد يشكك هذا في افتراض وضع الجاحظ لهذه الرسالة . ولكن يبقى هنالك فرضان : أن يكون ابن قتيبة نقل ما نقل عن البخلاء ، معتقداً أنه لابن التوأم ، ولم يجد ضرورة لذكر المصدر ، وأن يكون الوراقون قد أفردوا هذه الرسالة بالنسخ ، منسوبة لابن التوأم . كما صنعوا في قصة خالد بن يزيد ، كما قدمنا .

١٩٠ - المتلون والجموح الخ (١٦٩ : ١٨ - ١٧٠ : ٦)

عرض الجاحظ لهذه الحالات النفسية في موضع آخر ، كما وجدناه في نسخة فتوغرافية بعنوان : « المختار من كلام أبي عثمان الجاحظ » كان يملكها المرحوم الدكتور كروس ، وأصلها في مكتبة برلين . قال :

« وأنا أحذرك اللجاج والتتابع ، وأرغب إلى الله في السلامة من التلون والتزيد ، ومن الاستطراف والتكلف ، فإن الإفراط في اللجاج لا يكون إلا من خلل في القوة ، وإلا من نقصان يدل على التمكن (كذا) . واللجوج في معنى المغلوب ، والمتصرف في معنى الغالب ، والمتلون لا يكون إلا والعقدة منحلة ، والنفس منقوضة ، ثم لا يصل إلا ضعف المنة بقلّة المعرفة . ومتى نقصت المعرفة ، ولم تكن المنّة فاضلة ، كان الفاعل إما لجوجاً متتابعاً ، وإما ذا بدوات متلوناً . فاعرف فصل ما بين التلون والتصرف . . . والتلون أن تكون سرعة رجوعه عن الصواب كسرعة رجوعه عن الخطأ . واللجاج أن

(١) ١ : ٧٩ ، ١١٥ ، ٢ ، ٩٢ ، ٣ : ٥٩ ط ١٩٣٢ م .

(٢) عيون الأخبار ١ : ٢٩٩ ، ٣١٢ .

يكون شأن عزمه على إثبات الخطأ الضار ، كشأن عزمه على إمضاء الصواب النافع .
والذهول عن العواقب مقرون باللجاج ، وضعف العقدة مقرون بالبدوات « (١) .

١٩١ - ابن سيرين (١٧٨ : ١١)

هو محمد بن سيرين ، وسيرين هو اسم أبيه كما يقول البلاذري (٢) ، أو اسم أمه
كما يقول ياقوت (٣) وكان أسر سيرين في كنيسة بعين التمر . وصار ولاء آل سيرين إلى
أنس بن مالك ، وقد عمل محمد بن سيرين هذا لأنس ، يكتب له ، حين كان بفارس ،
ثم اتخذ البصرة مقاماً له ، وكان يصطنع تجارة البز . وقد روى الحديث عن أنس وأبي
هريرة وعبد الله بن عمر ، ويسند إليه البلاذري طائفة من أخبار الفتنة في أيام عثمان ،
وروح هذه الأخبار تميل إلى الدفاع عنه ، وإلى تبرئة علي ، معاً .
وقد عرف ابن سيرين بالورع ، فكان يقال : فقه الحسن وورع ابن سيرين ،
وهو صديق للحسن ، وماتا في عام واحد ، سنة ١١٠ .

١٩٢ - ابن هرمة (١٨١ : ٥)

هو إبراهيم بن علي بن هرمة ، من بني الحارث بن فهر ، إن صح نسبه . شاعر
حجازي ، من مخضرمي الدولتين . حكى أبو الفرج أنه ولد سنة تسعين ، وأنشد أبا
جعفر سنة مائة وأربعين ، ثم عمر بعدها مدة طويلة ، وكانت إقامته بالمدينة ، وكاد
يختص بعبد الله بن حسن وآل الحسن من الفاطميين ، كما كانت صلته طيبة بمحمد بن
عمران الطلحي ، كما وفد على السري بن عبد الله بالمامة . فلما قامت دولة بني العباس
وفد على أبي جعفر المنصور ، كما وفد على المهدي من بعده .
وقد أورد أبو الفرج صورة له ، فحكى أنه كان قصيراً دميماً أرميماً . أما خلفه ،
فقد اشتهر باستهتاره بالنبيذ ، كما كان - فيما يبدو - رجلاً متقلباً لا يدوم على عهد ،

(١) ورقة ٩٨ ، وانظر في ذلك أيضاً مختارات مؤنس الوحيد ، ص ٢٢٨ ، ٢٣٠ (ط فينا سنة
١٨٢٩ م) . البيان والتبيين ٢ : ١٥٣ ، ط ١٩٣٢ ، المقدم الفريد ١ : ٧٣ ط لجنة التأليف ، محاضرات
الراغب ٢ : ٢٨٢ .

(٢) فتوح البلدان ، ص ٢٤٨ .

(٣) معجم البلدان ٦ : ٢٥٣ .

وأخباره التي تشهد لذلك كثيرة^(١) .

أما شعره فقد كان موضع إعجاب الأصمعي ، وكان يعده ممن ختم بهم الشعر ، وأما الجاحظ فيقول : « ولم يكن في المولدين أصوب بديعاً من بشار وابن هرمة والعتابي »^(٢) .
ولإذن فقد كان ابن هرمة من أوائل أصحاب البديع ، وشعره يدل على أنه من أهل الصناعة ، ولعل من أبرز مظاهر ذلك قصيدته التي تكلف فيها ألا تتضمن حرفاً معجماً . ويقول أبو الفرج إنه لم يكن يظن أن أحداً تقدم رزينا العروصي إلى هذا الباب .

١٩٣ - مروان بن أبي حفصة (١٨١ : ٦)

أبو السمط ، مروان بن أبي سليمان بن يحيى بن أبي حفصة . شاعر من مخضرمي الدولتين . كان يحيى بن أبي حفصة جده شاعراً من شعراء المروانيين ، وقد أورد له أبو الفرج شيئاً من الشعر السياسي الذي قاله في خروج يزيد بن المهلب ، وهو شعر جيد ، عربي الديباجة قوي الروح . وهكذا نرى أن مروان نشأ على عرق من الشعر .
وقد أدرك عهد الأمويين ، ويقال إنه صنع قصيدة يمدح بها مروان بن محمد ، ولكن بعد فوات الوقت^(٣) .

وقد اتصل في أول أمره بمعن بن زائدة ، وكان يقصده في ولايته على اليمن ، ثم جعل يتبهاً للاتصال بالعباسيين إلى أن أتيح له أن يمدح المهدي بما كان موضع الإعجاب الشديد ، وكذلك مدح الهادي والرشيدي . وكان مذهبه في هذه المدائح أن يتعرض لهجاء الطالبين ، فكان ذلك من الأسباب التي رفعت من شأنه لدى الخلفاء^(٤) .

ولكن هذا المذهب قد أوغر عليه بعض الصدور . وإذا صح ما يرويه أبو الفرج عن صالح بن عطية الأضحج ، فإن المذهب الذي رفع من قدره ، هو الذي قتله وقضى عليه .

على أن الرجل عاش عمراً غير قصير ، فقد عمر إلى أيام محمد بن زبيدة ، وكان إذ ذاك شيخاً كبيراً .

ويعتبر مروان كذلك من أهل الصناعة الشعرية ، ويحكى هو عن نفسه ، كما

(١) الأغاني ٤ : ٣٦٧ - ٣٩٧ .

(٢) البيان والتبيين ١ : ٣٠ .

(٣) الأغاني ١٠ : ٧١ - ٩٥ .

(٤) الأوراق للصدوق (قسم أخبار الشعراء) ص ١٤ .

يذكر صاحب الأغاني عن حماد الأرقط : « إني إذا أردت أن أقول القصيدة رفعتها في حول : أقولها في أربعة أشهر ، وأنتخلها في أربعة أشهر ، وأعرضها في أربعة أشهر » .

١٩٤ - الشماخ بن ضرار (١٨١ : ١٧)

هو معقل بن ضرار بن سنان ، من ذبيان ، شاعر مخضرم ، وقد عدّه ابن سلام في الطبقة الثالثة مع لبيد والنابغة الجعدي وأبي ذؤيب الهذلي ، وهو من أسرة شاعرة ، فقد كان أخواه ، مزرد وجزء ، شاعرين .

وقد ترجم له أبو الفرج وأورد في خلال الترجمة طائفة من شعره^(١) ، كما أن في جمهرة أشعار العرب قصيدة منسوبة إليه ، في باب « المشوبات »^(٢) ، وهن - كما يقول أبو زيد الخطابي في المقدمة - اللاتي شابهن الكفر والإسلام .

ويصفه ابن سلام بأنه « كان شديد متون الشعر ، أشد أسر الكلام من لبيد ، وفيه كرازة ، ولبيد أسهل منه منطقالاً »^(٣) ، وروى أبو الفرج أن الخطيئة قال في وصيته : « أبلغوا الشماخ أنه أشعر غطفان » .

١٩٥ - أحيحة بن الجلاح (١٨٢ : ١)

سيد من سادات يثرب ، ورأس من رعوس الأوس ، في القرن الخامس الميلادي . وقد ولد حسب تقدير العلامة كوسان دي برسيفال Caussin de perseval في سنة ٤٦٤^(٤) . وقد ترجم له أبو الفرج ، وأورد له أخباراً مع أبي كرب الحميري آخر تبابعة اليمن ، كما أورد أخباراً أخرى له في معركة نشبت بين بني النجار وبني عمرو بن عوف . وكان أحيحة عليهم .

وقال أبو الفرج في صفته : « وكان أحيحة إذ ذاك سيد قومه من الأوس ، وكان رجلاً صنيعاً للمال شحيحاً عليه ، يتبع بيع الربا بالمدينة ، حتى كاد يحيط بأموالهم .

(١) الأغاني ٩ : ١٥٨ - ١٧٢ .

(٢) ص ١٥٤ - ١٥٨ ط بولاق ١٣٠٨ .

(٣) طبقات الشعراء ص ٤٧ ط السعادة . (ص ١١٠ ط دارالمعارف ، ١٩٥٢)

(٤) *Essai sur l'histoire des Arabes avant l'Islamisme* .

وكان له تسع وتسعون بعيراً كلها ينضح عليها . وكان له بالبحرف أصوار من نخل . . .
وكان له أطمان» (١) .

وقد ذكره المبرد بالبخل فقال إنه كان « إذا هبت الصبا طلع من أطمه ، فنظر إلى
ناحية هبوبها ، ثم يقول لها : هبي هبوبك ، فقد أعددت لك ثلثمائة وستين صاعاً من
عجوة ، أدفع إلى الوليد منها خمس تمرات ، فيرد علي ثلاثاً - أى لصلابتها - بعد ما يلوك
منها اثنتين» (٢) .

وكذلك أورد النويرى طرفاً من أخباره في البخل (٣) .

وقد عده أبو زيد القرشي في أصحاب المذاهبات ، وأورد له قصيدة منها بعض الأبيات
التي أوردها الجاحظ هنا (٤) . كما أورد له ياقوت في سياق كلامه عن « أيلة » أبياتاً
يرثي بها ابنه (٥) .

١٩٦ - عروة بن الورد (١٨٣ : ٤)

هو عروة الصعاليك العبسي . « شاعر من شعراء الجاهلية ، وفارس من فرسانها ،
وصعلوك من صعاليكها المعدودين المقدمين الأجواد » كما يقول أبو الفرج . وقد حكى ابن
الأعرابي عن أبي فقعه أسلوب حياته ، إذ يقول : « وكان عروة بن الورد إذا أصابت
الناس سنة شديدة ، تركوا في دارهم المريض والكبير والضعيف ، وكان عروة بن الورد
يجمع أشباه هؤلاء من دون الناس من عشيرته ، في الشدة . ثم يخفر لهم الأسراب ويكنف
عليهم الكنف . ويكسبهم . ومن قوى منهم - إما مريض يبرأ من مرضه ، أو ضعيف
تشوب قوته - خرج به معه فأغار ، وجعل لأصحابه الباقيين في ذلك نصيباً . حتى إذا
أخصب الناس وألبنوا وذهبت السنة ألحق كل إنسان بأهله ، وقسم له نصيبه من غنيمة إن
كانوا غنموها ، فربما أتى الإنسان منهم أهله وقد استغنى » .

وقد نسجت القصص المختلفة حول بطولة عروة في العصر العباسي ، وأورد أبو الفرج
طائفة منها . أما شعره فأكثره في وصف هذه الحياة ، والتحدث عن الصعاليك ، وذكر

(١) الأغاني ١٣ : ١١٩ - ١٢٧ .

(٢) الكامل للمبرد ٣ : ٢٣ ط الفتوح الأدبية ١٣٣٩ هـ .

(٣) نهاية الأرب ٣ : ٣٠٥ .

(٤) جمهرة أشعار العرب ص ١٢٥ - ١٢٦ ط بولاق .

(٥) معجم البلدان ١ : ٣٩١ ط مطبعة السعادة ، ١٩٠٦ م .

المثل الجديرة بهم . ومنه ما هو حديث عن هذه أوتلك من النساء اللواتي كان يسبهن ويتزوجهن^(١) .

وقد عدّه أبو زيد القرشي في أصحاب « المنتقيات » وأورد له قصيدة يتحدث فيها عن حياته ، كما يتحدث عما ينبغي للصعاليك^(٢) .

١٩٧ - سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل (١٨٣ : ١٠)

هو ابن زيد بن عمرو ، أحد من اعتزل عبادة الأوثان ، وامتنع عن أكل ذبائحهم ، وذهب يلتمس دين إبراهيم ، حتى أثار حوله في مكة نائرة أخرجه منها^(٣) ، ولم يدرك الإسلام . فأما سعيد ابنه فقد أسلم هو وزوجته فاطمة بنت الخطاب ، أخت عمر ، حين كان المسلمون يستخفون بإسلامهم . وفي بيته أسلم عمر بن الخطاب^(٤) . وقد شهد المشاهد كلها . ويعد من العشرة المبشرين بالجنة .

وقد كان رجلاً من أصحاب الرأي ، قوى الشخصية ، ولو أنه ظل بعيداً عن الفن السياسية . كما كان شاعراً بليغاً . وقد عاش إلى سنة ٥١ ، ومات عن ثلاث وسبعين سنة .

١٩٨ - الأخنس بن شهاب (١٨٤ : ٣)

شاعر فارس ، من بني تغلب ، عاش في أيام حرب البسوس . والأبيات التي يوردها الجاحظ هنا هي من قصيدة له يرويها المفضل الضبي في المفضليات^(٥) ، وأولها :

لا بنة حطان بن عوف منازل كما رقت العنوان في الرق كاتب

وقد عرض له الآمدي فترجم له بكلمات أورد فيها نسبه^(٦) .

(١) الأغاني ٣ : ٧٣ - ٨٨ .

(٢) جمهرة أشعار العرب ص ١١٤ - ١١٥ .

(٣) الأغاني ٣ : ١٢٣ - ١٢٧ .

(٤) سيرة ابن هشام ١ : ٣٦٧ ط مصطفى الباني الحلبي ، ١٩٣٦ م .

(٥) المفضليات ص ٤١٣ ط أكسفورد .

(٦) المؤلف والمختلف ، ص ٢٧ .

١٩٩ - ابن الذئبة (١٨٤ : ٦)

شاعر فارس جاهلي ، ترجم له الأمدى ، فقال : « فأما ابن الذئبة ، فهو ربيعة ابن الذئبة ، والذئبة أمه ، وأبوه عبد ياليل بن سالم بن مالك بن حطيظ بن جشم بن قسي ، وهو ثقيف . شاعر فارس ، وهو القائل :

إن المنية بالفتيان ذاهبة ولو تقوها بأسياف وأدراع
بيننا الفتى يبتغي من عيشة سددا إذ حان يوماً فنادى باسمه الداعي
لا تجعل الهم غلا لا انفراج له ولا تكونن كزوماً ضيق الباع^(١) .

ونسب له أبو عبيد هذين البيتين :

ما بال من أسعى لأجبر عظمه سفاهاً وينوي من سفاهته كسرى
أظن خطوب الدهر مني ومنهم ستحملهم مني على مركب وعر^(٢)

وكذلك نجد له ترجمة صغيرة في اللآلئ^(٣) .

والشعر الوارد هنا منسوب في الأصل لابن أذينة الثقفى ، ولكن ابن أذينة ليس ثقفياً بل ليثياً . ومنسوب في عيون الأخبار إلى ابن الدمينة ، وابن الدمينة كذلك ليس ثقفياً ، بل هو خثعمى . والفرس الذى افترضته أنه لابن الذئبة يتفق مع نسبة الشعر في الحيوان ، كما بينا في النص .

٢٠٠ - غيلان بن سلمة (١٨٦ : ٦)

شاعر جاهلي أدرك الإسلام . وقد وفد على كسرى . وعده أبو عبيد من حكام قيس في الجاهلية^(٤) وقد أورد الجاحظ له قطعة من الشعر . وقد ترجم له ابن سعد في الطبقات ، وابن حجر في الإصابة ، وأبو الفرج في الأغاني^(٥) .

(١) المتلف والمختلف ، ص ١٢٠ .

(٢) التنبيه على أوهم أبي على في أماليه ، ص ٢٤ .

(٣) اللآلئ لأبي عبيد ، ص ٧٩٢ .

(٤) اللآلئ ص ٤٧٨ .

(٥) طبقات ابن سعد ٥ : ٣٧١ ، الإصابة ٥ : ١٩٢ - ١٩٥ ، ط الشافية ، ١٩٠٧ ، الأغاني

٢٠١ - ديسيموس (١٨٨ : ٩)

تحدث الجاحظ عنه ، وروى طرفاً من نوادره وأقواله في غير موضع . فقال في الحيوان : « حدثني العتيبي ، قال : كان في اليونانيين ممرور له نوادر عجيبة ، وكان يسمى ديسيموس . قال : والحكماء يروون له أكثر من ثمانين نادرة < ما من نادرة > إلا وهي غرة وعين من عيون النوادر»؛ ثم أورد طائفة من هذه النوادر^(١) ، كما أورد بعض نوادره أيضاً في البيان والتبيين^(٢) .

ويؤخذ من بعض هذه النوادر التي ذكرت في الحيوان أن ديسيموس هذا كان يقيم على شاطئ الفرات ، أي أنه كان يقيم على الحدود الشرقية للمملكة الرومانية . وفي رسالة التبريع والتدوير من أقواله : « لولا العمل لم يطلب علم ، ولولا العلم لم يطلب عمل . ولأن أدع الحق جهلاً به ، أحب إلى من أن أدعه زهداً فيه ؛ وإن كان الجهل لا يكون إلا من نقصان في آلة الحس ، فإن المعاندة لمن زيادة في آلة الشر . ولأن أترك جميع الخير ، أحب إلى من أن أفعل بعض الشر»^(٣) وهذه الأقوال هي - ولا ريب - من أروع الكلام . وقد عرض الأستاذ أحمد أمين لهذه النوادر وعدها فيما كان لليونان من أثر في الأدب العربي^(٤) .

٢٠٢ - الأضبط بن قريع (١٨٩ : ١٦)

أحد شعراء الجاهلية وفسانها ، الذين تحملوا الكثير من الأخبار المصنوعة . وهو من بني عوف بن كعب بن سعد ، رهط الزبيرقان بن بدر . وما روى عنه ابن قتيبة أنه كان المؤسس لمدينة صنعاء ، إذ يقول : « أغار على بني الحارث بن كعب ، فقتل منهم وأسر ، وجدع وخصى . ثم بني أطما ، وبنت الملوك حول ذلك الأطم مدينة صنعاء » . وهذا - ولا ريب - قول عجيب .

(١) الحيوان ١ : ٢٨٩ - ٢٩٠ .

(٢) البيان والتبيين ٢ : ١١٧ ط ١٣٣٢ هـ .

(٣) رسائل الجاحظ (مجموعة السندوي) ص ٢٣٧ .

(٤) ضحى الإسلام ١ : ٢٨٢ .

وقد ترجم له ابن قتيبة (١) وأبو الفرج (٢) وأبو عبيد (٣) وكلهم يروون له قصيدة رقيقة مهذبة الحاشية : « يا قوم من عاذرى من الخدعة » ما أبعد أن تكون صحيحة النسبة له .

٢٠٣ - مطرف بن الشخير (١٩٢ : ٨)

هو أبو عبد الله ، مطرف بن عبد الله بن الشخير الحرشي العامري ، من بني عامر ابن صعصعة . تابعى من أهل البصرة ، ولد في حياة الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، ومات في أواخر القرن الأول. وقد وصفه غيلان بن جرير بقوله : « إنه كان يلبس المطارف ، ويركب الخيل ، ويغشى السلطان . ولكن إذا أفضيت إليه أفضيت إلى قرة عين » (٤).

وقد ذكره الجاحظ بأنه كان مضرب المثل في العقل (٥) ، وذكره في موضع آخر بأنه كان قاصاً ، (٦) وكان يمثل القصص بمعناه الأول ، حين كان الغرض منه إرهاف العاطفة الدينية ، في وسط تلك الملابس الدنيوية . وكان أول أمره يحضر مجالس زيد ابن صوحان الخطيب القاص ، كما أشار إلى ذلك أبو نعيم في ترجمته له (٧) . وقد ترجم له ابن قتيبة أيضاً (٨).

وذكره المرزباني ، فأورد له بيتين من الشعر ، يتنافح عن بيته بنى وقدان (٩) .

٢٠٤ - الزبير (١٩٣ : ٧)

هو الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد، شخصية من الشخصيات الإسلامية الكبرى

-
- (١) الشعر والشعراء ، ص ٢٢٥ - ٢٢٦ .
 - (٢) الأغاني ١٦ : ١٥٩ .
 - (٣) اللآلئ ، ص ٣٢٦ .
 - (٤) تهذيب التهذيب ١٠ : ١ .
 - (٥) البيان والتبيين ١ : ١٦٣ .
 - (٦) البيان والتبيين ١ : ١٩٦ .
 - (٧) حلية الأولياء ٢ : ١٩٨ - ٢١٢ .
 - (٨) المعارف ، ص ٢٢٣ .
 - (٩) معجم الشعراء ، ص ٣٨٩ .

التي صحبت الإسلام منذ أول عهده . وقد هاجر الهجرتين ، وشهد المشاهد ، ويعد في العشرة « المبشرين بالحنة » .

وقد ظل بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم مسموع الكلمة ، وقد كان تاجراً واسع التجارة عظيم الثروة ، وجعله عمر من الستة « أصحاب الشورى » . وإن كان يصفه بأنه « لقس ، مؤمن الرضا ، كافر الغضب ، شحيح »^(١) . وفي أواخر أيام عثمان كان من المنكرين عليه ، كما كان يتهم بأنه هو وعلى وطلحة كانوا يثيرون النائرة ضده . وبعد المبايعة لعلی خرج مع عائشة في يوم الجمل ، وقد قتل غيلة في منصرفه . لقيه عمرو بن جرموز التيمي فقتله ، وكان هذا عام ٣٦ عن ٦٦ أو ٦٧ عاماً^(٢) .

٢٠٥ - عبد الرحمن (١٩٣ : ٧)

هو عبد الرحمن بن عوف الزهري القرشي . من أكبر الشخصيات الإسلامية أيضاً . كان من السابقين إلى الإسلام ، ومن هاجر الهجرتين ، وشهد المشاهد وأبلى فيها ، وأحد « العشرة » ، كما كان تاجراً واسع التجارة ، وقد أبلى بماله أيضاً في سبيل الإسلام خير البلاء^(٣) .

وكان كذلك من الستة « أهل الشورى » ، ولكنه كان ممتازاً فيها ، فقد وضعه عمر في موضع الترجيح . إذ قال - كما يحكي أبو مخنف - : إن كانوا ثلاثة وثلاثة ، كانوا مع الثلاثة الذين فيهم ابن عوف . فلما مات عمر ، واجتمع مجلس الشورى ، كان هو صاحب الكلمة الفاصلة ، بعد أن أخرج نفسه وسعداً من الأمر ، وبذلك وسد الأمر لعثمان . ولكن الأمر لم يلبث أن فسد بينه وبين عثمان ، ولا سيما بعد أن سير أبا ذر إلى الربذة فمات فيها ، ويحكي البلاذري أن عبد الرحمن بن عوف كان حلف ألا يكلم عثمان أبداً ، وكذلك أوصى ألا يصلي عثمان عليه^(٤) .

وقد مات سنة ٣٢ عن اثنين وسبعين عاماً .

٢٠٦ - عبد الله بن جعفر (١٩٣ : ١١)

هو عبد الله بن جعفر بن أبي طالب ، وأبوه جعفر بن عم الرسول صلى الله عليه

(١) أنساب الأشراف للبلاذري ٥ : ١٧ .

(٢) الإصابة ١ : ٥٤٦ .

(٣) الإصابة ٧ : ٤١٦ - ٤١٧ .

(٤) أنساب الأشراف ٥ : ١٩ - ٢٢ ، ٥٧ .

وسلم ، وقد ولد عبد الله في مهاجر أبيه بالحبيشة ، في السنة الأولى من الهجرة . فلما كانت الحصومة بين علي ومعاوية في صفين ، كان أحد الأمراء في جيش علي .

ولكننا نراه بعد ذلك بعيداً عن هذه الحصومات السياسية ، بعد ما استقام الأمر للأمويين . ولعله كان بطبعه السمع ، ونزعته إلى الاستمتاع بالحياة ، أبعده ما يكون عن المحادة السياسية ، ولذلك نراه في مجلس معاوية ، ومجلس عبد الملك .

وكان يمثل ترف أهل الحجاز من الهاشميين ، وحياته صورة مثلى من تلك الحياة التي تحدث عنها الدكتور طه حسين في حديث الأربعاء^(١) ، ووصف أسبابها وملابساتها . ويمكن اعتباره من أهم الشخصيات التي شجعت الحياة الفنية في الحجاز . وهي نواة الحياة الفنية في بلاد الإسلام بعد ذلك ، ويذكر صاحب الأغاني في مواضع مختلفة طائفة من مواليه ، كنشيط وسائب خاثر ونافع الخير وعمارة ، وهم أساتذة الغناء والمغنين^(٢) كما يذكر أن ابن سريج كان منقطعاً إليه^(٣) ، وأن طويس كان حسن الصلة به^(٤) . ويعدده ابن عبد ربه أحد أجواد الحجاز الثلاثة^(٥) ، ويحكي عنه المبرد أنه أنشد قول الشاعر :

إن الصنيعة لا تكون صنيعة حتى تصيب بها طريق المصنع

فقال : هذا رجل يريد أن يبخل الناس . أمطر المعروف مطراً ، فإن صادف موضعاً فهو الذي قصدت له ، وإلا كنت أحق به^(٦) . وقد عاش إلى سنة ٩٠ .

٢٠٧ - المعلوط القريني (١٩٤ : ١٠)

هو المعلوط بن بدل القريني ثم السعدي ، شاعر إسلامي ، كما يقول أبو عبيد . وقد أورد له قطعة من ثلاثة أبيات ، يتحدث فيها عن الفقر والغنى . على الطريقة

(١) حديث الأربعاء ١ : ٢٣٥ وما بعدها ، ط مصطن الباني الحلبي ، ١٩٣٧ م .

(٢) انظر مثلاً : ١ : ٣٨ ، ٣٩ ، ١١٧ ، ١٨٨ .

(٣) ١ : ٢٤٩ .

(٤) ٣ : ٣٢ - ٣٣ .

(٥) العقد الفريد ١ : ٣٣٩ .

(٦) الكامل للمبرد ١ : ٩٤ - ٩٥ .

البدوية (١) ، كما روى له أبو تمام قطعة أخرى من الشعر الغزل الأعرابي (٢).

٢٠٨ - إبراهيم بن عبد العزيز (١٩٦ : ٧)

لست أدري - على التحقيق - من هو . ولعله هو الذى جاء ذكره على لسان أبي إسحاق إبراهيم النظام ، فيما روى الجاحظ عنه ، من قصة متربته ، وقصده قصبه الأهواز ، ثم نزوله في فرضتها ، وصيرورته إلى خان هناك ، وتعرضه في أثناء ذلك كله لأسباب الطيرة . ثم يقول النظام : « فيينا أنا جالس إذ سمعت قرع الباب ، قلت : من هذا عافاك الله تعالى ؟ قال : رجل يريدك . قلت : ومن أنا ؟ قال : أنت إبراهيم . قلت : ومن إبراهيم ؟ قال : النظام . فقلت : هذا خناق أو عدو أو رسول سلطان . ثم إنى تحاملت وفتحت الباب . فقال : أرسلنى إليك إبراهيم بن عبد العزيز ، ويقول : نحن وإن كنا اختلفنا في بعض المقالة ، فإننا قد نرجع بعد ذلك إلى حقوق الأخلاق والحرية . وقد رأيتك حين مررت بي على حال كرهتها منك . وما عرفتك حتى خبرني عنك بعض من كان معي وقال : ينبغي أن تكون قد نزع بك حاجة ، فإن شئت فأقم بمكانك شهراً أو شهرين ، فعسى أن نبعث إليك ببعض ما يكفيك زمناً من دهرك . وإن اشتيت الرجوع فهذه ثلاثون مثقالاً ، فخذها وانصرف ، وأنت أحق من عذر» (٣) . وليس يبعد عندنا أن يكون إبراهيم هذا هو المقصود هنا ، فإن صح هذا ، فقد كان متكلماً ، ولعله كان معتزلياً ، وإن كان يختلف مع النظام في بعض المقالة ، وكان إلى جانب هذا من سرة الأهواز .

٢٠٩ - البياح السبخى (١٩٦ : ٨)

قال صاحب اللسان : « البياح ، بكسر الباء مخفف : ضرب من السمك ، صغار أمثال شبر . وهو أطيب السمك » . وجعل الفريق أمين المعلوف هذه الكلمة مرادفة لكلمة البورى التي تطلق في مصر على ذلك النوع من السمك ، وقد وصفه بقوله : « سمك مشهور صغير أو متوسط الحجم ، كبير الحراشف يكون في معظم البحار ، ويصعد في الأنهار أحياناً ، وهو أنواع كثيرة » . وبعد أن ذكر بعض هذه الأنواع نقل عن العالم

(١) اللال ص ٤٣٤ .

(٢) ديوان الجملة ٢ : ١٤٠ ط ١٣٣٥ هـ .

(٣) الحيوان ٣ : ٤٥١ - ٤٥٣ .

الهندي الكلونل جاياكار Jayakar أن في مسقط (على خليج عمان نوعين آخرين يطلق عليهما هناك اسم «البياح»^(١)) ومن هذا نعلم أن كلمة البياح التي كانت تطلق في عصر الجاحظ على ذلك الضرب من السمك لا تزال مستعملة حتى الآن في ذلك الإقليم .

والبياح السبخي الذي يذكره الجاحظ هنا إما أن يكون منسوباً إلى السبخة ، وهي قرية من قرى البحرين ، أو إلى ذلك الموضع من نواحي البصرة ، وهو الذي ينسب إليه الزاهد المشهور : فرقد السبخي^(٢).

ومهما يكن من أمر فقد كان ذلك الضرب من السمك كثيراً في البصرة . ويذكر صاحب الأغاني عن عيسى بن سليمان بن علي الهاشمي أنه كان له في البصرة محابس يجبس فيها البياح ويبيعه ، ويعيره أبو عيينة المهلبى بذلك إذ يقول في قصيدة له فيه :
رأيت أبا العباس يسمو بنفسه إلى بيع بياحاته والمباقل^(٣)

٢١٠ - أبو المنجوف السدوسي (١٩٧ : ١٤)

أخباري - نسابة ، من أهل القرن الثاني . كان يسكن البصرة بجوار الرقاشي ، كما يقول الثعالبي عنه^(٤) . وقد ذكره ابن النديم فقال : إنه روى عن أبي عبيدة ، وإن له من الكتب كتاب الغول . وقد مات بعد المائتين^(٥).

٢١١ - الجيسران (١٩٧ : ١٦)

نوع من التمر ، وصفه ابن قتيبة بقوله : «وأحمد البسور الجيسران»^(٦) ، وذكره أدي شير فقال : «الجيسران جنس من أفخر النخل ، فارسيته كيسران . ومعناه الذوائب»^(٧).

(١) معجم الحيوان ص ١٦٣ - ١٦٤ ، ط المنتطف ١٩٣٢ .

(٢) معجم البلدان ٥ : ٢٧ .

(٣) الأغاني ١٨ : ١١ ، ١٢ ط التقدم .

(٤) ذيل الأمل ، ص ٤٤ .

(٥) الفهرست ، ص ١٥٩ .

(٦) عيون الأخبار ٣ : ٢٩٧ .

(٧) الألفاظ الفارسية المعربة ، ص ٤٩ .

٢١٢ - قاسم التمار (١٩٨ : ٧)

أحد المتكلمين في عصر الجاحظ . وقد وصفه ابن قتيبة ، وابن عبد ربه ، بعد خبر نقله عن الجاحظ - وقد أورده الجاحظ شاهداً على التخليط - بأنه متقدم في أصحاب الكلام^(١).

والذي يؤخذ من أخباره في البيان والتبيين وعيون الأخبار ، أنه كان رجلاً على شيء من الغفلة ، ولعله كان يصطنعها أحياناً ، التماساً للنادرة . وقد كان يلبس المتكلمين ويطيّبهم بنواده ، كما أن سرارة المتكلمين كثامة كانوا يصلونه ويكرمونه ، بالرغم من أنه كان قذر المؤاكلة ، وأنه كان يعمل عمل رجل لم يسمع بالحشمة ولا بالتجمل قط ، كما وصفه الجاحظ في البخلاء^(٢).

وكان إلى هذا قببح الحلقة ، مشنوء المنظر ، كما يؤخذ من خبر ساقه الجاحظ عنه في الحيوان^(٣) وقد ذكره في رسالة التربيع والتدوير بعظم العنق ، إذ يقول مخاطباً أحمد ابن عبد الوهاب : « وأنا دقيق العنق ، وعنقك عتق قاسم التمار »^(٤).

ولكنه كان مع هذا - فيما يبدو - خفيف الروح ، طيب النكتة ، فكان المتكلمون يتقبلونه ، وقد أخذ عنهم بعض ما كانوا يتدارسونه ، وبذلك عد فيهم . ويصف الجاحظ أمثاله بقوله : « وفي حشوة المتكلمين أخلاق قبيحة »^(٥).

٢١٣ - الشبارقات والأخبصة والفالوذجات (٢٠٣ : ١٢ - ١٣)

الشبارقات جمع شبارق . وقد ذكرها الجواليقي ، فقال نقلاً عن ابن دريد : « والشبارق الذي تسميه الفرس ببشارة . ولحم شبارق يقطع صغاراً ويطبخ ، وزعموا أنه فارسي معرب . وقال في موضع آخر : فأما الشبارقات وهي ألوان اللحم في الطباخ ففارسي معرب ، وهو الشفارج للذي تقول له العامة فيشفارج وبشارج »^(٦).

(١) تأويل مختلف الحديث ، ص ٩٥ ، العقد الفريد ٢ : ٤٨٢ ط لجنة التأليف .

(٢) البيان والتبيين ٣ : ١٩١ ط ١٣٣٢ هـ ، عيون الأخبار ٢ : ١٥٧ ، البخلاء ص ١٩٨ .

(٣) الحيوان ٦ : ٨٢ ط التقدم .

(٤) رسائل الجاحظ (مجموعة السندوقي) ص ١٠١ .

(٥) البخلاء ص ١٦٩ .

(٦) المعرب من الالاء الأعجمي . ص ٢٠٤ .

على أنه ذكر « الفيشفارج » وفسرها بقوله : « ما يقدم بين يدي الطعام من الأطعمة المشهية له »^(١).

وأما الأخبصة فجمع خبيص ، وهو طعام عربي يعمل من التمر والسمن ، ويظهر أنه صار يعمل بعد ذلك من العسل بدلا من التمر ، ومن ذلك ما ذكره الراغب : « وقيل : ذهبت بهجة الخبيص منذ عمل من عسل »^(٢).

وأما الفالوذجات فجمع فالوذج ، وهو طعام أخذته العرب من الفرس ، كما يؤخذ من القصة التي تروى عن عبد الله بن جدعان . وجملة صفته تؤخذ من كلمة الحسن حين سمع رجلا يعيبه ، فقال : « فتات البر ، بلعاب النحل ، بخالص السمن . ما عاب هذا مسلم »^(٣).

٢١٤ - إياس بن معاوية (١٨٧ : ٣)

هو أبو وائلة ، إياس بن معاوية المزني ، أحد رجال البصرة في القرن الأول ، وقد امتاز بالزكارة وقوة العقل ، حتى ليقول فيه أحد البصراء بالرجال : « ما رأيت عقول الناس إلا قريبا بعضها من بعض ، إلا ما كان من الحجاج وإياس بن معاوية ، فإن عقولهما كانت ترجح على عقول الناس »^(٤) وقد أورد الجاحظ طائفة من شواهد عقله ودقة بصره^(٥) ، ومما قال في صفته : « وجملة القول في إياس أنه كان من مفاخر مضر ، ومن مقدمي القضاة ، وكان فقيه البدن ، دقيق المسلك في الفطن . وكان صادق الحس نقاباً ، وعجيب الفراسة ملهماً . وكان عفيف الطعم ، كريم المدخل والشيم ، وجيهاً عند الخلفاء ، مقدماً عند الأكفاء »^(٦).

وقد كان إياس يعالج أنواع العلم الأخرى ، ويحاول أن يتناول المعارف الطبيعية بالوصف والتصنيف كما يؤخذ من كلام الجاحظ عنه ، في سياق كلامه عن الخلق المركب ، وإن كان رأى الجاحظ فيه هنا مختلفاً بعض الشيء عن رأيه الذي أسلفنا ،

(١) ص ٢٣٩ .

(٢) محاضرات الراغب ١ : ٢٩٦ ط الشرفية .

(٣) عيون الأخبار ٣ : ٢٠٣ .

(٤) البيان والتبيين ١ : ٢٢٦ ط ١٩٣٢ م .

(٥) انظر مثلاً : البيان والتبيين ١ : ٥٥ - ٥٦ ط ١٣٣٢ د . الحيوان ٢ : ٧٥ - ٧٦ ، ١٥٢ .

(٦) البيان والتبيين ١ : ٥٦ ط ١٣٣٢ هـ .

لاختلاف الموضوع . قال : « ورووا عن أبي واثلة أنه زعم أن من الدليل على أن الشبوط كالبغل ، أن الناس لم يجدوا ، في طول ما أكلوا الشبايط ، في جوفها بيضاً قط . فإن كان هذا الخبر عن هذا الرجل المذكور بشدة العقل ، المنعوت بتقرب الفراسة ودقة الفطنة صحيحاً ، فما أعظم المصيبة علينا فيه ، وما أخلق الخبر أن يكون صحيحاً . وذلك أني سمعت له كلاماً كثيراً من تصنيف الحيوان وتقسيم الأجناس ، يدل على أن الرجل حين أحسن في أشياء وهمه العجب بنفسه أنه لا يروم شيئاً فيمتنع عليه ، وغره من نفسه الذي غر الخليل بن أحمد ، حين أحسن في النحو والعروض ، فظن أنه يحسن الكلام وتأليف اللحن . . . إلخ »^(١) .

وقد ولي إياس قضاء البصرة ، في إمارة عدى بن أرطاة ، أيام عمر بن عبد العزيز^(٢) ولأبي الحسن المدائني كتاب مقصور على ذكر إياس وإبراز نوادره ، كما يذكر الثعالبي ، وقد نقل الجاحظ عن أبي الحسن ، كما نقل عنه الثعالبي . وكذلك نجد طائفة من أخباره وشواهد فراسته — ومنها ما هو منقول عن المدائني — في كتاب الطرق الحكمية في السياسة الشرعية ، لابن قيم الجوزية^(٣) .
وقد عاش إياس إلى سنة ١٢٢ .

٢١٥ - الحشرية (٢٠٥ : ٨)

اصطلاح خاص بالمواريث التي لا وارث لها ، وقد ذكره القلقشندي ، فقال . «المواريث الحشرية ، وهي مال من يموت ، وليس له وارث خاص بقرابة أو نكاح أو ولاء أو الباقي بعد الفرض من مال من يموت وله وارث ذو فرض لا يستغرق جميع المال ، ولا عاصب له ، والحشرى هو من يموت كذلك»^(٤) .

٢١٦ - جعفر بن يحيى (٢٠٥ : ١١)

هو أحد أبناء يحيى بن خالد البرمكي وأنبهم وآثرهم عند الرشيد . ويذكر الجهشياري

(١) الحيوان ١ : ١٥٠ .

(٢) البيان والتبيين ١ : ٩٧ ط ١٩٣٢ .

(٣) انظر مثلاً الصفحات : ٢٥ ، ٣١ ، ٣٤ ط الآداب والمؤيد ١٣١٧ .

(٤) صبح الأعشى ٣ : ٤٦٤ .

أنه غلب على الرشيد غلبة شديدة ، حتى صار لا يقدم عليه أحداً . وأنس به كل الأُنس ، وأنزله بالخلد بالقرب من قصره . وقد ولاه المغرب كله من الأنبار إلى أفريقية كما جعله قيم ابنه المأمون ومنشئه (١) .

وقد كان أكثر سراً عصره ترفاً ، سواء في ذلك الترف المادى والترف المعنوى . فقد كانت داره ندوة عامرة بالشعراء والرواة والعلماء ، من أبان اللاحق ، إلى الأصمعي ، إلى جبرئيل بن بختيشوع ، إلى كثير غيرهم ، وكان هو رجلاً أديباً سرى اللفظ . وقد حكى الجاحظ وصف ثمامة بن أشرس له ، قال :

« كان جعفر بن يحيى أنطق الناس ، قد جمع الهدوء والتهمل والجزالة والحلاوة ، وإفهاماً يغنيه عن الإعادة . ولو كان في الأرض ناطق يستغنى بمنطقه عن الإشارة لاستغنى جعفر عن الإشارة ، كما استغنى عن الإعادة » . وقال مرة : « ما رأيت أحداً كان لا يتحبس ولا يتلجلج ولا يتنحج ، ولا يرتقب لفظاً قد استدعاه من بعد ، ولا يلتمس التخلص إلى معنى قد تعصى عليه طلبه ، أشد اقتداراً ، ولا أقل تكلفاً من جعفر بن يحيى » (٢) .

وقد بقيت لنا بقايا من كلامه المطول والموجز ، في بعض خطبه وتوقيعاته (٣) . ولكن الأمر لم يلبث أن فسد بينه وبين الرشيد ، فقتله ونكب البرامكة تلك النكبة المعروفة سنة ١٨٧ .

٢١٧ - أبرويز (٢٠٦ : ٦)

هو أبرويز بن هرمز ، أحد ملوك الساسانيين ، في عهد بعثة الرسول ، على الله عليه وسلم . ويصفه ابن الأثير بأنه « كان من أشد ملوكهم بطشاً ، وأنفذهم رأياً . وبلغ من البأس والنجدة ، وجمع الأموال ومساعدة الأقدار ، ما لم يبلغه ملك قبله » . وفي عهده حدثت الحرب بين الفرس والروم ، وهي الحرب التي جاءت الإشارة إليها في القرآن ، في سورة الروم . كما كانت وقعة ذى قار في عهده أيضاً (٤) .

(١) الوزراء والكتاب ، ص ١٨٩ ، ١٩٠ .

(٢) البيان والتبيين ١ : ١٠٠ ط ١٩٣٢ م .

(٣) انظر مثلاً : الوزراء والكتاب ص ٢٠٨ - ٢٠٩ ، ٢٠٥ ، وتاريخ الطبرى ١٠ : ٦٧ - ٦٨ .

ط الحسينية .

(٤) الكامل لابن الأثير ١ : ٢٧٩ وما بعدها .

ولأبرويز في الأدب العربي مكان ظاهر ، بفضل ما ترجم عن الفرس في حركة التيقظ الشعبي ، فلدينا قطع كثيرة من وصاياه ونصائح ، مما جاء في كتاب التاج ، وقطع أخرى من كتابه الذي كتبه إلى ابنه شيرويه ، وهو محبسه^(١).

٢١٨ - ابن سافرى (٢٠٨ : ١٧)

جاء ذكره في قصة قصها الجاحظ عن أبي حكيم الكياوى ، وكان أبو حكيم هذا يجهد جهده في أن يحل عقدة ثمامة فيفعل له كيت وكيت ، أو يطرد له الذباب والبعوض وكان ابن سافرى هذا في مجلس ثمامة ، فلم تقع الحيلة إلا به ، والجاحظ يصوره في هذه القصة رجلاً غفلاً ، ضعيف المنة ، سهل القياد للخادع والمتغفل^(٢).

وقد ترجم الخطيب لمحدث اسمه أيوب بن إسحاق بن إبراهيم بن سافرى^(٣).

٢١٩ - أبو همام السنوط (٢٠٩ : ١٦)

هو رجل من طبقة المتعبدين الأغفال ، كما يدل عليه السياق هنا وما جاء عنه في الحيوان ، إذ يقول الجاحظ في سياق ذكر الأعراض التي تعرض لمن يخصى : « .. وكما عرض لأبي همام السنوط ، من امتلاخ اللحم مذاكيره وخصيبه . أصابه ذلك في البحر في بعض المغازى ، فسقطت لحيته ، ولقب بالسنوط وخرج لذلك نهماً وشرهاً .

وقال ذات يوم : لو كان النخل بعضه لا يحمل إلا الرطب ، وبعضه لا يحمل إلا التمر ، وبعضه لا يحمل إلا الحيزع ، وبعضه لا يحمل إلا البسر ، وبعضه لا يحمل إلا الخلال ، وكنا متى تناولنا من الشمراخ بسرة خلق الله مكانها بسرتين ، لما كان بذلك بأس . ثم قال : أستغفر الله ! لو كنت تمنيت أن يكون بدل نواة التمر زبدة كان أصوب^(٤) ولا ريب أن الصورة التي عرضها الجاحظ له هنا في غاية الوضوح والقوة .

(١) عيون الأخبار ، في كتاب السلطان .

(٢) الحيوان ٣ : ٣٨٥ - ٣٨٨ .

(٣) تاريخ بغداد ٧ : ٩ .

(٤) ١ : ١٢٢ - ١٢٣ ط الحلبي .

٢٢٠ - عبادان (٢٠٩ : ١٧)

بلدة واقعة في زاوية الخليج الفارسي^(١) بين فرعى الدجلة ، وهي تتفرع في شكل دال عند قرية « المحرزي » ، وهي - كما يقول ياقوت - « موضع ردىء سيخ » ، لا خير فيه ، وماؤه ملح ، فيه قوم منقطعون عليهم وقف في تلك الجزيرة يعطون بعضه . وقد كانت قبل ذلك رباطاً . وقد أعدها لذلك الربيع بن صبيح الفقيه^(٢) .

٢٢١ - الشمرية (٢١٠ : ٤)

أحسب أن المراد بهم أتباع أبي شمر ، وهو من متكلمي المرجئة الثوبانية^(٣) ، والخصومة شديدة بينهم وبين المعتزلة . وقد ذكر الجاحظ أبا شمر ، ووصفه بأنه « كان شيخاً وقوراً ، وزميتاً ركيناً ، وكان ذا تصرف في العلم ، ومذكوراً بالفهم والحلم » ، وبذلك كان « إذا نازع لم يحرك يديه ولا منكبيه ، ولم يقلب عينيه ، ولم يحرك رأسه ، حتى كأن كلامه إنما يخرج من صدع صخرة » . وقد ذكر الجاحظ أن مناظرة قامت بينه وبين النظام ، عند أيوب بن جعفر ، اضطره فيها إلى تحريك يديه ، وحل حبوته . وفي ذلك اليوم انتقل أيوب من قول أبي شمر إلى قول إبراهيم^(٤) .

٢٢٢ - الغاضري (٢١٠ : ٦)

أحد المصطنعين للنادرة ، والمعروفين بها ، ممن قدمنا بعض صورهم ، من أهل المدينة . وقد ذكره الآبي في الباب الذي عقده لنوادير المدنيين^(٥) . وقد كان معاصراً لأشعب ، ومنافساً له في الباب الذي اتخذته لنفسه ، وهو باب الطمع^(٦) ، كما رأينا من قبل .

وقد عاش إلى عهد المنصور ، وكان متصلاً بالحسن بن زيد ، أمير المدينة في ذلك

(١) نهاية الأرب ١ : ٢٤٤ - ٢٤٥ .

(٢) معجم البلدان ٦ : ١٠٥ .

(٣) الملل والنحل للشهرستاني ، ص ١٠٥ .

(٤) البيان والتبيين ١ : ٥١ ، ط ١٣٣٢ .

(٥) نثر الدرر ٢ : ٢٠٨ مخطوط في دار الكتب .

(٦) جمع الجواهر ، ص ٩ .

العهد . وله معه نادرة ذكرها الحصرى فى ذلك الموضع ، كما أورد له ، - فى موضع آخر - نادرة أخرى^(١) ، قد تروى أحياناً عن غيره كزبد .

وقد حكى ابن قتيبة خبراً عنه ، على أنه من حمقه^(٢) ، وهو - فيما نحسب - من تحامقه ، والتحامق كان - فيما نقدر - من الصور التى تساق فيها النادرة ، ويلتمس بها ذلك الباب ، باب الإضحاك .

ولى جانب هذا نجد الجاحظ قد روى حديثاً له ، قال إنه من ملح أحاديث الأصمعى ، وقد قال إن شيخاً من أهل المدينة على السن حدثه به . وإذا لم يكن هذا الحديث صحيح النسبة للغاضرى ، فإنه - على كل حال - يبين لنا ما كان معروفاً به فى أحاديثه^(٣) .

٢٢٣ - محمد بن عباد (٢١٠ : ١٥)

لست أدرى ، على التحقيق ، الشخصية المقصودة بهذا الاسم ، وهو هنا أديب من مشايخ الظرفاء ، بخيل مشهور البخل ، فأنا أكاد أستيقن أن ليس المقصود به محمد بن عباد المهلبى ، أمير البصرة المتوفى سنة ٢١٤ ، فذلك رجل مشهور بالسخاء والأريحية ، حتى إن المأمون ليقول له : « أردت أن أوليك ، ففنعى إسرارك فى المال » ، فقال « منع الموجود سوء ظن بالمعبود »^(٤) . وقال أبو العباس المبرد ، فى صفته : « كان سيد أهل البصرة أجمعين »^(٥) . وليس يتفق هذا مع الصورة التى صورها الجاحظ هنا لمحمد ابن عباد .

على أن هناك شخصية أخرى بهذا الاسم ، يذكرها الجاحظ ويروى عنها ، ولعلها هى المقصودة هنا ، فهى شخصية أديب كاتب شاعر ، لا يبعد أن تنطبق عليها تلك الصورة ، وهى شخصية محمد بن عباد بن كاسب . وقد عرف به بأنه كاتب زهير ، ومولى بجيلة ، من سبى دابق ، وأنه كان شاعراً راوية ، وطلابة للعلم علامة^(٦) وذكره فى

(١) جمع الجواهر ، ص ٥٦ ، ١٢٤ .

(٢) عيون الأخبار ٢ : ٥٢ .

(٣) الحيوان ٥ : ٢٤١ - ٢٤٣ ط الحلبي .

(٤) تاريخ بغداد ٢ : ٣٧١ .

(٥) الكامل للمبرد ٢ : ٢٥ .

(٦) البيان والتبيين ١ : ٥١ ط ١٩٣٢ م .

موضع آخر بأنه صديق ثمامة^(١) وقد روى له في هذا الموضع قطعة من الشعر المجائي ، أشبه في ديباجتها بشعر الكتاب ، يهجو بها أبا سعيد ، دعى بني مخزوم . وفي رسالة أبي بكر الصولي إلى أبي الليث مزاحم بن فاتك أبيات أخرى من هذه القطعة^(٢) . وأكبر الظن أن محمد بن عباد هذا هو محمد بن عباد الذي روى عنه الجاحظ - أو أسند إليه - حديث أبي المبارك الصابي^(٣) .

وقد وقع الخلط بين محمد بن عباد هذا ومحمد بن عباد المغني المكي^(٤) ، الذي ترجم له أبو الفرج^(٥) ، والشخصيتان مختلفتان - فيما عدا الاسم - اختلافاً تاماً .

٢٢٤ - الورشان (٢١٢ : ١)

ذكره الفلقشندي في الكلام على « القمري » فقال إنه ذكر القمري ، وإنه يوصف بالخنو على أولاده ، حتى إنه ربما قتل نفسه إذا رآها في يد القانص ، وذكر أنه يسمى ساق حر ، ويكنى أبا الأخضر ، وأبا عمران ، وأبا الناجية ، وأن ابن سيده عده ، في المحكم ، من الحمام^(٦) .

وعد النويري من أصنافه النوبى ، وهو ورشان أسود ، والحجازى . وقال إن النوبى أشجاها صوتاً^(٧) .

وذكر صاحب القاموس أن لحمه أخف من الحمام ، وأورد فيه مثلاً يقول : « بعله الورشان ، يأكل رطب المشان » ، يضرب لمن يظهر شيئاً والمراد منه شيء آخر . والذي نعتبه في هذا المثل أنه يسكن أعالي النخل .

(١) الحيوان ١ : ٢٦٥ .

(٢) أخبار أبي تمام للصولي ، ص ٤٥ - ٤٦ .

(٣) الحيوان ١ : ١٢٦ - ١٢٨ .

(٤) انظر هامش ص ٤٥ - ٤٦ من أخبار أبي تمام ، هامش ص ٢٦٥ من الجزء الأول من الحيوان ،

ط الحلبي .

(٥) الأغاني ٦ : ١٧١ - ١٧٢ ط دار الكتب .

(٦) صبح الأعشى ٢ : ٧٣ .

(٧) نهاية الأرب ١٠ : ٢٥٩ .

٢٢٥ - الكردناج (٢١٢ : ٤)

جاءت هذه الكلمة أيضاً في خبر رواه الآبي عن كتاب الأكلة للمدائني : « ... فأكل جميع دجاجة كردناك »^(١) ، وليس يفيد هذا النص شيئاً في تفسير الكلمة ، ولعلنا نستطيع أن نتفهمها من القصة التي جاءت في سياقها ، عن شيلمة ، محمد بن الحسن بن سهل ، كما ذكرها ياقوت . فقد كان محمد بن الحسن هذا شريكاً في مؤامرة كان يديرها أحد أولاد الوائق ، لينتزع الخلافة لنفسه من المعتضد . ولكن هذه المؤامرة لم تلبث - بالرغم من اتساع نطاقها - أن أحبطت ، وقبض على شيلمة ، وعرفت أسماء المؤتمرين إلا اسم « المستخلف » ، فأخذ المعتضد « يسائل شيلمة عن الخبر . فصدقه عن جميع ما جرى إلا اسم الرجل الذي يستخلف ، فرفق به ليصدقه عنه ، فلم يفعل . فطال الكلام بينهما ، فقال له شيلمة : والله لو جعلتني « كردناكاً » ما أخبرتك باسمه قط . فقال المعتضد للفراشين : هاتوا أعمدة الخيم الكبار الثقال ، وأمر أن يشد عليها شداً وثيقاً ، وأحضروا فحماً عظيماً ، وفرش على الطوابيق بحضرتة ، وأججوا ناراً ، وجعل الفراشون يقبلون تلك النار ، وهو مشدود على الأعمدة ، إلى أن مات »^(٢) .

وهذه الصورة تدلنا على أن « الكردناج » هو اللحم المشوي على السفايف ، وأحسب أن كلمة « كردناج » تدل بالفارسية على « السفود » كما جاء في شعر إسماعيل بن عمار . يشوى لنا الشيخ شورين دواجنه بالجرديناج وشحاج الشقايبين^(٣)

٢٢٦ - التبليا والبرند (٢١٢ : ٧)

أداتان لصعود النخل ، فأما « البرند » ففارسية معناها الرباط . وأما « التبليا » فقد جاء في مقالة للعلامة فرنكل Fraenkel تضمنت بعض الكلمات الآرامية أن هذه الكلمة مأخوذة عن : كلمة آرامية في لفظها ومعناها المصعد المصنوع من الحبال . ثم ذكر أن هذه الكلمة غير مستعملة الآن في العراق^(٤) . وقد أشار إليها صاحب اللسان عرضاً في مادة « ش وى »^(٥) .

(١) نثر الدرر ٢ : ٢٢٠ خ دار الكتب .

(٢) معجم الأدباء ١٨ : ١٤٤ - ١٤٥ .

(٣) الأغاني ١١ : ٣٦٦ ط دار الكتب .

(٤) Z. D. M. G. 1906, 369-370 .

(٥) « والشاة التي يصعد بها النخل ، فهو المصعد وهو الشوائى . قال وهو الذي يقال له « التبليا »

وهو الكر بالعربية » (١٩ : ١٨٠) . وانظر مادة « ك ر ر » (٦ : ٤٥١) .

٢٢٧ - إبراهيم بن سيابة (٢١٢ : ١٠)

شخصية من شخصيات النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة . يمثل هذه الطبقة من الأدباء أو المتأدبين الذين غلب عليهم حب النادرة ، والحياة اللاهية العابثة ، والذين يعدون في مجالس المترفين لوناً من الألوان الضرورية لها . وكذلك كانت صلته بالفضل ابن الربيع . وبإبراهيم الموصلي وابنه إسحاق . وصفه أبو الفرج بأنه « من مقاربي شعراء وقته ، وليست له نباهة ولا شعر شريف ، وإنما كان يميل بمودته ومدحه إلى إبراهيم الموصلي ، وابنه إسحاق ، فغنيا في شعره ورفعاً منه ، وكانا يذكرانه للخلفاء والوزراء ويذكرانهم به إذا غنيا في شعره ، فينفعانه بذلك . وكان خليعاً ماجناً طيب النادرة »^(١) .

وكذلك استطاع أن يتصل ببيحي بن خالد البرمكي ، وقد أورد الجاحظ رسالة كتبها إليه ، يتنصل فيها ويعتذر ويتخضع ويتضرع . وقال في تقديمها : « وبلغني أن عامة أهل بغداد يحفظونها في تلك الأيام »^(٢) . وله أيضاً مثل هذا الاعتذار والتضرع في قطعة من الشعر وجه بها إلى الفضل بن الربيع^(٣) .

٢٢٨ - ابن عون (٢١٣ : ١٠)

هو أبو عون ، عبد الله بن عون بن أرتبان ، أحد نساك البصرة ومحدثها ، من الطبقة التي تلى طبقة الحسن وبكر بن عبد الله . ولد سنة ٦٦ ، عام خروج مصعب لقتال المختار ، كما يقول ابن قتيبة^(٤) وعاش إلى سنة ١٥١ . ويعد في المحدثين المتزمتين الضابطين ، فهو مثال لرجل الحديث الذي يكره المرء ويمقت الجدل ويتجنب الاسترسال في القول . وقد كانت هذه أظهر صفاته ، كما يرد ذلك في الأخبار المختلفة التي تؤثر عنه^(٥) .

(١) الأغاني ١١ : ٦ ط التقدم .

(٢) البيان والتبيين ٣ : ١١٠ ط ١٣٣٢ هـ . وانظر أيضاً الوزراء والكتاب ص ٢٠٣ ط الحلبي .

(٣) الأغاني ١١ : ٧ .

(٤) المعارف لابن قتيبة ، ص ٢٤٥ .

(٥) حلية الأولياء لأب نعيم ٣ : ٣٧ - ٤٤ .

٢٢٩ - عمرو بن عبيد (٢١٣ : ١١)

أبو عثمان ، عمرو بن عبيد بن باب ، أحد شيوخ المعتزلة الأولين .

وكان جده « باب » من سبى فارس ، ومن موالى تميم . وكان أبوه « عبيد » ناسجاً ، ثم تحول شرطياً أو حارس سجن ، في أيام الحجاج ، وأما عمرو فقد نشأ في حلقة الحسن البصرى هو وصديقه واصل ، وبدأ داعية من الدعاة كما كان الشأن في كثير من تلاميذ الحسن ، وتأثر بجو الزهد والنسك الذى كان يحيط به . ثم لم يلبث أن اختلف واصل وشيخه في الحكم على صاحب الكبيرة ، فاعتزل حلقة ، واعتزلها معه عمرو ، وأخذوا يكونان فرقة جديدة كانت من أبلغ الفرق أثراً في الحياة العقلية في الإسلام ، وهى فرقة المعتزلة . وإذا كان واصل صاحب الأثر الأكبر في تكوين هذه الفرقة ، بما كان يمتاز به من قوة الحججة ، وحضور البديهة ، والقدرة على الجدل والمناظرة ، فإن عمرو بن عبيد كان أثره غير قليل بما كان له من شخصية مرفعة ، وسمعة جليلة ، وزهد أصيل . ولا ريب أن مواقف مع المنصور كانت ما تزال تتردد في البيئات البصرية بين الإعجاب والفخر . وقد أورد شيئاً من هذه المواقف الخطيب البغدادي في الفصل الطويل الذى كتبه عنه (١) ، كما أورد ابن قتيبة طرفاً من حديثه في مجلسه (٢) .

وقد تعرض عمرو بن عبيد لخصومة المحدثين العنيفة التى تظهر ألوانها المختلفة في ذلك الفصل الذى كتبه الخطيب ، ولكنه كان يدفع هذه الحملة بمسلكه ، ويقابلها صامتاً . وحكى الجاحظ أن رجلاً قال له : إني لأرحمك مما يقول الناس فيك . قال : أفتسمعى أقول فيهم شيئاً ؟ قال : لا . قال : فيأياهم فارحم (٣) .

وفي العقد كتاب وصف بأنه كتاب واصل بن عطاء الغزال إلى عمرو بن عبيد ، وهو كتاب عجيب ينكر عليه مسلكه في « تفسير التنزيل وعبارة التأويل » ، والكتاب أجدر أن يكون كتاب محدث ، لا كتاب متكلم ، فضلاً عن أن يكون شيخ المتكلمين . وهذا إلى أن فيه ما يكاد يكون صريحاً في نفي نسبته إلى واصل ، إذ يقول له ، يذكر

(١) تاريخ بغداد ٢ : ١٦٦ - ١٨٨ .

(٢) عيون الأخبار ٢ : ٣٣٧ .

(٣) البيان والتبيين ٢ : ٤٧ .

مجلسه من الحسن : « وأنت عن يمين أبي حذيفة أقربنا إليه » وأبو حذيفة هو واصل نفسه^(١) .

وقدمت عمرو بن عبيد في أيام المنصور ، سنة ١٤٢ أو ١٤٣ أو ١٤٤ .

٢٣٠ - مساور الوراق (٢١٣ : ١٩)

شاعر كوفي من طبقة حماد عجرد ، وفيه دعابة تلك الطائفة ، وقد ظهرت هذه الدعابة بصورة واضحة في قصيدته التي يسخر فيها من هذه الطبقة التي تصنع الديانة ، التماساً للعائدة ، وهي التي يبدوها بقوله :

شمر قميصك ، واستعد لناثل واحكك جبينك للقضاء بثوم^(٢)

وهذه القصيدة تصور حالة اجتماعية أجدر أن تكون كوفية منها أن تكون بصرية ، إذ كاد القضاء في ذلك الوقت أن يكون خاصاً بالكوفيين .

كما ظهرت في قصيدة أخرى أوردها ابن عبد ربه ، وهي في وصف مائدة من موائد السراة ، وهي قصيدة جميلة الوصف ، لطيفة الأسلوب ، خفيفة الدعابة^(٣) .

وكان مساور - إلى جانب كونه شاعراً - متصلاً بالبيئات الدينية في الكوفة ، وله شعر في مدح أبي حنيفة^(٤) وهو نفسه يعد في المحدثين . وله ترجمة قصيرة في تهذيب لتهذيب^(٥) .

٢٣١ - ابن القميئة^(٦) (٢١٤ : ٣)

البيت الذي ذكره له هنا الجاحظ من قطعة أوردها في موضع آخر ، وقبله هذه الأبيات^(٧) :

(١) العقد الفريد ٢ : ٣٨٦ . ط لجنة التأليف .

(٢) الأغاني ١٦ : ١٦٨ ، وانظر البيان والتبيين ٣ : ٨٨ ط ١٣٢٢ هـ .

(٣) العقد الفريد ٣ : ٣٨٢ ط ١٢٩٧ هـ (٤ : ٢٩٥ ط ١٩١٣ م) .

(٤) عيون الأخبار ٢ : ١٤٠ .

(٥) تهذيب التهذيب ١٠ : ١٠٣ .

(٦) هكذا جاء الاسم هنا بالألف واللام (عل القول بلمع الأصل) ، والمشهور « ابن قميئة »

مجرداً عنهما .

(٧) الحيوان ٥ : ٧٣ ط الحلبي .

ليس طعمي طعام الأنامل إذ قلّ
ص درّ اللقاح في الصنبر
ورأيت الإماء كالجعثن البيا
لى عكوفاً على قرارة قيدر
ورأيت الدخان كالودع الأه
جتن ينباع من وراء الستر

وابن قميثة هو عمرو بن قميثة بن ذريح البكري، شاعر من أقدم الشعراء الجاهليين، من عصر مهلهل بن ربيعة التغلبي. «وتزعم بكر بن وائل أنه أول من قال الشعر وقصد القصيد»^(١). ويعدّه ابن سلام في شعراء ربيعة الذين ابتدأ الشعر بهم قبل أن يتحول في قيس كالمرقشين وطرفة بن العبد والحارث بن حلزة^(٢).

نشأ يتيماً في كفالة عمه مرثد بن سعد. وقضى زمناً في الحيرة، والرواية يقصون في سبب رحيله إليها قصة زعموا أنها وقعت بينه وبين زوج عمه، وليست هناك^(٣). كما أنه صحب امرأ القيس في رحلته إلى بلاد الروم وكان إذ ذاك شيخاً «خلا من عمره وكبر». قالوا: وإياه عنى امرؤ القيس بقوله:

بكي صاحبي لما رأى الدرب دونه وأيقن أنا لاحقان بقيصرا
فقلت له لا تبك عينك، إنما نحاول ملكاً أو نموت فنعدرا

كما قالوا: إنه مات معه في طريقه، وسمته العرب عمراً الضائع، لموته في غربة، وفي غير أرب ولا مطلب.

ويعد ابن قميثة في المعمرين، وله قصيدة من أجود الشعر يذكر فيها أنه جاوز التسعين، جعله بها حماد الراوية أشد الناس، كما حكى عنه الهيثم بن عدى^(٤).

٢٣٢ - مذهب الأصمعي في المبتدل والمتروك (٢١٤ : ١١)

يقول الجاحظ هنا: «كان الأصمعي يقول: قد كان للعرب كلام على معان، فإذا ابتدلت تلك المعاني لم تتكلم بذلك الكلام».

وقد علق «مرسيه» على هذا بقوله: «يجب أن نضيف كلمة «تزل» بين «لم»

(١) معجم الشعراء للمرزباني ص ٢٠٠، ط القدسي ١٣٥٤ هـ.

(٢) طبقات الشعراء ص ٢٢، ط السعادة. (ص ٣٤، ط دار المعارف، ١٩٥٢).

(٣) الأغاني ١٦ : ١٥٨ ط التقدم.

(٤) المصدر نفسه ١٦ : ١٥٩، وانظر الشعر والشعراء لابن قتيبة ١ : ٢٣٧ - ٢٣٨ ط الخليلي.

و « تتكلم » ليؤدى النص معنى مقبولاً « ثم يقول : « بيد أن من الممكن أن الجاحظ قد خلط هنا بين نوعين من الكلمات : الكلمات التي احتفظت اللغة بها ، وهي تفسر بعادات قديمة مهجورة ، والكلمات التي اختفت من المعجم اللغوي ببطان الحوادث التي تدل عليها ، أى « المتروك » ، كالنشطة والمرباع والنوافج وغير ذلك مما ذكر السيوطى فى المزهرة (١ : ١٤٢) .

والذى يظهر من كلام الجاحظ أن هذا كان مذهب الأصمعى : إلغاء التعبيرات التي بطلت معانيها الأولى . وما يدل على ذلك قوله بعد هذا : « وفى قياس قول الأصمعى أن أصحاب التمر الذين كان التمر دياتهم ومهورهم كانوا لا يقولون : ساق فلان صداقه » ، وقوله : « وكان الأصمعى يقول : لا يقولن أحدكم : أكلت مله ، بل : أكلت خبزه » . وأصرح من هذا فى رواية مذهب الأصمعى ما ساقه الجاحظ فى الحيوان : « ومنه قوطم : ساق إلى المرأة صداقها . قال : وإنما كان يقال ذلك حين كانوا يدفعون فى الصداق إبلًا ، وتلك الإبل يقال لها : النافجة . . . قال : فإذا كانوا يدفعون الصداق عيناً وورقاً فلا يقال : ساق إليها الصداق . ومن ذلك أنهم كانوا يضربون على العروس البناء ، كالقبة والخيمة والحباء ، على قدر الإمكان ، فيقال : بنى عليها ، اشتقاقاً من البناء ، ولا يقال ذلك اليوم ، والعروس إما أن تكون مقيمة فى مكانها ، أو تتحول إلى مكان أقدم من بنائها »^(١) .

فهذا مذهب الأصمعى فى صلاحية تلك التعبيرات ، وليس فى الخبر عن استعمالها فى عهده . وأما أن الجاحظ خلط بين النوعين فغير صحيح ، فهو كما ذكر هذا النوع ، ذكر النوع الآخر ، وهو ما يسمى بالمتروك ، « وأسمائه زالت مع زوال معانيها ، كالمرباع والنشطة »^(٢) .

٢٣٣ - بسطام بن قيس ، ومالك بن المنتفق ، وعاصم بن خليفة
(٢١٦ : ٧ - ٨)

يشير الجاحظ فى ذكره لهؤلاء الفرسان الثلاثة إلى يوم الشقيقة ، وهو يوم كان لضبه على شيبان . وقد قتل بسطام بن قيس ، سيد شيبان فى هذا اليوم . قتله عاصم بن

(١) الحيوان ١ : ٣٣٣ - ٣٣٤ .

(٢) الحيوان ١ : ٣٣٠ .

خليفة الضبي . وقد فصل حديث هذا اليوم في نقائض جرير والفرزدق المنسوب إلى أبي عبيدة^(١) ، عند قول الفرزدق :

وأصحاب الشقيقة يوم لاقوا بني شيبان بالأسل الحرار
وكذلك نجد ذكر هذا اليوم في الكامل لابن الأثير^(٢) .

٢٣٤ - أمية بن أبي الصلت (٢١٧ : ١)

هو أمية بن عبد الله^(٣) أبي الصلت بن أبي ربيعة الثقفي ، وأمه قرشية وهي رقية بنت عبد شمس بن مناف . شاعر من طراز فريد في الشعر الجاهلي ، إذ كان - كما يقول أبو الفرج - « قد نظر في الكتب وقرأها ، وحرم الخمر وشك في الأوثان ، وكان محققاً ، والتمس الدين وطمع في النبوة »^(٤) وقد كان شعره مظهرًا لهذه المعرفة ، وكان من أسبابها رحلاته التجارية إلى الشام واليمن ، إذ أتاحت له أن يلبس رجال الدين وأن يقرأ شيئاً من كتبهم ، فجاء شعره يردد تلك القصص والأساطير الدينية ، مما لم يكن الشعراء يعرضون له إلا بالإشارات الخاطفة .

ويصفه الجاحظ بأنه « كان داهية من دواهي ثقيف . وثقيف من دهاة العرب . وقد بلغ من اقتداره في نفسه أنه قد كان هم بادعاء النبوة ، وهو يعلم كيف الخصال التي يكون الرجل بها نبياً أو متنبياً إذا اجتمعت له . نعم ! وحتى ترشح لذلك بطلب الروايات ودرس الكتب . وقد بان عند العرب علامة ، ومعروفاً بالحلوان في البلاد ، راوية »^(٥) .

وأدرك أمية الإسلام ، ولكنه لم يسلم ، بل إنه كان يحرض قريشاً بعد وقعة بدر - كما يحكى أبو الفرج في ترجمته له - وكان يرثي من قتل من قريش في وقعة بدر ، وقريش أخواله كما تقدم . وقد أورد أبو الفرج من رثائه لهم هذا البيت .

ماذا يبدر والعنف قفل من مرازية ججاجح

ثم قال : « وهي قصيدة نهي رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، عن روايتها » .

(١) ١ : ٢٢٠ - ٢٢٣ ط الصاوي .

(٢) ١ : ٣٧٤ ط المنبرية .

(٣) هذه رواية الأغاني في اسم أبيه ، وقد جاء في الحيوان (٧ : ١٩٨) ان اسمه ربيعة .

(٤) الأغاني ٤ : ١٢٢ ، ط دار الكتب .

(٥) الحيوان ٢ : ٣٢٠ ط الحلبي .

وإن يكن شعر أمية قد ضاع أكثره شأن أكثر الشعر في العصر الجاهلي ، وفي هذه الفترة ، فقد بقيت لنا طائفة من شعره ، ولا سيما الشعر الذي يمثل تلك النزعة الدينية إلى حكاية الأساطير المأخوذة من كتب أهل الكتاب .

وقد أورد الجاحظ طائفة من شعره هذا ، نحو عشر قطع^(١) ، كما أن له ديواناً طبع في بيروت ، ويحتاج ما يتضمن من الشعر للتحقيق .

٢٣٥ - ابن منذر (٢١٧ : ١٢)

هو محمد بن منذر ، شاعر بصرى تميمي ، من بني صبير بن يربوع . وكان معاصراً لأبان بن عبد الحميد اللاحق ، ويتهمة أبان بأنه لا يجيد الشعر إلا في المرائي ، وقد أورد له الصولي قطعة في هجاء أبان ، وهي من الهجاء الماجن^(٢) . وما كان يقال في شعره ما قاله أبو العتاهية له : « شعرك مهجن لا يلحق بالفحول ، وأنت خارج عن طبقة المحدثين . فإن كنت تشبهت بالعجاج ورؤبة ، فما لحقتكما ، ولا أنت في طريقتهما . وإن كنت تذهب مذهب المحدثين ، فما صنعت شيئاً »^(٣) .

٢٣٦ - القطامي (٢١٧ : ١٥)

هو عمير بن شيم بن عمرو ، شاعر تغلبي أموي ، عده ابن سلام في الطبقة الثانية من الشعراء الإسلاميين مع البعيث وكثير وذى الرمة ، ووصفه بأنه كان « شاعراً فحلاً رقيق الحواشي ، حلو الشعر »^(٤) ، وكان - كالأخطل - من نصارى تغلب . ومنازل تغلب كانت فيما بين الحابور والفرات ودجلة من أرض الجزيرة .

وقد عاش القطامي في أثناء الفتن التي كانت بين قيس من ناحية ، واليمن وتغلب من ناحية أخرى . وجعل يقول الشعر في تأريث الحرب ضد قيس ، مع الأخطل وعمرو

(١) انظر الحيوان ٢ : ٣٢١ - ٣٣٦ ، ٣ : ٥١١ ، ٤ : ١٤ ، ٤٦٦ - ٤٦٧ ، ٥ :

٤٣٦ ، ٧ : ١٩٨ ط الحلبي .

(٢) الأوراق للصول (قسم أخبار الشعراء) ، ص ٣٢ - ٣٣ ، ط الصاوي .

(٣) الأغاني ٤ : ٩٠ - ٩١ ط دار الكتب المصرية .

(٤) طبقات الشعراء ، ص ١٨٠ ، ط السعادة . (ص ٤٥٢ ط دار المعارف ، ١٩٥٢) .

ابن الأهم ومن إليهما من شعراء تغلب^(١) . وقد أسر القطامي في بعض هذه الحروب ، وأخذ ماله . ولكن زفر بن الحارث الكلابي قام بأمره ، حتى رد عليه ماله وجميع ما أخذ منه ووصله ، كما يقول البلاذري ، وقد مدحه بشعر من أصدق الشعر وأرقه^(٢) .

وللقطامي ديوان شعر مطبوع في ليدن ، وقد ترجم له أبو الفرج^(٣) .

والقطعة التي أوردها الجاحظ هي قطعة من قصيدة رائعة الوصف ، يهجو بها امرأة من محارب ، نزل بها فلم تقره ، وهي في ديوانه ، وفي الأغاني ، وفي زهر الآداب للحصري^(٤) .

٢٣٧ - الراعي (٢١٨ : ٤)

هو عبيد بن حصين النخعي ، يعده ابن سلام في الطبقة الأولى من الشعراء الإسلاميين ، ويقول عنه إنه « كان من رجال العرب ووجه قومه ، وكان - مع ذلك - بدياً هجاء لعشيرته » . وقد عاش في تلك الفترة التي أشرنا إليها ، وشارك أيضاً في تلك الفتن بشعره ، وقد أورد له البلاذري بيتين يذكر فيهما ما كان بين قيس وتغلب في يوم الخابور ويوم ماكسين^(٥) ، ومن أجل هذا لم يستطع أن يتصل بالخليفة ، « وكان عبد الملك ثقيل النفس عليه » كما يقول ابن سلام^(٦) . ولكنه استطاع أن يتصل ببشر بن مروان ، أمير العراق ، فكان من أصحاب مجلسه ، وله شعر في مدحه .

ويذكر الراعي في المعركة الشعرية التي كانت بين الفرزدق وجريز ، وكان في جانب الفرزدق فهجاه جريز بقصيدته التي كان معجباً بها ، وكان يسميها الدماغة والدهقانة^(٧) أقلل اللوم عاذل والعتابا وقول إن أصبت لقد أصابا وقد صار الراعي بعد ذلك مغلباً . وقال فيه رجل من قومه : « كان فحل مضر ، حتى ضغمه الليث » .

(١) أنساب الأشراف ٥ : ٣١٥ - ٣١٦ .

(٢) طبقات الشعراء ، ص ١٨٠-١٨١ ، (ص ٤٥٣-٤٥٤ ط المعارف) أنساب الأشراف ٥ : ٣٢٨ .

(٣) الأغاني ٢٠ : ١١٩ .

(٤) ٣ : ٧١ - ٧٢ ، ط الرجانية .

(٥) أنساب الأشراف ٥ : ٣١٨ .

(٦) طبقات الشعراء ، ص ١٧٤ . (ص ٤٣٧ ط دار المعارف ، ١٩٥٢) .

(٧) النقايس بين جرير والفرزدق ٢ : ١٣٢ - ١٥٥ ، ط الصاوي ، وانظر ترجمة الراعي في

الأغاني ٢٠ : ١٦٨ ، وشعره في حاسة أبي تمام ، وجمهرة أشعار العرب .

٢٣٨ - الغنوي (٢٢٠ : ٦)

لم يعين واحداً بعينه . ولعله يكون أحد الشعراء : طفيل بن عوف ، وكعب بن سعد . فالأول هو أبو قران ، طفيل بن عوف بن ضبيس الغنوي ، شاعر جاهلي اشتهر بإجادة صفة الخليل ولذلك كان يسمى بطفيل الخليل ، كما يقال له « طفيل المخبر » لحسن شعره^(١).

وله ديوان مطبوع ، وقد ترجم له أبو الفرج^(٢).

وأما الآخر فهو كعب بن سعد ، أحد بني سالم بن عبيد ، وهو شاعر إسلامي^(٣).

٢٣٩ - العجير (٢٢٠ : ١٠)

هو أبو الفزدق ، العجير بن عبد الله ، شاعر من بني سلول - وهم أبناء عم بني عامر بن صعصعة - ومن شعراء العهد الأموي . وقد وصفه المرزباني بأنه شاعر من المحسنين^(٤) ، وعده ابن سلام في شعراء الطبقة الخامسة مع أبي زبيد الطائي وعبد الله ابن همام السلولي ونفيح بن لقيط الأسدي^(٥) ، وإن كان لم يتحدث عنه ، وإنما اكتفى بإيراد قطعتين من شعره .

وهو شاعر بدوي أعرابي ، ولد في البادية ونشأ بها ، ولم يتصل بعبد الملك بن مروان أو هشام بن عبد الملك إلا وافداً . وشعره يمثل الروح البدوية تمثيلاً صادقاً في ديباجته وفي المثل التي يصورها ، وهي مثل الرجولة كما كان يتصورها عربي البادية بمظاهرها المادية والمعنوية جميعاً . فن الأولى تلك القصيدة التي رواها ابن الأعرابي وقال إنه قالها في رقيق له يقال له « أصبح » ، وكانا يصيبان الطريق معاً ، ومن الأخرى قصائده التي يتحدث فيها عن كرمه وقراءه للأضياف ، وهو يخاطب زوجته أم خالد أو أم مالك ، وما إلى ذلك من المعاني العربية التي نراها بصورة بيّنة في مراثيه التي قالها في ابن عمه سليم بن زيد السلولي^(٦).

(١) المؤلف والمختلف للدمي ، ص ٨٤ ، اللآلئ ص ٢١٠ .

(٢) الأغاني ١٤ : ٨٨ .

(٣) اللآلئ ، ص ٧٧١ - ٧٧٢ .

(٤) معجم الشعراء ص ٢٣٢ .

(٥) طبقات الشعراء ص ١٩٦ ، ص ٥٠٥ ط دارالمعارف ١٩٥٢

(٦) انظر الأغاني ١١ : ١٤٩ - ١٥٠ ، وابن سلام ص ١٩٩ - ٢٠١ وحماسة أبي تمام ١ :

٣٨٧ - ٣٨٨ ، ٢ : ٢٦٥ - ٢٦٧ ومعجم البلدان ٨ : ٢٢ - ٢٣ .

٢٤٠ - أبو سعيد الخدري (٢٠ : ١٦)

هو سعد بن مالك بن سنان ، صحابي أنصاري ، من الخزرج . وكان من أكثر الذين رووا عن النبي ، صلى الله عليه وسلم ، وعاش إلى سنة ٧٤^(١).

٢٤١ - المغيرة بن شعبه (٢٢١ : ٥)

أحد الشخصيات العربية البعيدة الأثر في تكوين الدولة الإسلامية الأولى . وهو ثقفى الأصل ، ولد قبل الهجرة بعشرين عاماً ، وأسلم قبل الحديبية ، وقد شهدا مع الرسول ، وكان له موقف فيها مع أحد رسل قريش : عروة بن مسعود الثقفي ، حكاها ابن هشام^(٢) ، كما كان في الوفد الذي بعثه الرسول إلى ثقيف حين غزا الطائف ، سنة ثمان^(٣) فلما كان عهد الفتوح في أيام عمر بعثه مدداً لسعد بن أبي وقاص وهو مقبل على القادسية سنة ١٤ ، كما شهد بعد ذلك فتح الأبله . ثم لم يلبث أن صار أمير البصرة بعد موت واليها عتبة بن غزوان سنة ١٥ ، ويذكر ابن حجر أنه كان أول من وضع الديوان بها^(٤) ، وقد ظل عليها إلى سنة ١٧ حين أشخصه الخليفة إليه للتحقيق معه فيما ادعاه عليه أبو بكر وقذفه به^(٥) ، ثم ولاه بعد ذلك أذربيجان بعد فتحها سنة ٢٢ ، كما ولي الكوفة وبنى عليها إلى أيام عثمان ، فأقره ثم عزله . وقد وقف في فتنة عثمان موقفاً محايداً ، وكذلك كان شأنه في الخصومة بين علي ومعاوية . فلما صار الأمر إلى معاوية استعمله على الكوفة ، وقد ظل عليها إلى أن مات سنة ٥٠ . وقد وصف الطبري حكمه فيها بقوله : « فأحب العامة ، وأحسن في الناس السيرة ، ولم يفتش أهل الأهواء عن أهوائهم . وكان يؤتى فيقال له : إن فلاناً يرى رأى الشيعة ، وإن فلاناً يرى رأى الخوارج ، فكان يقول : قضى الله ألا يزالون مختلفين ، وسيحكم الله بين عباده فيما كانوا فيه يختلفون»^(٦) .

(١) تهذيب التهذيب ٣ : ٤٧٩ .

(٢) سيرة ابن هشام ٢ : ٢١٣ .

(٣) المصدر نفسه ٢ : ٣١٤ وانظر أيضاً ٢ : ٣٥٠ .

(٤) الاصابة في تمييز الصحابة ٣ : ٩٢٧ ، ط كلكتا ، ١٨٨٨ م .

(٥) انظر تاريخ الطبري ١ : ٢٥٢٩ - ٢٥٣٣ ، ط بريل ، ١٨٩٣ ، الأغاني ١٤ : ١٣٩ -

١٤٢ ، ط التقدم .

(٦) تاريخ الطبري ٢ : ١٩ - ٢٠ ، ط بريل .

ويعتبر المغيرة من أصحاب الرأي والدهاء في العرب ، وكان يلقب بمغيرة الرأي .
وتؤثر عنه محاوره مع رستم قائد الفرس في القادسية . وأخرى مع صاحب أصهبان^(١) .

٢٤٢ - سعد بن أبي وقاص (٢٢١ : ٥)

أحد كبار الصحابة ، قرشي ، زهري . أحد العشرة المبشرين بالجنة ، كما كان من الستة « أصحاب الشورى » ، وقد وصفه عمر بأنه « صاحب مقنب وقتال »^(٢) وكذلك كان ، فهو فاتح العراق ، وبطل القادسية ، وهو الذي اختط مدينة الكوفة بعد ذلك وقد وليها في أيام عمر بن الخطاب . وكانت ولايته الكوفة سنة وتسعة أشهر . وقد شكوا أهل الكوفة قوته وصرامته ، فخلف عليهم عمار بن ياسر ، فشكوا ضعفه ، فتولى بعده المغيرة بن شعبة . ثم وليها سعد في أيام عثمان . ولم يلبث أن عزل عنها بالوليد ابن عقبة^(٣) . وقد ترك العراق وعاد إلى المدينة ، وظل فيها إلى أن مات بها سنة ٥٥ .

٢٤٣ - عثمان الشحام (٢٢١ : ٧)

هو أبو سلمة عثمان الشحام العدوي ، راوية محدث ، من أهل البصرة . يروى عن عكرمة ، ويروى عنه حماد بن سلمة ، ووكيع بن الجراح^(٤) . ويلاحظ أن الأصمعي يروى عنه أحياناً ، كأنه أحد شيوخه^(٥) .

٢٤٤ - عبد الملك بن عمير (٢٢١ : ١١)

أحد رجال الكوفة ومحدثها ، وأصحاب الرواية والخبر فيها ، في القرن الأول وأوائل القرن الثاني . وقد تولى قضاءها في أيام الحجاج عاماً ، خلفاً للشعبي ، عامر بن شراحيل ، ثم لم يلبث أن استعفى من منصبه هذا فأعفى . ويذكر الرواة أن هذا المنصب عرضه لبعض ما يكره ، إذ أوقعه في لسان بعض الشعراء ، وهو هذيل الأشجعي ، في تلك القصة التي يذكرها الجاحظ وابن قتيبة وأبو الفرج ، وقد قضى فيها لإحدى المدعيات

(١) المصدر السابق ١ : ٢٣٥٠ ، ٢٦٤٣ .

(٢) أنساب الأشراف ٥ : ١٦ - ١٧ .

(٣) فتوح البلدان ، ص ٢٥٥ - ٢٧٩ .

(٤) الأنساب للسماعى ، ورقة ٣٣٠ .

(٥) انظر مثلاً : عيون الأخبار ١ : ١٠٤ .

على أهلها^(١) . وقد كان عبد الملك بن عمير هذا - فيما يظهر - رجلاً مرهف الحس ، شديد التحرج ، مبالغاً في التحوط لمروءته .

وهو - فيما يقولون - عربي يمني ، فصيح العبارة . وقد وصف أعرابي كلامه - فيما يحكى الجاحظ - بقوله : « لو كان الكلام يؤتدم به لكان هذا »^(٢) . ومع هذا فهو يلقب بالقبطي . ولا ندرى ما حقيقة هذا اللقب الذي نجده في شعر هذيل الأشجعي :

ففتنت القبطى حين قضى لها بغير قضاء الله فى السور الطول
فلو كان من بالقصر يعلم علمه لما استعمل القبطى فىنا على عمل
على أن ذلك يثير فىنا التساؤل عن العنصر القبطى فى الكوفة لذلك العهد ، وقد كان ينسب إليه غير واحد من أهلها .

وعبد الملك بن عمير هو أحد الذين يسند الهيثم بن عدى روايته إليهم ، ولكن الجاحظ يشك فى قيمة هذا الإسناد ، إذ كان يرى الهيثم وضاعاً مختلفاً للأحاديث ، كما سرى ذلك فيما يلي .

٢٤٥ - الهيثم بن عدى (٢٢٢ : ٤)

هو أبو عبد الرحمن ، الهيثم بن عدى ، الطائى الكوفى ، منبجى الأصل وإن كان كوفى المولد ، ولد سنة ١٣٠ وعاش إلى سنة ٢٠٧ . « وكان أخبارياً علامة راوية ، نقل من أخبار العرب وأشعارها ولغاتها شيئاً كثيراً » ، كما يقول ياقوت فى ترجمته له^(٣) ، ثم يضيف إلى ذلك آراء علماء الحديث فيه . وهم مجمعون على تجريجه ، وأنه كان يكذب ، ولعل رجال الأدب لم يكونوا أقل اهتماماً له بوضع الأخبار ، وتوليد الأحاديث . فالجاحظ يقول بعد إيراده أسماء جماعة من ولد العباس ، من أصحاب العلم بقريش وبالذولة وبرجال الدعوة : « وكان إبراهيم السندى يحدثنى عن هؤلاء بشيء هو خلاف ما فى كتب الهيثم ابن عدى وابن الكلبي ، وإذا سمعته علمت أنه ليس من المؤلف المزور »^(٤) . ويقول فى موضع آخر : « وهذه الأشياء ولدها الهيثم بن عدى »^(٥) .

(١) البيان والتبيين ٣ : ٢٧١ ط ١٩٣٢ م ، عيون الأخبار ١ : ٦٣ ، الأغاني ٤ : ٢٧ .

(٢) البيان والتبيين ٢ : ٥٣ .

(٣) معجم الأدباء ١٩ : ٣٠٤ - ٣١٠ .

(٤) البيان والتبيين ١ : ١٨٢ .

(٥) ٢ : ١٢٣ .

وقد رأينا أنه كان من صناعة الهيثم أن يسند أخباره إلى بعض الثقات ، كعبد الملك ابن عمير ، ولكن الجاحظ كان يشك في صحة هذا الإسناد ، ونلاحظ هذا الشك في غير موضع . من ذلك ما نقله عنه من صفة الأحنف مسنداً إلى أبي يعقوب الثقفي عن عبد الملك بن عمير ، فإذا أورد الجاحظ هذه الصفة علق عليها بقوله: « ولو استطاع الهيثم أن يمنع البيان أيضاً لمنعه ، ولولا أنه لم يجد بدّاً من أن يجعل له شيئاً على حال لما أقر أنه إذا تكلم جلي عن نفسه »^(١) وإذن فليس عبد الملك بن عمير هو الذي يصف الأحنف هذه الصفة ، وإنما هو - فيما يرى الجاحظ - الهيثم بن عدى نفسه ، وإن أسند القول إلى عبد الملك بن عمير .

ونظير هذا ما نراه هنا في هذا الحديث الذي يورده الجاحظ في البخلاء ، مصدرأ بقوله :

« وذكروا عن عبد الملك بن عمير . . . » ثم يعلق عليه بقوله : « وأنا أتهم هذا الحديث لأن فيه ما لا يجوز أن يتكلم به عربي يعرف مذاهب العرب . وهو من أحاديث الهيثم » .

٢٤٦ - المنتجع بن نيهان (٢٢٣ : ١٤)

راوية كان علماء العراق يأخذون عنه . وقد ذكره الجاحظ في رسالة فضل السودان ، فقال : « وكان المنتجع سندياً في أذنه خرتة ، وقع إلى البادية وهو صبي ، فخرج أفصح من رؤبة »^(٢) .

٢٤٧ - الأفوه الأودي (٢٢٣ : ١٦)

صلاة بن عمرو بن مالك ، من كبار الشعراء القدماء في الجاهلية ، كما يروى أبو الفرج في ترجمته له ، وكان سيد قومه وقائدهم في حروبهم ، وكانوا يصدرون عن رأيه^(٣) . ويذهب بعضهم إلى أنه أول من قصد القصيد^(٤) . وقد جمع الشيخ عبد العزيز الميمني شعره ، وضمنه المجموعة التي أسماها بالطرائف الأدبية .

(١) ١ : ٣٢ ط ١٣٣٢ هـ .

(٢) مجموعة رسائل الجاحظ ، ص ٦٥ .

(٣) الأغاني ١١ : ٤٤ .

(٤) الزهر ٢ : ٢٩٦ ط محمد على صبيح .

٢٤٨ - معن بن أوس (٢٢٤ : ٣)

شاعر من فحول الشعراء المخضرمين ، وقد عاش أكثر حياته في الإسلام ، وهو من قبيلة مزينة ، وكانت منازلها بين مكة والمدينة . ويبدو أن الشعر الذي وصل إلينا من شعره شعر ناضج ، ولعله جميعاً شعر إسلامي .

وشعر أوس شعر رصين جيد الصنعة ، متمهل ، وقور ، وهو كثير الحكمة التي تصدر عن الترس بالحياة . وقد دخل الشام ، وأقام بالبصرة زماناً ، ولكنه لم يكن يلبث حتى يحن إلى حياته البدوية . وحسبه أن يمدح سراة المدينة كعبيد الله بن العباس ، وعبد الله بن جعفر ، وعاصم بن عمر بن الخطاب ، وسعيد بن العاص .

والقطعة التي هنا هي من قصيدة له يمدح بها سعيداً ، ومطلعها :
إليك سعيد الخير جابت مطيتي فروج الفياض وهي عوجاء عيبل
وله ديوان شعر طبع في ليبسج ، ثم طبع في مصر .

٢٤٩ - سعيد بن العاص (٢٢٤ : ٣)

سرى من سراة المدينة المشهورين ، وهو سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص بن أمية . قتل أبوه يوم بدر وكان صغيراً ، فكفله عمه الحكم بن سعيد . فلما كانت خلافة عثمان كان سعيد شاباً فولاه الكوفة . فلم يلبث أن فسد الأمر بينه وبين أهلها فساداً أدى إلى انتفاض أهل الكوفة على عثمان على النحو الذي فصله البلاذري^(١) . وقد استدعاه عثمان فرجع إلى المدينة ، وأقام فيها معه إلى أن كانت الثورة عليه ، فكان في المدافعين عنه . فإذا كانت فتنة الجمل بين علي وعائشة ، فقد اعتزل السياسة ، وأقام في مكة . وفي خلافة معاوية ولاه الحرمين ، وكان يعاقب بينه وبين مروان بن الحكم . وقد كانت تحدث بينهما أشياء ، ولكن سعيداً كان يرى نفسه أكبر من هذه الهنات ، وقد ظل على هذه الولاية حتى مات سنة ٥٩ .

وأحاديث كرمه وتخرقه في الثناء كثيرة ، نجد أطرافاً منها عند البلاذري وأبي الفرج وابن عبد ربه^(٢) .

(١) أنساب الأشراف ٥ : ٣٩ - ٤٧ .

(٢) أنساب الأشراف ، القسم الثاني من الجزء الرابع ، ص ١٣٠ - ٢٣٦ ، الأغاني ١ : ٣٢ ،

٣٣ ، العقد الفريد ١ : ٣٤٤ - ٣٤٧ ، ط لجنة التأليف .

٢٥٠ - الكميته (٢٢٥ : ٣)

هو الكميته بن زيد بن خنيس الأسدي ، شاعر كوفي أموي . « من شعراء مضر وألسنها ، والمتعصبين على القحطانية ، المقارنين المقارعين لشعرائهم ، العلماء بالمثالب والأيام ، المفخرين بها . وكان معروفاً بالثشيع لبني هاشم » كما يقول أبو الفرج في ترجمته له^(١) . ويصفه الجاحظ فوق ذلك بأنه خطيب ، ويذكر معه في ذلك البيهت والطرماح^(٢) . وأشهر شعره « الهاشميات » ، وقد عاش إلى أواخر الدولة الأموية ، ولم يدرك العباسية .

٢٥١ - عبد الله بن الزبير (٢٢٦ : ٤)

هو أبو كثير ، عبد الله بن الزبير الأسدي^(٣) . من أسرة معروفة بالشعر . كان أبوه الزبير بن الأشيم شاعراً ، وكذلك كان عمه مطير بن الأشيم^(٤) . « وهو شاعر كوفي المنشأ والمنزل من شعراء الدولة الأموية ، وكان من شيعة بني أمية وذوي الهوى فيهم ، والتعصب والنصرة على عدوهم » ، كما يقول أبو الفرج في ترجمته^(٥) . وأكثر شعره في أسماء بن خارجة الفزاري . « وكان أسماء أموي الهوى » .

وكذلك يعد ابن الزبير من الشعراء الهجائين للناس المرهوب شرهم ، وقد هجا عبد الرحمن بن أم الحكم حين كان والياً على الكوفة من قبل خاله معاوية . وهجا عبدالله ابن الزبير بن العوام حين أسرف على أخيه عمرو بن الزبير في العذاب حتى مات في سجنه .

وقد أدرك عهد الحجاج في الكوفة ، وخرج في بعث له إلى الري فمات فيها .

(١) الأغاني ١٥ : ١٠٨ - ١٢٥ .

(٢) البيان والتبيين ٣ : ٢٧٢ ط مصطفى محمد ١٩٣٢ م .

(٣) يذكر صاحب القاموس أن الزبير أبا عبد الله هذا بفتح الزاي وكسر الباء كأخير .

(٤) انظر الأغاني ١٣ : ٤٦ ، ط التقدم ، معجم الشعراء للمرزباني ص ٤٧٠ ، وكذلك كان الزبير

ابن عبد الله بن الزبير شاعراً ، من اتصل بمحمد بن عبيدة بن إسماعيل بن أسماء بن خارجة ومدحه .

(٥) الأغاني ١٣ : ٣١ - ٤٧ .

٢٥٢ - أسماء بن خارجة (٢٢٦ : ٤)

هو أسماء بن خارجة بن حصن بن حذيفة الفزاري . سرى من سراة الكوفة في القرن الأول ، وإن لم يل للسلطان عملاً ، كما يحكى ابن عبد ربه عنه وعن مالك بن مسمع^(١) وهو أحد ثلاثة يعدون أجداد الكوفة الظاهريين^(٢) وقد تزوج بشر بن مروان ابنته عند ما ولى الكوفة^(٣) . مات في عهد الحجاج ، ويروى الجاحظ أن الحجاج حين بلغه موته قال : « هل سمعتم بالذى عاش ما شاء ، ومات حين شاء »^(٤) .

٢٥٣ - ابن عبدل (٢٢٦ : ١٣)

هو الحكم بن عبدل الأسدي الغاضري ، « شاعر مجيد في طبقته ، هجاء خبيث اللسان ، من شعراء الدولة الأموية . وكان أعرج أحذب ، وكان من أطيب الناس وأملحهم » كما يقول أبو الفرج في ترجمته^(٥) وهو من بني غاضرة ، وبنو غاضرة - كما يقول أبو الفرج أيضاً - قوم ظرفاء ، وقد رأينا فيهم من هو أهل النادرة . وبهذا الظرف ونخفة الروح وحضور البديهة والنكتة الرائعة يمتاز شعر الحكم ، سواء منه ما كان في باب الهجاء وغيره .

وقد ظل بالكوفة إلى أن ظفر ابن الزبير بالعراق ، وأخرج عنها عمال بني أمية ، فخرج الحكم معهم إلى الشام ، وهناك اتصل بعبد الملك بن مروان ، وكان سميره : يتقارضان الشعر ، ويتذاكران أحوال العراق . ثم عاد من بعد إلى العراق . وكان شديد الاتصال ببشر بن مروان ، وحين تحول بشر إلى البصرة صار معه إليها ، كما كانت صلته طيبة بابنه عبد الملك بن بشر ، على حين كانت صلته سيئة بالولاة الآخرين ، كيزيد بن هبيرة ، ومحمد بن حسان بن سعد ، وعمر بن يزيد الأسدي ، وكان يهجوهم هجاء لاذعاً ، وكان هذا الهجاء من وسائله إلى ارتفاع المنزلة . ويقول الجاحظ : « قالوا : ولما شاع هجاء الحكم بن عبدل الأسدي لمحمد بن حسان بن

(١) العقد الفريد ١ : ١٥٩ ط لجنة التأليف .

(٢) الأملاني لأبي علي ٣ : ٢٠ ، العقد ١ : ٣٤٠ .

(٣) أنساب الأشراف للبلذري ٥ : ١٧٣ .

(٤) البيان التبيين ١ : ١٤٤ .

(٥) الأغاني ٢ : ٤٠٤ .

سعد وغيره من الولاة هابه أهل الكوفة ، واتي لسانه الصغير والكبير - وكان الحكم أعرج لا تفارقه عصاه - فترك الوقوف بأبوابهم ، وصار يكتب على عصاه حاجته ، ويبعث بها مع رسوله فلا يحبس له رسول ، ولا يؤخر لقراءة الكتاب ، ثم تأتيه الحاجة على أكثر مما قدر «^(١)» .

هذا وعندنا أن الحكم بن عبدل يعتبر زعيم تلك المدرسة الماجنة العابثة التي صيرت ذلك العبث باباً من أبواب الفن ، ولا ريب عندنا في أن أثره فيمن جاء بعده من شعراء الكوفة والبصرة كان أثراً غير قليل .

ولم يبق لنا من شعر الحكم إلا قدر غير كثير . على أن أكثر ما بقي له إنما نجده عند الجاحظ^(٢) لا عند أبي الفرج . وفي تاريخ الخلفاء للسيوطي قطعة ، قال إن النصر بن شميل أنشدها المأمون^(٣) .

٢٥٤ - بشر بن مروان (٢٢٦ : ١٣)

هو أبو مروان ، بشر بن مروان بن الحكم بن أبي العاص ، أخو عبد الملك ، ووالى الكوفة في عهده . وذكر البلاذري أن بشراً كان منقطعاً إلى عبد العزيز بن مروان قبل أن يلي عبد الملك الخلافة ، فلما وليها استعمله على الكوفة ثم أضاف إليه البصرة بعد ذلك . وقد كانت ولايته ولاية كريمة ، إذ كان - كما يقول البلاذري - « لين الولاية سهل الحجاب ، طلق الوجه ، كريماً . وكان صاحب شراب يتادم عليه » .

وقد كان مجلسه في الكوفة ثم في البصرة من أرحب الأنندية الأدبية التي تتسع للشعراء المختلفين ، كجرير ، والفرزدق ، والأخطل ، وكثير ، وأعشى بنى شيبان ، وأيمن ابن خريم ، وسراقة البارق ، ونصيب ، إلى غيرهم ، وكان بشر نفسه يتذوق الشعر ويلذه ، ويقول في بعض الأحيان ، كما كان يلذ له أن يؤرث بين الشعراء ليشهد ألواناً من المنافرة الأدبية . ولم يزل بشر على الكوفة حتى ضمت إليه البصرة سنة أربع وسبعين ، فأنحدر إليها ، ولكن مقامه لم يطل فيها ، إذ أدركته العلة ، وحضرته الوفاة بعد أشهر أربعة أو ستة^(٤) .

(١) البيان والتبيين ٣ : ٣٨ ، ط ١٣٣٢ هـ .

(٢) انظر مثلاً : الحيوان ١ : ٢٣٦ ، ٢٤٩ - ٢٥٣ ، ٣٥٠ ، ٢ : ٣٠٥ ، ٣ : ٣٨٠ -

٣٨١ ، ٥ : ٢٩٧ - ٣٠٠ .

(٣) ص ١١٢ ط المنبرية .

(٤) انظر أنساب الأشراف للبلاذري ٥ : ١٦٦ - ١٨٠ .

٢٥٥ - الرقاشى (٢٢٧ : ١)

لا ريب أن المقصود بالرقاشى هنا الفضل بن عبد الصمد ، وإن جعله فان فلوتن في الفهرست التي وضعها لكتاب البخلاء الفضل بن عيسى الرقاشى ، وبينهما بون بعيد . فالفضل بن عيسى خطيب قاص متكلم ، من طبقة واصل وعمرو بن عبيد ونخالد بن صفوان وشبيب بن شيبه ، والفضل بن عبد الصمد شاعر أدنى إلى الخلاعة والمجون ، من طبقة أبي نواس وعمرو الوراق والحسين الخليج ودาวد بن رزين الواسطي وعلى بن الخليل اسماعيل القراطيسى ، وبقية هذه الجماعة التي كانت تعيش في البصرة عيشة لاهية عابثة ، وتتخذ من الشعر أداة حية لتصوير هذه الحياة .

والرقاشى هذا من أهل الرى ، وقد مدح الرشيد وأجازه ، كما يقول أبو الفرج (١) إلا أن انقطاعه كان إلى آل برمك ، مستغنياً بهم عن سواهم . وقد اشتدت صلته بهم ، وعظم تقديرهم له ، حتى إذا نكبوا كان أحد القلة القليلة التي بقيت على الوفاء لهم والتنويه بهم ، وقد « صار إليهم في حبسهم . فأقام معهم مدة أيامهم ، ينشدهم ويسامرهم ، حتى ماتوا فأكثر من رثائهم » ، وقد أورد أبو الفرج طائفة من مرثيته فيهم .

هذا وقد كانت بينه وبين أبي نواس مهاترة شعرية . وقد احتفظ لنا ديوان أبي نواس بمجموعة من أهاجيه فيه (٢) . أما شعره فقد ضاع معظمه ، فلم يبق لنا منه إلا القليل . وفي البيان والتبيين أرجوزتان قصيرتان في صفة القوس (٣) يعبران عن هذه النزعة البدوية التي كانت تظهر أحياناً في شعر هؤلاء الشعراء .

٢٥٦ - الآزاد مردية (٢٢٨ : ١٢)

أنقل هنا ما ذكره صديقي المرحوم الدكتور كروس عن « الشعبية الآزاد مردية » في مقالة نشرها بهذا العنوان في مجلة الثقافة ، مناقشاً رأياً كنت ذهبت إليه في تفسيرها ، وأعترف هنا أنى رجعت عنه ، وأنه - رحمه الله - كان موفقاً أحسن التوفيق في رأيه .
قال :

(١) الأغاني ١٥ : ٣٤ ، ط التقدم .

(٢) ديوان أبي نواس ، ص ١٤٧ - ١٤٩ ، الحميدية ، ١٣٢٢ .

(٣) البيان والتبيين ٣ : ٥٠ ، ٦٤ ، ط مصطفى محمد ، ١٩٣٢ م .

« ليس آزادمرد اسم علم ولا لقباً لأشخاص معينين ، بل هو تسمية فارسية للأرستقراطية الإيرانية ، تسمية يفتخر بها أنصار الشعوبية ، ويتحدون بها العرب والراث العربي . وإن أردت فقل : إن لفظ الشعوبية المعروف عنه أنه مشتق من العبارة القرآنية « . . . شعوباً وقبائل . . . » لم يستعمله أنصار الوطنية الإيرانية إطلاقاً على أنفسهم ، وأنه ليس هنا كلمة إيرانية أجدر بأن تكون لقب شرف لمقاصدهم من لفظ الآزادمرديّة ، مما يكاد أن يفسر لك تلك الواو الصغيرة التي ربط بها الجاحظ بين الشعوبية « و » الآزادمرديّة . هذا وقد يعرف كل من تعلم شيئاً من اللغة الفارسية أن آزاد معناها الحر ، ومرد معناها الرجل أو المرء ، وقد وردت الكلمة آزاد مرد الفارسية في كثير من النصوص القديمة والحديثة بمعنى الرجل الكريم ، والنبييل ، وبعيد الهمة ، كما نجد هذا المعنى نفسه ، وبصيغة « آزاد مرت » أو « اذاد مرد » في كثير من المصادر الفهلوية القديمة . وأما في هذه اللحظة تصوير خاتم فهلوى ، من العهد الساساني ، منقوش عليه اسم صاحبه هكذا : « أزبوتان آزاد مرد زميني أوت » ومعناه : « أزبوتان المرء الحر من أرض أوت » .

أما بعد ، فإذا قد وصلنا إلى هذه الغاية ، فإننا نورد لك نصاً أخيراً ، يثبت ما نحن فيه أحسن الإثبات إذ استعملت فيه عبارة « الآزادمرديّة » في المعنى بعينه الذي استعمله فيه الجاحظ ، في كتاب البخلاء ، أي بمعنى الشعوبية والوطنية الإيرانية ، وقد عثرت على هذا النص في كتاب « التنبيه على حدوث التصحيف » لحمزة الاصفهاني . . . وهاك به :

« ذكر علماء الآزاد مرديّة أنهم ألفوا لغات جميع الأمم في الكمية على ما كانوا ناطقين وعلى الحيلة في مبدأ الكون ، لا يتولد فيها الزيادات والنماء ، على مرور الأزمان ، وتصرم الليالي والأيام ، وأنهم وجدوا اللغة العربية على الضد من سائر لغات الأمم ، لما يتولد فيها مرة بعد أخرى » .

فهذا النص يعبر عن مقاصد الشعوبية أحسن التعبير^(١) .

وأنا أسلم أن « الآزاد مرديّة » كانت تطلق على بعض الطبقات الرفيعة في المجتمع الإيراني^(٢) قبل الإسلام ، وقد بقيت هذه التسمية لطبقة معينة بعد الإسلام ، كما جاء في الطبري ، في حوادث سنة ١٣٢ ، في ذكر الخبر عن تبييض أبي الورد :

(١) مجلة الثقافة ، العدد ٢٢٤ ، السنة الخامسة (١٣ أبريل ١٩٣٤) ص ١٢ .

(٢) انظرا : Christensen, Iran Sous les Sassanides.

« فقدم بالس قائد من قواد عبد الله بن علي ، من الآزاد مردين ، في مائة وخمسين فارساً »^(١) .
 على أن هذه الكلمة قد ترجمت إلى العربية منذ العصر الجاهلي ووضع بلائها
 كلمة « الأحرار » أو « بني الأحرار » ، على النحو الذي نراه في شعر الأعشى ، إذ
 يتحدث عن وقعة ذي قار ويمدح بني شيبان بن ثعلبة في موقفهم إزاء الفرس ، وذلك
 إذ يقول :

تناهت بنو الأحرار إذ صبرت لهم فوارس من شيبان غلب فولت^(٢)

فبنو الأحرار تدل هنا على الفرس .

ثم نراها بعد ذلك في كلام ابن المقفع دالة على طبقة بعينها ، إذ يقول في كتابه
 الأدب الكبير : « ليتفقد الوالي — فيما يتفقد من أمور الرعية — فاقة الأحرار منهم ،
 فليعمل على سدها ، وطغيان السفلة منهم فليقمعه »^(٣) فكلمة « الأحرار » هنا صريحة
 في أنها تدل على الطبقة التي تقابل طبقة « السفلة » ، أي أنها تقابل كلمة « الأشراف »
 التي كانت تستعمل قبل ذلك ، وكذلك نراها مستعملة هذا الاستعمال في شعر إسحاق
 ابن إبراهيم الموصلي إذ يفتخر بأصله وولائه :

إذا كانت الأحرار أصلي ومنصبي ودافع ضيمي خازم وابن خازم
 عطست بأنف شامخ وتناولت يداى الثريا قاعداً غير قائم^(٤)

ومثل هذا ما جاء في شعر بشار :

تفاخر يا ابن راعية وراع بني الأحرار؟ حسبك من خسار^(٥)

فكل هذا — إلى غير ذلك من الشواهد — صريح في أن كلمة « الأحرار » أصبحت
 تستعمل استعمالاً خاصاً ، صادراً عن ذلك المعنى الذي كشف عنه الدكتور كروس
 للأزاد مردية . ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل جرت على الكلمة سنة العربية ،
 فاشتق منها ، فجاءت كلمة « الحرية » لا بالمعنى الذي يقابل العبودية ، بل بمعنى

(١) تاريخ الأمم والملوك ٩ : ١٣٧ ، ط الحسينية المصرية .

(٢) ديوان الأعشى الكبير ص ٢٦١ ط المطبعة النموذجية ، القاهرة ، ١٩٥٠ م .

(٣) رسائل البلغاء ، ص ٦٦ ، ط ١٩١٣ م .

(٤) الأغاني ٥ : ٢٧٨ .

(٥) الأغاني ٣ : ١٦٦ .

الشرف والنبيل ، فكانوا يقولون: « الحريرة نسب^(١) » و « أنت ابن الحريرة والمروة ، ومن لا يلحقه عار أبوة ولا بنوة^(٢) » ويقول الجاحظ في مقدمة الحيوان : « وهل الغيرة اكتساب وعادة ، أم بعض ما يعرض من جهة الديانة ، ولبعض التزويد فيه والتحسين به ، أو يكون ذلك في طباع الحريرة ، وحقيقة الجوهرية^(٣) » ، بل إن الوصف بالحريرة ، إن كان في معنى الشرف والنبيل ، لم يعد مقصوراً على الإنسان ، فرى الجاحظ يقول : « إن عتاق الخيل وأحرار الطير ، أدق حسناً وأشد كتراناً^(٤) » .

٢٥٧ - عبد الله بن جدعان (٢٢٩ : ١٥)

سرى من سراة قريش في الجاهلية ، تروى عنه أخبار كثيرة في الكرم ، وحتى ليضرب المثل بجفانه التي كان يأكل منها الراكب والقائم والقاعد^(٥) ، ويقال إنه وفد على كسرى ، وإنه نقل عن الفرس طعام الفالودج ، فكان يصنعه في مكة ويطعمه الناس ، وجاء في ذلك المدح المشهور الذي يذكر فيه هذا الطعام :

إلى ربح من الشيزي ملاء لباب البر يلبك بالشهاد

وكان ممدوح أمية بن أبي الصلت^(٦) ، كما جاء في أخبار دريد أنه هجاء ثم مدحه^(٧) .

٢٥٨ - الهدلى (٢٣٠ : ١٦)

البيت الذي ينسبه الجاحظ له هنا ينسبه الأصهباني إلى صخر بن عبد الله الخيثمي الهدلى ، المعروف بصخر الغي . فالمقصود بالهدلى ، إذن ، هنا هو صخر الغي هذا . وقد ذكر الأصهباني أنه لقب بهذا لخلاعه وشدة بأسه وكثرة شره . وكذلك كان أخوه الأعلم

(١) عيون الأخبار ٢ : ٢١٧ .

(٢) عيون الأخبار ٢ : ٢٢٧ .

(٣) الحيوان ١ : ٤ .

(٤) مجموع رسائل الجاحظ ، ص ٩٦ ط لجنة التأليف .

(٥) الحيوان ٣ : ٤٠٣ .

(٦) الأغاني ٤ : ١٢٠ .

(٧) الأغاني ١٠ : ٢٠ - ٢١ .

يعد « أحد صعاليك هذيل ، وكان يعدو على رجليه عدواً لا يلحق » . كما كان أيضاً شاعراً يقول الشعر في مغامراته ومخاطراته .

وهذا البيت هو جزء من قطعة كان يرتجز بها في إحدى مخاطراته ضد بني المصطلق من خزاعة، إذ أحاطوا به ، فظل يرميهم ويقاتلهم حتى قتلوه^(١).

٢٥٩ - المرار بن سعيد (٢٣١ : ٣)

أبو حسان ، المرار بن سعيد ، الفقعسي ، شاعر بدوي أموي ، وقيل بل من مخضرمي الدولتين ، ووصفه المرزباني بأنه كثير الشعر ، ولكن الباقي لنا من شعره قليل ، فعدا ما جاء منه في ترجمته بالأغاني^(٢) ، نجد أبا تمام يروى له قطعتين قصيرتين^(٣) وكذلك المرزباني^(٤).

والمرار بن سعيد يعد في اللصوص ، كما يقول صاحب الأغاني : « كان المرار بن سعيد وأخوه بدر لصين ، وكان بدر أشهر منه بالسرقة وأكثر غارات على الناس » . ولكن القليل الذي وصل إلينا من شعره لا يكاد يصور شيئاً من ذلك ، إلا ما كان من قصيدته التي قالها وهو في سجن النمامة . ومن أروع شعره قصيدته التي رواها أبو الفرج في رثاء أخيه ، وقد مات في السجن :

ألا يا لقومي للتجلد والصبر وللقدر الساري إليك وما تدرى
وللشيء تنساه وتذكر غيره وللشيء لا تنساه إلا على ذكر

٢٦٠ - كامل بن عكرمة (٢٣١ : ١٣)

ذكره المرزباني ، ولم يعرفه بشيء ، أكثر من إيراد بيتين له :
أرى كل عام موعداً غير ناجز وخلفاً إذا ما رأس حول تجرماً
وإن أوعدت شراً أتى قبل وقته وإن وعدت خيراً أراث وأعماً^(٥)

(١) الأغاني ٢٠ : ٢٠ - ٢٢ ، ط التقدم ، القاهرة

(٢) ١٠ : ٣١٧ - ٣٢٢ .

(٣) ديوان الحماسة ١ : ٤٧٤ ، ٢ : ٣١٥ .

(٤) معجم الشعراء ، ص ٤٠٨ .

(٥) معجم الشعراء ، ص ٣٥٥ .

٢٦١ - بشر بن أبي خازم (٢٣٢ : ٢)

ترجم له ابن قتيبة ، فقال إنه من بني أسد ، وإنه جاهلي قديم ، شهد حرب أسد وطيء ، كما شهد هو وابنه نوفل بن بشر الخلف بينهما . وقد ظهر في شعره أثر هذه الخصومة بين القبيلتين ، فكان - كما يقول ابن قتيبة - يهجو أوس بن حارثة بن لام الطائي (١) .

وبشر بن أبي خازم مشهور عند نقاد الشعر بإقوائه ، هو والنابعة (٢) ، وهذا الإقواء الذي يذكره وقع في قصيدة له أوردتها المفضل الضبي ، ومطلعها :

أحق ما تقول أم احتلام أم الأهوال إذ صحبي نيام

وهي واحدة من قصائد أربعة متوالية رواها المفضل ، وهي - فيما عدا المقدمات الغزلية - في وصف ما كان بين بني أسد وخصومهم من طيء وسعد بن ضبة وبني عامر (٣) وقد قتل بشر في إحدى هذه الحروب ، قتله عمرو بن حذار ، من بني وائلة ابن صعصعة (٤) .

٢٦٢ - أبو الصلت بن أبي ربيعة (٢٣٢ : ١٦)

هو أبو أمية بن أبي الصلت ، المتقدم ذكره ، ويذكره أبو الفرج في ترجمة أمية ، فيقول : « وكان أبو الصلت شاعراً ، وهو الذي يقول في مدح سيف بن ذي يزن : ليطلب الثأر أمثال ابن ذي يزن إذ صار في البحر للأعداء أحوالا » (٥)

وهذا البيت من قصيدة أوردتها ابن هشام (٦) ، منسوبة إلى أمية ، وأجدراً أن تكون لأبيه . كما ينسب الجاحظ البيت المذكور هنا له ، وهو من هذه القصيدة أيضاً .

(١) الشعر والشعراء ص ٢٢٩ ط دار أحياء الكتب العربية .

(٢) الموشح للمرزباني . ص ٥٩ ط السلفية ، ١٣٤٣ هـ .

(٣) المفضليات ، ص ٦٠ - ٧٠ .

(٤) معجم الشعراء للمرزباني ، ص ٢٢٢ .

(٥) الأغاني ٤ : ١٢٠ .

(٦) السيرة لابن هشام ١ : ٤٢ - ٤٣ .

٢٦٣ - عدى بن زيد (٢٣٣ : ٥)

يصفه أبو الفرج في ترجمته له بأنه «شاعر فصيح من شعراء الجاهلية ، وكان نصرانياً ، وكذلك كان أبوه وأمه وأهله ، وليس ممن يعد من الفحول ، وهو قروي . ويذكر عن ابن الأعرابي قصة اتصاله بكسرى ، وأنه كان أول من كتب بالفارسية في ديوان كسرى ، إلى آخر ما يحكى من قصة حياته ، وهي قصة طريفة مثيرة ، يتخللها شعر عدى .

ورأى النقاد العرب في هذا الشعر يتلخص فيما يروى عن الأصمعي وأبي عبيدة : إذ يقولان : «عدى بن زيد في الشعراء ، بمنزلة سهيل في النجوم : يعارضها ولا يجرى مجراها»^(١) .

٢٦٤ - خدش بن زهير (٢٣٣ : ١٣)

هو خدش بن زهير بن ربيعة ، من عامر بن صعصعة ، كما نسبه الأمدى^(٢) . أحد الشعراء الفرسان في الجاهلية . وقد ذكره ابن سلام في الطبقة الخامسة^(٣) ، وروى عن أبي عمرو أنه أشعر في قريظة الشعر من لبيد ، وأبى الناس إلا تقدمه لبيد . وكان يهجو قريشاً ، ويقال إن أباه قتله قريش أيام الفجار .

وقد أورد له ابن سلام قطعيتين في هجاء قريش ، من إحداها البيت الذى أوردته الجاحظ هنا .

كما أن له بيتين في جميل والحارث ابني معمر ، وردا في «المؤتلف والمختلف» عن أنساب قريش للزبير بن بكار^(٤) .

٢٦٥ - عبد الله بن همام السلولى (٢٣٣ : ١٥)

ذكره ابن سلام في الطبقة الخامسة ، من طبقات الشعراء الإسلاميين . ووصفه بقوله :

(١) الأغاني ٢ : ٩٧ - ١٤٦ .

(٢) المؤتلف والمختلف ، ص ١٠٧ .

(٣) طبقات الشعراء ، ص ٥٣ - ٥٤ . ص ١١٩ ، دار المعارف ، ١٩٥٢ .

(٤) المؤتلف والمختلف ص ٧٣ .

« كان عبد الله بن همام رجلاً له جاه عند السلطان، ووصله بهم، وكان سريعاً في نفسه، وله همة تسمو به، وكان عبد آل حرب مكيناً حظياً فيهم، وهو الذي حدا يزيد بن معاوية على البيعة لابنه معاوية». ثم ذكر بعد ذلك قصيدة له في رثاء معاوية بن أبي سفيان، والحض على البيعة لمعاوية بن يزيد^(١). وقد أورد له الجاحظ قطعة أخرى في رثاء يزيد كذلك^(٢). وشعره فيما عدا ذلك مفرق في كتب الأدب كالبيان والتبيين والحيوان وعيون الأخبار والكامل^(٣). وقد عاش كما يقول أبو عبيد إلى أيام سليمان أو بعده^(٤).

٢٦٦ - فائد بن حبيب (٢٣٦ : ١٠)

ذكره المرزباني فسرده نسبه، ثم قال إنه كوفي إسلامي معروف، ولم يزد^(٥).

٢٦٧ - ابن داره (٢٣٦ : ١٢)

ذكره أبو الفرج، فقال إنه عبد الرحمن بن مسافع بن داره، من شعراء الإسلام، من غطفان. وقد أكثر في هجاء بني أسد، لأنها أخذت نديمه السمهرى العكلى، وكان متهماً في حادث قتل، فبعثت به إلى السلطان، فقتله، وقد ظفرت بنو أسد أخيراً بعد الرحمن بن داره، فقتله واحد منهم^(٦).

٢٦٨ - البراء بن ربيعى (٢٣٧ : ١)

لعله شاعر إسلامي، كما قد يؤخذ من سياق إيراده في هذا الموضع، ومن قول المرزباني في الكلام عن أخيه مضرس إن له خبراً مع الفرزدق^(٧). وقد ذكره الآمدي

(١) طبقات الشعراء، ص ٢٠١ - ٢٠٢. ص ٥٢٢ - ٥٢٤، ط دار المعارف، ١٩٥٢.
 (٢) البيان والتبيين ٢ : ٦٦ - ٦٧.
 (٣) انظر مثلاً : البيان ١ : ٣١١ ط ١٩٣٢ م، الحيوان ١ : ٢١٦، ٤ : ١٣٧، ٦ : ٢٣، الكامل للمبرد ١ : ٤١، ٢ : ١١، عيون الأخبار ١ : ٤١، ٥٧ - ٥٨.
 (٤) اللآلئ ص ٦٨٣.
 (٥) معجم الشعراء ص ٣١٦.
 (٦) الأغاني ٢١ : ٤٩ - ٥٧، وانظر الشعر والشعراء ١ : ٣٦٢ ط دار إحياء الكتب العربية.
 (٧) معجم الشعراء ص ٣٩٠ ط القدسي ١٣٥٤ هـ.

فقال (١) : « أبو الحناك البراء بن ربيعى الفقعسى القائل :

أبعد بنى أمى الذين تتابعوا أرحبى الحياة أم من الموت أجزع
ثمانية كانوا ذؤابة قومهم بهم كنت أعطى من أشاء وأمنع
أولئك إخوان الصفاء رزتهم وما الكف إلا إصبع ثم إصبع
لعمرك إنى بالخليل الذى له على دلال واجب لمفجع
وإنى بالمولى الذى ليس نافعى ولا ضائرى فقدانه لمتع »

وهذه القطعة من اختيارات أبى تمام فى حماسته (٢).

٢٦٩ - مضرس بن ربيعى (٢٣٧ : ١)

فأما مضرس هذا فقد كان - فيما يبدو - أشهر من أخيه البراء ، وقد وصفه الآمدى فى كلمته الصغيرة عنه بأنه « شاعر محسن متمكن » (٣). وأما خبره مع الفرزدق الذى أوما المرزبانى إليه ، كما ذكرنا ، فقد أورده أبو عبيد البكرى فى التنبيه واللائى (٤).

وأما شعره فقد بقيت منه قطع قليلة قصيرة ، منها ما جاء فى كلام الآمدى والمرزبانى عنه ، ومنها ما يقع بين مختارات أبى تمام (٥) ، ومنها ما هومشتت متناثر فى الكتب المختلفة ، كلذى جاء منه فى معجم البلدان فى سياق الكلام عن هذا الموضوع أو ذاك ، لأنه ورد فى هذه القطعة أو تلك من شعره (٦).

وجملة القول فى الشعر أنه شعر بدوى ، تظهر فيه المثل العربية الخالصة ، فى المعانى والصور ، وفى الديباجة المحكمة .

(١) المؤلف والمختلف ص ٨٦ ، ط القدس .

(٢) ديوان الحماسة ١ : ٣٥٧ ، ط ١٣٣٥ .

(٣) المؤلف والمختلف ص ١٩١ .

(٤) التنبيه على أوهام أبى على فى أماليه ، ص ١٢١ ، ط دار الكتب المصرية ، ١٩٢٦ م ،

واللائى فى شرح أمالى القائل ، ص ٨٥٩ ، ط لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٣٦ م .

(٥) ديوان الحماسة ٢ : ٣٦ ، ٣٠٣ ، ط ١٣٣٥ .

(٦) انظر ٢ : ٤١٣ ، ٣ : ٧٢ و ٦ : ٣٥٦ ، ط السعادة ، ١٩٠٦ ، فى الكلام عن « تنانير »

و « جراميز » و « فردوس » . ويبدو أن هذه القطع الثلاث أجزاء قصيدة واحدة .

٢٧٠ - أعشى تغلب (٢٣٨ : ١٣)

أحد الأعاشي الذين استقصاهم الآمدي ، وقد ذكر أن اسمه نعمان بن نجوان ، أو ربيعة بن نجوان ، من جشم بن بكر ، وقد أورد له قطعاً من الشعر ، يذكر في إحداها عشا ، ولعله من أجلها لقب بالأعشى .
وهو شاعر إسلامي ، شارك بشعره في الحروب التي كانت بين قيس وتغلب .
وقد أشار الآمدي إلى قصيدة له مدح بها مسلمة بن عبد الملك ، وقال إنها من نادر الشعر ، وأورد أبياتاً منها^(١) .

٢٧١ - عمران بن عصام (٢٣٩ : ١٠)

ذكره الجاحظ بقوله : « ومن الشعراء الخطباء عمران بن عصام العتري . وهو الذي أشار على عبد الملك بخلع أخيه عبد العزيز ، والبيعة للوليد بن عبد الملك ، في خطبته المشهورة ، وقصيدته المذكورة . وهو الذي لما بلغ عبد الملك قتل الحجاج له ، قال : ولم قتله ؟ ويله ! هلا رعى له قوله فيه :

وبعثت من ولد الأغر معتب صقراً يلوذ حمامه بالعرفج
فإذا طبخت بناه أنضجتها وإذا طبخت بغيرها لم تنضج
وهو الخزبر ، إذا أراد فريسة لم ينجها منه صياح الهجيج »^(٢)

٢٧٢ - ذو الرمة (٢٤٠ : ٣)

أبو الحارث غيلان بن عقبة بن نهيس . شاعر مضرى ، إسلامي ، بدوى ، عده ابن سلام في شعراء الطبقة الثانية من الاسلاميين ، وشعره بدوى الديباجة ، يصنعه على غرار الشعر الجاهلي . وقد حكم عليه أبو عمرو بن العلاء بأنه كنتقط عروس يضمحل عن قليل ، وأبعاد طباء لها مشم في أول شمها ، ثم تعود إلى أرواح البحر .
وكان ذو الرمة في عهد الخصومة بين جرير والفرزدق ، وكان هواه مع الفرزدق ، وقد شرح ابن سلام موقفه شرحاً كافياً^(٣) .

(١) المؤلف والمختلف ، ص ٢٠ .

(٢) البيان والتبيين ١ : ٥٦ - ٥٧ ، ط مصطفى محمد ، ١٩٣٢ م . (١ : ٤٨ ط لجنة التأليف) .

(٣) طبقات الشعراء ص ١٨٦ - ١٩٠ (ص ٤٦٩ - ٤٧٤ ط دار المعارف) .

٢٧٣ - ابن أعيان (٢٤١ : ٥)

هو صخر بن أعيان الأسدي ، أحد بني أعيان بن طريف بن نصر بن قعين ، كما يذكره أبو عبيدة ، فيما يروى أبو الفرج ، وقد ذكره في خلال ترجمته للحطيئة ، والأبيات التي يذكرها الجاحظ هنا ، أوردها أبو الفرج ، وقد قالها ابن أعيان ردّاً على شعر قاله الحطيئة ، بعد أن سقاه شربة لبن^(١).

٢٧٤ - مزرد بن ضرار (٢٤٣ : ٤)

هو يزيد بن ضرار ، شاعر جاهلي من غطفان ، وهو أخو الشماخ ، وأشبه أخويه به في الشعر ، كما يقول ابن سلام^(٢). ويصفه المرزباني بأنه كان هجاءً خبيث اللسان^(٣) ويشهد بهذا شعره الذي جاء في المفضليات في هجاء زرع بن ثوب ، في القصيدة التي أولها :

ألا يالقوي ، والسفاهة كاسمها أعائدتى من حب سلمى عوائدى

وقد أدرك الإسلام ، وأسلم ، وهو يعد في الصحابة .

٢٧٥ - النابغة الجعدي (٢٤٣ : ١٠)

أبو ليلي ، حبان بن قيس بن عبد الله ، من بني جعدة بن كعب ، من عامر بن صعصعة . شاعر مخضرم ، يعد في الصحابة . ويبدو أن معظم شعره قاله في الإسلام . ويروى أبو الفرج عن أبي عبيدة أنه كان ممن فكر في الجاهلية ، وأنكر الخمر والسكر ، وهجر الأوثان والأزلام ، وكان يذكر دين إبراهيم والخنيفية .

وكان في البصرة في ولاية أبي موسى الأشعري عليها ، ووقع بينه وبينه شر ، فهجاه ، ولما خرج على إلى صفيين خرج معه ، وقال الشعر يمدحه . وبعد مقتل على واستقامة الأمر للأمويين لم يصابنهم ، وإنما يروى أنه جاهر معاوية بالخصومة ، فسيره معاوية

(١) الأغاني ٢ : ١٧٢ .

(٢) طبقات الشعراء ، ص ٤٧ - ٤٨ . ص ١١١ ، ط دار المعارف ، ١٩٢٥ .

(٣) معجم الشعراء ، ص ٤٩٦ .

إلى أصبهان مع أحد ولاتها ، فمات فيها .

ومن الأحداث الأدبية في حياة النابغة مهاجاته أوس بن مغراء ، فاجتمعا في المربد ، وتنافرا وتهاجيا وحضرتهما الشعراء ، وقد أعان الأخطل على النابغة ، وقد غلب أوس عليه . ثم مهاجته لليلى الأخييلية ولم تكن أول الأمر بينه وبينها ، وإنما كان الخصومة بينه وبين « ابن الحيا » فتدخلت ليلى بينهما ، فغلبته أيضاً .

أما شعره من الناحية الفنية ، فتروى فيه كلمة للفرزدق ، قال : « كان صاحب خلقان ، عنده مطرف بألف ، وخمار بواف »^(١) .

٢٧٦ - الخنساء (٢٣٤ : ١٣)

هي تماضر بنت عمرو بن الحارث بن الشريد ، يعدها ابن سلام في طبقة شعراء المرثي^(٢) ، وقد اشتهرت بمراثيها التي قالتها في أخويها : صخر الذي قتلته بنو أسد ، ومعاوية الذي قتلته بنو مرة بن غطفان ، وهي أم عباس بن مرداس الشاعر المخضرم الذي سخط عطاء الرسول ، وقال في ذلك شعره المشهور^(٣) .

وقد ترجم لها أبو الفرج^(٤) ، كما أن لها ديوان شعر مطبوعاً .

٢٧٧ - معدان بن جواس (٢٤٤ : ١)

شاعر كندى سكوني ، وإنما كان له حلف في ربيعة ، كما يقول المرزباني . وهو شاعر مخضرم نزل الكوفة . وكان نصرانياً ، فأسلم في أيام عمر بن الخطاب ، وقام الزبير ابن العوام بأمره ، فدحه^(٥) .

وهذا الشعر الذي رواه الجاحظ هو من شعره في الجاهلية ، وقد قاله - على ما جاء في شرح ديوان الحماسة - للنعمان بن المنذر ، يتبرأ لديه مما آتهم به ، من أنه هو الذي أتلذرت تميماً حين أراد النعمان أن يغير عليها ، فهزمته .

(١) الأغاني ٤ : ١ - ٣٤ ، الإصابة ٣ : ٣٥٧ .

(٢) طبقات الشعراء ، ص ٨٢ . ص ٤٦٩ ، ط دارالمعارف .

(٣) اللال ، ٣٢ ، تاريخ الأمم والملوك ٣ : ١٣٧ .

(٤) الأغاني ١٣ : ١٣٦ - ١٥٠ .

(٥) معجم الشعراء ، ص ٤٠٧ .

٢٧٨ - ابن سيحان (٢٤٤ : ١٠)

هو عبد الرحمن بن سيحان بن أرطأة ، من محارب بن خصفة . وقد كان آل سيحان حلفاء حرب بن أمية ، ومن ذلك كان عبد الرحمن هذا مع بني أمية كواحد منهم - كما يقول أبو الفرج - لا أن اختصاصه بآل أبي سفيان وآل عثمان خاصة كان أكثر ، وخصوصه بالوليد بن عثمان ومؤانسته إياه أزيد من خصوصه بسائرهم ، لأنهما كانا يتنادمان على الشراب ، وإلى جانب هذا كانت صلته قوية بسعيد بن العاص .
 وشعر ابن سيحان يجمع الرقة والجزالة ، كمعظم الشعر المدني لذلك العهد .
 أما هذا الشعر الذي أورده الجاحظ هنا فقد حكى أبو الفرج قصته في هذه الترجمة (١) .